المنزل الصيفي

هيرمان كوخ

ترجمة: محمد عثمان خليفة

روايات مترجمة

مكتبة ٣٣٤

العربي للنشر والتوزيع

مكتبة | 334

المنزل الصيفي

المنزل الصيفي
تأليف: هيرمان كوخ

ترجمة: محمد عثمان خليفة

الطبعة الأولى: 2017
رقم الإيداع: 7597/ 2017
الترقيم الدولي: 9789773193355

الغلاف: خالد شريف
تحرير: إيزيس عاشور
مراجعة لغوية: محمد حامد بكر

© جميع الحقوق محفوظة للناشر
60شارع القصر العيني - 11451 - القاهرة
ت 27921943 - 27954529 فاكس 27947566
www.alarabipublishing.com.eg

مكتبة ٢٠١٨١٢١٨

***Zomerhuis met zwembad*©*2011* by Herman Koch
Origalnally published by Ambo | Anthos Uitgevers, Amsterdam

هيرمان كوخ

المنزل الصيفي

رواية من هولندا

مكتبة | 334

ترجمة: محمد عثمان خليفة

telegram @ktabpdf

العربي للنشر والتوزيع

تم نشر هذا العمل بدعم من المؤسسة الهولندية للآداب

Nederlands letterenfonds dutch foundation for literature

بطاقة فهرسة

كوخ، هيرمان؛ 1953 -

المنزل الصيفي: رواية من الأدب الهولندي/ هيرمان كوخ، ترجمة محمد عثمان خليفة.

- القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، 2017،.. ص؛.. سم.

تدمك 9789773193355

1- القصص الهولندية

أ- خليفة، محمد عثمان (مترجم)

ب- العنوان 839.313

1

أنا طبيب..

أعمل في عيادتي من الثامنة والنصف صباحًا إلى الواحدة من بعد الظهر. وآخذ وقتي مع كل مريض. ربما ثلث الساعة لكل مريض أو مريضة. وميزتي تكمن في تلك الدقائق العشرين. فالناس تقول: أين نجد في هذه الأيام طبيبًا يخصص لك عشرين دقيقة؟ وهكذا يتطوعون بصنع اسمي وسمعتي. عرف الناس أنني لا أفحص كثيرًا من المرضى في اليوم الواحد. وأنني أحرص على أن أمنحهم الوقت الكافي. وهكذا صارت لديَّ قائمة حجز وانتظار. ولو حدث وتوفي مريض مسجل لديَّ أو انتقل من منطقتي، فكل ما عليَّ هو أن أرفع سماعة التليفون، وفي لحظات يكون لديَّ مكانه خمسة أسماء جديدة.

وبما أن المريض لا يفرق بين الوقت والاهتمام. هو يعتقد أنني أمنحه اهتمامًا أكبر مقارنة بزملائي الأطباء. ولكن الحقيقة هي أن كل ما يحصل عليه هو مزيد من الوقت ليس إلا. فأنا أعرف ما يعاني منه خلال أول ستين ثانية. وأتظاهر خلال التسع عشرة دقيقة المتبقية بمنحه مزيدًا من الرعاية والاهتمام والتعاطف. يمكنك أن تقول إنني بارع في ترسيخ وهم الاهتمام. أطرح كل الأسئلة المعتادة؛ أسأله عن صحة الأولاد أو البنات، وعما إذا كان ينام جيدًا أم يعاني من الأرق. هل تأكل قليلًا.. أم كثيرًا؟

أضع السماعة على ظهره، ثم على صدره، وبطنه. خذ نفسًا عميقًا.. هكذا. أخرج النفس بطيئًا خفيفًا. والحقيقة أنني لا أستمع له. أو أحاول ألا أستمع له.

telegram @ktabpdf

لجميع أجساد البشر الصوت نفسه من الداخل. أول تلك الأصوات هو نبض القلب بالطبع. والقلب أعمى. ليس سوى مضخة. وهو مثل غرفة المحرك. فغرفة المحرك هي التي تدير الآلة، ولكن ليس شرطًا أن تديرها على نحو مضبوط. ثم هناك صوت الأمعاء. وصوت الأعضاء الحيوية. وصوت الكبد المتضخمة المختلف عن تلك السليمة. فالمريضة تئن.. وتتوسل. تستجدي يوم راحة مما تكابده. تمتنع فيه عن استقبال كل تلك القمامة. الكبد المريضة أشبه بمطبخ في مطعم لا يغلق أبوابه أبدًا. تتكوم فيه الأطباق والصحون. ويعمل فيه غسالو الأطباق بكل عزم وجدية. ورغم ذلك تتزايد كومة الأطباق وتكبر وتتضخم. تحلم الكبد المريضة بيوم راحة لا يأتي قطعًا. ومع حلول عصر كل يوم، عند الرابعة والنصف أو الخامسة (وأحيانًا أبكر من ذلك)، يتحطم ذلك الحلم. ولو كانت الكبد محظوظة بعض الشيء، فإنها في البداية تستقبل البيرة وحدها. فأغلب الشغل على البيرة يكون في الكليتين. ولكن من قال إن البيرة وحدها تكفي؟! صاحبنا يطلب إلى جوارها كأس جين، أو فودكا، أو ويسكي. شراب في جرعة واحدة. ومهما حاولت الكبد أن تتظاهر بالعكس، إلا أنها في النهاية تتمزق إربًا. ثم تتليف، وكأنها إطار منفوخ عن آخره. وبالتالي تكون في انتظار شكة الدبوس.

أسمع من خلال سماعتي. أضغط على البقعة الصلبة في البطن أسفل الجلد. هل تشعر بألم؟ لو أنني ضغطت أكثر لانفجرت الكبد الآن، هنا، داخل عيادتي. ولا يمكن أن أسمح بهذا. تلك فوضى عارمة. سوف يتدفق الدم كأنه موجة عاتية. ولن تجد طبيبًا يقبل أن يموت مريض داخل عيادته. يموت في منزله، كما يشاء. ذلك أفضل، في غرفته، ساعة منتصف الليل، على سريره. تلك قصة أخرى. وفي حالة انهيار الكبد التام لن يتمكن حتى من الاتصال بي تليفونيًا. وسوف تصل إليه سيارة إسعاف بكل تأكيد.. بعد فوات الأوان.

صرت تعرف الآن أن بين كل مريض ومريض عشرين دقيقة. وعليك أن تعرف أن عيادتي في الطابق الأرضي من منزلي. يأتونني إما متعكزين أو في كراسي متحركة. بعضهم بدين للغاية، وآخرون متقطعو الأنفاس. وجميعهم عاجز عن صعود أي سلم. لو أردت أن تنال من أحدهم لأجبرته فقط على صعود بضع درجات. ومنهم من يتخيل أن أمرًا كهذا كفيل بالقضاء عليه: أن ساعته الأخيرة تتجسد في تلك العتبة التي عليه أن يصعدها. غالبية مرضاي من هذه النوعية. وغالبيتهم لا يعانون من شيء. يتأوهون ويئنون، ويصيحون ويصرخون وكأن ملاك الموت يقف أمامهم عاقدًا ساعديه في صبر خلال كل ثانية من ثواني حياتهم. ما إن يدخل المريض مكتبي حتى يلقي بجسده فوق المقعد مع تنهيدة عميقة - ولكنني لا أجد فيه شيئًا يذكر. أتركه يثرثر ويشكو من كل أنواع الأوجاع. وجع هنا.. ارتعاشة هنا.. اختلاجة هناك.. وما عليَّ إلا أن أمثل دور المتعاطف المشفق. والحقيقة أن عقلي يكون هائمًا مع تلك الشخبطة التي أبدعها فوق الورقة أمامي.،وبعد أن يخرس، أطلب منه أن ينهض ويتبعني إلى سرير الفحص. أحيانًا ما أطلب منه أن يخلع ملابسه وراء الستار قبل أن يرقد فوق السرير، ولكنني أفضل ألا أفعل ذلك في أغلب الأحيان. الجسد البشري فظيع بما فيه الكفاية، حتى وهو يتخفى أسفل تلك الملابس. ولا رغبة لي في أن أراه عاريًا، خاصة تلك الأجزاء التي لا تعرف ضوء الشمس. ناهيك عن طيات الجلد السمين الساخنة التي بنت فيها البكتيريا أعشاشها، وما بين الأصابع، حيث العفن والفطريات، وأسفل الأظافر، والأصابع التي لا يتوقف عن الهرش فيها حتى تتفصد منها الدماء.. هنا يا دكتور: "هذه المنطقة تؤلمني بشدة".. كلا، بالطبع لا أود رؤية كل هذا. أتظاهر بأنني أفحصها، بينما عقلي ونظري مشغولان بخيالات أخرى. أنقل عقلي إلى مقعد في عربة ملاهٍ، أو إلى داخل سيارة على مقدمتها تنين أخضر برأس عملاقة. ألمح بطرف عيني أطراف الشعر أسفل

البطن، أو بقاع عدوى جلدية لن ينمو فيها الشعر ثانيةً أبدًا، وعندئذٍ أطير بعقلي وخيالي إلى داخل طائرة تنفجر في الجو. وتتطاير المقاعد بركابها في رحلة سماوية نهايتها محتومة: الهواء من حولهم بارد، والأكسجين قليل، والمحيط أسفلهم ينتظرهم بكل نهم وشغف. "أشعر بحرقان في البول يا دكتور.. وكأنني أتعرض لوخز إبر"، هذه المرة أنا في قطار ينفجر قبل دخوله المحطة بثوانٍ. أو في مكوك الفضاء "كولومبيا" الذي انفجر وتحطم إلى مليون قطعة. أو قائد الطائرة الثانية التي دخلت في البرج الجنوبي في نيويورك. "أشعر بحرقان هنا يا دكتور.. هنا..".

أطلب منه أن يرتدي ملابسه، فقد رأيت منه ما فيه الكفاية. سوف أكتب لك روشتة. عندئذٍ لا يخفي بعض المرضى خيبة أملهم: روشتة؟ يقف لي مكانه لثوانٍ، يحدق في شاردًا، وقد نسي أن يرفع سرواله الداخلي الذي لا يزال في الأسفل عند كعبيه. إنه استأذن من عمله هذا الصباح، ويريد أن ينال مني ما يستحق كل هذا الوقت والمال الضائع، حتى ولو كان أغلب هذا المال ذاهبًا إلى التأمين الصحي. وكأنه ينتظر من الطبيب أن يمد يده في جوفه فيخرج الشيء الذي يؤلمه، قبل أن يريه إياه بين أصابعه. أو يدخل إصبع واحدة على الأقل، في أي فتحة من جسده. الرجل يريد فحصًا وكشفًا بحق وحقيقة. لا يقتنع بأن من أمامه طبيب يمتلك سنوات من الخبرة، وقادر بنظرة عين أن يعرف ما يعاني منه المريض الواقف أمامه. ولم لا، فقد مرت عليه مئة ألف حالة مماثلة. والخبرة تقتضي أنه لا يحتاج مع الحالة مئة ألف وواحد إلى ارتداء قفاز مطاطي ليفحص وينقب.

ولكن أحيانًا ما لا يكون باليد حيلة. وأحيانًا ما أجد نفسي متورطًا في كل شيء بتفاصيله. وعادةً ما يكون ذلك بإصبع أو إصبعين، ويمتد في بعض الأحيان ليشمل اليد كلها. وعندئذٍ، أرتدي القفاز المطاطي.. "نم على جانبك، لو

سمحت".. وهذه بالنسبة للمريض هي نقطة اللا عودة. ها هو على وشك أن يتلقى فحصًا داخليًا حقيقيًا، ولكن الميزة أنه لم يعد يراني. لن يرى مني سوى يديَّ، بينما أرتدي القفاز. ويسأل نفسه عن سبب إهماله للأمور حتى وصلت إلى هذا الحد. وما إذا كان بالفعل يرغب في مثل هذا الفحص. وأنا أغسل يديَّ قبل أن أرتدي القفاز. والحوض قبالة سرير الفحص، وهكذا يكون ظهري له وأنا أغسلهما جيدًا بالصابون. وآخذ وقتي، وأشمر أكمامي. وأشعر بعيني المريض تحدقان في ظهري. أترك الماء يتدفق فوق معصميَّ. أغسل اليدين جيدًا، ثم الساعدين، حتى المرفقين. يطغى صوت الماء المتدفق من الصنبور على كل صوت آخر، ولكنني أعلم أنه ما إن أصل إلى المرفقين حتى تتصاعد أنفاس المريض وتتسارع. إما أن تتسارع لبضع ثوانٍ، أو أن تخمد تمامًا. ها هو فحص باطني على وشك أن يبدأ. هذا ما أصر عليه المريض، بوعي منه أو من دون وعي. لم يكن لديه استعداد لأن يتلقى الروشتة ويرحل عن العيادة وحسب. ولكن شكوكه تتزايد الآن. لماذا يغسل الدكتور يديه وذراعيه ويعقمهما؟.. حتى المرفقين؟ أكاد أشعر بجزء من جسد المريض وهو ينقبض ويتقلص. رغم أن المطلوب منه في هذه اللحظات هو الاسترخاء التام. فالاسترخاء أساس أي فحص باطني سلس وناجح.

الآن، أستدير وأنا أجفف يديَّ، وساعديَّ، ومرفقيَّ. ما زلت أتحاشى النظر إلى المريض، وأنا ألتقط زوج من القفازات البلاستيكية من الدرج. أفتح الكيس، وأخرج القفاز، ثم أضغط على فتاحة سلة المهملات بقدمي لينفتح الغطاء، قبل أن أرمي الكيس في داخلها. والآن فقط، وأنا أرتدي القفاز، أنظر إلى المريض. أجد نظرة عينيه.. كيف أصف لك هذا.. نظرة عينيه مختلفة عن تلك التي كانت قبل أن أشرع في غسل يديَّ.. "نم على جانبك"، هكذا أبادره قبل أن يبدأ في التعبير عن ندمه واعتذاره. صار وجهه إلى الحائط. أؤكد لك مجددًا أن الجسد البشري

العاري معيب ومشين، وخاصة عندما يكون البنطلون واللباس الداخلي متدليين حتى كعبيك. كم هو مسكين عديم الحيلة. ساقان وحذاءان وجوربان، ويجمع بين كل هذا بنطلون ولباس داخلي. وكأنه سجين مقيد بالسلاسل. فلا أحد يمكنه أن يهرب ويركض وهو على هذا الوضع. وبوسعك أن تخضعه وهو في هذا الوضع لفحص الباطنة، وكذلك بوسعك وبكل سهولة أن توجه لصدغه لكمة ساحقة. أو أن تخرج مسدسك وتفرغ رصاصاته في السقف، فيموت هو من الرعب. سمعت تلك الأكاذيب السخيفة آلاف المرات! ولسوف أعد حتى ثلاثة: واحد.. اثنان.. "استرخِ تمامًا"، نبهته مجددًا. ضبطت القفاز في يديَّ. صوت مطاط القفاز يذكرني دائمًا ببالونات الحفلات. بالونات عيد الميلاد. تنفخها طوال الليلة السابقة حتى تفاجئ بها ابنك في عيد ميلاده وتسعده. ولكن هذا الصوت هنا لا يبعث على السعادة نوعًا ما. المهم أن تحافظ على انتظام تنفسك وهدوئه. لا يزال المريض واعيًا لوجودي واقفًا خلف جسده العاري، ولكنه لم يعد يراني. حان أوان إخضاع هذا الجسد، أو الجزء العاري منه على الأقل، لمزيد من الفحص.

أنا حتى تلك اللحظة أفترض أن المريض الراقد أمامي رجل. ففي دروس التشريح أو في التمرين، كانوا يأتون برجل ليرقد فوق الترابيزة وقد تعرى النصف السفلي منه. أما السيدات فتلك قصة أخرى؛ وسوف أحكي لك عن السيدات بعد قليل. التفت الرجل قليلًا نحوي، ولكنه - كما قلت لك من قبل - غير قادر على أن يراني جيدًا.. "استرخِ ولا تحرك رأسك". كل ما عليك فعله يا رجل هو أن تسترخي.. وحسب. لم يعرف المريض أنني أنظر الآن إلى النصف السفلي العاري من جسده. وكنت قد نبهته مسبقًا إلى أن ما سأقوم به سيضايقه قليلًا. أما ما بين التنبيه والإحساس المزعج نفسه، فلا شيء. هذه هي اللحظة الخاوية. أشد اللحظات خواءً في مدة الفحص كلها. تمر الثواني في صمت، مثل ساعة يتحرك بندولها من دون صوت. أو مثل أصابع البيانو في

فيلم صامت. لم يحدث أي اتصال مادي بعد. ألمح على الخصر العاري أثر أستيك اللباس الداخلي على الجلد. خطوط حمراء متقاربة ودقيقة وتصنع مع بعضها تلك الحلقة حول الخصر. وأحيانًا ما أرى بثورًا أو شامات. وغالبًا ما يكون الجلد نفسه شاحب اللون إلى حد غير طبيعي، فهي بقعة من الجسد نادرًا ما تتعرض للشمس. ولكن الشعر موجود دائمًا. وكلما نزلت عيناي إلى الأسفل كلما زادت مساحة وغزارة الشعر. وأنا أعسر. لذلك أضع يدي اليُمنى على كتف المريض. أشعر من خلال مطاط القفاز بتوتر جسده. جسده كله مشدود متوتر. هو يرغب في الاسترخاء، ولكن غريزته تغلبه. جسده يحاول أن يحمي نفسه. يريد مقاومة ذلك الغزو الخارجي القادم.

الآن، صارت يدي اليسرى في الموضع الذي ينبغي أن تكون فيه. والآن يشهق المريض فاتحًا فمه، مباعدًا بين شفتيه، وتخرج منه آهة بينما أدخل إصبعي الوسطى. لا هي آهة، ولا هو أنين. "خذ الأمور ببساطة"، أطمئنه. سينتهي كل شيء خلال دقيقة. أما أنا فأحاول ألا أفكر في أي شيء بعينه، ولكنها مهمة صعبة في كل مرة. هكذا فكرت في تلك الليلة التي وقع خلالها مفتاح دراجتي في الطين وسط ملعب كرة القدم. كانت رقعة من الطين لا تزيد مساحتها على متر مربع، وكنت متيقنًا من مكان سقوط المفاتيح. أسأله: "أيؤلمك؟". الآن ينضم إصبع السبابة إلى الوسطى. سيسهل علي استخدام الإصبعين العثور على المفتاح. قليلًا.. قليلًا.. أين؟ هنا؟ أم هنا؟ كان الجو ممطرًا، وبقيت بعض المصابيح الكاشفة تضيء الملعب، ولكن البقعة التي أقف فيها مظلمة بعض الشيء. في العادة تكون البروستاتا. سرطان فيها، أو مجرد تضخم. وعادةً ما لا يكون لديك الكثير لتقوله عقب أول فحص. بوسعي أن أرحل عن الملعب الآن، وأعود في النهار لأجد المفتاح. ولكن أصابعي هناك بالداخل فعلًا، والوحل في أظافري، ولا معنى للتوقف عن البحث الآن. أووه! "أشعر بألم هنا يا دكتور!

بشع.. بشع!.. أنا آسف.. لكنه.. بشع!" في ذلك الجزء من الثانية، شعرت إصبعي بشيء جامد وسط تلك اللزوجة. احترس، ربما كانت قطعة زجاج.. رفعته إلى النور، باتجاه تلك الكشافات حول الملعب، ولكنني كنت أعرف بالفعل ماهيته. إنه يلمع.. إنه هو.. المفتاح.. لن أضطر إلى العودة لمنزلي مشيًا. ومن دون أن أنظر إلى يدي، أنزع القفاز المطاطي وألقي به داخل سلة المهملات. "يمكنك أن تنهض الآن.. انتهيت". "يمكنك أن ترتدي ملابسك". لكن النتيجة الأكيدة للفحص لن تظهر الآن. هذه الأخيرة لم أقلها له.

ثمانية عشر شهرًا.. هي المدة التي مرت على آخر مرة ظهر فيها "رالف ماير" في غرفة الانتظار في عيادتي. تعرفت عليه فورًا بالطبع. طلب أن يتحدث معي لدقيقة.. وأكد أن ليس في الموضوع أي طارئ. ولما كنا في مكتبي، تحدث في الموضوع مباشرة. كان يريد أن يتأكد من صحة معلومة، ذكرها له فلان، وكذلك علان، وهي أنني أحيانًا ما أكتب روشتة من دون فحص. ثم وجدته يتلفت حوله في ارتياب، وكأن مكتبي ملغم بأجهزة التنصت. أما فلان وعلان فكانا من ضمن مرضاي. ومعروف أن المرضى يحكون لبعضهم البعض كل شيء، ولهذا السبب صار "رالف ماير" من ضمن مرضاي. أخبرته أن الحالة التي أمامي هي التي تحكمني. وقلت له إن عليّ أن أطرح عليه مجموعة من الأسئلة عن صحته في العموم، حتى لا نتفاجأ بأي شيء غير متوقع لاحقًا. وطمأنته أنني بعد ذلك، وإذا كان كل شيء على ما يرام، لن أجد مانعًا في أن أمنحه ما يريد.

ثمانية عشر شهرًا.. والآن "رالف ماير" متوفى. وفي صباح الغد أقف أمام مجلس التأديب الطبي. ليس بسبب الروشتة التي أعطيتها له حينذاك، ولكن بسبب أمر آخر، حدث بعد ذلك الموقف بستة أشهر. يمكنك أن تصفه بكونه "خطأ طبيًا". وأنا لست قلقًا من المجلس؛ فنحن أبناء مهنة واحدة في نهاية

المطاف ويعرف بعضنا بعضًا. بل وأغلبنا كان في الدفعة نفسها. الأمر مختلف عما هو عليه في أمريكا، حيث يكون بمقدور أي محامٍ أن يدمر حياة طبيب بسبب أي خطأ في تشخيص المرض. أما هنا فلا بد أن تكون قد ارتكبت خطأً شنيعًا حتى تواجه مثل هذا الاحتمال. وحتى في تلك الحالة يكون العقاب في صورة لفت نظر، أو إنذار، أو إيقاف عن العمل لبضعة أشهر، وليس أكثر من ذلك. كل ما عليَّ هو أن أضمن أن يتعامل أعضاء المجلس مع الموقف على أنه خطأ طبي. وعليَّ أن أتحلى بالعقل وطول البال. وعليَّ أن أؤمن تمامًا - وبنسبة مئة في المئة - أن ما حدث هو مجرد خطأ طبي.

كانت الجنازة منذ يومين. عند تلك المدافن الجميلة عند النهر. ذات أشجار كبيرة عتيقة، والرياح تتلاعب بأغصان وأوراق الشجر. والطيور تغرد. فضَّلت أن أقف في المؤخرة ما أمكنني ذلك، ولكنني لم أتوقع أبدًا ما جرى بعد ذلك.

- كيف تجرؤ على الظهور هنا؟!

خيم الصمت للحظات، هدأ خلالها كل شيء، حتى الرياح. وكذلك الطيور.. سكتت.

- أنت أيها الحثالة! كيف تجرؤ! كيف تجرؤ!

وُهبت "جوديث ماير" صوتًا يمكنها أن تنافس به مغنيات الأوبرا، يسمعه القريب والبعيد بكل سهولة ويسر. وهكذا كان من الطبيعي أن ينتبه لها كل من في الجنازة. ثم تحولت كل الأنظار إليَّ. كانت تقف إلى جوار القبر المفتوح، الذي وضع فيه القائمون على مراسم الجنازة تابوت زوجها للتو.

ثم اتخذت طريقها نحوي بخطوات سريعة، مخترقة مئات المشيعين، الذين تنحوا جانبًا ليفسحوا لها الطريق. وطوال ثلاثين ثانية، لم يكن هناك صوت مسموع سوى صوت كعبها العالي فوق الحصى.

توقفت أمامي مباشرة. وأصارحك أنني كنت أتوقع أن تهوي بيدها سريعًا على وجهي، أو أن تسدد لكمات سريعة متتالية إلى قفصي الصدري. أي مشهد مسرحي مثير والسلام؛ وهي بارعة في ذلك بحق.

ولكنها لم تفعل.

نظرت إليّ طويلًا، وقد احمرت عيناها. ورددت مرة أخرى، ولكن بصوت أهدأ هذه المرة:

- حثالة!

ثم بصقت في وجهي.

2

مهمة الطبيب الممارس العام بسيطة..

ليس عليه أن يشفي الناس، بل كل ما عليه هو أن يضمن ألا يتخطوه إلى الاختصاصي والمستشفى. عيادته بمثابة معبر حدود إلزامي. وكلما كان عدد من يتوقفون عند ذلك المعبر أكبر، كان ذلك دليلًا على إجادة الممارس العام لعمله. هكذا بكل بساطة. فلو أننا نحن الأطباء من هذه الفئة سمحنا بعبور كل من يعاني من حكة، أو دمل، أو كحة إلى الاختصاصي أو المستشفى، فعندئذٍ تنهار المنظومة بأكملها. نعم، بأكملها. ونعم، هناك منظومة حددها شخص ما منذ زمن. وتوقع أن يحدث الانهيار بسرعة أكبر من أن يتوقعها أحد. ولو أن كل ممارس عام أحال أكثر من ثلث عدد مرضاه إلى الاختصاصي، فهذا نذير ببدايات انهيار المنظومة. ولن يمر أسبوع على هذا المنوال إلا وتجدها قد انهارت. فالممارس العام هو حارس بوابة المعبر. يقول لك أنها مجرد نزلة برد. راحة وعلاج لمدة أسبوع، وإذا لم تشفَ فعد إليَّ من جديد. وهكذا، وبعد ثلاثة أيام، وفي منتصف الليل، يختنق المريض بالمخاط والبلغم الذي يكون قد غزا جهازه التنفسي. فتقول أنت إن مثل هذه الأمور تحدث، وإن المسألة مسألة قسمة ونصيب، وإن ما حدث له كان مزيجًا نادرًا من عدة عوامل اجتمعت في

الوقت ذاته، وإن وفاته كانت بسبب عرض لا يصيب إلا واحدًا من كل عشرة آلاف مريض. قسمة ونصيب.

لا يدرك المريض أن الأرقام تحمل في جنباتها قوة خفية. وهكذا يأخذ دوره ضمن مرضى عيادتي. وعندما يدخل إليَّ، أمضي ثلث الساعة معه، في محاولة لإقناعه بأنه لا يعاني من أي شيء. ساعات العمل في عيادتي من الثامنة والنصف وحتى الواحدة. وهو ما يعني أنني أستقبل ثلاثة مرضى في الساعة؛ اثنتا عشر أو ثلاثة عشر مريضًا في اليوم. أنا بالنسبة للنظام، طبيب عائلي مثالي. أما الممارس العام الذي يرى أنه قادر على فحص مريضه في زمن أقل من زمني، فبوسعه استقبال أربعة وعشرين مريضًا في أي يوم معتاد. ومع رقم كهذا، تتزايد فرص أن يتسرب عدد منهم عبر ثغرات المنظومة. وللأمر علاقة بشعور المريض. فالمريض الذي لا يتحصل إلا على عشر دقائق من اهتمام الطبيب يشعر بنقص يراوده بطريقة أسرع من نظيره الذي يحصل على القدر نفسه من الاهتمام، ولكن على مدار ثلث الساعة. فهذا المريض الأخير يتيقن حينئذٍ من أن الطبيب قد اعتنى بآلامه تمام الاعتناء. وبالتالي يتضاءل احتمال أن يطلب المزيد من الفحوصات.

على أن الأخطاء تحدث، بطبيعة الحال. فلا يمكن لمنظومتنا أن توجد من دون أخطاء. والحقيقة أن منظومة مثل منظومتنا لا تعيش إلا على الأخطاء. وحتى التشخيص الخاطئ يؤدي في النهاية إلى النتيجة المرجوة. ولكن التشخيص الخاطئ لا يكون ضرورة في المعتاد. فأهم سلاح في أيدينا هو قائمة الانتظار. يكفي أن تذكر أمام المريض أن لديك قائمة انتظار. أقول للمريض إن الفحص الذي ينشده يحتاج منه إلى الانتظار ما بين ستة إلى ثمانية أشهر. ولكن علاجي هذا سيخفف كثيرًا من أعراض المرض، ويغنيك عن الدخول في قائمة الانتظار.. وهكذا يصرف نصف المرضى النظر عن موضوع الفحص. بل وأرى

الارتياح على وجوههم. وهم بعد قليل من التفكير يجدون أن حالتهم هذه أفضل من أن يخوضوا إجراءات الفحص. فلا أحد يرغب في إدخال أنبوب بحجم خرطوم مياه حديقة إلى جسده عبر فمه. خذها مني نصيحة.. ابتعد عن المنظار. الأفضل لك أن تأتيني بعد ستة أشهر.

قد تسأل نفسك هذا السؤال: كيف يمكن أن تكون هناك قائمة انتظار لدى طبيب في دولة غنية مثل هولندا؟ أنا أربط هذا الموضوع بصورة فقاعة الغاز. وخاصة أننا دولة معروفة بما لديها من احتياطيات الغاز الطبيعي. وقد طرحت هذه المسألة ذات مرة خلال جلسة غير رسمية مع الزملاء. كنا نتحدث عن قوائم الانتظار الخاصة بإجراء عمليات الحوض: كم مترًا مكعبًا من الغاز الطبيعي علينا أن نبيعه لأجل الانتهاء من هذه القائمة في غضون أسبوع؟ كيف نتخيل أن في بلادنا المتحضرة هذه يموت أشخاص قبل أن يأتي دورهم في مثل هذه القائمة؟ ولكن الزملاء قالوا لي إنه لا ينبغي لي أن أنظر للأمر على هذا النحو. فلا يمكن المقارنة بين احتياطيات الغاز وعدد عمليات الحوض المؤجلة. ولكنني أعرف أن مخزون الغاز لدينا هائل الحجم. وحتى أشد السيناريوهات تشاؤمًا تتوقع أن يكفينا احتياطي الغاز الطبيعي لستين عامًا قادمة. ستون عامًا! هذه مدة أطول من تلك التي تبقت لاحتياطي البترول في الخليج العربي. نحن في دولة غنية إذًا. نحن أغنياء مثل السعوديين والكويتيين والقطريين؛ ومع ذلك، يموت الناس لأن عليهم الانتظار فترات طويلة قبل الحصول على كلية جديدة، وتموت مواليد رُضَّع لأن سيارات الإسعاف التي تحملهم تعجز عن تجاوز الزحام المروري الفظيع، وتتعرض حياة الأمهات للخطر لأننا، نحن الأطباء العموميين، نقنعهن بأن الولادة في المنزل أكثر أمانًا. بينما الحقيقة أننا ننصحهن بذلك لأنها أرخص، ولأنه لو طالبت كل أم بحقها في أن تلد في المستشفى فلسوف تنهار منظومتنا في غضون أسبوع لا أكثر. ونحن نضع في

telegram @ktabpdf

الحسبان مخاطر أن يموت الوليد، أو يعاني من تلف في المخ بسبب نقص الأكسجين عند الولادة في المنزل، ولكننا نتمنى أن لا يحدث ذلك. وبين حين وحين، يظهر مقال في دورية طبية، وأحيانًا ما يكون مهمًا لدرجة أن تهتم الصحف الهولندية بنشر موجزًا له، ونقرأ في ذلك الموجز أن معدل وفيات المواليد في هولندا هو الأعلى في أوروبا كلها، وربما في العالم الغربي بأسره. ولكن لا أحد مستعد لأن يتحرك بغية تقليل تلك الأرقام.

الصراحة، أن لا حيلة للطبيب العام أمام كل هذه الحقائق. ولكن بوسعه أن يريح بال المريض الجالس أمامه. يعمل على ذلك، في الوقت الحاضر على الأقل، حتى لا يلجأ المريض لطلب مساعدة اختصاصي. فهو قادر على إقناع أي سيدة بأن لا خطورة على الإطلاق في الولادة في المنزل. وأن المسألة "طبيعية تمامًا". بينما الحقيقة أن الشيء الطبيعي الوحيد في الموضوع هو احتمالات الوفاة. نحن الأطباء العموميين قادرون على أن نكتب لمرضانا أقراصًا منومة، وقادرون على تخليصهم من الدمامل والبثور من خلال المركزات الحمضية، وأن نخلصهم من أظافر أصابع القدمين التي قد تنمو إلى الداخل. وهي أعمال بغيضة على النفس كما تعلم. مثلها مثل تنظيف المطبخ وأنت تستخدم إسفنجة لإزالة مواد لزجة علقت بين عيون البوتاجاز.

أرقد ساهرًا في فراشي في بعض الليالي. أفكر في فقاعة الغاز. أحيانًا ما أتخيلها فقاعة مثل تلك التي تصنعها بالصابون، والفارق فقط في كونها محبوسة أسفل القشرة الأرضية؛ وكل ما عليك هو أن تثقبها حتى تنكمش، أو تنفجر في وجهك. في أحيان أخرى، ينتشر الغاز عبر مساحة أكبر بكثير. ويتغلغل في طبقات الأرض. وتمتزج جزيئات الغاز الطبيعي في التربة. ولا يمكنك أن تشعر بذلك بحاسة الشم. ولكنك إن أشعلت عود ثقاب إلى جوارها تنفجر. تحت الأرض. وحينئذٍ يتجوف سطح الأرض، فلا يمكننا أن نقيم

الجسور أو أن نبني المنازل، ولا نجد أرضًا ثابتة ليمشي عليها الإنسان والحيوان، وتغوص مدن بأكملها في الأعماق النارية. أرقد في فراشي وعيناي تحدقان في الظلام. في بعض الأحيان تجد مشكلات بلادي طريقها إلى الأفلام الوثائقية. تتحول إلى فيلم وثائقي تعرضه "ناشيونال جيوجرافيك" عبر قنواتها، مع تزويد المادة برسوم بيانية، وأخرى جرافيكية، وثالثة متحركة، وهم بارعون في ذلك: أفلام وثائقية عن انهيار السدود، التسونامي، الانهيارات الأرضية التي تحدث فتختفي بلدات وقرى بأكملها من على الخريطة، وعن ثورات بركانية في جزر تنفض اللافا من باطنها إلى البحر، فتتسبب في موجات المد، والتي بدورها – وبعد ثماني ساعات وعلى بعد آلاف الأميال – تصل إلى ارتفاع يقارب أربعة آلاف قدم. وهكذا تعلن القناة.. "اختفاء دولة".. فيلم وثائقي نعرضه غدًا.. الساعة التاسعة والنصف مساءً.. تابعونا. إن القناة تقصد بلادنا. التي سيأتي يوم ويبتلعها احتياطيها من الغاز الطبيعي.

في المرات النادرة التي لا يغالبني فيها النوم، مثل هذه المرة، يروح تفكيري إلى "رالف ماير". ودور الإمبراطور أغسطس الذي قام به في المسلسل التليفزيوني الذي يحمل الاسم نفسه. كان الدور يناسبه تمامًا؛ وقد اتفق على ذلك محبوه ومنتقدوه على حد سواء. أولًا، بسبب بنيته الجسدية، وقوامه الغريب الذي بناه على مدار السنين. هي بدانة امتلكها بفضل المطاعم الفاخرة التي يرتادها، ونوعية ما تقدمه من أطباق حاصلة على نجمة أو نجمتين من نجمات "ميشلان". وكذلك حفلات الباربيكيو في حديقته، ومكوناتها: سوسيس من ألمانيا، ولحم ضأن من بلغاريا. أتذكر ذلك الباربيكيو كما لو كانت حفلاته بالأمس: جسده الضخم إلى جوار النار والدخان، وهو يقلب بيديه قطع الهمبرجر، والإستيك، و"الدرمستيك". وجهه الأحمر غير الحليق، وشوكة

الباربيكيو في يد، وعلبة بيرة كبيرة في اليد الأخرى. وصوته الجهوري الذي يصل إلى خارج الحديقة. يذكرني ببوقِ السفينة. ذلك الذي تستخدمه السفينة عند دخولها منطقة ضباب عند ميناء أجنبي. أتذكر الآن أن آخر حفلة شواء لم تكن منذ وقت بعيد، فلم يمر عليها أكثر من خمسة أشهر. كان المرض قد ظهر عليه حينذاك. بقي هو من يُقلِّب اللحم، ولكنه كان جالسًا إلى كرسي بلاستيكي وهو يقوم بذلك. كم تعجبت وأنا أراه على تلك الحال؛ كيف يمكن لمرض مثل هذا أن يهاجم الجسد البشري بهذا الشكل. الأمر أقرب إلى الحرب. تنقلب فيها الخلايا الفاسدة لتنهش السليمة. في البداية تهاجم الجسد من جانبيه، في مناورة خبيثة. هجوم محدود منظم ومباغت، هدفه تشتيت الانتباه عن الهجوم الرئيسي. وتعتقد أنك قد تغلبت عليه: ولكنك في الحقيقة لم تصد سوى الهجوم الأول المحدود. ولكن القوة الرئيسية للهجوم غير ظاهرة، وتبقى كامنة في الجسد، في بقعة عمياء لا يمكن لأشعة إكس أو الأشعة فوق الصوتية أو حتى الرنين المغناطيسي أن يصل إليه. فالحقيقة أنها أضحت تتجسد في المريض نفسه. وتتربص إلى أن تصل إلى كامل قوتها. وحتى يكون النصر مؤكدًا.

أذاع التليفزيون الحلقة الثالثة في الليلة الماضية. التي عزز فيها الإمبراطور سلطاته. وغير اسمه من "جايوس أوكتافيوس" إلى "أغسطس"، وهمَّش دور مجلس الشيوخ. عشر حلقات وينتهي المسلسل. ولم تلمِّح القناة إلى إلغاء أو تأجيل عرض الحلقات احترامًا لوفاة نجم المسلسل. لقد كان "رالف ماير" لائقًا في دوره، وكان الممثل الهولندي الوحيد بين مجموعة من الممثلين الإيطاليين والأمريكيين والإنجليز، وتفوق عليهم جميعًا.

أعتقد أنني كنت الوحيد الذي شاهد حلقة الليلة الماضية بعين مختلفة. عين الطبيب. سألني وقتذاك:

- هل يمكنني أن أذهب؟ مدة التصوير شهران. فلو انسحبت الآن من المسلسل ستكون كارثة بالنسبة للكل.

- طبعًا. لا تقلق. في العادة لا يتطور الأمر إلى شيء خطير سريعًا. سوف ننتظر نتائج الفحوصات. الوقت لا يزال في صالحنا.

شاهدته في الحلقة: الإمبراطور "أغسطس" وهو يتحدث إلى مجلس الشيوخ. المسلسل من إنتاج أمريكي / إيطالي، ولم يبخلوا في الصرف على جميع جوانبه. آلاف الجنود الرومان، وكتائب كاملة تهتف وتصيح من فوق التلال المحيطة بروما، وعشرات آلاف السيوف والدروع والرماح، علاوة على مئات السفن عند ميناء الإسكندرية، وسباقات عربات الخيول، ونزالات المصارعين، والكثير من الأسود القوية، وجموع الكومبارس الذين يمثلون المسيحيين المساكين. عانى "رالف ماير" من المرض في أبشع مراحله. وكان من النوع الذي يلزم التصرف حياله على الفور؛ وإلا فات الأوان. تدخُّل جراحي جذري: ضربة ساحقة ماحقة تقضي على الخلايا الخبيثة مرة واحدة. نظرت إلى وجهه وجسده على الشاشة. داخل ذلك الجسد قوة طاغية تعربد كما تشاء. كان يصيح:

- أيها الموقرون! أنا منذ اليوم الإمبراطور عليكم. أنا الإمبراطور.. "أغسطس"!

صوته جهوري، كما هي عادته.. حتى ذاك الحين على الأقل. يبدو أنه كان حريصًا على ألا يظهر عليه المرض، حتى لو كان يعاني في تلك اللحظات من تعب شديد. "رالف ماير" ممثل حقيقي فذ. بوسعه أن يتغلب في براعة التمثيل على أي ممثل كان. بل بوسعه أن يتغلب على أي شيء.. حتى ولو كان في هيئة مرض فتاك.

مكتبة

3

مع مرور الأعوام، تناقص عدد الأشخاص الطبيعيين الذين يرتادون عيادتي..
وأقصد بالأشخاص الطبيعيين أولئك الذين يعملون من الساعة التاسعة إلى الخامسة. فلا يزال لديَّ اثنان من المحامين، وصاحب جيم، ولكن أغلب مرضاي ممن يعملون في وظائف يسمونها "إبداعية". وأنا هنا لا أحصي لك الأرامل. فهناك حفنة منهم. ودائمًا ما يتبع كلمة أرملة لديَّ وصف مهنة زوجها الراحل.. أرملة كاتب، أرملة فنان، أرملة رسام.. والمعروف أن النساء يصمدن في الحياة لفترة أطول من الرجال؛ فهن من قماشة أخرى، أشد متانة. وهن يرتحن للمكوث في الظل حتى تنضج أعمارهن. ولا بأس من قضاء العمر كله في إعداد القهوة وجلب المشروبات للعبقري الذي لا يفارق الأستوديو، أو إعداد طبق من السلمون النرويجي الممتاز للكاتب الجالس إلى مكتبه، مع مراعاة الدخول إليه وهي تمشي على أطراف أصابعها. ويبدو لها ذلك عملًا حقيقيًا، رغم تفاهته. والأرملة تكبر حتى العجز. والعجز فناء. وما إن يرحل الزوج، حتى تدخل الأرملة في مرحلة فوران مباغتة، ولكن عمرها قصير. أراهنَّ هنا في عيادتي. تغرق الأرملة في الحزن والأسى، لا تبعد المنديل الذي تحمله عن عينيها، ولكنه أسى ممزوج بارتياح. والارتياح إحساس لا يمكنك أن تخفيه. أنظر إليها بعيني طبيب. وتعلمت أن أرى من خلال الدموع. كما أن من الصعب عليها احتمال مرض زوجها المزمن. وتليف الكبد مرض في غاية الإيلام والإنهاك. وكثيرًا ما

يعجز المريض به عن الوصول إلى تلك السلة القابعة جوار فراشه في الوقت المناسب؛ فيتدفق الدم من فمه ليلطخ كل شيء حوله. وتغيير ملاية الفراش والوسائد ثلاث مرات يوميًا، وكذلك البطانية التي امتلأت قيئًا وفضلات، مهمة أشد صعوبة من إعداد فنجان قهوة والتأكد من امتلاء الثلاجة بالمشروبات. وإلى متى يدوم هذا العذاب؟ تسأل الأرملة نفسها. هل سيتسنى لي الصمود حتى موعد الجنازة؟

غير أن ذاك اليوم يأتي في النهاية. الطقس جميل؛ سماء زرقاء فيها سحاب أبيض نظيف، وطيور تشدو في الأشجار، وعبق الأزهار في الأجواء. ولأول مرة في حياتها، تصير الأرملة محور اهتمام الكل. ترتدي نظارة شمس، حتى لا يرى أحد دموعها، أو هكذا يظن الجميع. والحقيقة أن هاتين العدستين الداكنتين تخفيان ما يبدو على وجهها من ارتياح. يحمل أصدقاؤه الأوفياء التابوت حتى القبر. وتتوالى الكلمات المعزية. ثم توزع المشروبات. الكثير منها. لن تجدِ قهوة في عزاء فنان، بل الكثير من النبيذ الأبيض، والفودكا، والجين. لن تجد شرائح الكيك أو فطائر اللوز مع فنجان الشاي، ولكن هناك إستاكوزا، وماكريل مدخن، وكفتة السمك. ثم ينتقل الجمع كله إلى ملاذهم المفضل. وتسمع هي عبارات أنخاب من قبيل.. "في صحتك، صديقنا العزيز، أينما كنت! أيها الوغد العجوز! أيها الجدي العجوز!"، قبل أن تتبدد كؤوس الفودكا في أجوافهم. تخلع الأرملة نظارة الشمس عن عينيها. وتبتسم. وتتألق. لا تزال الملاية التي اتسخت بالقيء في سلة الغسيل، ولكنها ستدخل في الغد في الغسالة لآخر مرة. ستكون حياتها كأرملة على هذا النحو دائمًا، هكذا تظن. سيستمر الأصدقاء في اقتراح الأنخاب لأشهر (ولسنوات!): احتفاءً بها. محور اهتمامهم الجديد. أما الذي لم تعرفه بعد فهو أنهم سرعان ما سينسون أمرها، بعد بضعة أيام من

الاتصالات التليفونية بغرض الاطمئنان والمجاملة ليس إلا. ولن يختلق الصمت الذي سيسود كل شيء بعد ذلك عن الصمت المصاحب لحياة عاشتها في الظل.

هذه هي الدنيا. ولكن الدنيا لا تخلو من استثناءات. ومن ذلك أن يزيد الغضب من قبح أرملة. في هذا الصباح سمعت جلبة عند باب مدخل العيادة. رغم أن الوقت مبكر للغاية؛ وللتو أدخلت مريضي الأول لهذا اليوم. سمعت مساعدتي تصيح:

- دكتور!.. دكتور!

صوت كرسي يرتطم بقوة على الأرض، ثم سمعت صوتًا آخر يصرخ:

- أين أنت أيها الحثالة؟.. خائف من مواجهتي؟

ابتسمت ابتسامة عريضة في وجه مريضي:

- اعذرني لحظات، من فضلك.

نهضت لأخرج. هناك ممر يربط بين مدخل العيادة ومكتبي، وعليك أن تمر من بعده على مكتب المساعدة، ثم غرفة الانتظار. يمكنك أن تسميها صالة انتظار، فهي أكبر من أن تكون غرفة؛ كما أنه لا باب يفصل بينها وبين الممر.

كنت أنظر حولي وأنا خارج. فكما قلت لك، كانت الساعة مبكرة، ووجدت ثلاثة مرضى في الانتظار، يتصفحون أعدادًا قديمة من "ماري كلير" و"ناشيونال جيوجرافيك". ولكنهم في تلك اللحظة منتبهون لما يجري، شاردين عن صفحات المجلات. كانوا يحدقون في "جوديث ماير". لم تصبح "جوديث" أجمل من بعد وفاة زوجها، وهذا توصيف مهذب للمرأة التي أراها أمامي. بشرة وجهها تحولت إلى مساحات شديدة الاحمرار وأخرى بالغة البياض، مما أكسبها مظهرًا طريفًا. وقفت مساعدتي من ورائها وهي تلوح لي بما يعني أنها عجزت عن منعها. ورأيت من خلف مساعدتي كرسيًا راقدًا على الأرض.

قلت لها وأنا أفتح ذراعي تمهيدًا لاحتضانها، وكأن رؤيتها أسعد لحظة لي في الدنيا:

- "جوديث"! بماذا أقدر أن أساعدكِ؟

ذُهلت بطريقتي لثانيتين.. ولكنها ثانيتان فحسب.

- قاتل!

تحولت عيناي بحركة لا إرادية نحو مرضاي في الانتظار: أنا أعرف كل واحد منهم. هذا مخرج سينمائي يعاني من البواسير، وذاك صاحب جاليري مريض بضعف الانتصاب، أما هذه فهي ممثلة يغيب الآن تألق وجهها، فهي تنتظر مولودها الأول، ولكنه ليس من ذلك الممثل الأشقر مفتول العضلات، غير حليق الوجه، الذي تزوجته منذ سبعة أشهر في حفل زفاف أقيم في إحدى القلاع "التوسكانية": تحمل كل تكاليفه برنامج المشاهير التليفزيوني، بعد أن ضمن حصيلة إعلانات كافية لتغطية حية لجميع مراسم الزواج وكذلك الحفل الذي أعقب المراسم. وجدتني أهز كتفي وأغمز لهم مداعبًا بما معناه أنه لا حيلة لي معها، وأن هذه حالة طارئة يجب أن أتعامل معها أولًا. حالة هيستيريا حادة. بسبب الخمر أو المخدرات.. أو الاثنتين. غمزت مرة أخرى لهم.. زيادة تأكيد. قلت لها بكل هدوء وبرود:

- "جوديث". تعالي معي، حتى أرى ما يمكنني أن أساعدكِ به.

استدرت وعدت سريعًا إلى مكتبي، قبل أن أمنحها أي فرصة لرد فعل. وهناك ربتُّ على كتف مريضي، قائلًا:

- هل يمكنك الانتظار قليلًا في صالة الانتظار؟ ستحضر لك مساعدتي الروشتة.

4

تأمّلت وجه "جوديث ماير" وهي جالسة قبالتي.

لم تكن البقع الحمراء قد اختفت بعد عن وجهها. والحقيقة أنني وجدت صعوبة في التأكد مما إذا كان وجهها أبيض به بقع حمراء، أم أنه أحمر به بقع بيضاء. بادرتني قائلة:

- أنت انتهيت. سوف أغلق لك هذه الحظيرة بأسرع مما يتصور عقلك.

كانت تتحدث وهي تومئ برأسها تجاه باب مكتب العيادة، ونحو صالة الانتظار.

أسندت مرفقيَّ إلى سطح المكتب، ثم عقدت أصابعي أمام وجهي، وأنا أميل بجسدي نحوها بعض الشيء، وأنا أقول:

- "جوديث"...

سكت لحظات، لم أعرف خلالها كيف أستكمل كلامي لها.

- "جوديث"... أليس من المبكر بعض الشيء أن تتوصلي إلى مثل تلك النتائج القاسية؟ ربما أكون قد أخطأت في تشخيص مرض "رالف" في البداية. وأنا اعترفت بذلك فعلًا. وهو ما سأذكره غدًا في جلسة التحقيق. ولكنني لم أقم أبدًا بـــ..

- وفِّر عليك كل هذا الكلام، وسترى ما سيقوم به مجلس الأطباء عندما أحكي لهم القصة كاملة بنفسي.

تسمَّرت عيناي على وجهها. حاولت أن أبتسم، ولكنني أحسست أن فمي في حالة مشابهة لتلك التي كان عليها يوم أن كسرت فكي في حادث بالدراجة. يوم أن لم أنتبه إلى أعمال إصلاح في الطريق، وكدت أسقط في بلاعة. كان هناك حاجز تحذيري صغير لتنبيه راكبي الدراجات إلى وجود بلاعة مفتوحة في الطريق، ولكن أحد الأوغاد رفع ذلك الحاجز. قاموا في غرفة الطوارئ بالمستشفى بتثبيت فكي العلوي والسفلي إلى بعضهما بأسلاك؛ وعجزت على مدار ستة أسابيع عن الكلام أو الأكل، إلا امتصاص بعض العصائر من خلال شاليمو. سألتها بكل هدوء:

- هل ستذهبين إلى المجلس أيضًا؟ أعتقد أنه ليس من المـ..

- هذا ما قالوه لي في البداية. ولكنهم بعد ذلك وجدوا أن الاتهامات وجيهة ولها أساس يكفي للقبول باستثناء.

هذه المرة ابتسمت بالفعل. أو على الأقل في أن أحرك فمي بطريقة تجعله يبدو مبتسمًا. ولكنني شعرت كما لو أنني أفتح فمي لأول مرة بعد فترة صمت دامت يوم كامل. قلت لها، وأنا أنهض عن الكرسي:

- انتظري، دعيني أراجع مساعدتي. سوف أحضر كل نتائج الفحوصات والملفات الأخرى.

نهضت "جوديث" بدورها:

- لا تتعب نفسك. قلت لك كل ما لديَّ. أراك غدًا في الجلسة.

- كلا، لن يستغرق الأمر سوى لحظات. سأعود فورًا. لديَّ ما يهمكِ فعلًا. شيء لم تَكُوني تعرفينه من قبل.

كانت قد نهضت تقريبًا عن كرسيها. ولكنها نظرت لي لثانية، حاولت خلالها أن أتنفس بهدوء. ثم عادت تجلس من جديد.

- لحظة واحدة...

توجهت هذه المرة مباشرة إلى مكتب مساعدتي، بعد أن ألقيت نظرة خاطفة إلى الجلوس في صالة الانتظار. وجدتها تتحدث في التليفون.

- هل هذا هو المرهم فقط؟ أم أنه الكريم أيضًا؟

- "إليزابيث"... هل ممكن...

طلبت من الطرف الآخر على الخط أن ينتظرها لثوانٍ. وانتبهت إلى ما كنت أقوله:

- هل ممكن أن تطلبي من المرضى الانصراف؟ واتصلي بالباقين لإلغاء مواعيد اليوم؟ ابحثي عن أي عذر مقنع، لا يهم. ثم أريد منكِ أن تنصرفي أنتِ أيضًا. خذي بقية اليوم إجازة. عليَّ أنا و"جوديث" أن... سوف يكون من الأفضل أن أخصص مزيدًا من الوقت لـــ...

- ألم تسمع ما وصفتك به؟ لا يمكنك أن...

- أنا لست بأصم يا "إليزابيث". و"جوديث" حزينة للغاية. ولا تعرف ما تقوله. ربما أخطأت واستهانت بمدى خطورة مرض "رالف". وهذا أمر سيء جدًا. عليَّ في البداية أن... أن أفعل شيئًا لأجلها، فهيا اخرجي، واذهبي لتناول القهوة أو أي شيء. هي بحاجة إلى عناية زيادة. وهذا أمر مفهوم. ولكنني لا أريد أن يراني المرضى وأنا أخرج معها. فعليكِ أن تصرفيهم بأسرع ما يمكن.

لما عدت إلى مكتبي، وجدت "جوديث ماير" لا تزال جالسة في مقعدها. التفتت تنظر إليَّ. نظرت إلى يديَّ الخاويتين، ثم إلى وجهي، في تساؤل.

- أعتقد أن الملفات موجودة هنا في مكتبي.. في مكان ما.

5

لممارسة الطب سلبياتها.

من ذلك أنك تجد نفسك مدعوًا إلى كل شيء، خيرًا كان أو شرًا. ويعتبرك المريض من أول زيارة واحدًا من معارفه المقربين.. نوعًا ما. فتتلقى دعوات لحضور افتتاح معارض، توقيع كتب، العرض الأول لفيلم، العرض الأول لمسرحية؛ فلا يمر عليَّ يوم من دون أن أجد في بريدي دعوة ما. وأنت لا تملك خيار التجاهل وعدم الذهاب. فلو أنه أُرسل لك كتاب مثلًا، فبوسعك أن تكذب عليه وتقول إنك لم تنتهِ منه بعد، وأنك لن تخبره برأيك إلا بعد الانتهاء منه تمامًا. ولكن ليلة الافتتاح تبقى ليلة افتتاح. وعندما تنتهي يكون عليك أن تخبره برأيك في التو واللحظة. وهذا ما يتوقعه منك صاحب الدعوة. ولكن انتبه.. يجب أن تُسمعه عبارات مجاملة وإياك أن تقول له رأيك الحقيقي. إياك. رأيك لنفسك. وأنا عن نفسي جربت التأقلم مع فكرة عدم التعبير عن رأيي الصريح. فأقول عبارات من قبيل "أرى أن هناك أجزاءً جيدة بالفعل" أو "لماذا لم يقدم بقية الممثلين أفضل ما لديهم؟"، ولكنهم لا يرضون بمثل تلك العبارات المراوغة. لا بد أن تخبرهم بأن كل شيء رائع وجميل، وأنك ممتن لأنهم أتاحوا لك فرصة الوجود في هذا الحدث التاريخي. تقام العروض الأولى للأفلام يوم الإثنين عادةً. ولا يسعك المسارعة بالمغادرة فور انتهاء العرض. فلا بد أن تثبت حضورك. ولا تتعجل العودة مبكرًا إلى المنزل، فأنت المواطن الطبيعي الوحيد

بين هؤلاء؛ ولن تجد أحدًا منهم مجبرًا على أن يستيقظ ليبدأ العمل صباحًا في اليوم التالي. بل تمهل، وقف مع نجم الفيلم أو مخرجه وعبر عن انبهارك الشديد به. وهناك بديل ممتاز يتمثل في أن تخبرهم أنك وجدت الفيلم "آسرًا". ذلك هو الوصف الذي اعتادوا أن يطلقوه مع نهاية أي فيلم. ولا تنسَ أن في يدك كأس شامبانيا احتفالية وأنك تقف أمام مخرج الفيلم أو نجمه. مع أنك في الحقيقة نسيت نهاية الفيلم ذاتها، أو أنك تفضل أن تنساها حفاظًا على صحتك العقلية. أظهر الجدية على وجهك وأنت تقول: "وجدت نهاية الفيلم آسرة تمامًا". عندئذٍ فقط يكون مسموحًا لك أن تهرب إلى المنزل.

لن أعرف أبدًا ما أمقته أكثر من الآخر: الفيلم نفسه، أم الأداء المسرحي، أم لقاء الناس مضطرًا بعد انتهاء الفيلم أو المسرحية. أعرف من تجربة مريرة سابقة أن الأسهل لعقلي أن يشرد عن أحداث فيلم مقارنة بمحاولة ذلك أثناء عرض مسرحي. فأنت في المسرحية واعٍ لحقيقة وجودك الجسدي في صالة العرض. وجودك المكاني والبعد الزمني له. والنظر في الساعة كل دقيقة. اشتريت لنفسي ساعة ذات عقارب فسفورية، خصيصًا لمثل تلك الليالي. أشعر أن الزمن يتغير أثناء العرض المسرحي. ولكنني عجزت عن التوصل إلى السبب. فهو لا يتوقف وحسب، بل يتخثَّر.. مثل الدم. أنت جالس ترى الممثلين والممثلات، وحركتهم فوق الخشبة، وتسمع نص المسرحية متدفقًا على ألسنتهم، فتشعر كما لو أنك منهمك في تقليب سائل ثقيل ليصير أشد كثافة طوال الوقت. وعند لحظة معينة، تعجز الملعقة نفسها عن الحركة. وتبقى حبيسة تلك المادة الكثيفة اللزجة. ويستحيل عليك الاستمرار في التقليب. وعندئذٍ، تكون أول مرة أرمق فيها ساعتي. خلسة بقدر الإمكان طبعًا. من العيب أن يلمحك أحد وأنت ترمق ساعتك خلال عرض مسرحي. لذلك أسحب كم سترتي ببطء شديد وبكل حرص. وأتظاهر بأنني أهرش في معصمي، بينما أختلس نظرة سريعة بطرف

عيني إلى العقارب الفسفورية. وفي كل مرة أفعل فيها ذلك، أوقن بما لا يدع مجالًا للشك أن هناك فارقًا بين الزمن الذي أعرفه والزمن داخل قاعة المسرح. كيانان مختلفان تمامًا. أو أنهما زمنان مختلفان يمضيان في بعدين مغايرين. تعتقد (بل تتمنى.. أو تدعو ربك) أن نصف ساعة قد مرت الآن، ولكن ساعتك تخبرك أن كل ما مضى منذ بداية العرض لا يتجاوز اثنتي عشرة دقيقة. عيب عليك أن تئن أو تتأوه أو تتثاءب بصوتٍ عالٍ خلال أي عرض مسرحي. أنت بذلك تدفع الحضور إلى الانتباه لك، حتى ولو من دون قصد منك. كما قد يتشتت انتباه الممثلين. ولكن يمكنك أن تفعل ذلك من دون أن ينتبه لك أحد. وعلى نفس المنوال، لا يمكنك أن تنهض وتغادر الصالة. هذا أمر ممكن وسط ظلام قاعة السينما، وربما لن ينتبه لك أحد. حتى لو كان العرض الأول للفيلم. سيظن الحضور أنك بحاجة ماسة للذهاب إلى دورة المياه، وبعد ذلك ينسون أمرك. ولن يلحظوا أنك لم تعد إلى مقعدك بعد ذلك. هذا أمر بوسعك فعله. هذا ممكن. قمت به أكثر من مرة خلال ليالي العرض الأول. في أول مرة، ذهبت بالفعل إلى دورة المياه، وأمضيت أول ساعة من عمر الفيلم جالسًا في الحمام؛ رأسي بين يدي: أتأوه، أصيح، وأشتم. ولكنني كنت أشعر بالراحة أيضًا. الراحة والسعادة. المهم أنني لست أمام الفيلم نفسه. ومع الوقت تحسنت مهاراتي في الهروب من الصالة خلسة. أتمشى بهدوء نحو باب الخروج، ويداي في جيبيَّ. ولو صادفت أحدهم في طريقي أخبره بهدوء أنني خارج لأشم بعض الهواء النقي. وهكذا أجد نفسي خارج دار السينما في ثوانٍ. الشارع.. الترام.. الدراجات.. الناس. ناس حقيقيون بأصوات حقيقية. أصوات تتبادل كلمات طبيعية بينهم. تسمع أحدهم يقول لصاحبه: "تعالَ، لنشرب كأس! أم أنك ذاهب إلى المنزل؟". هذا أفضل من أن تسمع حوارًا يقول فيه البطل للبطلة: "يجب أن نكون حريصين جدًا جدًا يا "مارثا"، وإلا لراح ميراث أبوكِ لمن لا

يستحقه". كم جملة مثل هذه يمكن للمرء أن يتحملها خلال ساعة ونصف هي مدة الفيلم؟! "ابنتي لا تخرج في هذه الملابس التي تجعلها مثل العاهرات! ولو صممت على ذلك، فإنها ليست ابنتي!". كما أن لكل فيلم خلفية موسيقية خاصة به. ويتزايد صخبها في القاعة عامًا بعد عام بفضل التكنولوجيا. وفي هذه ميزة، حيث يمكنك أن تتنهد أو تتأوه من دون أن يسمعك أحد. ولكنه عذاب. تتزايد فيه أنفاسك عمقًا وسرعة. عندما يشعر الكلب بالألم، فإنه يلهث ولسانه خارج فمه. هكذا يتحصل على مزيد من الأكسجين. ليصل بأسرع وقت ممكن إلى الجزء الذي يؤلمه في جسده. فلا يزال الأكسجين هو أفضل مسكن للألم على الإطلاق. لذلك أخرج إلى الشارع. لأمتزج بالناس، وأتنفس الهواء النقي. وهو أمر أعجز عن فعله خلال أي عرض مسرحي، كما قلت لك من قبل. لا مفر. ولو كان عليك أن تخرج مهما حصل، فلا بد أن تفعل ذلك قبل بداية العرض. ولا خيار لديك خلاف ذلك. لأنك ما إن تصل إلى الشارع في الخارج، حتى تنهشك الأفكار المغرية. لا تعد إلى الداخل. تلك هي الفكرة الأشد إغراءً. عد إلى المنزل، واخلع حذاءك، واسترخِ تمامًا فوق الأريكة، وافتح التليفزيون على قناة تعرض فيلم مقاولات رخيصًا سبق لك مشاهدته خمس مرات من قبل. أي شيء. كل شيء. إلا المسرحية.

كما أن للأمر علاقة بمهنتي. فالاسترخاء الحقيقي التام ضرورة في مهنتي. فكم من أشياء أسمعها وأراها طوال اليوم. ولا بد لك من طردها من عقلك بحلول الليل. نمو الفطريات. بثور تنزف. ترهلات الجلد البشعة. تلك المرأة التي تجاوز وزنها مائة وخمسين كيلو جرامًا ويتوجب عليك أن تفحص ذلك الجسد في منطقة تتمنى ألا تعود إلى فحصها مرة ثانية في حياتك. جميعها أشياء لا تود أن تخطر ببالكِ وأنت تشاهد مسرحية. ولكنها تبادر بالتلاعب بعقلك بمجرد أن تُطفأ الأنوار. وكأنها تنتهز فرصة الظلام وتسليط الأضواء على خشبة المسرح

لتنهشك نهشًا. وتنظر في ساعتك الفسفورية فتجد أنها بداية تلك الفترة الزمنية التي لا تنقضي. تلك الكتلة المتخثرة هائلة الحجم. أظل أفكر طوال نهار العمل في ساعات المساء التي سأرتاح فيها تمامًا. وجبة. علبة بيرة أو كأس نبيذ. نشرة الأخبار في التليفزيون. فيلم خفيف أو مباراة كرة قدم. ويوم عمل مثل ذلك يكون سعيدًا، مبهجًا بالوعود. يوم أفكر خلاله في الريف بتلاله الدائرية ومن بعيد يظهر البحر لامعًا. أما اليوم الذي ينتهي بحضور مسرحية فهو شبيه بغرفة فندق لا تطل إلا على جدار أصم. هذا يوم مختنق منذ البداية. لا نسمة هواء، بينما النافذة مغلقة ولا سبيل لفتحها. وتبدأ المعاناة منذ الثامنة والنصف صباحًا، عندما أتذكر ما ينتظرني. أنا في العادة أستمع إلى مرضاي، ولكن في اليوم الذي ينتهي بمسرحية لا أسمع منهم أي شيء. على الإطلاق. يمر بعقلي مخطط لعشرة طرق هروب ممكنة. المرض. إنفلونزا. تسمم طعام. قريب لي انتحر بالقفز أمام قطار سريع. أتذكر ذلك المشهد من فيلم "ميزيري" عندما تقوم "كاثي بيتس" بتهشيم كاحلي "جيمس كان" بالمطرقة. فأفكر في القيام بشيء مماثل في جسدي. أثناء حصار "ستالينجراد"، كان الجنود المنتمين للجانبين يطلقون النار على أياديهم أو أقدامهم حتى لا يتم إرسالهم إلى الخطوط الأمامية. ومن ينكشف أمره يلقْ حتفه فورًا برصاصات فرقة الإعدام. يشتكي مريضي من ألم في أسفل ظهره، بينما كل ما أفكر أنا فيه هو الجراح التي تسببها طلقة رصاص من مسدس. في المكسيك، يقوم القتلة المنتمون لعصابات المخدرات بحفر علامة صليب في الرصاصات حتى تكون أبطأ عند الإطلاق. فالرصاصة الأبطأ تسبب ضررًا أكبر وهي تخترق الجسد. وقد لا تخرج من الجانب الآخر من الجسد على الإطلاق. أفكر في اتخاذ خطوات حاسمة. وليس تلك التي تمسك العصا من المنتصف. فأنت لو كسرت إصبعك الصغيرة تبقى قادرًا على حضور ليلة الافتتاح، وذراعك معلقة. أما الحمى الشديدة فهي

مجرد عذر جبان. كلا، أنا أفكر في حلول أخرى. مثل أن تنزلق سكين تقطيع الإستاكوزا فتقطع راحة يدي. ويدخل سن السكين عبر الجلد ليخرج من الجهة الأخرى. ولا يبدأ النزيف إلا عندما تسحب السكين.

أسوأ المسرحيات هي تلك التي تعتمد على الارتجال. فيها الكثير من الثرثرة. سرد وحوار مأخوذ كما هو من الحياة اليومية. يرتدي الممثلون والممثلات ملابس اختاروها هم بأنفسهم. ومدة عرض المسرحيات الارتجالية أقصر من المسرحيات ذات النص المعتاد، ولكن هذا أمر شبيه بالعلاقة بين الرياح وزيادة الإحساس بالحرارة أو البرودة. فأحيانًا ما تشعر أن الجو أبرد أو أسخن من درجة الحرارة المسجلة. تنظر إلى الملابس التي يرتدونها، وطبقًا لهذه القاعدة تعتقد أن نصف الساعة قد مرت من زمن المسرحية، بينما ساعتك تخبرك بعكس ذلك. وهي لا تكذب. ولكنك تقرب الساعة من أذنك. فربما هي متوقفة. ولكن بطارية الساعة من الليثيوم الذي يدوم حتى ثمانية عشر شهرًا. يمر الوقت من دون صوت. لذا عليك أن تعد حتى ستين قبل أن تنظر إلى الساعة من جديد.

تحمل سكين الإستاكوزا معها خطر الإصابة بالتسمم. ويلجأ عموم الناس إلى رقم إسعاف الطوارئ. أما أنا فلديَّ كل ما أحتاج إليه هنا، فوق الرف. أمصال ضد "التيتانوس"، والحمى الصفراء، وفيروس "أ" الكبدي. ولديَّ زجاجات صغيرة هنا، تكفي قطرة واحدة منها لأن تغيبك عن الوعي لنصف يوم. وقطرة أخرى تغيبك عن الدنيا للأبد. تحقن الكلاب والقطط عند الطبيب البيطري، ولكن البشر قادرون على الشرب من الكوب المسمم بأنفسهم. كأس صغيرة. جرعة واحدة. تسعون بالمئة ماء ومكسبات طعم. وهناك فرصة لا بأس بها لأن تودع عائلتك ومن تحب بكل كرامة. وأن تلقي بعبارة حكيمة أخيرة. ولقد شهدت لحظات كهذه من قبل. نادرًا ما ينتهز الراقدون في فراش الموت تلك الفرصة الأخيرة للتلفظ بعبارة تبقى في الذاكرة. لم يسمعهم أحد من

قبل ينطقون بمثل ذلك. ولكن ربما تعتقد أن أغلبهم قد فكر في الطريقة التي سيموت عليها مسبقًا. كما لو أنهم يقصدون أن نتذكرهم بها. كلمات أخيرة. كلمات أخيرة جريئة. يستدعي اقتراب الموت شيئًا من الجرأة، أو هكذا يظن المحتضرون. والحقيقة أن الموت لا يستدعي أي شيء. الموت قادم لاقتناصك. هكذا ببساطة. يريدك الموت أن تتبعه، بأقل قدر ممكن من المشكلات. يقول: "اشربوا كأسًا على روحي بعد أن أموت"، قبل أن يشرب ما تبقى من كأسه. وما هي إلا دقيقة حتى يغلق عينيه، ودقيقة أخرى يكون قد التحق بالأموات. فنادرًا ما تصاحب الدموع ذلك الشراب الأخير. ولم أسمع أحدهم يقول لزوجته: "أنتِ عشقي الوحيد في هذا العالم. سأفتقدكِ. وربما ستفتقدينني أنتِ أيضًا". أبدًا. بل أسمع كلامًا ساخرًا وجريئًا. كما هو الأمر في الجنازات. أناس يضحكون ويشربون ويتلفظون ببذاءات. وذلك حتى يبتعدوا بتلك المراسم عن التكلف والمبالغة. لا يحب الفنانون الجنازات المتكلفة، فهي بمثابة الكابوس بالنسبة لهم. يقول الحضور: "هذا بالضبط ما كان يريده الفقيد"، قبل أن يتناوبوا على تهشيم زجاجات الويسكي فوق غطاء التابوت. أعتقد أنهم قد بدؤوا في موضة الجنازات المرحة منذ خمس عشرة سنة. لا بكاء، لا حزن، بالطبع لا وألف لا! تجد توابيت وردية، أو بيضاء، أو أخرى مرسوم عليها أسنان تنين أو سمكة قرش، توابيت واردة من معارض "إيكيا"، أو توابيت بلاستيكية، أو أخرى ملفوفة في أكياس قمامة على سبيل السخرية. وكنت دائمًا ما أشعر بالأسى لأجل الأطفال. أنا لا أستوعب أصلًا وجود أطفال في الجنازات العادية، فما بالك حينما تكون جنازة فنان. عندئذٍ يجب أن يعزز الأطفال من ذلك الجو المرح. تزيين تابوت بابا بالإستيكر أو الكتابات. أو أن يضعوا داخل التابوت المج المفضل لديه، ذلك الذي طبع عليه كلمة "إلى الجحيم!". ليستخدمه لاحقًا.. هناك. عند نهاية رحلته الطويلة الطويلة. حتى يمكنه أن يشرب قهوته في المج المفضل على

الجانب الآخر من الرحلة. كما أن من غير المفترض أن يبكي الأطفال. بل يرسمون الأشكال على وجوههم، ويعطونهم البالونات والصافرات وقبعات الحفلات. لأنها رغبة بابا قبل أن يموت، أن يعيش الأطفال أجواءً من المرح في جنازته. وأن يلعبوا الاستغماية بين شواهد القبور، ويأكلوا من وعاء كبير ممتلئ بالكعك والحلويات وشوكولاتة "سنيكرز" و"مارس".

كما يرغب جميع الفنانين في الاستقرار في المدفن نفسه. ذلك الذي يقع قرب منعطف النهر. وهناك قائمة انتظار تتحدد بأولوية الحجز. ولا سبيل للأناس العاديين الذين يعملون من التاسعة حتى الخامسة أن يدخلوا تلك القائمة. ولأن المدفن قريب من النهر، فإنك ترى على الأقل أربع جنازات تصل إلى مكان الدفن على متن القوارب في كل عام. وجنازة القارب تثير اهتمام الصحفي أكثر من غيرها. حيث يغادر القارب من قلب المدينة متخذًا طريقه عبر القنوات وأسفل الجسور، بما يمكّن الصحفيين من التقاط الكثير من الصور الجميلة. علاوة على أن القارب نفسه مزين بطريقة احتفالية: ورود وأكاليل، ورجال ونساء في عباءات طقوسية داكنة وعلى الرؤوس قبعات طويلة. ترتدي السيدات أجنحة فراشات على ظهورهن، بينما تلمح شوارب الرجال التي اصطبغت بالأحمر أو الأخضر. وفي مقدمة القارب، في رداء البلياتشو، أربعة من عازفي الترومبيت من فرقة "فن تايم" النحاسية، منهمكون في عزف ألحانٍ مرحة. وبحلول ذلك الحين، يكون جميع من على متن القارب الجنائزي سكارى للغاية. بينما يقف الناس العاديون عند الضفتين يشاهدون الموكب، ولكن الأقارب الثملين في القارب لا يلقون لهم بالًا.

كان عليَّ أن أصارح "رالف ماير"، أو "جوديث" في الواقع، وأن أخبره أن جنازته كانت عادية نوعًا ما. فلا وجود لقارب، بل مجرد نعش فوق عربة الموتى العتيقة العادية. وكان هناك ألف شخص على الأقل. وأطقم تصوير من

شركات إعلام خاصة. وعندما انعطفت العربة التي تحمل النعش في ممر الحصى، لم يكن عليّ إلا أن أتراجع خطوات حتى لا يراني الأقارب. وكانت "جوديث" ترتدي نظارة شمس كبيرة، ووشاح رأس أسود مرقط بنقاط بيضاء صغيرة. ربما كان الوشاح هو الذي ذكّرني آنذاك، بأكثر مما تذكرت في أيام أخرى، بمظهر "جاكي كينيدي"، على الرغم من أنني لا أعتقد أن "جاكي كينيدي" كانت لتبصق على وجه ضيف لا ترغب في وجوده ضمن ألف شخص حضروا الجنازة.

لم أبادر بمغادرة المدافن بعد تلك الواقعة، بل تمشيت حتى البوابة، وتجاوزتها إلى النهر. مر عليّ قارب تجديف؛ ورجل يستقل دراجة يوجه فريق التجديف بمكبر صوت. وأكد لي مشهد بجعتين تعومان على سطح النهر ومن ورائهما فرخان أن الحياة تستمر، كما يقولون. وبعد أن وقفت في مكاني لبضع دقائق، عدت إلى المدفن.

لم يكن للكنيسة الصغيرة أن تسعَ ألف شخص، لذلك ألقيت الكلمات التأبينية خارجها. تحدث عمدة المدينة، وكذلك وزير الثقافة. وتحدث الفنانون والمخرجون عن "رالف" ونوادره. وتعالت الضحكات بين ثانية وأخرى. بينما وقفت في المؤخرة، متخفيًا نوعًا ما بين الأغصان، على بعد خطوات من ممشى الحصى. ألقى أحد الممثلين الكوميديين كلمة كان هو بطل حكاياتها الرئيسي في الحقيقة. حتى ظننت أنها بروفة عرض "ستاند أب كوميدي" قادم. كانت هناك ضحكات، ولكنها مصطنعة، تشعر معها أن الحضور يشعرون بالأسى لحال ذلك الكوميديان بأكثر ما يجدون كلامه مضحكًا. تذكرت لحظات "رالف" الأخيرة، في المستشفى، منذ أقل من أسبوع. كأس الكوكتيل القاتل فوق الترابيزة المجاورة لسريره، إلى جوار طبق زبادي فواكه نصف مأكول ولا تزال الملعقة في قلبه، وصحيفة الصباح، وسيرة ذاتية عن شكسبير كان يقرؤها خلال

الأسابيع الأخيرة. بداخله "بوك مارك" يشير إلى أنه قرأ أكثر من نصف عدد صفحاته. طلب من "جوديث" وولديه مغادرة الغرفة لدقيقة.

لما خرجوا، أشار إليّ أن أقترب.

- "مارك".

تناول يديَّ، ووضعها فوق البطانية، ووضع يده الأخرى فوقها.

- أريد أن أتأسف لك.

نظرت إلى وجهه. وجه نضر سليم إلى حد معقول، وإن كان أنحف عن ذي قبل. ولو أنك رأيت كيف كان وجهًا مستديرًا بدينًا منذ بضعة أشهر فحسب، لأدركت حينئذٍ أن للمرض دورًا في مظهره الجديد. عيناه رائقتان. أعجب بهما في كل مرة أراهما. يختار الناس يومًا بعينه للموت، وتنتابهم روح مغايرة مرحة ضحوكة بغتة عندما يحل ذلك اليوم. فيتحدثون ويضحكون بوتيرة أكبر من المعتاد، كما لو أنهم يتمنون لو أوقفهم أحد. وكأن من سيموت ينتظر من يخبره أن من العبث أن ينهي بيده كل شيء هكذا وعلى هذا النحو.

- لم يكن من اللازم أن.. لم يكن من اللازم.. أنا آسف، أعتقد أن هذا هو ما أريد قوله في الحقيقة.

بقيت صامتًا. ربما بمقدوره أن يؤجل النهاية لشهر أو أكثر مع تناول الدواء السليم وجلستي علاج مؤلمتين. ولكنه اختار كأس الموت. الوداع بكرامة. تغنيك كأس الموت عن تقييد عائلتك بذكريات قاسية سيكون من الصعب عليهم أن ينسوها.

ولكنني ما زلت أجد غرابة في طريقة الموت تلك. الموت بمحض الإرادة. في تاريخ وتوقيت بعينه. راية بيضاء. استسلام تام. لماذا لا يكون ذلك في الغد؟ أو بعد أسبوع؟ ولماذا لم يتم في الأمس؟

- كيف تجري الأمور هذه الأيام.. معها؟

رأيته يتردد، رأيت كيف ابتلع اسمها قبل أن ينطق به. ولا أعرف ما كان يمكن أن يكون عليه رد فعلي لو أنه نطق اسمها بصوتٍ عالٍ.

هززت كتفيَّ في حيرة. وتذكرت الإجازة التي أمضيناها معًا منذ عام أو أكثر قليلًا. في المنزل الصيفي.

- "مارك"..

شعرت بضغط يده على يدي. حاول أن يزيد من ضغط قبضته، ولكن قواه خانته.

- هل يمكنك أن تخبرها.. بالنيابة عني.. هل يمكن أن تخبرها ما قلته لك للتو؟

أشحت بعينيَّ عن وجهه؛ وسحبت يدي بسهولة من يديه؛ اليدين نفسيهما اللتين امتلكتا ذات يوم القوة التي تجبر الناس على القيام بأمور لا يرغبون في القيام بها. رغمًا عن إرادتهم. وقلت له بحسم:

- لا.

6

وقع الموت بعد نصف ساعة.

كنت في الردهة؛ بينما ذهب ولداه إلى كافيتيريا المستشفى بحثًا عن طعام. وعادت "جوديث ماير" من الحمام، حيث كان من الواضح أنها كانت تضبط مكياجها. قالت لي:

- سعيدة بوجودك في لحظاته الأخيرة.

- مات بكل كرامة.

تقول كلمات مثل هذه في لحظات مثل تلك. حتى لو كنت تعرف الحقيقة. هذا أشبه برأيك المجامل عن مسرحية. أو التعبير المصطنع عن إعجابك بنهاية فيلم.

أتانا شخص يرتدي بالطو الطبيب الأبيض. توقف أمامنا تمامًا مادًا يده إلى "جوديث".

- السيدة "ماير"؟

صافحته وهي ترد بنبرة تساؤل:

- أجل؟

- اسمي "ماسلاند". دكتور "ماسلاند". هل يمكنني أن آخذ من وقتكِ دقيقة؟

يحمل تحت ذراعه ملفًا. على الركن العلوي الأيمن منه ملصق عليه الاسم "السيد. ر. ماير"، وأسفله ببنط أصغر اسم المستشفى. سألني:

- وأنت؟ قريب؟

قلت له وأنا أمد يدي لأصافحه بدوري:

- أنا طبيب العائلة. "مارك شلوسر".

ولكن "ماسلاند" تجاهل يدي الممدودة، وهو يقول:

- دكتور "شلوسر". هذه.. آه.. هذه مصادفة. هناك بعض الأشياء التي أو..

فتح الملف وبدأ يقلب صفحاته:

- أين هي؟ ها هي.

بقيت حذرًا من لغة جسد "ماسلاند". إنه مثل جميع الاختصاصيين، لا يجد غضاضة في إبداء امتعاضه من كافة الأطباء العموميين. سواءً كان جراحًا أو طبيب أمراض نساء، اختصاصي مسالك بولية أو طبيب أمراض نفسية، جميعهم يمتلكون تلك النظرة ذاتها. تلك التي تقول: هل تحصلت على تعليم كافٍ؟ أم أنك كنت كسلانًا لدرجة منعتك من الاستمرار في التعلم لأربعة أعوام أخرى؟ أو أنك خائف ومذعور من ممارسة الطب على أصوله؟ نحن الذين نفتح أجساد البشر، ونعمل في أعضائهم، جهازهم الدوري، المخ، مركز عمليات الجسد البشري، نحن نعرف الجسد كما يعرف الميكانيكي الخبير كل شيء عن محرك السيارة. كل ما هو متاح للطبيب العام هو أن يلقي نظرة من تحت الغطاء، غطاء المحرك قبل أن يهز رأسه في تعجب ودهشة من معجزة الجسد البشري التي رآها للتو.

- راجعنا أمس حالة السيد "ماير" بالكامل في وجوده. وهو إجراء معتاد في حالات القتل الرحيم. ولكنني وجدت أنك لست الطبيب الذي أحال إلينا السيد "ماير"، أليس كذلك، دكتور "شلوسر"؟

تظاهرت بالتفكير، قبل أن أرد:

- بالفعل.

مر "ماسلاند" بإصبعه فوق الصفحة التي أخرجها من الملف، ثم توقفت إصبعه، وهو يقول:

- أنا أسأل عن ذلك لأنه مذكور هنا.. أجل.. هنا. في الأمس، ذكر السيد "ماير" أنه قد زارك في أكتوبر العام الماضي بغرض إجراء فحص دوري.

- ربما. لم يكن يزرني كثيرًا. إلا إذا كان يشك في أمر ما. أو لأخذ رأيي في حالة. لقد كنت صـــ. أنا صديق للعائلة.

- ولماذا أتاك في أكتوبر يا دكتور "شلوسر"؟

- لا يمكنني الرد بدقة الآن. لا بد أن أرجع للملفات.

رمق "ماسلاند" "جوديث"، قبل أن يعود إليَّ:

- وفق ما ذكره السيد "ماير"، فقد أخبرته في أكتوبر العام الماضي أنه لا يعاني من أي مرض خطير. على الرغم من أن الأعراض المبكرة لمرضه كانت قد بدأت في الظهور عليه في ذلك الحين.

- لم أكن أعرف ذلك، ولم يكن ليغيب عن عقلي لو كنت أدركه. ربما جاءني ليسألني عن شيء آخر. وربما كان يشعر بشيء بالفعل، وكان يود أن يسمع مني كلمات مطمئنة فحسب.

- خلال تلك الاستشارة في أكتوبر، دكتور "شلوسر"، هل أخذت عيِّنة من نسيج جسد السيد "ماير"؟ وهل قمت بإرسالها إلينا في ذلك الحين لأجل تحليلها؟

- لو كنت فعلت لتذكرت ذلك الآن.

- طبعًا، هذا ظني أيضًا، وخاصة أن أخذ عيِّنة من النسيج مهمة لا تخلو من المخاطرة. وممكن في أسوأ السيناريوهات تؤدي إلى تسارع تدهور الحالة المرضية. أعتقد أنك على دراية بذلك يا دكتور "شلوسر"؟

غطاء المحرك. مسموح لي أن ألقي نظرة على ما هو أسفل الغطاء، ولكن محظور عليّ أن ألمس الخراطيم أو الأسلاك. أردف "ماسلاند" قائلًا:

- الغريب أن السيد "ماير" تذكر كل ذلك بوضوح. وأنك أخبرته أنك سترسل العيِّنة للفحص. وأن عليه أن يتصل بك لاحقًا ليعرف النتيجة.

"رالف ماير" مات. وجسده، الذي أعتقد أنه قد برد بعض الشيء الآن، راقد على بعد خطوات منا، خلف باب أخضر يحمل لافتة تنبيه.. "سكوت". لا يسعنا أن ندخل لنسأله عما إذا كان قد أخطأ أمس في ذكر تاريخ زيارته لي.

- لا يمكنني أن أتذكر أي شيء الآن. أنا آسف جدًا.

مكتبة

- عيِّنة النسيج لم تصل إلينا أبدًا في كل الأحوال.

كدت أصيح في وجهه قائلًا: "أرأيت؟ كان "رالف ماير" في اليوم قبل الأخير من حياته تختلط عليه الأمور بشكلٍ كبير! والسبب؟ السبب هو الدواء. السبب هو حالته الصحية الواهنة". ولكنني التزمت الصمت.

عندئذٍ، تدخلت "جوديث ماير":

- أكتوبر.

نظرنا نحن الاثنين إليها، ولكنني وجدت أنها تنظر لي وحدي.

- "رالف" كان قلقًا. كان عليه السفر للتصوير في إيطاليا، من المفروض أن تمتد الرحلة لشهرين. لذا، فسيسافر بعد أيام. وأخبرني أنك لم تجده يعاني من شيء خطير، ولكنك سترسل عيِّنة من نسيجه إلى المستشفى للاطمئنان وحسب. حتى يرتاح باله.

فقال "ماسلاند":

- لم نتلقَ أي عينات هنا.

فقلت بدوري:

- هذا أمر واضح جدًا. وهو ليس من الأمور التي يمكنني السهو عنها.

- الحقيقة أن هذا هو السبب الذي دفعني إلى طلب التحدث معكِ على انفراد، سيدة "ماير". نحن نعتقد أن هذه النقطة أخطر من أن نغض الطرف عنها. ونرغب في فحص الحالة بكاملها بكل تفصيل ودقة. أود أن أحصل منكِ على إذن بتشريح الجثمان.

- أوه.. كلا.. تشريح؟ هل هذا ضروري أصلًا؟

- سوف يجعلنا هذا، ويجعلكِ أيضًا، مطمئنين تمامًا إلى طبيعة ما جرى بالفعل في تلك الحالة المرضية. سوف نعرف مثلًا ما إذا كانت هناك بالفعل عيِّنة أخذت من النسيج، ومتى حدث ذلك. صارت أساليب الفحص والتشريح متقدمة للغاية خلال السنوات الأخيرة. فإذا كانت هناك عيِّنة مأخوذة فعلًا، فسيكون بوسعنا التحديد الدقيق لتوقيت حدوث ذلك لأول مرة. ليس فقط تحديد الشهر، وما إذا كان أكتوبر أو شهرًا آخر، بل وكذلك تحديد اليوم.. بكل دقة.

7

مرَّ أقل من ثلاثة أسابيع على اليوم الذي حضر فيه "رالف ماير" إلى عيادتي من دون سابق موعد ولأول مرة، منذ ثمانية عشر شهرًا، حين وصلت إليَّ دعوة بالبريد لحضور ليلة افتتاح عرض مسرحية "ريتشارد الثاني". ولما فتحت المظروف، شعرت بالأعراض الجسدية نفسها التي تنتابني كلما وصلت إليَّ دعوة. جفاف في الفم، نبض ضعيف، وتنميل في الأنامل، وإحساس بضغط على مؤخرة العينين، وشعور وكأنني داخل كابوس: أقود فيه سيارة داخل متاهة شوارع حي سكني جديد لا أعرفه؛ تنعطف يمينًا، وتنعطف يسارًا، ولكنك عاجز عن معرفة طريق العودة، فتظل تقود وتقود في دوائر لا تنتهي طيلة ما تبقى من حياتك.

قالت لي "كارولين" في انبهار:

- "رالف ماير"؟ هل ذلك حقيقي؟ لم أكن أعرف أنه أحد مرضاك.

"كارولين" هي زوجتي. ولم يسبق لها أبدًا أن حضرت معي ليلة افتتاح مسرحية، أو حفل توقيع كتاب، أو العرض الأول لفيلم، إلا فيما ندر. تجدها مناسبات مملة وتتفوق عليَّ في كراهيتها. ونادرًا ما أضغط عليها حتى تصاحبني. ولكنني أحيانًا ما أجدني أتوسل إليها حتى تأتي معي. وعندما أفعل ذلك، تدرك أن الأمر خطير، فتضطر إلى مرافقتي من دون مزيد من النقاش. ولكنني لا أستغل نقطة الضعف تلك كثيرًا. فلا أتوسل وأنا جاثٍ على ركبتي إلا لأجل مناسبة تستدعي ذلك بالفعل.

قالت لي وهي تفتح الدعوة:

- "ريتشارد الثاني".. شكسبير.. لمَ لا؟ سأحضرها معك.

كنا في المطبخ للإفطار. بعد أن غادرت بنتانا إلى المدرسة. "ليزا"، الأصغر، إلى المدرسة الابتدائية القريبة من المنزل، و"جوليا" على دراجتها إلى مدرستها الثانوية. وموعد أول مريض في العيادة بعد عشر دقائق.

- شكسبير. هل أنتِ متأكدة؟ زمن المسرحية لن يقل عن ثلاث ساعات.

- أكيد، ولكنه "رالف ماير". لم يسبق لي أن رأيته يمثل على الطبيعة.

استحالت عينا زوجتي حالمتين وهي تنطق باسم الممثل. أو هكذا خُيِّل إليّ.

- ما الذي تنظر إليه؟ أنا لا أحاول أن أخفي أي شيء. "رالف ماير" وسيم في نظر أي امرأة. لذلك لن أشعر أنها ثلاث ساعات.

هكذا، وبعد أسبوعين، كنا من بين حضور العرض الأول لمسرحية "ريتشارد الثاني"، في المسرح البلدي الكبير العتيق. لم تكن تلك أول مرة أُدعى فيها إلى مسرحية شكسبيرية. بل سبق لي أن شاهدت عشر مسرحيات من مسرحياته. شاهدت عرضًا مُستوحى من "ترويض الشرسة" أصر فيه المخرج على أن تقوم نساء بجميع أدوار الرجال؛ وعرض قدم رؤية جديدة لمسرحية "تاجر البندقية"، حيث ارتدى جميع الممثلين حفاضات، بينما ارتدت الممثلات أجولة بالية بدلًا من الفساتين، ووضعن أكياس تسوق على رؤوسهن عوضًا عن القبعات؛ و"هاملت" بتمثيل من مجموعة من المصابين بمتلازمة "داون"، في وجود طواحين هواء كهربائية على المسرح وبطة (ميتة) قاموا بقطع رأسها أمامنا؛ وعرض "الملك لير" قدمه مجموعة من اليتامى المهاجرين من "زمبابوي" بصحبة مجموعة شباب تُعالَج من الإدمان؛ و"روميو وجولييت" داخل نفق أنفاق لم يكتمل تشييده حتى هذه اللحظة، وصاحب أداء المسرحية

عرض صور مكبرة من خلال بروجكتور لمعسكرات التعذيب على جدران النفق، بينما تنساب مياه الصرف فوق الجدران؛ و"ماكبث" في عرض رأى مخرجه أن يؤدي مجموعة من الرجال العراة الأدوار النسائية في المسرحية. لم يكونوا يرتدون إلا خيوطًا رفيعة فوق مؤخراتهم، بينما علقوا في حلمات صدورهم كلابشات وقطعًا حديدية، وفي الخلفية موسيقى تصويرية عبارة عن أصوات مدفعية، تمتزج مع أغانٍ تميزها شوشرة الراديو المألوفة، وكذلك صوت "رادوفان كاراديتش" وهو يقرأ شعره. وبخلاف حقيقة خوفك من أن تنظر إلى هؤلاء الممثلين متسائلًا عن الكيفية التي علقوا بها تلك الكلابشات والحديد في حلمات أثدائهم، بقت المشكلة الأزلية؛ وهي أن الوقت لا يمر. أتذكر أنني تعرضت لمواقف في المطارات اضطرتني إلى الانتظار لقرابة نصف يوم، وكان الوقت يمر بسهولة، بل أسرع عشر مرات من زمن أي مسرحية من تلك المسرحيات التي حدثتك عنها.

لحسن الحظ، كان ممثلو "ريتشارد الثاني" يرتدون ملابس ذلك العصر. الديكور عبارة عن قاعة العرش داخل قلعة، وظهر عليه جهد كبير ليعكس أكبر قدر ممكن من المصداقية والأصالة. وعندما ظهر "رالف ماير" على خشبة المسرح، تغير شيء؛ وجدت المتفرجين، الذين كانوا هادئين من دون تكلف، يلتزمون الصمت الشديد. وعندما نطق "ريتشارد" بكلماته الأولى، حبس الكل أنفاسه. رمقت "كارولين"، ولكنها كانت في غاية التركيز على ما يجري فوق الخشبة. وجنتاها محمرتان. عقب ثلاث ساعات كنا في ردهة المسرح، نتناول الشامبانيا. من حولنا رجال في سترات زرقاء ونساء في معاطف طويلة محتشمة. الكثير من المجوهرات: أساور، عقود، وخواتم. بينما تتعالى نغمات من بيانو يعزف عليه فنان في أحد الأركان.

- هيا بنا نمشي؟

رمقت ساعتي، وأنا أنتبه أنها أول مرة أنظر فيها إلى الساعة هذه الليلة.

- بل نبقى قليلًا. بوسع "إيزيس" أن تنتظر لبعض الوقت. دعنا نتناول كأسًا أخرى.

"إيزيس" كانت جليسة بناتنا في تلك الأيام. كان عمرها ستة عشر عامًا، ولا يحب أبواها رجوعها إلى المنزل في ساعة متأخرة. كان عمر "جوليا" ثلاثة عشر عامًا، بينما "ليزا" إحدى عشر عامًا. لن يكون علينا بعد عامين أن نقلق على تركهما معًا وحدهما. ولكن ليس الآن.. ليس بعد.

عندما عدت من عند البار حاملًا الكأسين، رأيت "رالف ماير" على بعد خطوات، وقد ظهر أطول من جميع من هم حوله. كنت أتبادل إيماءات التحية يمينًا ويسارًا. أرسم على وجهي ابتسامة مثل تلك التي تكون على وجه زعيم اعتاد سماع الثناء والمديح. قلت لها:

- ها هو ذا. سوف أعرفه بكِ.

- أين؟

كادت زوجتي تقف على أطراف أصابعها حتى تراه، ولكنها لم تنجح في رؤيته وسط الزحام. سارعت بهندمة شعرها المملوء بدبابيس الشعر، ومسحت بيديها على بلوزتها لتبعد عنها ما تتوهم أنه قد علق بها.

صافحني ناطقًا باسمي. مصافحته قوية، من يد يريد صاحبها أن يؤكد لك أنه لم يستخدم سوى عشرة في المئة من قوته فحسب.

ثم انتبه إلى "كارولين".

- زوجتك؟ جميل.. جميل.. لم تكن تبالغ بكل تأكيد.

تناول يدها وهو ينحني، قبل أن يقبلها. ثم التفت جانبه وهو يسند يده إلى كتف سيدة لم أنتبه إلى وجودها من قبل، ربما لأنها كانت تقف خلف جسده

الضخم. ها هي الآن تظهر، متحركة خطوات بعيدًا عن ظله، وهي تبادرنا بالتحية. صافحت "كارولين"، ثم صافحتني، وهي تقدم نفسها لنا:

- "جوديث".

لاحقًا، وبعد وقتٍ طويل، أدركت وأنا أشاهدها بمفردها أن "جوديث ماير" ليست ضئيلة الجسد في حقيقة الأمر. لا تشعر بضآلتها إلا عندما تقف إلى جوار زوجها، مثل قرية عند سفح جبل. ولكنني فكرت وأنا أنقل عينيَّ بينهما، خلال ذلك المساء في مسرح البلدية، فيما أفكر فيه عادةً عندما أرى زوجين معًا لأول مرة.

تساءلت "جوديث"، مخاطبة "كارولين" بأكثر مما تخاطبني:

- أعجبتكما المسرحية؟

- أرى أنها رائعة. تجربة مبهرة فعلًا.

هكذا أجابتها "كارولين". فقال "رالف":

- ربما عليَّ أن أترككم لبعض الوقت، حتى تتحدثا بآرائكم عن المسرحية بكل صراحة.

ضحك ضحكته الجهورية الهادرة؛ حتى إن بعض الحضور التفت نحوه، قبل أن يضحكوا سعداء لضحكه.

كما سبق أن أخبرتك، أحيانًا ما أطلب من مرضاي خلع ملابسهم. وذلك حينما أستنفد جميع البدائل الأخرى. وباستثناء حالات بسيطة، فإن أغلب مرضاي أزواج وزوجات. أتأمل أجسادهم العارية. وتنطبع في عقلي الصور. أتخيل كيف يلتقي جسد بآخر. أتخيل أفواه وشفاه تلتصق ببعضها البعض، وأيادٍ، وأصابعَ تفتش وتتشابك، وأظافر تخدش وتنهش الجلد العاري. تكون الغرفة معتمة أحيانًا، ولكنها في أغلب الأحيان غير معتمة. وبعضهم لا يجد غضاضة في ذلك. فقد رأيتهم عراة بالفعل؛ رغم أنني أعلم أن الأفضل لي ولهم،

في أغلب الحالات، أن تكون الغرفة مظلمة. أنظر إلى أقدامهم، وكواحلهم، وركبهم، وأفخاذهم، ثم لأعلى، ولأعلى، حتى الصدر والعنق. أنا حقيقةً أتحاشى النظر إلى أعضائهم التناسلية. أرمقها بالطريقة نفسها التي تلقي أنت بها نظرة على حيوان ميت على جانب طريق. مجرد لمحة سريعة، وليس أكثر. أنا لم أحدثك عن المنظر من الخلف بعد. ظهر الجسد البشري قصة مختلفة تمامًا. بوسع الأرداف، وحسب قوامها أو انعدام ذلك القوام، أن تبعث في نفسك إما الرقة الطاغية أو الغضب الفاجر. تلك البقعة التي لا اسم لها، التي يلتقي عندها شق الأرداف بأسفل الظهر، حيث يلتئم مع نهاية العمود الفقري، ومنه صعودًا حتى لوحي الكتفين، ثم الشعر الخفيف في مؤخرة العنق. ظهر البشر أقرب في التشبيه إلى الصحراء البكر. في الجانب المظلم من القمر، تفقد الكبسولة الفضائية ومركبة الهبوط على السطح كل اتصال بينها وبين مركز التحكم على الأرض. أرسم على وجهي علامات الاهتمام. "هل يؤلمك جسمك عندما تنام على جانبك؟"، هكذا أسأله وأنا أفكر طوال الوقت في الأزواج الراقدين مع بعضهم، في النور أو في الظلام، يداعب أحدهما الآخر مُلامسًا جانب جسده. أرغب في أن ينتهي الفحص سريعًا. وأن يرتدي المريض ملابسه أسرع. لأعود للنظر إلى رأسه الذي يتكلم فحسب. غير أنني أعجز عن طرد صورة الجسد العاري من عقلي. أربط وجهًا بآخر. وأجسادًا ببعضها. أمزجها في بعضها. أتخيل رأسًا تقترب من أخرى، بينما أنفاسها ثقيلة متهدجة. صورة لسان يقتحم فمًا في لهفة محمومة. في المدن الكبيرة، تجد شوارع ممتلئة بناطحات السحاب التي تكاد تحجب ضوء الشمس تمامًا. فتنمو بين شقوق بلاط الأرصفة طحالب أو أعشاب ما تلبث أن تموت. والجو في تلك الشوارع بارد ورطب. أو حار ورطب. وذباب صغير في كل مكان. أو أسراب ناموس. يمكنك الآن أن ترتدي ملابسك. فقد رأيت ما فيه الكفاية. "كيف حال زوجتك؟".. "كيف حال زوجكِ؟".

نظرت إلى "رالف ماير"، ثم إلى "جوديث". وكما أخبرتك، فهي ليست ضئيلة الجسد كما قد يظهر. هي كذلك فقط عندما تكون معه. فكرت في الأفعال التي يقوم بها البشر عندما يجمعهم الظلام. نظرت إلى يد "رالف" القابضة على كأس الشامبانيا. فتعجبت من أن الكأس صامدة لم تتهشم حتى الآن.

ثم أتت تلك الحظة بغتة. تلك اللحظة التي صرت أفكر فيها كثيرًا بعد ذلك؛ تلك اللحظة التي كان ينبغي أن تكون جرس إنذار لي.

أخذت "جوديث" "كارولين" من ذراعها، وراحت تعرفها على سيدة. بدا لي وجهها مألوفًا وإن لم أكن أعرف من تكون، ولكني خمّنت أنها واحدة من ممثلات المسرحية. هكذا صارت "كارولين" واقفة بعيدًا عنا، وظهرها إلى "رالف" وإليَّ. قلت لـ"رالف":

- على كل حال، لم أشعر بملل ولو للحظات. كانت تجربة جديدة بالنسبة لي.

انتبهت إلى أن "رالف ماير" لم يعد ينصت إليَّ. بل لم يعد يراني. وأدركت، من دون أن أتتبع نظراته، ما كان ينظر إليه.

هناك الآن شيء ما يحدث للنظرة ذاتها. للعينين. بينما كان غارقًا في تأمل ظهر "كارولين" من أعلاه إلى أسفله، انسدلت غشاوة على عينيه. أنت ترى شيئًا مثل ذلك في تلك الأفلام الوثائقية التي تتحدث عن الطيور الكاسرة. صقر، أو نسر يلمح من مكانه في كبد السماء، أو من فوق غصن عالٍ، فأرًا أو فريسة لذيذة مشابهة. هكذا كان "رالف ماير" ينظر إلى جسد زوجتي، كما لو أنه قطعة لحم مطهوة ببراعة يسيل لها اللعاب. الآن أجد فمه يرتعش. شفتاه تنفرجان، يُحرِّك فَكَّيه، بل يُخيَّل إليَّ أنني سمعت صوت اصطكاك أسنانه، قبل أن يطلق تنهيدة حارة. "رالف ماير" في حضرة اللذة؛ تتذوق شفتاه مذاقًا خياليًا لطبق يتمنى لو أمكنه، في أي فرصة متاحة، أن يلتهمه بكل نهم.

أكثر ما أدهشني هو أنه أبدى كل تلك الانفعالات من دون بادرة حرج واحدة. كما لو أنني غير موجود أصلًا، حتى إنني توقعت أن يقوم ما بين لحظة وأخرى بفتح سوستة البنطلون حتى يتسنى له أن يتبول عليَّ بكل أريحية. وما الفارق في رأيك؟ ظل يفعل ذلك بين برهة وأخرى. ينتبه إليَّ في لحظة، وكأنه استفاق من جلسة تنويم مغناطيسي، قبل أن يضعف ويعاود الكرة من جديد.

نظر إليَّ وكأنه يراني لأول مرة. ثم نظر إلى كأسه الفارغة، وهو يقول:

- "مارك".. ما رأيك؟ تحب أن تشرب كأسًا أخرى؟

لما صرنا في الفراش معًا، حكيت لـ"كارولين" ما حدث. كانت "كارولين" قد حررت شعرها للتو من أسر كل تلك الأشياء التي تقيده بها. أحسست أنها منبهرة بما حكيته أكثر من كونها مصدومة.

- حقًا؟ وكيف كان ينظر إليَّ؟ احكِ لي ثانيةً..

- وكأنه ينظر إلى قطعة لحم طيبة المذاق.

- حقيقي؟ وهل في ذلك شيء؟ ألا تجدني بالفعل طيبة المذاق؟ أم أن لك رأيًا آخر؟

- "كارولين"، رجاءً! أنا لا أعرف كيف أقول لكِ ما أود أن أقوله حقًا.. أنا.. أنا أجدها فعلة قذرة.

- أوه، حبيبي. هل تعتبر نظرة رجل لامرأة جميلة قذارة؟ وهل تعتبر نظرة المرأة للرجل قذارة أيضًا؟ أقصد أن "رالف ماير" من نوعية الرجل زائغي الأعين، كما أنه حلم عديد من النساء. وربما كانت زوجته هي المعنية بتلك المشكلة، ولكنه اختيارها في النهاية. بوسع أي امرأة أن تحدد طبيعة الرجل الواقف أمامها في ثوانٍ.

- ولكنني كنت أقف إلى جواره، ورغم ذلك لم يجد أي حرج.

استدارت "كارولين" لتنظر إليَّ، تحركت في الفراش قليلًا حتى صارت في حضني، قبل أن تمرر يدها على صدري في دلال.

- غيران؟ أشعر بالغيرة في كلامك. زوج غيور.

- لست بغيور! وأنا أعرف طبيعة نظرة الرجل إلى المرأة. ولكن نظرته لم تكن طبيعية. كانت.. كانت قذرة. ليس لديَّ وصف آخر.

- يا لزوجي الصغير الغيور.. حبيبي.

8

في مهنة مثل مهنتي، يكون من المهم ألا تقلق كثيرًا بشأن المعايير الطبية.

أقصد هنا ما يتعلق بالمسؤولية الطبية. ففي المهن "الإبداعية"، يكون الإفراط هو القاعدة وليس الاستثناء. فأنا أجد إجمالي ما يتناوله مرضاي من خمور في الأسبوع مساويًا لعشر زجاجات جديدة ممتلئة. وبوسعي أن أصارحهم بالحقيقة. والحقيقة هي أن كلًا منهم يتناول ما متوسطه كأسين أو ثلاث كؤوس في اليوم. فالمرأة تتناول كأسين، والرجال ثلاثة. ولكن لا أحد يحب أن يسمع الحقيقة. أضغط بإصبعي على الكبد. أختبر صلابته. وأسأله: كم كأسًا تشرب خلال اليوم؟ فلا يكون بمقدوره أن يخدعني. فمن الواضح لي أنه يشرب. يقول لي: واحد بيرة قبل العشاء، أما بعده فليس أكثر من نصف زجاجة. حاسة الشم لديَّ ممتازة، لذلك أكاد أشم الكحول وهو يتطاير من مسام جلده، من فرط ما يشرب. تفوح من جلود الرسامين والنحاتين رائحة الجين أو "الأو دي في". أما الكتاب والممثلين فرائحتهم بيرة وفودكا. ورائحة الكاتبات والممثلات هي النوع الرخيص من الكاردوني بالثلج. ورغم أنهم يحاولون وضع أياديهم على أفواههم حتى لا تنبعث منها الرائحة، ولكنهم يعجزون عن منع التجشؤ. ولا يمنعني شيء من التعليق على ذلك طبعًا. أحاول أن أصارحهم بصورة مباشرة وسريعة. أنتم تشربون ما هو أكثر من ذلك

بكثيرا وعندئذٍ يغادرني المريض. على النحو نفسه الذي ترك به طبيبه السابق. طبيب قام مثلي، بالضغط على مكان الكبد فشعر بما شعرت أنا به، ولكنه فضل ألا يصارحه بالحقيقة. والحقيقة هي أنه لو استمر على المنوال نفسه فلسوف ينهار كبده خلال سنة. وستكون النهاية مؤلمة جدًا. سيعجز الكبد عن التعامل مع سموم الجسد. وسوف يتضخم ليملأ أنحاء بطنك. بينما تنتشر السموم في جسدك. وتتراكم عند الكاحلين، والبطينات، وبياض العينين. في البداية يتحول بياض العين إلى الأصفر، ثم أخضر. وتموت أجزاء من الكبد. والمرحلة الأخيرة هي تمزقه فعليًا.

هكذا يغادرهم المرضى ليأتوا إليّ. أخبرهم أحدهم – صديق عزيز، رجل أو امرأة، أو زميل – أن هناك طبيبًا ممارسًا لا يهمه كثيرًا قدر ما تتناولونه من كحول في اليوم. فأقول لكل مريض، اسمع، مسألة الحد الأقصى لعدد الكؤوس التي تشربها في اليوم مسألة نسبية. أنت لا تعيش إلا مرة واحدة. والحياة الصحية للغاية واحدة من مسببات التوتر النفسي. انظر حولك. هل خطر لك من قبل أن تحصي عدد الفنانين الذين عاشوا حتى سن الثمانين أو أطول، رغم أنهم عاشوا حياة عربدة كاملة؟ هكذا أجد الارتياح على وجه مريضي الجديد. والابتسامة ترتسم على وجهه، أو وجهها. أذكر له أسماء، مثل "بابلو بيكاسو". كان "بابلو بيكاسو" يعرف من أين تؤكل الكتف. أما ذكري لتلك الأسماء فأضرب به عصفورين بحجر. فعندما أذكر لمريضي الفنان اسم فنان مشهور آخر في نفس الجملة، يشعر وكأنه هو نفسه "بيكاسو آخر"، ولو كان هذا شعورًا مؤقتًا لا يستمر سوى للحظة. ولو شاء لصارحته بالحقيقة: أنت عربيد أكثر من "بيكاسو نفسه"، ولكن الفارق بينك وبينه هو أنك لا تمتلك حتى عُشر موهبته.

ولو أمعنت النظر في الأمر، لأدركت أنها مضيعة. مضيعة للكحول، طبعًا. ولكنني أفضل ألا أقول ذلك. كما لا أفضل أن أذكر له أسماء آخرين. أسماء عباقرة شربوا حتى الموت. ففي نهاية ظهيرة اليوم الأخير في حياته، عاد "ديلان توماس" إلى غرفته في فندق "تشيلسي" في نيويورك. وقال لزوجته: "لقد شربت ثماني عشر كأس ويسكي متتالية.. رقم قياسي". بعدها فقد الوعي. وفي المشرحة وجدوا حجم كبده متضخمًا إلى أربعة أضعاف الحجم الطبيعي. وكذلك لا أذكر لمريضي "تشارلز بوكوسكي"، و"بول جوجان"، و"يانيس يوبلن". بل أقول له "المهم هو كيف تعيش". من بوسعهم الاستمتاع بالحياة يعيشون أطول ممن يضيقها على نفسه، فلا يتناول إلا الخضراوات والزبادي "الأورجانيك". أحكي له عن النباتيين الذي يعانون من اضطرابات في الأمعاء، وعن الذي لا يشرب أبدًا ولكنه يموت في ربيعه العشرين بسبب أزمة قلبية، وعن شخص لم يكن يدخن، ولكنهم اكتشفوا إصابته بسرطان الرئة، بعد فوات الأوان.

أحدثه عن دول البحر المتوسط. الناس هناك يشربون النبيذ منذ قرون، ولكنهم أشد صحة من الناس هنا. ولكنني أتعمد ألا أحدثه عن دول وشعوب بعينها هناك. ولا أحدثه عن متوسط عمر الفرد في روسيا التي تعوم في الفودكا. أقول له أنك لن تكبر في السن أبدًا طالما أنك لا تعيش. عش حياتك بطريقة صحيحة. أتدري لماذا لا يصاب الأسكتلنديون بالإنفلونزا؟ لا تدري؟ طيب، سأحكي لك.. أنا في هذه المرحلة ضمنت مريضي، وصار في جيبي. وأبدأ في سرد أسماء مصانع تقطير الويسكي في أسكتلندا والتي أحفظها عن ظهر قلب: "جلينفيديش"، "جلينكيرن"، "جلينكادام". وعندئذٍ، أصل إلى اللحظة الحاسمة في أول لقاء بيني وبين هذا المريض: ألّح له إلى حقيقة أنني أشرب من آنٍ لآخر. وأستمتع بذلك. وأنني مثله. واحد منهم. ولكنك تعلم أنني أبالغ طبعًا. فأنا أعرف مركزي جيدًا. فأنا لست فنانًا مثله. ما أنا إلا طبيب ممارس. ولكنني

طبيب ممارس تصادف أنه يقدر الحياة الحلوة، ويفضلها على الاستمتاع بجسد سليم مئة في المئة.

من بين مرضاي وزيرة ثقافة سابقة، وزنها يتجاوز مائة وخمسين كيلو جرامًا. كنت أتبادل معها وصفات الأطعمة. رغم أنه من الطبيعي ألا أتبادل معها هي بالذات مثل تلك المعلومات. تقول لي وهي تلقي بجسدها اللاهث فوق الكرسي أنها أحيانًا تشعر باختناق تام. فأطلب منها أن تفك أزرار البلوزة؛ لتكشف الجزء العلوي من ظهرها فحسب، وأضع السماعة. الصوت القادم من أعماق الجسد البدين يختلف عن ذلك الذي تسمعه من جسد طبيعي. فالأعضاء الحيوية تبذل جهدًا مضاعفًا داخل الجسد البدين. فهناك صراع شرس على امتلاك المساحات بالداخل. وهي معركة خاسرة من قبل أن تبدأ. فالدهون منتشرة في كل مكان. والأعضاء تتلعثم مع بعضها البعض. أسمع أكثر. أسمع الرئتين، التي يتوجب عليها دفع الدهون بعيدًا عنها مع كل نفس. أطلب منها أن تتنفس ببطء شديد. فأسمع صوت الدهون وهي تعود إلى مكانها في كل مرة. أما القلب فهو لا ينبض، بل يخفق بقوة. يبذل جهدًا خارقًا. فعليه رغم كل تلك الظروف أن يضخ الدم حتى أبعد نقطة في الجسد. ولكن الشرايين تعاني من الدهون. أطلب منها أن تأخذ نفسًا ببطء. تتنحى الدهون بعض الشيء، بينما تحاول الرئتان الامتلاء بالهواء، ولكنها تفشل. إنها معركة على جزء من ألف جزء من بوصة واحدة. معركة لا تراها العين المجردة، ولكن الدهون تخوضها باعتبارها معركتها الحاسمة.

أنقل السماعة إلى مقدمة الجسد. بين ثديي الوزيرة السابقة نهر من العرق، تخيلته شلالًا جبلي يطل من بعيد. أحاول ألا أنظر إلى الثديين نفسهما. وكالمعتاد، يقع عقلي في المحظور، ويفكر في أفكار ليس من المستحسن أن يفكر فيها. ولكن الأمر ليس في يدي. أفكر في زوج الوزيرة السابقة، كاتب دراما

يقضي معظم العام من دون عمل. وأفكر في الطريقة التي يمارسان بها الجنس؛ من يكون فوق ومن يكون تحت. في البداية هو فوقها. ولكنه يحتار ويرتبك. أين يروح وأين يجيء. يتعامل مع طيات جسدها بالطريقة نفسها التي تتعامل بها مع مرتبة مائية نصف ممتلئة. ويبدو أنه يكاد يغرق. تشتكي زوجته اللاهثة، وتزيحه عنها. يصير هو تحت. أتخيل الثديين يغطيان وجهه، ويغمران رأسه شيئًا فشيئًا. كسوف كلي تام. إظلام شديد. ثم اختناق. ولا نفس. يصيح كاتب الدراما بكلمات غير مفهومة، سرعان ما تدفن في ثدييها. غاب وجهه تمامًا فيهما. ساخنان.. متعرقان. تتحرك حلمة بنفسجية هائلة بكل حرية فوق فمه ومنخاره. ثم يسمع صوت طقة، إنه أول ضلع من ضلوعه ينهار تحت امرأة وزنها يتجاوز المئة وخمسين. كما أن كل شيء في نصفها السفلي بدين أيضًا، لذلك تستغرق وقتًا قبل أن تشعر أن هناك شيئًا ما بداخلها من الأصل. ويتوالى انهيار الأضلاع. كأن بناءً من عشرة طوابق يتهدم؛ ومقاول الهدم لا يلقي بالًا للرسومات الهندسية، وعماله منهمكون في هدم الجدران وتسوية كل شيء بالأرض فحسب. في البداية يرتج البناء، قبل أن يتمايل منهارًا. تبدأ في لعق أذنه. وكان ذلك آخر ما شعر به، أو سمعه. لسان ضخم يقتحم صوان أذنه. أطلب منها أن تأخذ نفسًا آخر. كيف حال زوجكِ؟ هل عاد إلى العمل؟ بوسعي أن أخبرها أن أمورها لا يمكن أن تستمر على هذا النحو بعد الآن. لا يقتصر الأمر على ضيق المساحة المتاحة أمام كل عضو بالداخل. بل إن المفاصل تعاني أيضًا. وكل شيء في مرحلة الانهيار. الركبتان، وأوتار كاحليها، وفخذاها. هي مثل شاحنة تهبط في طريق منحدر، والفرامل معطلة، وهي مسألة وقت قبل أن تنحرف الشاحنة عن مسارها وتندفع بكل سرعتها عبر الحاجز إلى الوادي في الأسفل. ولكنني عوضًا عن ذلك أفتح درج مكتبي لأخرج وصفة طبق جديد. طاجن اللحم بـ"القراصيا" والنبيذ الأحمر. وصفة أخذتها من مجلة. تنظر

الوزيرة السابقة إلى صورة الطاجن. هوايتها الوحيدة الطهو.. هوايتها الوحيدة. ومسألة موتها مسألة وقت فحسب. أتوقع أن تموت وهي تطهو، ووجهها مدفون في مقلاة ساخنة.

كان "رالف ماير" بدينًا أيضًا، ولكن على طريقته. يمكنك أن تقول إنها طريقة طبيعية أكثر. فمن الصعب تحديد محيط جسمه على وجه اليقين. فالوزن الزائد معلق على جميع أنحاء جسده، وكأنه معطف ثقيل واسع. ولكنني سمعت خلال زيارته الأولى أصواتًا نادرًا ما أسمعها في أجساد الأصحاء. وضعت سماعتي على ظهره العاري. في البداية كان هناك النفس. ثقيل ومنهك، وكأنه يسحب الهواء بقوة من قعر بئر عميقة للغاية. أما نبضات قلبه فلها صدى. شبيه بالجرس. أما هناك عند المعدة والأمعاء، فسمعت أصوات غليان وفوران. سأعلم لاحقًا أنه شغوف بالتهام المحار والسمان. يقوم بتخلية السمان من عظامه قبل أن يلتهم لحمها في لقمة واحدة. وبعد ذلك ينهمك في "مصمصة" العظام بكل تلذذ. يقول لي: "أنا على الخشبة في كل ليلة. وخلال النهار، أستعد لبروفات مسرحية جديدة. وأجدني عاجزًا عن مجاراة هذا الجهد البدني".

أخبرني أنه عرف عيادتي من زميل له. زميل كان مريض لديَّ طوال أعوام. وهو نفس الشخص الذي أخبره عن موضوع الأقراص. وكيف أنني أكتب روشتة بتلك الأقراص بكل سهولة.. "بنزدرين".. "أمفيتامين".. "سبيد".. أي نوع أراه مناسبًا. أنتبه إلى سماعتي مرة ثانية. وأنا أتساءل بجدية عن الخراب الذي يمكن أن تلحقه تلك الأقراص بالجسد. يتسارع النبض، وتتسع حدقة العين، وتتمدد الأوعية الدموية. وهكذا نتمكن من بذل جهد إضافي لعدة ساعات أخرى.

أنا لا أغضب من أن يصفني أحدهم بأنني "دكتور سهل" فيما يتعلق بكتابة روشتة لأدوية معينة. فهذا صحيح، أنا "دكتور سهل". ما الذي يجبر أي إنسان على أن يعاني من الأرق أغلب الليل، بينما بوسعه أن ينام مثل الفيل

بمجرد تناول ملليجرام من "لورازيبام"؟ الأدوية هي التي تعزز جودة الحياة. أعرف زملاء يحذرون مرضاهم من مخاطر اعتياد تعاطي دواء بعينه. ويصفون الفاليوم، ولكنهم يرفضون تجديد الروشتة لنفس المريض بنفس الدواء. أما أنا فلست مثلهم. فبعض الناس يحتاج إلى من ينبهه بكل قوة؛ والبعض الآخر لا يحتاج إلا لإراحة عقله لساعتين. وجمال الأدوية في بساطتها. إن خمسة ملليجرامات "فاليوم" تهدئك بالفعل؛ وأقل من ثلاثة ملليجرامات من "بنزدرين" كافية بأن تجعلك تتقافز مثل القرد حتى الفجر. وبعض الرجال يخافون الذهاب إلى المتاجر أو التعرف على فتيات. ولكنه لو داوم على تعاطي "سيروكسات" لأسبوعين، فإنك ستجده يعود إلى منزله وقد اشترى دستة قمصان "هوجو بوس"، ومصباح مكتب غالي الثمن، وخمسة بنطلونات جديدة من "جي ستار رو". وبعد ثلاثة أسابيع، يكون قد تعرف على كل فتاة في النادي. ليست واحدة، أو اثنتين، بل كلهن. ولم يعد يخجل من أن تصده واحدة أو تسخر منه أخرى. بل لم يعد لديه وقت للصد والسخرية. واعلم أن من يقول لك "الليلة في أولها" هو مجرد شخص بائس، يبقى ملتصقًا بمقعده عند البار ووجهه شبيه بقطعة بيتزا عفنة، لا يفعل شيئًا سوى شرب البيرة لسبع ساعات، قبل أن يعود إلى منزله وحيدًا. لو كان يتعاطى "سيروكسات" لعرف أن الليل ليس له أول أو آخر. بداية الليلة هي اللحظة التي تريد أنت لها أن تبدأ. وكلما كانت البداية أسرع، كانت الليلة أطول. وتجده يجتذب الفتاة بعبارة من ابتكاره ويدرك مدى تأثيرها، بل ربما يكون قد وصل إلى مرحلة لا يحتاج معها إلى أي عبارة. كلمة واحدة كفاية. كلمة تافهة بسيطة. يقول للجميلة إنها جميلة. هذا كل شيء. يخبرني من اعتادوا "سيروكسات" أنهم لم يكونوا يمتلكون مثل هذه الجرأة من قبل في اصطياد النساء. يجدون أن أي شيء يتفوهون به كفيل بسقوط الفتاة أو المرأة في الشباك.. "هذا مكانكِ؟".. "هل

أنت مرتبطة؟".. "عيناكِ أحلى عندما تضحكين".. "إذا خرجنا مع بعضنا الآن، فستكون ليلة طويلة جميلة".. "هل تسمحين لي بأن ألمسكِ؟".. "أعرفكِ منذ خمس دقائق، ولكنني أشعر أنها العمر كله"، حرية ليس بعدها حرية.

البساطة.. هذا هو السر. بساطة أن تقول للجميلة إنها جميلة. لا منطق في أن تسألها: "أتعلمين أنكِ جميلة؟"، فهي تعرف أنها بالفعل جميلة جدًا. هذا سؤال لا تقوله إلا لغير الجميلة. امرأة لم تسمع هذا السؤال من قبل. وعندئذٍ لن يكون لامتنانها حدود. وستقبل منك في تلك الليلة أي شيء وكل شيء. حتى ولو كنت لم تستحم في ذلك المساء. حتى ولو كنت لم تنم مع امرأة قبلها منذ شهر أو شهرين. حتى ولو وجدت أن ما تناثر على أنحاء جسدها منك في لحظة النهاية هو مجرد سائل عطن عفن، ظل حبيس جسدك لشهور، حتى أصبح أصفر. ذلك الصفار الذي لا تجده إلا في صفحات كتاب لم يفتحه أحد، وبقي تحت الشمس حتى فقد معناه. سائل قذر تافه، مثل ذلك الذي يتبقى في زجاجة زبادو مفتوحة ومنسية في الثلاجة لأسابيع. ولكنك في النهاية فعلت ما كنت تحلم به. أؤكد لك أن الجميلة لا تسمع من أحد على الإطلاق عبارة تؤكد لها أنها جميلة. لن تجد لدى أي رجل في المكان شجاعة أن يقول لها ذلك. وكثيرًا ما تسمع الجميلات وهن يشتكين لبعضهن البعض من قلة سماعهن لمثل تلك العبارات التي تثني على جمالهن. وكأن جمالها أمر بديهي من بديهيات العالم، مثله مثل "الموناليزا"، أو "الأكروبوليس"، أو "الجراند كانيون". نحن لا نمتلك الكلمات الكافية لوصف امرأة جميلة بحق. لذلك نسكت. ينعقد لساننا. ونظل نلف وندور بالكلام حول هذا الجمال من بعيد. نجد اللسان يسألها عن المطاعم الجميلة أو عن خططها للصيف، فتبدي هي ارتياحًا للحوار الذي يدور بشكل طبيعي من دون تكلف. هذا شخص يحدثها في الأمور الحياتية فقط. طبيعي جدًا. عادي لدرجة مريحة. كأنها ليست جميلة على الإطلاق، ومجرد امرأة مثلها مثل غيرها. ولكنها تقلق بعد فترة. لأنها تشعر بوجود جانب ما خافٍ عنها وغريب أيضًا.

الجميلة تبرز جمالها ليكون واضحًا، وكأنها تضع تاجًا من الريش على رأسها. لذلك تشعر بشيء من الغرابة عندما تجد رجلًا يتحدث معها وهو غير منتبه تمامًا لذلك التاج.

"رالف ماير"، مثلًا، لم يتردد لحظة قبل أن يخبرني أن زوجتي جميلة. كان يجلس أمامي في العيادة، وقالها من دون لف أو دوران. في زيارته الثانية للعيادة، بعد مرور أقل من أسبوع على ليلة افتتاح مسرحية "ريتشارد الثاني". حضر إليَّ من جديد، ومن دون موعد، ومن دون اتصال مسبق. سأل مساعدتي "إليزابيث":

- هل يمكن أن أدخل إليه لدقيقة؟ مجرد دقيقة.

ظننت أنه قد جاءني لأكتب له روشتة جديدة، ولكنه لم يحضر ليتحدث عن تلك الأقراص.

- كنت قريبًا من العيادة. فقلت لنفسي أن أحضر وأطلب منك شيئًا شخصيًا.

- طبعًا

حاولت أن أنظر إليه بنظرة محايدة قدر الإمكان، ولكنني عجزت عن ذلك. عجزت عن عدم استحضار تلك النظرة التي كان ينظر بها إلى جسد زوجتي في تلك الليلة منذ أسبوع.

- سنقيم حفلة يوم السبت. في المنزل. لو كان الطقس جيدًا فستكون في الحديقة. ورغبت في دعوتك أنت وزوجتك.

حدقت فيه والأفكار تتقافز في رأسي. هل كان سيدعوني لو كانت زوجتي امرأة أخرى غير "كارولين"؟ امرأة أقل جاذبية؟

- حفلة؟

- ذكرى لقائي بـ"جوديث"، منذ عشرين عامًا.

- غير معقول. عشرون عامًا! مرَّ كل هذا الزمن.. هل هذا معقول؟

9

- إنه لا يهدر أي وقت. ينطلق إلى هدفه مباشرة.

كنا جالسين إلى ترابيزة المطبخ. وصوت غسالة الأطباق في الخلفية. كانت "ليزا" قد نامت بالفعل، و"جوليا" تنهي الواجب في غرفتها. وصبت "كارولين" ما تبقى من نبيذ في كأسينا قائلة:

- لا تكن جادًا هكذا يا "مارك". الحكاية أنه معجب بك. وليس عليك أن تبحث عن دوافع خبيثة في كل شيء.

- معجب بي! إنه غير معجب بي على الإطلاق. وعرفني ذلك بأكثر من طريقة: "لديك زوجة لطيفة جدًا يا مارك!" هكذا كان ينظر إليكِ في المسرح. بالطريقة التي ينظر بها رجل إلى امرأة "لطيفة جدًا". لا تجعليني أضحك على حالي!

شربت "كارولين" من نبيذها، ثم أدارت رأسها قليلًا لتنظر إليَّ. أراه في عينيها: إنها تجد الأمر مسليًا، أن تكون محور اهتمام غير متوقع من الممثل المشهور "رالف ماير". ولا يمكنني لومها. ولو تريدني أن أكون صريحًا معك تمامًا، فإنني أجد الأمر مسليًا بدوري. أشد تسلية بكثير من حرصك على ألا ينتبه الممثلون المشاهير إلى وجود زوجتك. ولكنني أتذكر تلك النظرة القذرة. نظرة الحيوان المفترس. كلا.. ليس الأمر مسليًا إلى ذاك الحد.

- تقول إنه لم يدعُنا إلى حفلته إلا من أجلي أنا. ولكن هذا عبث. ألم يقم بدعوتنا إلى ليلة الافتتاح أيضًا؟ ولم يكن وقتها قد رآني من قبل.

كلام وجيه بصراحة. ولكن، هذان أمران مختلفان تمامًا، وهناك فارق بين دعوة إلى ليلة افتتاح ودعوة إلى حفل خاص في منزل.

- طيب، لنعكس الأمر لحظة. عيد ميلادكِ الشهر المقبل. فهل ستوجهين دعوة حضور الحفل إلى "رالف ماير"؟

نظرت "كارولين" إليَّ في دلال وغواية:

- حسنًا.. كلا.. هل أنت راضٍ الآن؟ غير مفروض أن أوجه له دعوة. أنت على حق في هذه النقطة. ولكن ما أحاول أن أوضحه لك هو أن ليس عليك أن تتوقع الأسوأ دومًا. فربما كان يحبنا بالفعل. نحن الاثنان. ألا يمكن أن يكون هذا هو السبب؟ لقد تحدثت طويلًا مع زوجته في تلك الليلة. وأعتقد أن صداقة حميمة قد تنشأ أحيانًا على الفور. وهذا ما شعرت به مع "جوديث". ومن يدري، فربما تكون هي التي طلبت من "رالف" أن يدعونا.

"جوديث". كنت قد نسيت اسمها مجددًا. وكانت المرة الأولى التي أنساه فيها بعد أقل من ثانية من مصافحتي لها في استراحة المسرح. والمرة الثانية كانت هذا الصباح، عندما بدأ "رالف ماير" يتحدث عن الحفلة.

"جوديث".. وبخت نفسي بيني وبين نفسي.. "جوديث".

أصارحك أنني عندما أمسكت يدها وهي تخبرني باسمها، نظرت إليها تلك النظرة التي تراها في عيني أي رجل يلتقي امرأة لأول مرة. "أيمكن أن تكون معها بمفردك؟"، هكذا سألت نفسي، وأنا أتأمَّل عينيها. وكان جوابي هو.. نعم.

وكذلك نظرت "جوديث" إليَّ. كل ذلك في بضعة أجزاء من الثانية، في نظرة عين. هكذا كانت. أطول قليلًا مما يليق. وبينما كنت أعمل على نسيان اسمها، وجدتها تبتسم لي. ابتسامة من العينين أكثر منها من الفم. تقول لي العينان: "أجل.. لا مانع في أن أكون معك بمفردنا".

لا أعتقد أن الاحترام هي الكلمة المناسبة هنا. تلك كلمة تنتمي إلى جمل تفضل ألا تسمع نفسك وأنت تنطق بها بصوتٍ عالٍ. جمل من قبيل: "ظننت أنك ستبقي الأمور هنا عند الحد الأدنى من الاحترام". كلا، الاحترام صفة لا يمكن أن أدعيها لنفسي. أنظر إلى النساء بهذه الطريقة لأن لا فكرة لديَّ عن أي نظرة مغايرة يمكن أن أنظر للنساء بها. وقد يكون ذلك سيئًا جدًا للسيدات "اللطيفات"، لأنهن بالفعل لطيفات، ولكنني أحاذر ألا أطيل النظر إليهن. كما أنني لست وقحًا، وبوسعي أن أتبادل معهن حوارًا مسليًا، ولكن لغة جسدي لن تترك مجالًا لسوء التفسير. "ليس معكِ"، هكذا تكتب لغة جسدي على جبهتي بأحرف كبيرة. "لا أريد حتى أن أفكر في ذلك". والنساء اللطيفات تعوضن افتقارهن إلى الجاذبية الجسدية بمواهب طبيعية وغير طبيعية في مجالات أخرى. فتجدهن في الاجتماعات التي يحضرها أكثر من مائة شخص وهن يجتهدن في صنع الشطائر. أو تتطوعن باستئجار القبعات والأقنعة لكل ضيوف الحفلة. أو تجلبن بالدراجات حطب المدفأة. فيقول الجميع: "ويلما" شخصية لطيفة للغاية. يا لها من سيدة طيبة! من غيرها يمكن أن يحضر لنا أشياء مثل هذه؟ من غيرها يمكن أن يفكر في هذا أصلًا؟ و"ويلما"، بالطبع، من النوع الشاحب النحيف جدًا، أو غير الجذاب جدًا، ولكنها في الوقت ذاته تقوم بالعديد من الأشياء بدافع من طيبة قلبها، لدرجة أنك تكون وغدًا حقيقيًا لو فكرت في أن تقول عنها شيئًا سلبيًا.

وفي النهاية، وفي أحد تلك الاجتماعات أو الحفلات التي يحضرها أكثر من مئة، ستجد رجلًا يحوم حول "ويلما". بالمعنى الحرفي للكلمة. نفس الرجل الذي نراه واقفًا عند حافة أرضية الرقص. تجده يتحرك بخفة على الإيقاعات الراقصة، ولكنه لا يدخل الحلبة إطلاقًا. وتتراقص زجاجة البيرة في يده مع الموسيقى. ولكنها الشيء الوحيد الذي يتراقص. ويسأل الناس بعضهم فيما

telegram @ktabpdf

بعد: "أتذكرون صاحبنا؟ ذلك الذي كان في الحفلة؟ أتعرفون أنه ارتبط بـ"ويلما"؟". وهكذا، ومنذ ذلك اليوم، صار هو المسؤول عن إحضار الأطعمة والمشروبات وخشب المدفأة. وهكذا، ارتاحت "ويلما" من سنوات كانت فيها "طيبة" "حبوبة". ومن يلومها؟ وبعد ذلك يأتي الأطفال. وهم في العادة أطفال عاديون. بموهبة عالية وطباع اجتماعية معقدة. أطفال يحبون الذهاب إلى المدرسة. لا يضيعون إلا بعض الدرجات، ولكنهم دائمًا ضحية بلطجة بقية الطلبة. ولاحقًا، حينما لا يجدون أمامهم إلا العمل في نقل السماد الطبيعي إلى مزارع الألبان "الأورجانيك"، فإنها تكون غلطة المجتمع. وفي تلك الأثناء، تتساءل صديقات "ويلما" عما وجدته صديقتهن في زوجها محدود المهارات الحركية. ولكنهن تتفهمن الوضع. ولا تصارحن "ويلما" بما تتفهمنه. ولكنهن تقلن لبعضهن البعض: "من الجيد على الأقل أنها عثرت على رجل. ورغم غرابة أطوارهما، فإنهما لائقان ببعضهما تمامًا".

"هل يمكنك أن تنام مع هذه؟". خلال سنوات دراستي في كلية الطب، كنا نسأل بعضنا دومًا هذا السؤال ونحن في محاضرة التشريح. كلما أحضروا جثة جديدة ووضعوها فوق ترابيزة التشريح. مرة تكون لعجوز تبرعت بجسدها لخدمة العلم، ومرة تكون لضحية حادث مروري وجدوا في جيبها بطاقة تبرع. كان الغرض من السؤال أن نكسر أجواء التوتر. ذلك التوتر الذي يسبق تشريح جسد إنسان. نتهامس بالسؤال فيما بيننا، وبصوت لا يسمعه الأستاذ. ونتراهن. مئة؟ مليون؟ لا؟ خمسة ملايين؟

كنا نصنف الجثث إلى فئات. الجثة التي لا بأس بها هي تلك التي تتصف بالقبح؛ والجذابة هي التي لوجهها ملامح ودودة لطيفة، رغم قوة البنية التي لا تتأثر حتى لو حطمت عليها زجاجة شامبانيا؛ وتكون جميلة لما تكون جثة

عارضة أزياء مثلًا. لها ذلك الجسد الذي يدفعك إلى التساؤل الحائر عما إذا يمكن لها أن تعود للحركة من جديد.

نظرت "كارولين" إليَّ قائلة:

- على ماذا تضحك؟ أهي نكتة أخرى تحتفظ بها لنفسك؟

- كلا. كنت أفكر في "جوديث". وفي "رالف". نظرته لي. وفي أن زوجته لا تعرف حقيقة ما سيجري في حفل ذكرى مرور عشرين عامًا على زواجهما، بسببكِ أنتِ.

- "مارك"! أنا لن أذهب لأفسد عليهما حفلتهما.

- بالطبع أعرف هذا. ولكن عليكِ أن تعديني ألا تفارقي جانبي طوال الحفلة. أتعديني؟

لم تتمالك "كارولين" نفسها من الضحك.

- أوه، "مارك"! من الرائع جدًا أن يكون لي زوج مثلك. يخاف عليَّ. ويحميني.

الآن، جاء دوري لأرمقها بطرف عيني بنظرة غواية، وأنا أقول:

- ما الذي سوف ترتدينه في الحفل إذًا؟

10

أي أب يفضل أن يكون له ابن على أن يكون له ابنة.

والحقيقة أن أي أم كذلك أيضًا. كان البروفيسور "هرتزل" يدرس لنا مادة البيولوجي. وألقى علينا محاضرات في العام الأول من كلية الطب عن الغريزة. ومما قاله:

- الخلاص من الغريزة غير ممكن. لكن بوسع سنوات من الحضارة أن تجعل الغريزة خفية. وأجبرتنا الثقافة والقانون على السيطرة على غرائزنا. ولكن الغريزة موجودة وحاضرة دومًا. ولا تنتظر إلا إشارة من وعيك لتطفو على السطح فورًا.

البروفيسور "آرون هرتزل". ألا يبدو لك هذا الاسم مألوفًا؟ أجل، هذا هو بالفعل "آرون هرتزل" الذي فصلته الجامعة فيما بعد بسبب دراساته على العقل الإجرامي. وقد صارت النتائج التي توصل إليها "هرتزل" من أبحاثه مقبولة على نطاق واسع اليوم، ولكن في ذلك الزمن - وقت أن كنت أدرس الطب - كان من المحظور التصريح بمثل تلك الآراء إلا همسًا. تلك كانت السنوات التي كان فيها الناس لا يزالون على يقينهم من وجود الخير في الإنسان. الخير في كل إنسان. وكانت الموضة حينذاك أن الإنسان السيىء قابل للتقويم. كل إنسان سيىء. ولكن "هرتزل" علمنا غير ذلك:

- العين بالعين، والسن بالسن، حقيقة أقرب إلى الطبيعة البشرية بأكثر مما نجرؤ أن نعترف به علنًا. فأنت تقتل قاتل أخيك، وتقطع بسكين حادة الرجل الذي اغتصب زوجتك، وتقطع يد السارق الذي اقتحم منزلك. ولا فائدة من النظام القانوني إلا كثير من التأخير قبل أن يصل في النهاية إلى النتيجة نفسها. إعدام. موت. نحن لا نرغب في أن نرى القاتل أو المغتصب في حياتنا من جديد. وعندما يموت الأب، يحل الابن محله. يطارد من يقتحم منزله ويقتل الهمج الذين يحاولون اغتصاب أمه وأخواته. فحينما يولد في العائلة ذكر، يتنفس الأب وكذلك الأم الصعداء حينما يتيقنون من أن المولود الأول في الأسرة ولد. تلك هي الحقيقة التي عجزت حضارة ألفي عام عن الخلاص منها. ألفا عام؟ ما الذي أقوله؟ تلك كانت الحال حتى زمن ليس بالبعيد. ربما منذ عشرين أو ثلاثين عامًا على أقصى تقدير. ومن المهم ألا ننسى أصلنا. بشر لطيف، مهذب، طيب، يحب الخير. ولكن هذه رفاهية لا بد للمرء أن يمتلكها أولًا. ففي معسكر التعذيب لا يبقى الإنسان لطيفًا، مهذبًا، ومحبًا للخير.

عليَّ أن أكون واضحًا معك هنا. فأنا أحب ابنتي. أحبها أكثر من أي شيء أو أي شخص في هذا العالم. ولكنني أحب الصراحة. والصراحة أنني كنت أرغب في ولد. كنت أرغب في ذلك إلى حد الشوق والتوق. ابن. ولد. فكرت في الغريزة البشرية وأنا أقطع الحبل السري. "جوليا". كانت أعز ما لديَّ منذ أول يوم جاءت فيه إلى الدنيا. صغيرتي. حب من أول نظرة. ذلك الحب الذي يجعلك تبكي. ولكن الغريزة كانت أقوى. همست لنفسي أن حظي سيكون أفضل في المرة القادمة. ستكون أمامك فرصة سانحة في غضون عام أو عامين. ولما جاءت "ليزا"، انتهى كل شيء. تحدثت مع زوجتي في عدة مناسبات، عن إنجاب طفل ثالث، ولكن فضولي بشأن ذلك لم يتجاوز المرحلة النظرية. وكل شيء قسمة

ونصيب. كان احتمال أن ننجب ابنة ثالثة أكبر بمئة مرة من فرصة أن نحظى بولد. وأب الثلاث بنات مسخرة بلا جدال.

إنه وقت مواجهة الحقائق. وتعلم التعايش معها. جلست أدون قائمة بالميزات والعيوب، وأشطب على كل بند فيها وأنا أراجع الموقف. بالطريقة نفسها التي تفعلها حينما تريد أن تقرر ما إذا كنت ستنتقل للعيش خارج المدينة أو تفضل البقاء فيها. لو عشت خارجها ستتمتع بسماء أصفى، وتشاهد نجومًا أكثر، وتعيش في هدوء وجو نظيف. أما في المدينة، فكل شيء في متناول يدك. صحيح أنها أشد ضجيجًا، ولكنك لن تكون مضطرًا لقيادة السيارة لعشرة كيلومترات حتى تشتري الجريدة. وهناك دور سينما ومطاعم. أما في الريف، فالحشرات أكثر، بينما في المدينة السيارات أكثر. ربما ليس عليَّ الآن أن أبين لك أنني – في قائمتي – أشبه الريف بالبنت والمدينة بالولد. يحب أهل الريف أن يبالغوا في الحديث عن مميزات العيش في الريف لدرجة أنهم يحولون العيوب إلى مزايا. يقولون لك ما هي إلا ساعة بالسيارة وتكون في المدينة. بوسعي أن أذهب وأشاهد الفيلم في السينما ثم أتناول العشاء في مطعم، ولكنني أسعد في النهاية بالعودة إلى كل هذا الهدوء والسكينة وسط الطبيعة في نهاية الرحلة.

ساعة ذهاب وساعة عودة: لم يتوصل عقلي إلى صورة لغوية أفضل من هذه لإظهار الفارق بين إنجاب ابنة وإنجاب ابن. وهكذا، وبعد مولد "ليزا"، اعتبرت نفسي من سكان الريف. قررت أن أتقبل العيوب، بل وأستمتع بالميزات. فالبنات أقل طيشًا. والبنات ألطف وأحلى. ورائحة غرفة البنت أجمل من رائحة غرفة الولد. وعليك أن تعتني بالبنات أكثر، وهذا يستمر معك طيلة حياتك. وأقصى موعد لعودتهن إلى المنزل بعد حفلة في المدرسة يبقى أبكر من أبكر موعد محدد للولد. وما بين المدرسة والمنزل شبكة من المحاذير والمحظورات. كما أن البنت تحب أباها. بل وتتنافس مع أمها على نيل رضاه. وكانت "كارولين"

تعاني من ذلك أحيانًا. تصيح متعجبة في كل مرة تغلق فيها "جوليا" باب غرفة النوم في وجهها: "ما الذي يجري، هلا أخبرني أحدكما؟". وتتساءل عندما تغمز "ليزا" لي: "ما المضحك في الموضوع؟". وتشتكي لي: "تريان أنك لا تخطئ أبدًا. فما الذي فعلته أنا خطأ؟ ما الذي تفعله أنت ولا أفعله أنا؟". عندئذٍ أكتفي بجملة واحدة:

- أنا أبوهما.

- هو مشهور بأي عمل بالضبط يا بابا؟

سألتني "ليزا" بينما كنت أركن السيارة على بعد عدة شوارع من منزل "رالف ماير". كنا قد تجاوزنا المنزل، ومررنا على سور ثم على شجيرات تحيط بحديقة في واحدة من أرقى أحياء مدينتنا وأهدأها. يمكنك أن ترى من خلال الشجيرات ضيوفه على البساط الأخضر أمام منزله وفي أيديهم الكؤوس وأطباق الطعام. هناك دخان، ربما هو دخان شواء: فقد شممنا من خلال نوافذ السيارة المفتوحة رائحة اللحم المشوي.

- هو مشهور أكثر كممثل مسرح. لا يظهر في مسلسلات التليفزيون بدرجة كبيرة.

بالنسبة إلى "ليزا"، فإن ممثل السينما هو المشهور، ويأتي بعده ممثل المسلسلات. كما أنها لا تعترف إلا بالممثلين والممثلات الشباب، أو من هم لا يتجاوزون عمر "براد بيت" مثلًا. وليس ممثلًا في عمر "رالف ماير"، الذي يقيم حفلًا بمناسبة بقائه مع نفس المرأة لمدة عشرين عامًا متواصلة. سألتني في دهشة:

- وهل يوجد أصلًا ممثل مسرح مشهور؟

- "ليزا"! كفاكِ غباءً! بالطبع يوجد.

هذه هي "جوليا"، التي كانت تضع سماعات الآي بود، ولكن من الواضح أنها كانت تسمعنا جيدًا.

- هل أخطأت في السؤال؟ أيمكن ذلك حقًا يا بابا؟ أن تكون مشهورًا بالتمثيل في المسرحيات؟

لم نكن ننوي اصطحاب البنتين إلى حفلة "رالف ماير". ولكننا كنا في ظهر يوم السبت، لذلك سألناهما عما إذا كانا يرغبان في الذهاب معنا. في البداية لم يكن هناك كثير من الحماس لديهما. ولكننا تفاجأنا لما أخبرانا، قبل موعد رحيلنا بنصف ساعة فقط، أنهما سيذهبان معنا. قلت لهما:

- لماذا؟ ليس من الضروري ذلك، كما تعلمان. أنا وماما سنعود خلال ساعات.

فقالت "ليزا":

- "جوليا" قالت لي إن الحفلة فيها الكثير من المشاهير.

نظرت إليَّ "جوليا" التي بادرتني:

- لماذا تنظر إليَّ؟ أليس هذا ممكنًا؟

بعد أن أغلقنا السيارة، ومشينا عبر الشجيرات وباب السور نحو المدخل، انشغل عقلي في البحث عن إجابة وجيهة عن سؤال ابنتي. أجل، هكذا قلت لنفسي، يمكن للمرء أن يكون مشهورًا بسبب التمثيل في المسرحيات، ولكن هذه الشهرة اليوم مختلفة عما كانت عليه من نصف قرن. وكانت هناك محاولات عديدة لإظهار موهبة "رالف ماير" أمام الكاميرا أيضًا، ولكن النتائج جاءت متفاوتة إلى حد بعيد. أتذكر ذلك المسلسل البوليسي الذي تم إلغاؤه بعد ثماني حلقات فحسب، وأتذكر تلك الطريقة الجادة المبالغ فيها التي كان "رالف ماير" ينطق بها جملة شهيرة في الحوار: "أبلغهم هناك في المركز، يا رفيقي!"، كانت جادة لدرجة أنك لا تتمالك نفسك من الضحك كلما سمعتها. كما أن دوره كبطل من أبطال المقاومة في فيلم "جسر فوق الراين"، وهو أضخم إنتاج سينمائي هولندي في التاريخ، لم يكن من الأدوار الناجحة إلى ذاك الحد. ما أتذكره من هذا الفيلم هو مشهد الهجوم على مكتب التوثيق في "آرنيم"،

والجملة التي قالها "ماير": "علينا أن نقبض على تلك العاهرة النازية ونفجر رأسها اللعين برصاصة!". فقد حاول "رالف" أن يبدو عابس الوجه وهو يقولها، ولكن التعبير على وجهه ظهر أقرب إلى تعبير عن حيرة وذهول. كما كان من الصعب على المشاهدين قبول فكرة وجود بطل مقاومة يتجاوز وزنه المئة كيلوجرام، لذلك اضطر "رالف" إلى اتباع رجيم قاسٍ قبل التصوير. وظهر بوضوح أنه فقد الكثير من وزنه، ولكن جسده لم يبدُ نحيفًا، بل بدا وكأنه أجوف وفارغ فحسب. وقبل نهاية الفيلم بنصف ساعة، وبينما كان يقف في مواجهة فرقة الإعدام، كان الارتياح مرتسمًا على وجهه. ربما كان سعيدًا لأن دوره في الفيلم سينتهي، حتى يسارع إلى عربة الطعام التابعة لشركة الإنتاج ليجهز لنفسه شطيرة.

- هناك كثير من الناس يذهبون إلى المسارح. وهم يعتبرون "رالف ماير" من المشاهير.

التفتت "ليزا" إليَّ، وعلى وجهها ابتسامة حلوة، وقالت:

- آه.. بالطبع.. معك حق يا بابا.

11

هناك أوقات ترغب خلالها في استرجاع شريط حياتك، حتى تحاول أن تعرف النقطة التي كانت هي مفترق الطرق فيها.

تقول لنفسك.. "ها هي ذي! انظر هناك..". تلك هي النقطة التي أقول لك إننا كنا نخطط عندها للاتجاه في ذلك المسار خلال عطلات الصيف (بالتأكيد.. بالفعل. ما المانع؟ من يعرف؟) وأن من الأفضل لنا أن ننتهز الفرصة. كان ذلك حينما كنا نودع بعضنا البعض، عند نهاية المساء، وقد أظلمت السماء بالفعل، وحينما تحدث "رالف" و"جوديث" عن المنزل الصيفي لأول مرة.

هنا.. تضغط زر الإيقاف، وتسترجع المشهد، لقطة.. لقطة. ها هي "جوديث" تحيط "كارولين" بذراعها وتقبّل خديها:

- سوف نكون هناك من منتصف يوليو إلى منتصف أغسطس. فإذا كنتم موجودين في المنطقة فـــ.

تعيد بضع لقطات، وسترى "رالف ماير" يضحك على نكتة لم تسمعها، ولا تتذكرها الآن أيضًا.

- منزل صيفي به بسين، وقريب من الشاطئ. فلو وجدتم الوقت، فلا مانع من زيارتنا. هناك متسع للجميع.

ثم يربت على ظهر ابنه، وهو يردف:

- وأعتقد أن "أليكس" لن يمانع أيضًا.

يغمز بعينه، وهو ينظر إلى ابنتي الكبيرة، "جوليا". ولكن "جوليا" تدير ظهرها لنا وتتظاهر أنها لم تسمعه.

"أليكس" هو ابنه الكبير. وكنت واقفًا عندما تم تعارف "جوليا" و"أليكس" ببعضهما البعض. كنا في الردهة، بعد أن دخلنا للتو. هذا ليس بالمشهد الذي تراه كل يوم، ولأنك بالفعل لا تراه، فإنك تدرك أنه حقيقي على الفور. الشرارة. تلك الشرارة السحرية.

سألتني "كارولين"، ونحن في السيارة عائدين إلى المنزل:

- هل أعجبتكم يا بنات هذه الفكرة؟ أن نزورهم في المصيف؟

لم يأتِ أي رد من الكرسي الخلفي. ولمحت في المرآة "جوليا" وهي تنظر هائمة من الشباك. بينما تضع "ليزا" سماعة "الإم بي ثري" في أذنيها.

التفتت "كارولين" إليهما:

- "جوليا"؟ "ليزا"؟ كنت أسألكما.

فقالت "جوليا":

- أجل.. عن ماذا؟

تنهدت زوجتي، قبل أن تقول:

- سألتكما عما إذا كنتما ستحبان أن نزورهم خلال المصيف.

- لا يهم.

- أوه.. ظننت أن الفتى أعجبكِ. فنحن لم نركما أغلب أوقات الحفلة.

- ماما!!

- أوكيه.. آسفة. خمنت أنكِ قد تحبين رؤيته مرة ثانية. في المصيف.

- لا يهم..

- وماذا عن "ليزا"؟

كان عليها أن تصرخ تقريبًا، حتى تجبر "ليزا" على خلع السماعة.

- ما رأيكِ، أن نذهب لزيارتهم في المصيف؟ إنهم يستأجرون منزلًا صِيفيًا عند الشاطئ. منزل صيفي به بسين.

كانت "ليزا" قد جلست مع أخي "أليكس" الأصغر وعدد من الصغار في ركن من غرفة المعيشة، حيث شاهدوا أفلام "دي في دي" ولعبوا بلاي ستيشن عبر شاشة بلازما ضخمة معلقة إلى الجدار. "توماس"! عجيب إن أمكنني تذكر اسمه على الفور. "توماس". "أليكس" و"توماس". بدا لي "توماس" في عمر "ليزا" تقريبًا، ولكن ربما كان "أليكس" أكبر من "جوليا" بعام أو أكثر قليلًا. ربما هو في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة. فتى وسيم، شعره كيرلي أشقر، وصوته أكبر من عمره. هناك في كل حركاته، وفي طريقة مشيته وطريقة التفاته لينظر إليك، نوع من المسكنة المدروسة، وكأنه يقدم نسخة أكثر وخمًا وخمولًا من نفسه. أما "توماس" فهو أقرب إلى نسخة فائقة الجودة وواضحة الصوت من أخيه: شديد الجلبة والصخب. يتسلى بإلقاء الأكواب وأطباق الشيبسي الفارغة إلى الركن المجاور للشاشة، ويميت بقية الأطفال من الضحك على نكاته وتعليقاته.

أجابت "ليزا" أمها:

- أها.. بسين!

أمضيت الدقائق الأولى عقب وصولنا إلى منزلهم وأنا أتجول من دون هدف بين غرفة المعيشة والمطبخ، ثم قررت أن أخرج إلى الحديقة. هناك كثير من الناس أكاد لا أعرفهم، من دون سبب. هناك بعض من مرضاي أيضًا. أغلبهم يراني لأول مرة في حياتي الطبيعية، بملابس عادية وشعر غير مهندم تمامًا، وربما لهذا السبب كانوا ينظرون إليَّ وبالكاد يتعرفون عليَّ ولكن ليس لدرجة أن يتذكروا من أنا تحديدًا. ومن ناحيتي، لم أحاول أن أساعدهم. بل اكتفيت بإيماءة من رأسي، وانصرفت عنهم.

وجدت "رالف" واقفًا عند الباربيكيو، يرتدي مريلة عليها عبارة "أحب نيويورك". يقلب قطع السوسيس والبرجر، وينقل أجنحة الدجاج إلى طبق كبير. لمحني، فنادى عليَّ وهو يدس ذراعه في صندوق الثلج ويخرج علبة بيرة "جوبيلر":

- "مارك"! مع زوجتك؟ أتمنى أن تكون قد أحضرت زوجتك الفاتنة معك، أليس كذلك؟

ناولني علبة البيرة المثلجة. فنظرت إليه. ولم أتمالك نفسي.. ضحكت.

- ما المضحك؟ إياك أن تخبرني أنك حضرت إلى هنا وحدك؟

تطلعت في أنحاء الحديقة، وكأنني أبحث عن "كارولين". ولكنني كنت أبحث عن امرأة أخرى. ووجدتها على الفور. تقف إلى جوار الباب الزجاجي الذي خرجت منه منذ دقائق مضت.

رأتني بدورها. لوَّحت لي، تحييني.

- سأذهب لأرى ماذا تريد.

قبل أن أستمر في الحكاية، يلزمني أن أخبرك بشيء عن مظهري. أنا لست في وسامة "جورج كلوني". ووجهي ليس من النوع الذي يؤهلني أن ألعب دورًا مساعدًا في أي مسلسل من المسلسلات التي تدور أحداثها في المستشفيات. ولكنني وسيم إلى حد مقبول، ومطلوب. وأمتلك تلك النظرة التي يتميز بها أغلب الأطباء كافة. لي نظرة تـــ.. بماذا أصفها لك.. لي نظرة "تُعري". نظرة ترى الجسد البشري على حقيقته. نظرة تقول: جسدك لا يخفي أي أسرار عني. حتى لو ارتديت ملابسك، تبقى عاريًا أسفلها. هكذا ننظر إلى الناس. فهم بالنسبة لنا ليسوا مرضى، بقدر ما هم سكان مؤقتون لتلك الأجساد، التي سيأتي بلا شك عليها يوم تكون فيه آيلة للسقوط، ما لم تكن تخضع لصيانة دورية ودقيقة.

كنت أقف مع "جوديث" أمام الأبواب الزجاجية المنزلقة. وصوت الموسيقى يأتينا خافتًا من داخل المنزل إلى الحديقة. أحيانًا ما تكون موسيقى لاتينية: "سالسا". ولكن لا أحد يرقص. مجموعات صغيرة تقف وتتحدث. لم يكن منظري أنا و"جوديث" ليلفت أي أنظار. نحن أيضًا مجموعة صغيرة. سألتها:

- هل تعيشان هنا منذ مدة طويلة؟

كلانا يحمل طبقًا بلاستيكيًا، ملأناه للتو من البوفيه الموجود في غرفة المعيشة. اخترت قطع اللحم الباردة، وجبنة فرنسية، وأشياء أخرى عليها مايونيز، أما هي فاختارت كثيرًا من الطماطم والتونة، وشيء أخضر رمادي يشبه أوراق الخرشوف، ولكنه ليس هو في الغالب.

- كنت أعيش إلى جوار منزل والديَّ. وعشت مع "رالف" في عوامة لبضع سنوات. منزل جذاب ورومانسي، سمِّه ما شئت، ولكن عندما أنجبنا الولدين، ضاق بنا المكان. وكذلك خشينا عليهما من العيش في مكان تحيط به المياه من كل جانب. كنا مستعدين للانتقال. ومللنا تمامًا من الصعود والنزول إلى العوامة.

ورغم أنها لم تكن تتحدث بنبرة ساخرة أو مضحكة، فإنني ضحكت. عرفت من الخبرة أن هذه هي الطريقة الفعالة: كلما سارعت بالضحك خلال حوار يجمعك مع سيدة، كان هذا أفضل. رغم أن العادة جرت أن المرأة لا تُضحك الرجل. هن تجدن أنفسهن غير مضحكات. وهن على حق، في العادة أيضًا.

- وأبواكِ..؟

تركت السؤال معلقًا في الهواء، وفي الوقت نفسه رسمت دائرة صغيرة فوق طبقي بالشوكة البلاستيكية. أقصد داخل الإطار.. كنت أسألها عما إذا كان أبواها لا يزالان بيننا. بين الأحياء.

- تُوفي أبي منذ عدة سنوات. وشعرت أمي أن المنزل كبير عليها، وهكذا انتقلت للعيش في شقة في وسط المدينة. ولي أخ يعيش في كندا. ولم يمانع في حصولنا على المنزل.

- ألا تجدين هذا غريبًا؟

سألتها، وأنا أشير بالشوكة خارج الطبق. وأردفت:

- أليس غريبًا أن تعيشي في المنزل الذي تربيتِ فيه؟ أقصد أن الأمر أشبه بالعودة في الزمن. زمن كنتِ فتاة صغيرة.

تحاشيت النظر إلى عينيها بعض الشيء وأنا أنطق الجملة الأخيرة. رمقت فمها. فمها الذي يمضغ ورقة خس. نظرت بشكل واضح، بطريقة رجل ينظر إلى فم امرأة. ولكنها كانت كذلك نظرة طبيب. تقول النظرة: لا تحدثيني عن الأفواه. الأفواه لا تخفي أي سر عنا هي الأخرى.

- بالفعل كان الأمر غريبًا، في البداية. وكان أبواي لا يزالان بيننا. وما كنت لأتفاجأ لو فتحت أي باب ووجدتهما خلفه.. أو في الحمام، أو المطبخ، أو هنا في الحديقة. الحقيقة أنني كنت أفكر في أبي أكثر من أمي. أقصد أن أمي كانت هنا أغلب الوقت، لذا فالأمر مختلف. ولكننا بادرنا بتجديد المكان. وغيرنا في تصميم بنائه إلى حد كبير. مزيد من الغرف، ومطبخ جديد، وبقية تلك الأمور. عندئذٍ تبدد ذلك الإحساس. لم يختفِ بالكامل، ولكنه توارى.

الفم آلية. أداة. الفم يستنشق الأكسجين. ويمضغ الطعام ويبتلعه. ويتذوق، ويستشعر ما إذا كان الشيء ساخنًا جدًا أو باردًا جدًا. في تلك اللحظة، كنت أنظر في عيني "جوديث" مجددًا. وبقيت أنظر إليها، بينما كنت أفكر في تلك الصفات عن فمها. والنظرة تبوح بما هو أكثر من الكلمات وحدها. وهذا من قبيل "الكليشيه". ولكن "الكليشيه" بدوره يقول ما هو أكثر من الكلمات وحدها. قلت لها:

- وغرفتكِ؟ أقصد غرفة نومكِ القديمة، وقت أن كنتِ صغيرة؟ هل غيرتم جدرانها أيضًا؟

عندما قلت "غرفتكِ"، رفعت عينيَّ وضيقتهما، وكأنني أنظر نحو الطوابق العلوية للمنزل. كانت بمثابة دعوة. حتى تريني غرفة نومها القديمة. الآن، أو لاحقًا في هذه الظهيرة. بوسعنا أن نطالع ألبوم صور في غرفة نومها القديمة. ألبوم صور قديم. نجلس إلى حافة الفراش الصغير الذي كانت تنام عليه وهي صغيرة. صور "جوديث" على المرجيحة، في البسين، في المدرسة مع زميلاتها. وفي اللحظة المناسبة، أتناول ألبوم الصور من بين يديها وأدفع جسدها برفق إلى الفراش. سوف تقاومني، ولكنه مجرد تمنع ودلال. سوف تضحك، وتدفعني عنها بيديها. ولكن الخيال ينتصر في النهاية. خيال قديم، في نفس قِدم غرفة النوم نفسها. يلبي الدكتور استدعاءً لكشف منزلي. يفحص الدكتور درجة حرارتك. يضع الدكتور يده على جبهتك. يطلب الدكتور من الأبوين القلقين الخروج من الغرفة، ليبقى جالسًا مع مريضته لدقيقة.

- كلا. غرفتي القديمة هي غرفة "توماس" الآن. وهو من دهن جدرانها بنفسه. باللونين الأحمر والأسود. بالمناسبة، ولو يهمك أن تعرف، فقد كانت الجدران باللونين البنفسجي والوردي.

- وكان لكِ سرير به العديد من الوسائد الوردية والبنفسجية والكثير من "الدباديب". وبوستر لـ....

كنت أخمن بكل جرأة، واستبعدت أن يكون البوستر لأحد نجوم الروك أو السينما:

- بوستر لكلب بحر صغير.. لطيف.

بالإضافة إلى نظراتي، ينبغي لي الآن أن أخبرك بأمور عن شخصيتي. فأنا أشد جاذبية من أغلب الرجال. في تلك القوائم التي ينشرونها عن الصفات المهمة في الرجل في المجلات النسائية، تجد أن أغلب النساء يصوتن لصفة "حس

الدعابة". وكنت أعتقد أن هذه كذبة. كذبة الغرض منها أن النساء في وقت الجد يخترن نماذج مثل "جورج كلوني" أو "براد بيت". ولكنني غيرت رأيي بعد ذلك. ولا تقصد المرأة بحس الدعابة أنها ترغب في الضحك على كل النكات التي يلقيها الرجل الواقف أمامها. بل تقصد أمرًا آخر؛ أن الرجل ينبغي أن يكون ظريفًا. ليس كوميديانًا، بل ظريف. فهي تخشى جدًا من أن تشعر بعد أمد طويل بالملل في صحبة الرجل شديد الوسامة. وتخشى من أن مثل هؤلاء الرجال يمضون وقتًا طويلًا في الاعتناء بأنفسهم. وأن أمثالهم لا يحتاج إلى بذل الكثير من الجهد مع أي امرأة. فهي بالنسبة له سلعة مضمونة. فبعد شهر العسل بفترة ليست طويلة يكونان قد تكلما في كل الموضوعات. ويتسلل الملل. حتى يصير من المؤلم أن تقضي يومها حول رجل لا يعجب إلا بنفسه وصورتها في المرآة. وهكذا تشعر بأن الزمن لا يمر، وأن حياتها تحولت إلى مجرد برواز كإطار لصورة جميلة، ولكنها مملة. فهي لا تتغير.

- خيالك واسع.

- حسنًا.. حصان. لا.. حصان "بوني". أنتِ تقرئين كتبًا عن الخيول.

- أجل، أحيانًا أقرؤها. ولكن البوستر لم يكن لحصان. ولا حصان "بوني".

- بابا.

شعرت بيد تحيط بمرفقي وتجذبني نحوها. كانت "جوليا" ومعها الولد الكسول الذي صافحني في البداية، والذي نسيت الآن أن اسمه "أليكس". يقف من خلفهما أولاد وبنات.

- هل يمكننا الخروج لشراء آيس كريم؟ المحل قريب جدًا.

وجدت التوقيت جيد وسيء في الوقت نفسه. كان هناك احتمال لتبدد إيقاع الحوار – الذي يبدو بريئًا – بيننا عن غرفة نوم سنوات المراهقة، وعن بوسترات كلب البحر وكتب الخيول. وفي الوقت نفسه، هأنذا أقف مع ابنتي التي بلغ

عمرها ثلاثة عشر عامًا، والتي صارت دليلًا حيًا على ما يتمتع به هذا الرجل – أنا يعني – من جاذبية وظرف، وكذلك قدرته على تربية فتاة مثلها. وهي ليست مجرد بنت والسلام؛ بل شقراء ذات عيون حالمة قادرة على أن تطير عقول الفتيان من سنها بمجرد نظرة. وأنا لن أنكر أنني أجد متعة في الوجود بصحبة بنتيَّ في أمكنة تتيح للناس أن يرونا معًا. في مقهى على الناصية، في متجر، على الشاطئ. ينظر الناس إلينا. وأعرف أنهم ينظرون. وأعرف أيضًا أنهم يقولون لأنفسهم عندئذٍ: "ياه، لقد كبرت البنات بسرعة! آية في الجمال!". وعندئذٍ يتذكرون بناتهم. اللاتي لم يكبرن ليصرن على النحو نفسه. ويشعرون بالغيرة. أكاد أحس بنظرات الغيرة المسلطة علينا. وهكذا يبدؤون في التفتيش عن أي عيوب: أسنان غير منتظمة تمامًا، مشكلات في البشرة، صوت غير حلو. ولكنهم لا يجدون أي عيب من تلك العيوب. فيغضبون أكثر. يغضبون من الأب الذي وهب حظًا أفضل منهم. إن البيولوجيا قوة تستحق التأمُّل. ولو لديك طفل غير وسيم أو طفلة غير جميلة فإن حبك له أو لها لن يقل ذرة. ولكنه سيكون حبًا من نوع مختلف. نفس حبك لشقتك التي في الطابق الثالث من عمارة، إلى أن تجد نفسك في حفل عشاء في منزل به بسين داخل حديقة. سألتها بهدوء بالغ:

– أين؟ أين هو محل الآيس كريم؟

كنت أنظر إلى الولد الكسول بالطريقة نفسها التي ينظر بها كل أب إلى ولد يريد الذهاب لشراء آيس كريم مع ابنته. نظرة تقول: لو فكرت مجرد تفكير في لمسها، فسوف أقتلك. وفي الوقت نفسه، يكون بداخلي صوت يهمس لي بأن من الضروري أن أتركها تذهب معه. هناك فترة معينة ينبغي فيها للأب الخائف على ابنته أن يتنحى قليلًا، لتحقيق ما فيه صالح حفظ النوع البشري. جانب آخر من جوانب البيولوجيا. قالت "جوديث":

– المكان قريب. عليها فقط أن تعبر الشارع الرئيسي المزدحم بالسيارات.

نظرت إليها. وقاومت الرغبة في أن أقول لها: ابنتي عمرها ثلاث عشرة سنة، يا حبيبتي، وهي تذهب إلى المدرسة وحدها وبالدراجة.

تظاهرت بأنني أفكر في الأمر. وبأن عنادي سيَلِين. عناد أب قلق، ولكنه لطيف. وقبل كل شيء، هو أب ظريف. قلت وأنا أنظر إلى الولد:

- حسنًا. احرص على سلامتها.

هكذا صرنا وحدنا مجددًا، "جوديث" وأنا. ولكن الفرصة كانت قد فاتت في الحقيقة. وسيكون من الخطأ أن أعيد توجيه الحوار إلى البوستر وكتب الخيول، وإلى غرفة نوم المراهقة. سوف يقلل ذلك من شخصيتي في عينيها فورًا. ستقول لنفسها: هذا رجل لا يجد موضوعًا يتحدث فيه، وعليَّ أن أتحجج بأي شيء لأبتعد عنه الآن. "أوه.. آسفة. نسيت أنني وضعت كيكة في الفرن".

نظرت لها. الأقرب أنني احتضنت نظرتها هي. لقد راقبتها وهي تنظر إلى ابنتي. نظرة قديمة بِقِدَم العالم نفسه. نظرة تقول إن "هذه البنت تليق بالولد". وها نحن ذا نعود لننظر إلى بعضنا. بحثت عن كلمات مناسبة، ولكنها كلمات قالتها عيناي بالفعل. كلمات قالت لـ"جوديث" إنها لا تحتاج إلى أن تشعر بالغيرة أو الغضب مني. فابنها أيضًا وسيم.

هو أيضًا يليق بها. وأنا من خلال تركها تذهب معه بسهولة أكون قد أكدت على كل ما يمكن لأي شخص أن يراه بعينيه. تسعون في المئة من النساء تجدن الرجل المتزوج أكثر جاذبية من الأعزب، هذا ما تعلمناه من "آرون هرتزل"، أستاذ البيولوجي. أي رجل معه بالفعل امرأة أخرى. ويفضل أن يكون لديه أولاد، أي أنه قَدَّم بالفعل أوراق اعتماده في عالم الرجولة. أنه قادر ومتمكن. أما الأعزب الحر الطليق فهو بالنسبة لهن مثل منزل لم يسكنه أحد منذ زمن. فلا بد أن يكون في ذلك المنزل "شيء ما خطأ". فلا يمكن أن يكون معروضًا للبيع طول تلك المدة ولم يتقدم له أحد. هكذا تفكر المرأة.

وهكذا تنظر إليَّ "جوديث" الآن. رجل متزوج. وكلانا لديه أولاد وبنات لا ينقصهم الجمال. أي أننا نجحنا في تعزيز الجنس البشري قيمةً ونوعًا وجودة. ولن يبقى أولادنا غير مرتبطين طويلًا. سألتها:

- له صديقة؟

فجأة، احمرت وجنتاها. ليس احمرارًا إلى ذلك الحد الذي تتخيله.. لكنه احمرار.

- "أليكس"؟.. لا.

بدا لي أنها ستضيف أمرًا آخر، ولكنها سكتت عنه. نظرنا إلى بعضنا البعض. وفكر كلانا في الشيء نفسه.

12

كنا نخرج للتخييم في بعض الأوقات عندما كانت "جوليا" و"ليزا" في سن صغيرة.

لكننا توقفنا عن تلك الهواية. وهي هواية "كارولين" بالأساس، فقد اعتادت عليها قبل أن نلتقي. ولم أكن أريد أن أضايقها. فعندما تكون زوجتك محبة للباليه والأوبرا، فعليك أنت أيضًا أن تكون من رواد عروض الباليه والأوبرا، هكذا بكل بساطة. أحبت "كارولين" المبيت داخل الخيمة. هكذا جربت أن أحب ذلك أنا أيضًا. ولكنني عجزتِ في الحقيقة أن أنام وأنا بداخلها. ليس الموضوع هو أنك تشعر أنك في الخلاء – من دون سقف يسترك، ولا يفصل بينك وبين بقية العالم إلا قماشة مفرودة – وطبيعي أن أبقى محدقًا في الظلام من حولي طوال الليل. وكذلك ليس الموضوع هو أنك تشعر بكل قطرة مطر ثقيلة تهطل على قماش الخيمة، حتى أنك تخشى أن تخترقها، علاوة على الرعد الذي يتفجر في داخل طبلة أذنك، ولا في رائحة الشياط التي تشمها بالداخل لو استيقظت متأخرًا بعد صعود الشمس في السماء وسقوط أشعتها على قماش الخيمة لساعات. كلا، ليست تلك هي الجزئيات التي منعت عني النوم. بل هم الآخرون: البشر القابعون خارج تلك الخيمة. أبقى مستيقظًا وأسمع أشياء. تلك الأشياء التي لا تحب أن تسمعها من الآخرين. فالحقيقة أن أرقي لم يكن نتيجة الخيمة، بل من المكان الذي ننصب فيه الخيمة: في قلب مخيم، وبين بقية الخيام.

حدث شيء ذات صباح. كنت جالسًا على الكرسي السفاري أمام الخيمة، ممددًا ساقيَّ فوق العشب. وكانت "جوليا" تلهو بالدراجة الصغيرة ذهابًا وإيابًا عبر الممشى الذي ينتهي عند الحمامات. وعلى بعد خطوات، تحت ظل شجرة جوز، كانت "ليزا" تلهو داخل صندوق اللعب البلاستيكي القابل للطي والحمل. نادت "جوليا" عليَّ في مرح وهي تلوح بيديها. فلوَّحت لها بدوري. كانت "كارولين" تشتري الحليب من محل ملحق بالمخيم، بعد أن عثرنا على ذبابتين ضخمتين عائمتين في ما تبقى من حليب الأمس.

اقترب رجل مني. كان يرتدي "شورت" أحمر. ليس ذلك "الشورت" الذي تراه عند الشاطئ أو حتى "برمودا"، بل شورت قصير للغاية لا يستر إلا مساحة صغيرة. ومع كل خطوة يخطوها، أسمع الصوت المقزز لاحتكاك باطن قدميه شديدتي البياض بداخل الصندل الغريب الذي يرتديه. تحمل يمناه، هكذا بكل جرأة وانعدام حياء، بكرة مناديل تواليت.

هو مجرد إحساس ليس إلا. اشمئزاز. المنظر في رأيي مقرف، وكذلك حقيقة أن الرجل بعد ثوانٍ سيمر على ابنتي التي تركب الدراجة. رأيت "جوليا" تتوقف بدراجتها لثوانٍ وتنظر إليه. تزايد اشمئزازي وقرفي. فكرة أن ابنتي التي لم تتجاوز الثلاثة أعوام تقف وتتأمَّل ذلك الكائن البشري الأبيض بدرجة مبالغ فيها، الذي يتمشى شبه عارٍ من دون أي فكرة عن الخجل. لقد كان.. كان تلوثًا بصريًا من الدرجة الأولى. هذا الرجل يلوث بصرنا بساقيه العاريتين، وصندله ذي النعل الخشبي، وقدميه المقززتين. ويلوث بصر ابنتي.

لم أكن أعرف ما عليَّ أن أفعله بالضبط، بينما نهضت بشيء من الصعوبة عن الكرسي السفاري، وتبعته نحو الحمامات. أخبرت "جوليا" ألا تبتعد عن الممشى وأنا أمر إلى جوارها في طريقي للحمامات. ورمقت "ليزا" وهي داخل صندوق اللعب، قبل أن أدخل المبنى. وسرعان ما عثرت على ما كنت أبحث عنه.

فكل ما كان عليَّ أن أفعله هو أن أتتبع الصوت. كانت دورات المياه من النوع الذي تجد فيه فراغًا كبيرًا بين الأرضية وأسفل الباب. أما من أعلى فلا يوجد سقف. بوسع أي شخص يقف فوق مقعد الحمام أن ينظر إلى حمام جاره. انحنيت قليلًا أنظر إلى أسفل دورات المياه، إلى أن رأيت "الشورت" الأحمر ساقطًا عند كعبي الرجل، وقدميه الشاحبتين بأصابعهما الضخمة. ظفر إصبع قدمه الكبيرة مصفرة، مثل أنامل المدخنين، من إثر النيكوتين. أخذت نفسًا عميقًا. أعرف أن هناك علاجًا لحالة إصبع مثل هذه، وأعرف أن لا سبب منطقي يدفع أحدًا إلى أن يمشي بين الناس على هذا النحو. وأعرف ثالثًا أن ذلك العلاج غير مُجدٍ. ولكن بوسع صاحب الإصبع أن يتحلى بالحد الأدنى من الذوق ولا يخرج على الناس بهذا المنظر. وحده المعتوه المقرف عديم الإحساس هو الذي يبقي قدمه المريضة على هذا النحو عارية من دون أن يخفيها عن الأنظار. أما من يتعمد جذب المزيد من الانتباه إليها بارتداء صندل خشبي "يطرقع" كلما خطى خطوة، فهو بالتأكيد مريض زهايمر، وفي مرحلة متأخرة من ذلك المرض أيضًا.

ما زلت على ركبتي أمام دورات المياه. أنا الآن أنظر بعينيَّ طبيب. وفكرت في ما عليَّ أن أفعله. إن التعامل مع أظافر مريضة على هذا النحو ليس بالأمر العصيب، ويمكنك أن تخلعها بسهولة ما إن تنجح في إدخال أي شيء أسفلها بينها وبين الجلد: ملقاط.. كماشة.. عود مصاصة بلاستيكي مستعمل، لا يهم، فقط عليك أن تفعل ذلك بشيء من القوة. تأملت ذلك الإصبع الضخمة وظفره البشع. لا تراجع الآن. فكرت في إحضار مطرقة. ليست مطرقة من النوع الذي استخدمته أنا و"كارولين" لتثبيت الخيمة. بل مطرقة لها زرَّادية. مطرقة حقيقية. حديدية.. قادرة على تهشيم ذلك الظفر بضربة واحدة ساحقة وسريعة. يتهشم إلى آلاف الشظايا. أعرف أن أسفله نسيج ضعيف رقيق. وأعرف أن الدم سيتدفق. مع تطاير شظايا الظفر في كل اتجاه، لترتطم

بالجدران والأبواب، مثل طبقة البلاك التي يزيلها طبيب الأسنان بذلك الحفار. شعرت بدوار. يقول الناس أنهم لحظتها يرون الدنيا حمراء، ولكنني رأيتها رمادية، بلون الشبورة الصباحية أو بلون رذاذ المطر. بوسعي أن أجذب الرجل من كعبيه إلى خارج دورة المياه من أسفل الباب. ولكن ليس معي مطرقة. وجدتني أصيح في سخط:

- تبًا.

سكت كل شيء لحظتها، ولأنني أدركت ذلك الصمت، فقد أدركت أيضًا أنني الشخص الذي صاح في غضب للتو. سمعت الرجل يتساءل:

- مرحبًا؟ هل هناك أحد في الخارج؟

إنه ريفي أصيل. هولندي صرف. كان من اللازم أن أدرك ذلك. ولكنني أحسست بالفعل بمثل ذلك منذ البداية: منذ أن خرج علينا متأبطًا بكرة ورق التواليت.

- رجل قذر!

رأيت يدا الرجل تسارع برفع "الشورت". فنهضت:

- يا لك من خنزير قذر. تحلَّ بالحياء. أنت في مخيم به أطفال. استر قذارتك عن أعينهم.

جاوبني صمت مطبق من وراء الباب. ربما كان يحاول أن يحسم قراره. يخرج، أم أن من الحكمة أن يبقى بالداخل حتى أنصرف أنا.

في النهاية، انصرفت أنا. خرجت إلى ضوء الشمس القوي، فأغمضت عينيَّ قليلًا، وشعرت على الفور أن هناك شيئًا ما خطأ. رأيت خيمتنا، ورأيت قفص اللعب الذي فيه "ليزا" عند الشجرة، ولكنني لم أرَ "جوليا" ودراجتها في أي مكان.

- "جوليا"؟ "جوليا"؟

لقد عشت ذلك الإحساس من قبل، يوم أن فقدت أختي الكبيرة. كان ذلك خلال كرنفال. تظاهرت بالهدوء، وحاولت أن يخرج صوتي عاديًا، ولكنني أحسست بداخلي برعدة فزع باردة وقلبي ينبض بصخب أعلى من أي موسيقى هادرة أو من صراخ رُكَّاب قطار الرعب في الملاهي.

- "جوليا"!

مشيت حتى المنعطف، حيث يختفي الممشى وراء سور عالٍ. ومن وراء السور مساحة تخييم أخرى.

- "جوليا"؟

أمام خيمة زرقاء صغيرة، وجدت سيدتين منهمكتين في غسيل الأطباق في طشت كبير أمامهما فوق العشب. توقفا عن الغسيل، ونظرا إليَّ في استغراب، ولكنني كنت قد بدأت أبتعد بالفعل. إلى اليسار من الممشى، على بعد خطوات، سمعت صوت خرير ذلك النهر الصغير الذي نذهب للسباحة فيه بعد الظهر.

- "جوليا"؟

التوى كاحلي، بعد أن تعثرت في صخرة كبيرة مستديرة. وخدش وجهي غصن شائك، أسفل عيني تمامًا. وبعد ثلاث خطوات متعثرة، نجحت في الوصول إلى ضفة النهر. وجدت الدراجة عند ما يشبه الفجوة الصغيرة، وعجلتها الأمامية في المياه.

بدأت أخوض في الماء وكلي خوف، حتى انزلقت قدماي وسقطت على ظهري بكل قوة فوق حجارة النهر. عندئذٍ، انتبهت إلى وجود "جوليا". لم تكن في النهر، بل واقفة هناك عند الشاطئ. كانت تلقي الحصى نحو الماء، ولكن ضحكاتها سرعان ما تعالت عندما رأتني على ذلك الوضع الكوميدي في الماء. صاحت، وهي ترفع ذراعيها لأعلى:

- بابا! بابا!

وقفت على قدميَّ في جزء من الثانية. وفي الجزء الآخر كنت قد وقفت إلى جوارها. جذبتها من معصمها في غضب:

- اللعنة! بماذا نبهتكِ؟ لا تتركي المشى! لا تتركي المشى!

حَدَّقت "جوليا" فيَّ بعينين لا تزالان تعتقدان أن ما يحدث مجرد دعابة. فلقد أسقط والدي نفسه في الماء حتى يجعلني أضحك، وهو الآن يتظاهر بالغضب حتى أضحك أكثر. ولكن تعبير وجهها تغير فجأة. ارتسم على وجهها الألم وهي تحاول تخليص معصمها.

- بابا..

لم تغب عن مخيلتي تلك النظرة حتى بعد مرور سنوات، وفي كل مرة أجد الدموع تنساب من عينيَّ. كانت "كارولين" واقفة هناك عند الأشجار:

- "مارك"! "مارك"! ما الذي تفعله؟

كانت تحمل زجاجة الحليب. تحدق فينا. ثم تصيح لتنبهنا لوجودها.

- لم أعد أحتمل.

كان ذلك بعد نصف ساعة، وبعد أن هدأت "جوليا" وعادت تركب دراجتها فوق المشى، وكأن شيئًا لم يحدث.

تأملتني "كارولين". وتناولت يديَّ في يديها:

- أتعرف ذلك الفندق الصغير الذي رأيناه في القرية؟ القريب من السوق؟ ما رأيك أن نقيم فيه ليومين؟

هكذا، ومنذ ذلك اليوم، لم نعد نقيم إلا في الفنادق. أو كنا نستأجر منزلًا صغيرًا. نجد أحيانًا في الفنادق وتلك المنازل حمامات سباحة، تتيح لك أن تتأمَّل الأجزاء العارية من أجساد الناس، ولكنها تتيح لك في الوقت ذاته خيار الابتعاد عنها. بوسعك أن تبقى في غرفتك لساعات بعيدًا عن مثل تلك المناظر. ترقد في فراش غرفتك، وتغمض عينيك.

لم تعد مضطرًا على معايشة القذارة البشرية لأربع وعشرين ساعة في اليوم. وبعد تمضية بضع من تلك العطلات في منازل خاصة أو فنادق، قررنا أن نقصد أبواب السماسرة. وهناك، طالعنا الكتالوجات والأسعار. كانت "كارولين" تعتبر امتلاك منزل خارج البلاد أفضل بديل لها يعوضها عن هواية التخييم. وبوسعنا تحمل مثل تلك التكلفة. فما دام المنزل لا يُطل على الشاطئ مباشرة، فإن سعره معقول للغاية. ولكننا ونحن نحدق بكل شغف في صورة لطاحونة مائية قديمة في حديقة كمثرى، بدأنا نفكر بصوت عالٍ في العيوب. كنا نرى أن من المحزن أن نشتري منزلًا مثل هذا لنزوره خلال الإجازات فقط. وأمضينا وقتًا طويلًا في النظر إلى صورة لمزرعة تم تجديدها ولها بسين. لا بد من وجود شخص مسؤول عن الاعتناء بهذا البسين. والحديقة كذلك. وإلا سوف نمضي العطلة كلها في أعمال التنظيف والتهذيب والرعاية.

لذلك بقينا نخمد حلمنا بامتلاك منزلًا ثانيًا بالخارج، ونؤخره ونرحله شيئًا فشيئًا. وبين فترة وأخرى، نقصد سمسارًا ليعرض علينا بعضها. وكثيرًا ما زرنا منازل غير عالية ذات مداخل منخفضة، نشم فيها رائحة المياه الراكدة القادمة من بسين تغطي الطحالب سطحه وتملؤه الضفادع بصخبها. وانحنينا لنتجنب شباك العنكبوت فيما كان في السابق حظيرة خنازير، ولمحنا انعطافة في النهر الذي يلمع في الوادي بالأسفل، وأمعنَّا النظر في فرن قديم خارج المنزل، وشاهدنا العصافير وهي تطير حائمة حول أعشاشها التي بنتها أسفل كرانيش النوافذ.

كانت "كارولين" دومًا ما تتعلل بأن المنزل عرضة لتيارات هواء زيادة عن اللزوم، أو أنه حار زيادة، أو بارد زيادة، أو أنه لا يطل على منظر جذاب، حتى تصرف النظر عن الشراء. وأحيانًا ما تجد الحجة في كون المنزل مكشوفًا للغاية، أو قريبًا جدًا من الجيران، أو بعيدًا جدًا عنهم. عندئذٍ أقول للسمسار:

- سوف نتصل بك. أحتاج أنا وزوجتي إلى التفكير لبضعة أيام.

لم أصدق عينيَّ عندما رأيت الخيمة في صندوق السيارة الخلفي في الصباح السابق على سفرنا للإجازة الصيفية. كانت موضوعة بطريقة تجعلني لا أنتبه لها بسهولة. وفي تلك اللحظة، ظهرت "كارولين" عند المدخل، وهي تحمل حقيبتي نوم ملفوفتين. قلت لها:

- أها.. وما الذي يعنيه هذا؟

- لا شيء. قلت لنفسي أننا قد نعثر على مكان جميل يكون التخييم فيه أمرًا رائعًا. أقصد في مكان ليس فيه فندق.

- أها.

بدا لي أن التعامل مع الموقف بروح رياضية هو أفضل حل، وأن أعتبر أن زوجتي تمزح وحسب.

- وأفترض أن هذا يعني أنه سيكون عليَّ في كل صباح أن أنتقل من الفندق إلى المخيم، وبالعكس؟

وضعت "كارولين" حقيبتي النوم في صندوق السيارة، إلى جوار الخيمة.

- "مارك".. أنا أعرف رأيك في التخييم. وأنا لن أجبرك على أي شيء. كما أن الإقامة في الفندق تضيع علينا فرصًا عديدة أحيانًا. وقد بحثت في الإنترنت، وهناك لديهم مخيم به كل المرافق. وبه مطعم حتى. وكذلك لا يبعد عن الشاطئ أكثر من ثلاثين مترًا.

- في الفنادق مطاعم أيضًا.

كنت أعلم أنني أخوض معركة خاسرة، وأن "كارولين" شغوفة بالتخييم. بمقدوري أن أبادلها الحجة بالحجة. وأن أخبرها أن الخيمة والحقيبتين تشغل نصف مساحة صندوق السيارة، ولكنني عندئذٍ سأكون متعاميًا عن حقيقة شوق زوجتي إلى استخدام المطرقة التي تثبت أوتاد الخيمة في الأرض، وإلى إحكام أركان الخيمة، والاستيقاظ صباحًا داخل حقيبة نوم يغطيها الندى.

كذلك أدركت أمرًا آخر. بعد حفلة الحديقة في منزل "رالف" و"جوديث"، سألت "كارولين" عما إذا كانت قد تبادلت الحديث مع "رالف". والأهم، عما إذا كان قد حاول معها. قالت:

- لقد كنت محقًا تمامًا.

- في ماذا؟

- في كونه عجوزًا قذرًا.

- حقًا؟

كنا في السرير، والأباجورة مضاءة، ولكننا لم نكن ننظر لبعضنا. ولم أكن لأعرف تعبير الوجه المناسب في تلك اللحظة، لو كنا ننظر إلى بعضنا بعضًا.

- بالفعل، كنت على حق. يمكن لأنني انتبهت لكلامه بعد أن نبهتني أنت، وكذلك الطريقة التي ينظر بها إليّ. هناك شيء ما في نظرته.. كما أنه كان يلعق شفتيه وهو ينظر إليّ. ويضمها أيضًا. وكأنني قطعة برجر في طبق أمامه. كنا واقفين إلى جوار الباربيكيو، يطعن اللحم بشوكته حتى يتأكد من استوائه، ويقلب قطع البرجر. ثم أحنى عينيه. وكأنه ممثل درجة عاشرة في فيلم عبيط. كان يرفع عينيه قليلًا لينظر إلى صدري. لا تفهمني خطأ، ولكنني لا أنزعج من هذا. فأحيانًا ما تحب المرأة أن يتأمّل الرجل جسدها. ولكن تلك النظرة.. تلك النظرة كانت مختلفة. تلك كانت.. ماذا وصفتها أنت.. قذرة؟ هي كذلك بالفعل. نظرة قذرة. ولم أكن أعرف كيف أتصرف. عندئذٍ بدأ يحكي لي نكات. لا أذكرها جيدًا، ولكنها كانت نكات قذرة. ليست مثل تلك المضحكة البذيئة. لا، قذرة بمعنى الكلمة. وكان عليك أن تكون موجودًا لترى نظرة وجهه وهو يحكيها! أتعرف كيف يضحك أولئك الذين يضحكون على نكاتهم وكأنهم قاموا بتأليفها للتو؟ هكذا كان يضحك.

بادرتها متعجلًا:

- أعتقد أنكِ الآن لا ترغبين في زيارتهم في منزلهم الصيفي.

- "مارك"! كيف يمكنك أن تفكر في ذلك أصلًا؟ بالطبع لا وألف لا. كما أنني من الأصل لا أحب أن أزور أحدًا خلال إجازتي، وبعد ما جرى لا يمكن أن أفعل ذلك قطعًا. لا يمكن أن أجلس في منزلهم وعند البسين مع ذلك الـ"رالف".

- ولكنكِ لم تظهري ذلك ونحن معهم، بل اعتبرتي أنها فكرة رائعة عندما كنا نودعهم. بل سألتي "جوليا" و"ليزا" عن رأيهما في تلك الفكرة.

تنهدت "كارولين" بصبر فارغ:

- الظاهر أنني كنت قد أفرطت في الشرب. كما أنه ليس من اللياقة أن تخبرهم أنك لا ترغب في زيارتهم في المنزل الصيفي. أما في السيارة، فكان تفكيري مشغولًا بـ"جوليا". وبالولد الذي أعجبها. وجميل أنها لم تبدِ أي حماس.

- حسنًا، سنرى. كما أننا غير ملزمين بشيء.

ما زلنا واقفين عند صندوق السيارة. ووجدت فرصة، ولكن انتهازها يعني أن عليَّ أن أتخلى عن رفضي لاصطحاب الخيمة معنا. وكلما كان هذا أسرع، كان أفضل.

- تعلمين. لقد مرت عدة سنوات. أحيانًا ما أجد نفسي أتوق إلى ذلك أنا أيضًا: المخيم. ما المانع أن نجرب ثانية. ولكنني لا أريد اصطحاب أي أدوات لإعداد الطعام. سوف نتعشى في مطعم في كل ليلة.

- "مارك"؟ هذه بادرة جميلة جدًا منك.

احتضنتها بشدة. ولكنني عجزت عن أن أصرف ذهني عن التفكير في النصف ساعة الأخيرة من حفلة الحديقة تلك. كنت حينذاك أنظر في كل مكان، إلى أن وجدت "جوديث" واقفة عند أحد الأركان، تجمع الكؤوس والأكواب وأطباق الشيبسي والفول السوداني.

قبضت على معصمها. فنظرت إليَّ مندهشة. ابتسمت لي ابتسامة حالمة عندما أدركت أنني الذي أمسك بيدها.

- "مارك"..

- لا بد أن أراكِ مرة أخرى.

13

غادرنا يوم سبت.

أمضينا الليلة الأولى في فندق. والليلة الثانية أيضًا. وكالمعتاد، لم تكن لدينا خطة معينة. ولكي أكون أكثر دقة، أقول لك أننا في الظاهر لا نمتلك خطة. فأي شخص يراقبنا يعتقد أننا مجرد زوجين عاديين بصحبة ابنتيهما. عائلة بلا خطة لقضاء الإجازة، تتجه جنوبًا. أما الحقيقة، فهي أننا كنا نقصد وبشكل غير ملحوظ ذلك المنزل الصيفي الذي يقضي فيه "رالف" و"جوديث" الإجازات.

في الصباح الثالث، وكنا لا نزال في فراش الفندق، تصفحت دليل المخيم الذي أحضرناه معنا في اللحظة الأخيرة. هناك ثلاثة مخيمات في محيط المنزل الصيفي، في قطر ستة أميال.

- ما رأيكم إذًا؟ هل نثبت الخيمة في الغد؟

صاحت "جوليا" و"ليزا" في صوت واحد بكل تأييد وبهجة.

بينما أجابتني "كارولين" وهي تغمز بعينها:

- فقط إذا كان الطقس يسمح.

تلك كانت الخطة. خطتي. سوف نذهب للتخييم. ونقضي بضعة أيام، أو أسبوع، في المخيم نفسه. وفي مكان ما - عند الشاطئ، أو في السوبر ماركت، أو في مقهى على الناصية في البلدة القريبة - سوف نصادف عائلة "ماير".. بمحض الصدفة.

كنت قد ذهبت قبل سفرنا بعدة أسابيع إلى مكتبة سياحية واشتريت خريطة مفصلة لتلك المنطقة. مفصلة للغاية، لدرجة أنها تظهر كل منزل موجود فيها. لم أكن متأكدًا مئة في المئة، ولكن بوسعي تحديد مكان منزل عائلة "ماير" على الخريطة، بالاستعانة بالعنوان والوصف الذي أرسلته "جوديث" بالبريد الإلكتروني بعد الحفلة ببضعة أيام. ومن خلال موقع (فيا ميشلان) الإلكتروني أدخلت العنوان. ثم استعنت بـ"جوجل إيرث" حتى أصل إلى صورة زووم لذلك المنزل، وزرقة مياه البسين، بل وخشبة الغطس.

من بين المخيمات الثلاثة، يوجد مخيم على الطريق نفسه المؤدي إلى الشاطئ القريب من منزل "رالف" و"جوديث" الصيفي. ولكنني قلقت عندما وجدت الكتيب يصفه بأنه مخيم "صديق للبيئة". به "حيوانات المزرعة"، و"حمامات صديقة للبيئة" أيضًا، و"مرافق بسيطة لمحبي الطبيعة الحقيقية". أكاد أشم رائحة النتانة. ولكن الميزة الوحيدة هنا هو أن مثل هذا المخيم الذي لا يعرف المنظفات الصناعية ومستحضرات النظافة الشخصية سيكون على النقيض تمامًا مع فخامة المنزل الصيفي.

غطسة واحدة في ذلك البسين، وبعدها سترفض "جوليا" و"ليزا" الرحيل. أرسلت لي "جوديث" في الإيميل رقمي تليفون. وقد حاولت بعد أسبوع من حفلة الحديقة أن أتصل بتليفونهما المحمول عدة مرات، لكنني لا يرد علي سوى البريد الصوتي كل مرة. ولما جربت الخط الأرضي، لم يرد عليّ أحد في البداية. وفكرت في ترك رسالة، قبل أن أصرف النظر عن ذلك.

وعقب ثلاثة أيام – ولحظة أن كنت أفكر في وضع السماعة بعد اتصال جديد من دون رد – أتاني صوت امرأة لم أتمكن من تمييزه. أمليت عليها اسمي وعرفتها أنني أريد التحدث إلى "رالف" أو "جوديث". لم يكن صوت شابة على ما أعتقد:

- هما خارج البلاد الآن. وليست لديَّ معلومة عن موعد عودتهما.

سألتها عن وجهتهما.

- ومن أنت؟

- أنا دكتور العائلة.

ثانيتان من الصمت.

- لقد تسلم "رالف" عرضًا مفاجئًا من أمريكا. دور في مسلسل تليفزيوني جديد. لذلك سافر إلى هناك. ورغبت ابنتي في الذهاب معه. لذلك بقيت أنا للاعتناء بولديهما.

إنها أم "جوديث". أتذكر أنني لمحت سيدة سبعينية تتمشى في أرجاء الحفلة، وظننت أنها قد ضلت طريقها إلى الحديقة. ذلك هو مصير كل أب أو أم تتقدم بهم السن. يتبادل معك أصدقاء أولادك كلمات مجاملة بسيطة، وبعدها يحاولون التملص منك في أسرع وقت ممكن.

- أتود شيئًا؟ هل لديك رسالة تريد تركها لهما؟

قاومت رغبة ملحة في أن ألقي على مسامعها العبارة المشهورة: "آسف، ولكنني ملزم بقسم السرية المهنية". ولكنني قلت لها عوضًا عن ذلك:

- لديَّ نتائج الفحوصات. وقد كانت ابنتكِ لديَّ في العيادة منذ بضعة أسابيع. الأمر ليس خطيرًا، ولكن من الأفضل لها أن تتصل بي. بل حاولت أن أتصل بها على تليفونها المحمول، ولكنها لم ترد.

- أوه، أجل. لقد عرفتني "جوديث" بذلك الأمر. أمر نسيانها التليفون. أنا في المطبخ الآن، ويمكنني رؤية تليفونها من حيث أقف.

اتصلت بي "جوديث" في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي. كان أول مريض قد جلس للتو قبالة مكتبي. رجل أشيب الشعر، والأوردة الدموية ظاهرة على وجهه. يعاني من ضعف الانتصاب.

قالت:

- ليس لديَّ وقت طويل لهذه المكالمة، ما الأمر؟

سألتها بدوري، وأنا أتأمّل المريض:

- أين أنتِ بالضبط في أمريكا؟

وجهه يذكرني بالأرض البور التي لا ولن تصلح لزرع أو بناء.

- نحن في كاليفورنيا.. "سانتا باربارا". الوقت الآن تجاوز منتصف الليل. و"رالف" في الحمام. تحدثت مع أمي. وجدت مكالمتك غريبة. ربما هي عجوز، ولكنها تعرف أنني أتعامل مع دكتورة وليس مع دكتور. وكان لا بد من أن أخترع كذبة سريعة، وأنني لجأت إليك للاستشارة. ولكن هذا أزعجها أكثر.

راحت مخيلتي إلى مشهد "رالف ماير" وهو في الحمام. ذلك الجسد الضخم العاري. والماء ينهمر عليه من الدش. تتقافز قطرات الماء ما إن ترتطم بجلده، على كتفيه، وصدره، وبطنه، وتتدلى مُعلَّقة فوق عضوه. حاولت استحضار صورة بطن "رالف" منذ تلك الزيارة التي أتى فيها إلى العيادة، لما طلبت منه أن يخلع قميصه. أتساءل إذا كان بمقدوره أن يرى أي شيء تحتها لو نظر لأسفل، أم أن بطنه تلعب دور الحجاب الحاجز من الخارج.

- لا يمكنني أنا أيضًا أن أتحدث معكِ طويلًا الآن. كنت أريد الاطمئنان عليكِ فحسب. وأن أعرف متى ستعودان.

أتكلم معها، وأنا أحدق في ضعيف الانتصاب مباشرة. هناك أقراص تعالج ضعف الانتصاب. ولكنها مجرد حيلة لا أكثر. فهي تجعل العضو ينتصب والسلام، سواء كان ضعيف الانتصاب واقفًا يتأمّل حصانًا مريضًا أو حتى سلة

فارغة أو أمام واجهة متجر أدوات مكتبية. ولو كنت مكان امرأته، فلن يسعدني بالطبع أن أعرف أن رجلي يتعاطى دواءً حتى يكون قادرًا على النوم معي.

- لا أدري. لا يزال هناك أكثر من "تيست كاميرا" يؤديه "رالف". نتمنى أن ينال الدور. فهو مسلسل ضخم الإنتاج، من إنتاج قناة "إتش بي أو".. تلك التي أنتجت مسلسل "آل سوبرانو" الشهير. وكذلك مسلسل "ذا واير". وهو من ثلاث عشرة حلقة. عن روما القديمة أيام أغسطس قيصر. يريدون "رالف" في دور البطولة. الإمبراطور.

- وصلني الإيميل، وبه عنوان المنزل الصيفي.

- "مارك".. عليّ أن أغلق الخط الآن. ربما نكون في المنزل الصيفي في أوائل يوليو. على حسب ما سينتهي إليه الأمر هنا. وربما نذهب إليه مباشرة من هنا. وتلحق بنا أمي ومعها الولدان. مع بداية الإجازة الصيفية.

رغبت في أن أقول لها شيئًا آخر. جملة لها معنيان. غزل. أي شيء يجعل "جوديث" تتذكر فورًا أنني ذلك الرجل الظريف. ولكن وجود ذاك الفأر الميت أمامي سد نفسي عن قول أي شيء إلا الردود البديهية.

- سوف نكون على مقربة منكم. أقصد أننا سنكون هناك على أي حال. وسيكون جميلًا لو..

- باي.. "مارك".

بقيت واضعًا السماعة على أذني لعدة ثوانٍ، حتى بعد أن أغلقت الخط. وصوت الحرارة المتقطعة يطرق على طبلة أذني. ولكنني شارد. ثم انتبهت إلى يوم العمل الذي ينتظرني. فلم أجد أي فارق بينه وبين ذلك الصوت المميز. قلت لمريضي، وأنا أعيد السماعة إلى مكانها:

- اذهب إلى غرفة الفحص، واخلع بنطلونك. سألحق بك فورًا.

وجدت المخيم صديق البيئة أفضل مما توقعت. والصراحة أنه مكان جذاب وجميل، وتحيط به أشجار الصفصاف. ومن بعيد، عبر الأشجار، يمكنك أن ترى البحر مثل شريط أزرق ضيق. ولكنني شممت رائحة غريبة. رائحة حيوانات غريبة. شمت "كارولين" الهواء بعمق أكثر من مرة. ورأيت رد الفعل نفسه على وجه "جوليا" و"ليزا". ولم نكن قد تجاوزنا بعد بوابة المدخل. وبوسعنا أن نعود ونرحل عن المكان. البوابة نفسها مصنوعة ببساطة من جذوع الأشجار وحتى من دون طلاء. جذوع أشجار كما هي، من دون أي تدخل من الإنسان في تقويمها أو تهذيبها. إلى جوار البوابة مكتب بسيط. كنا قد خرجنا من السيارة، ووقفنا عنده في حيرة. أنا بالطبع أعرف أن هذا المخيم هو الأقرب إلى المنزل الصيفي، ولكنَّ لكل شيء حدودًا. ورائحة الحيوانات المريضة تثير في نفسي غضبًا متناميًا. الرائحة نفسها التي أشمها أحيانًا في عيادتي. رائحة مرضى يحبون أن يعيشوا "متوحدين مع الطبيعة"، كما يصفون أنفسهم. مرضى يرفضون التخلص من الشعر الذي ينمو في أمكنة لا ينبغي للشعر أن يبقى فيها، ويفضلون الاستحمام من بئر أو قناة مياه، ويرفضون – وهي مسألة مبدأ – استخدام مستحضرات النظافة والتجميل. لا يعرفون شيئًا اسمه النظافة الشخصية. تفوح من بثراتهم ودماملهم رائحة الماء العفن. ماء ممزوج بالوسخ وأوراق الشجر الميتة ومحبوس في مكان فلا يتجدد. وتزداد الرائحة سوءًا عندما يخلعون ملابسهم. كأنك رفعت غطاء عن مقلاة على النار. مقلاة كنت نسيتها بما فيها في الثلاجة لأيام. وأنا طبيب. وأدليت بالقسم. أن أعالج الكل من دون تمييز. ولكن لا شيء ولا أحد يمكنه مقارنة ذلك بما أشعر به من غضب واشمئزاز تجاه نتانة من يصفون أنفسهم بمحبي الطبيعة. هكذا سألت أسرتي:

– ما رأيكم إذًا؟ هناك مخيمات أخرى في الجوار.

- لا أدري..

كان هذا رد "كارولين".. "جوليا" هزت كتفيها من دون تعليق. أما "ليزا" فسألتني عما إذا كان لديهم بسين. هممت بأن أخبرها بأنه ليس لديهم بسين، عندما خرج رجل من الكابينة الخشبية. ألقى نظرة على لوحة السيارة، ثم اقترب منا، وهو يمد يده نحونا مصافحًا.

- "جوديميداج"!

صباح خير هولندية لا تنم عن أي لكنة. صافح "كارولين" أولًا، متناولًا يدها سريعًا قبل أن تفكر هي في سحبها بعيدًا.

هولندي! نجده أمامنا حتى بعد أن خرجنا من هولندا. الهولندي قادر في الخارج على تحويل أي أطلال خربة إلى فندق أو بنسيون، أو إنشاء مطعم بان كيك هولندي مؤقت عند أجمل شاطئ على طول الساحل، أو إقامة مخيم في بقعة هادئة من الغابة. لم أتمكن من تبديد ذلك الشعور بكونهم يتطوعون بالقيام بأمور هي من شأن أصحاب البلد. وأغلبهم لا يبقى طويلًا. فإما أن يتجاهل السكان المحليون وجودهم ولا يتعاملون معهم، أو يضايقونهم إلى أن يضطروهم للمغادرة. فلا تصل تجهيزات سقف البنسيون إلا متأخرًا جدًا، وتصريح إقامة ملعب جولف صغير تاه في البريد، ومدخنة المطبخ في مطعم "البان كيك" الهولندي لا تستوفي معايير السلامة المحلية. وهكذا يشكو الهولندي صاحب المشروع بصوت عالٍ من البيروقراطية والتصرفات الغامضة التي يواجهها في ذلك البلد. ويتساءل بكل بلاغة: ما الذي يريدونه بأي حال؟ فلم يكن أحد يفعل أي شيء بتلك الخرابات. وتلك الغابة كانت مهجورة. ولم يكن أحد يذهب إلى ذلك الشاطئ. نحن من تطوعنا بالعمل وبذلنا الجهد. نحن الهولنديين نعرف معنى الإنجاز. فلماذا تعرقلون خطواتنا؟ مع أننا نقوم بما لم يقم به أهل بلدكم. وبعد عامين أو ثلاثة أعوام من شتم ولعن أهل البلد ناكري الجميل والأجانب الكسالى، يجمعون حاجاتهم ويعودون إلى بلدهم.

بينما كنت أمد يدي لأصافح صاحب المخيم، حاولت أن أفهم تعبيرات وجهه، وأحدد المرحلة التي وصل إليها بناء على ما ذكرته لك للتو. الأمر أشبه بالمرض الخبيث. في البداية يكون لديك أمل. ثم تدخل في مرحلة الإنكار. وقبل النهاية تستسلم.

- أهلًا.. أهلًا!

مصافحته قوية، ولكنها مفتعلة، فمن الواضح أنه يبذل جهدًا حتى يصطنع تلك النظرة المبتهجة، ولكنني وجدت في عينيه أعراض أرق مزمن. هناك شعيرات دموية حمراء صغيرة في بياض عينيه، ولا شك أنها بسبب ليالي الأرق تحت وطأة الديون المتراكمة، أو بسبب القلق على بضاعة تأخرت في الوصول أو لن تصل أبدًا. أرى أنه لن يصمد أكثر من عام. وقبل الصيف القادم سيكون قد تخلص من حيوانات المزرعة وعاد إلى هولندا.

وداخل الكوخ الخشبي، بدأ يقلب في دفتر يحتوي على خريطة للمخيم. ثم هز رأسه وتنهد بعمق عدة مرات، وهو يمر بسبابته فوق الخريطة. الآن تحول إلى ممثل رديء.

ما إن حدد لنا البقعة الخاصة بنا، بعد الكثير من التنهدات وحك الذقن، حتى سألنا:

- هل يمكن أن أسألكم عن الطريقة التي توصلتم بها إلى هذا المخيم؟ فنحن لم نفتتحه إلا منذ عامين، ولسنا موجودين في كل الأدلة.

عامان. عجزت عن عدم الابتسام. لقد شخصت حالته بالتمام. بعد الإنكار يكون الاستسلام. وما هي إلا مسألة أيام.

- صارت لدينا خبرة بمثل هذه الأمكنة. خبرة بالمخيمات، حيث تكون لتجارب العيش في الهواء الطلق أهمية متزايدة. التخييم أسفل النجوم، وسط الطبيعة، لا يقارن بتلك الأماكن المصطنعة التي تمتلئ بساحات اللعب وقاعات ألعاب الفيديو، أو حمامات السباحة المزودة بمنزلقات حلزونية.

14

أحيانًا ما تمضي الأمور بسرعة كبيرة..

أسرع من أن نعتبرها صدفة. كنت قد هيأت نفسي لقضاء أيام من الهدوء والسكينة. أيام ليس فيها أي أحداث تذكر. مع كتاب مثلًا. أو مباريات كرة الريشة. أو أتمشى. ولكن لا بد في البداية من ترسيخ معاني الصمت والهدوء. ذلك الفراغ الذي نتمناه في الأيام القليلة الأولى من الإجازة الصيفية. وبعد ذلك، يمكنك أن تسعد جدًا بأي شيء يحدث عقب تلك الفترة. فقد أصبحت منفتحًا على الجديد. التغيير. أناس جدد. كنا في ذلك المساء الأول في طريقنا إلى مطعم عند الشاطئ لتناول الجمبري والكالماري. أصابتنا الرحلة بالتعب. نوينا النوم مبكرًا. وأعرف أنني سأعاني من الأرق لساعات. وسأضطر إلى سماع الأنفاس المنتظمة لعائلتي النائمة. ولكن الأمور جرت على غير ما ظننت. الأمور جرت بسرعة كبيرة.

بتشجيع من "كارولين" "اخرج لتتمشى، فليس لك من عمل تقوم به هنا على أي حال"، خرجت في جولة حول المخيم إلى حين أن تنتهي هي والبنات من نصب الخيمة. مشيت في أول مسار بين الأشجار وجدته أمامي. لم تكن هناك

خيام كثيرة. وكذلك لم أجد أي عربة. مررت على البناء الخشبي الصغير الذي يحتوي على دورات مياه صديقة للبيئة. ذلك الذي يمثل لي أسوأ كابوس في موضوع التخييم هذا، أن تضطر إلى مغادرة الخيمة ليلًا لأجل أن تتبول.

اعتدت أن أؤجلها طالما أمكنني هذا. إلى أن أكون "محصورًا" بالفعل. عندئذٍ أضع قدمي بكل ألم في حذائي الذي بلله الندى. لا يمكنك أن تجبرني أن أذهب إلى دورات المياه في منتصف الليل، ولو تحت تهديد السلاح. دورات المياه التي تنتحر حشرات العث على مصابيحها الخارجية. وحيث تهاجم الحشرات التي لا تنام الجزء المتعري من جسدك. أخرج من الخيمة وأخطو بضع خطوات في الخارج. وأحيانًا أرى النجوم في السماء. وأحيانًا ما أجد البدر. أعترف لك أنني أشعر في بعض الأوقات بالسعادة، وأنا أقف وسط الأشجار، بينما أستمع إلى خرير بولي وهو يرتطم بالعشب، وبأوراق نبات "القراص" الذي يلدغ. وبعدها أتطلع للأعلى. آلاف النجوم. كم تخيلت لحظات مثل هذه. تخيلت هذا المشهد. غيره من المشاهد مجرد هراء. وغيرها من اللحظات لا تساوي شيئًا. إنها لحظات فريدة. كنا قد اشترينا الخيمة خلال رحلتنا الأولى إلى أمريكا. كبيرة وتتسع لنا نحن الأربعة. ولكننا كنا وحدنا أنا وزوجتي وقت أن اشتريناها. واعتدنا أن ندخل فيها وننام متجاورين، وكأننا نترك المساحة المتبقية لضيفتي المستقبل. بعد أن أتبول، أتمهل قليلًا قبل أن أعود إلى الخيمة. أتأمل البدر فوقي ونوره تحتي فوق العشب. هناك بالداخل، تنام ابنتاي إلى جوار أمهما. وكنت واقفًا في الخارج. وأبقى كذلك إلى أن أشعر بأول خيط برودة ينسحب فوق ظهري، وعندئذٍ أسارع بالدخول إلى حقيبة النوم في الخيمة.

ليست دورات المياه صديقة البيئة سوى ألواح خشبية بكل منها ثقب مستدير. أما ما هو أسفل ذلك الثقب فظلام، لا يمكنك أن ترى القاع، تشمه فقط. أما باب دورة المياه فهو مرصع من الداخل والخارج بذباب أزرق كبير لم

يطر حتى عندما هششته بقوة. أغلقت الباب، واستأنفت جولتي. وصلت إلى قطعة الأرض المسوَّرة حيث حيوانات المزرعة. رأيت حيوان لاما، ودجاجتين، وحمار. ليس هناك عشب، بل وحل. وفضلات في كل مكان. فراء اللاما البني الداكن مرقط بالبراز والطين. أما الحمار فهو هزيل للغاية. وقف قريبًا من السور. أرى ضلوعه واضحة للغاية، والحيوان يرتجف بشدة ويحرك ذيله بعنف ليبعد الذباب عن مؤخرته. أما الدجاج فهو متجمع في صمت عند أحد أركان الحظيرة.

تصاعد بداخلي غضب بارد. ورغبت بشدة في العودة مباشرة إلى حيث تقوم "كارولين" والبنات بنصب الخيمة. رغبت في أن أخبرهن بأننا سنرحل في التو واللحظة، وذلك حينما شعرت بلمسة حانية على يسراي.

- بابا..

- "ليزا".

لفت ابنتي الصغيرة أصابعها على إصبعيٍّ. بقينا دقيقة نتأمَّل الحيوانات على الجانب الآخر من السور.

- بابا؟

- أجل؟

- الحمار مريض؟

تنهدت بعمق قبل أن أجيبها:

- لا أعرف يا حلوتي. ربما لأن هناك الكثير من الذباب. وهو يضايقه، أترين؟

نظرت إلى الحمار الذي يرتجف، في ذات اللحظة التي تقدم فيها الحيوان المسكين خطوتين مضطربتين نحو السور، ودس رأسه من فوقه. شعرت بالدموع تتجمع في عينيَّ.

- هل يمكنني لمسه يا بابا؟

لم أرد بأي كلام. هناك غصة في حلقي. هكذا يصفون لحظة مثل هذه. ولكنها غصة أنعم بكثير، وأشد سيولة أيضًا.

وضعت "ليزا" يدها فوق رأس الحمار. لحظتها طارت سحابة من الذباب عنه. ورمش الحمار بعينيه. أشحت بنظري عنه وأنا أغالب دموعي.

- بابا؟

- نعم، حلوتي؟

- نشتري له طعامًا؟ جزر مثلًا؟

وضعت يديَّ على كتفي ابنتي وضممتها إليَّ. تنحنحت في البداية، حتى لا يخرج صوتي متحشرجًا فيزعجها.

- فكرة ممتازة، حبيبتي. جزر.. خس.. طماطم. ستجدين أنه يحب ذلك كثيرًا.

ليس على الشاطئ إلا مطعم واحد، ترابيزاته وكراسيه موضوعة فوق الرمال. ورغم ازدحامه، إلا أن حظنا الحسن أتاح لنا الجلوس إلى آخر ترابيزة فارغة. طلبت اثنين بيرة لي ولـ"كارولين"، وواحدة فانتا لـ"ليزا"، ودايت كولا لـ"جوليا". كانت الشمس قد توارت بالفعل وراء الصخور، ولكن الهواء ما زال دافئًا منعشًا. سألت "ليزا":

- هل يمكننا اللعب عند الشاطئ؟

أجابتها "كارولين":

- حسنًا. ولكن اختارا وجبتكما من المنيو أولًا. وسننادي عليكما عندما يكون الطعام جاهزًا.

ألقيا نظرة سريعة إلى المنيو. اختارت "ليزا" مكرونة بصلصة الطماطم، أما "جوليا" فاكتفت بالسلطة.

- "جوليا"، عليكِ أن تتناولي طعامًا حقيقيًا. على الأقل برجر، أو مكرونة، مثل "ليزا".

ولكن "جوليا" أجابتها وهي تنهض، وترمق أختها:

- لا أحتاج إلى ذلك. هل ستأتي معي؟

- حسنًا، انتبها لأنفسكما، ولا تذهبا بعيدًا في الماء. ابقيا عند الشاطئ.

قلبت "جوليا" عينيها بصبر فارغ. أما "ليزا"، فكانت قد خرجت بالفعل عبر غابة الترابيزات وركضت نحو الشاطئ. ومشيت وراءها "جوليا" وهي تحمل شبشبها في يدها. لا ترتدي سوى تيشيرت وبكيني أحمر كانت قد اشترته قبيل الإجازة. لمحت رجلين، جالسين على بعد بضع ترابيزات منا، يتأمَّلانها وهي تمشي نحو الشاطئ. علقت "كارولين":

- إنها لا تأكل كفاية في الفترة الأخيرة. لا بد أن تتوقف عن هذه العادة.

- أوه، لا تضخمي الموضوع. الأمر ليس بهذا السوء. قليل الطعام أفضل من كثيره. أم أنكِ تفضلين ابنتك بدينة ذات ترهلات بارزة من كل جانب في جسدها؟

- طبعًا لا. ولكنني أقلق عليها. فهي لا تأكل في المنزل أيضًا. تأكل السلطة أولًا، وبعدها تقول أنها شبعت.

- طبيعة عمرها، كما أرى. إنها تقلد موديلز الأزياء والإعلانات. "كيت موس" تقول أنها لا تأكل سوى القليل. وأقول لكِ أن هذه العادة أفضل من نقيضها. هذا رأيي بصفتي دكتورًا وليس لكوني أباها.

طلبنا اثنين بيرة مجددًا، ومعهما زجاجة نبيذ أبيض. غربت الشمس تمامًا الآن. هناك صخور ضخمة في خلفية المطعم. ورأيت فيلتين مضيئتين فوق مكانٍ مرتفع. أكاد أسمع صوت الأمواج، ولكن الشاطئ ينحدر بشكل وعر حتى الماء، ولذلك لم نكن نرى البنتين من مكاننا عند الترابيزة. قالت "كارولين":

- اذهب وألقِ نظرة عليهما؟

-- لننتظر حتى مجيء الطعام. ما الذي يمكن أن يحدث؟

الحقيقة أنني دائم القلق عليهما، مثلها. ولكننا اعتدنا أن تسير الأمور هكذا. تعبر "كارولين" عن قلقها أولًا، ومن ثم أطلب منها ألا تبالغ في إبداء القلق. ولو كنت هنا وحدي مع ابنتيّ، لكنت قد ذهبت إليهما أكثر من مرة لأطمئن عليهما.

تناولت "كارولين" يديَّ، وهي تقول:

- "مارك"، هل تعتقد أنك مرتاح هنا في المخيم؟ أقصد أنه مخيم بدائي للغاية. وكان من الأفضل أن نذهب إلى مخيم مزود بوسائل إعاشة أفضل.

- ذهبت لأرى الحيوانات هذه الظهيرة. ووجدتها تعاني من سوء التغذية. وربما هي مريضة أيضًا.

- أتود الرحيل إلى مخيم آخر؟ يمكننا تمضية هذه الليلة ومن ثم نذهب في الغد إلى مكان آخر.

- ما ينبغي علينا فعله حقًا هو أن نطلب مفتش صحة لذلك الوغد. سوف يغلقون له المخيم فورًا. ولكن الحيوانات سترتاح.

أحضر النبيذ صبي يرتدي "تيشيرت"، و"جينز". فتح الزجاجة ووضعها في الثلج فوق الترابيزة. لم يسألنا إن كنا نرغب في تذوق النبيذ أولًا. ولكننا وجدنا أن هذه خطوة غير ضرورية. فقد كان النبيذ مثلّجًا ومذاقه قريب من طعم العنب الذي ترك ليوم وليلة في مجرى جدول ماء في الجبال. قالت "كارولين":

- الأفضل من ذلك أن نرحل في الغد وحسب، أليس كذلك؟ هل ستبلغ عن ذلك الرجل بسبب بعض الحيوانات المريضة؟ هذا كفيل بقطع عيشه.

- معي بعض الأشياء. وحقيبة الإسعافات الأولية. وبعض المضادات الحيوية. سوف ألقي عليها نظرة في الغد، وأرى ما يمكن أن أفعله.

- ولكن "مارك"، نحن في إجازة. ولا أفضل أن تبدأها بهذه الطريقة. رغم أن العمل على إنقاذ الحيوانات المريضة عمل نبيل فعلًا.

هكذا اعتادت "كارولين" أن تتهمني. والحقيقة أن ذلك هو أساس الجدال بيننا: أنني دائمًا ما أنشغل عنهم بأمر ما كلما كنا في إجازة. بمقدور "كارولين" أن تمضي الساعات بصحبة كتاب، وهي تمدد جسدها عند حمام السباحة. أو تسترخي عند الشاطئ وقد ارتدت نظارة الشمس، تحدق من خلالها إلى بعيد.

أما أنا، فلا يمكن أن تمر عليَّ أكثر من نصف الساعة وأنا على هذه الحال الخاملة، فلا بد لي من الانشغال بعمل ما. فعند الشاطئ، تجدني أبني السدود والقصور من الرمال، وفي المنزل الذي نستأجره صيفًا، أنظف الممشى من عند الباب حتى الطريق من الأعشاب. حتى إن ابنتيَّ تملَّان مني أحيانًا. في البداية تسعدان بمساعدتي في حفر القناة التي تحمي قلعتي الرملية من مياه المد، ولكنهما بعد ساعة تصيحان بي حتى نترك كل شيء ونرتاح. بينما تنبهني "كارولين":

- "مارك"، تعال واجلس بجواري. أنا تعبت من مجرد مراقبتك.

كدت أهم بالاعتراض بأن من واجبي كطبيب أن أساعد الحيوانات المريضة، وأن الأمر لن يتطلب الكثير من الوقت، عندما سمعنا صوت "جوليا":

- بابا! ماما!

وضعت "كارولين" نظارتها فوق الترابيزة، وهي تنهض مفزوعة:

- "جوليا"! ما الذي حدث؟

لم يبدُ على "جوليا" أن شيئًا ما قد حدث. كانت تمشي نحونا قادمة من عند الشاطئ. رأيناها في ضوء مصابيح الرصيف وهي تلوح بيديها. كما رأينا أنها لم تكن وحدها. يمشي إلى جوارها فتى.

رأيته مرة واحدة من قبل، ولكنني تعرفت عليه فورًا. شعره الكيرلي الأشقر. وطريقة مشيته: المشية الخاملة، وكأنه يعاني وهو يمشي فوق الرمال. صاحت "جوليا"، حتى من قبل أن يصلا إلينا:

- أتعرفان من هنا؟

15

أحيانًا ما تمضي الأمور بسرعة كبيرة. كبيرة جدًا.

- هل عرفت بذلك مسبقًا؟

سألتني "كارولين" بعد فترة في الليلة نفسها، وقت أن كنا نشرب آخر كأس من زجاجة النبيذ ونحن جالسان أمام الخيمة. كانت "جوليا" و"ليزا" قد نامتا بالفعل. وأردفت من دون أن تنتظر ردي:

- أجل، لقد كنت تعلم.

كنا وسط الظلام. انتابتني سعادة لأنني لست مضطرًا للنظر إليها.

- لماذا يا "مارك"؟ لماذا؟

بقيت صامتًا. أداعب حافة كأسي، قبل أن آخذ منه رشفة سريعة. لكنني وجدت الكأس فارغة. نجلس إلى كرسي سفاري، ونمدد أرجلنا عبر رقعة من أشواك الصنوبر. أشعر بين ثانية وأخرى بشيء يدغدغني عند كعبيَّ. نملة. عنكبوت. لكنني في الحالتين لا أتحرك.

- ظننت أنك ترغب في الابتعاد عن "رالف" قدر ما أمكنك هذا. حتى إنني طلبت منك أن تعمل على ذلك. وأنني لا أريد الذهاب إلى منزلهم. وها أنت ذا تختار مخيمًا بالقرب من المنزل الصيفي.

كانت "كارولين" قد علقت فانوسًا على العمود المنصوب أمام الخيمة. من تلك الفوانيس ذات الأوجه الزجاجية التي توضع بداخلها شمعة. ولكن الشمعة

ذابت، وبقينا جالسين في الظلام. فوق رأسينا آلاف النجوم المتلألئة أعلى قمم الأشجار. ومن بعيد يأتيك صوت الأمواج خافتًا.

- أجل، أعرف هذا. ولكنني لم أجد في ذلك أي سبب يمنعنا من الحضور إلى هنا بالذات. وكأنه محظور علينا مثلًا، لمجرد وجود احتمال لمصادفة أناس لا نرغب في رؤيتهم.

- ولكن، "مارك"! هناك مئات الأمكنة المشابهة على طول الساحل. مئات الشواطئ البعيدة عن المنزل الصيفي الذي يستأجره "ماير".

- تحدثت مع "رالف" في الموضوع مرة أخرى، في وقت لاحق. عقب حفلة الحديقة مباشرة. ووصف لي جمال المكان. وأنه مكان نظيف. فأثار فضولي.

تنهدت "كارولين" بعمق:

- وماذا الآن؟ ماذا سنفعل؟ سيكون علينا الذهاب إلى هناك في الغد. فلو أننا لم نذهب لكان تصرفنا غريبًا.

- إنه مجرد عشاء. ربما باربيكيو مرة أخرى. ويمكننا أن نغادر المخيم عقب العشاء مباشرة، لو أحببتِ. نذهب إلى شاطئ آخر. مخيم آخر. أما لو كنتِ لا ترغبين في الذهاب إلى العشاء من الأصل، فلن نذهب. سوف نجد عذرًا. أنكِ متعبة مثلًا. أو أنا المتعب. وبعدها نرحل عن المكان، بعد الغد.

سكتنا لبضع دقائق. مررت لساني على شفتي العلوية، التي أحسست أنها جافة قاسية. سألتها:

- هل هذا ما تريدينه؟ وكما قلت لكِ، لا مشكلة عندي أبدًا. سوف نتعلل بأي عذر.

سمعت زوجتي تتنهد عدة مرات. سمعتها تضرب بيدها على حشرة حطت على ساقها العارية. أو هي شوكة صنوبر وقعت من الشجرة على ساقها. أو ربما هو لا شيء.

- أوه، حسنًا. لم يعد هذا مهمًا. كنت أتمنى أن نقضي أيامًا أو أسبوعًا وحدنا نحن الأربعة. ولو كان هذا قد حدث لاحقًا خلال ما تبقى من الإجازة لما كنت شغلت بالي. فلا مشكلة عندي في لقاء آخرين. ولكنها المفاجأة. وعدم استعدادي نفسيًا للجلوس مع آخرين، والثرثرة معهم لساعات وتناول الكثير من الشراب.

مددت يدي، ووضعتها على جسدها.

- ولا أنا أيضًا. لا أشعر برغبة في لقاء أشخاص آخرين. أنا آسف. إنه خطئي.

- هذا صحيح، فهو خطؤك. لذلك عليك أن تتصل بهم وتخبرهم أننا لن نحضر.

أغلقت عينيّ. شعرت بغصة في حلقي الفارغ. وفيما عدا صوت الأمواج من بعيد، لم أكن أسمع إلا طنينًا خفيفًا في أذنيّ.

- أوكيه..

- كنت أمزح فحسب. كلا، سيكون من السخيف أن نعتذر الآن. وللحق، فإنني في غاية الفضول. أريد رؤية ذلك المنزل الصيفي. كما أن البنات ستسعدن. والأولاد أيضًا. وكذلك هناك البسين.

أحكي لك الآن ما حدث في وقت سابق من المساء نفسه:

جاءت "جوليا" ومعها "أليكس" إلى حيث كنا نجلس في المطعم، ومن ورائهما "ليزا" والصبي الأصغر، "توماس". وما هي إلا دقائق حتى كانت بقية العائلة قد حضرت. "رالف" و"جوديث"، وتلك السيدة السبعينية التي التقيتها في حفلة الحديقة، أم "جوديث". وشخصان إضافيان. رجل في الخمسين ذو شعر أشيب طويل، يربطه بعدة مشابك سوداء، وجهه مألوف لي، ولكنني لم أعرف السبب في حينه. وامرأة. اعتقدت أنها مع الرجل، برغم أنها أصغر منه عشرين عامًا على الأقل. صاح "رالف":

- يا للمفاجأة.

جذب "كارولين" إليه، رغم أنها لم تكن قد نهضت عن كرسيها بعد، وأمسكها من كتفيها، وطبع ثلاث قبلات على خديها. أما "جوديث" فصاحت:

- هاي!

قبلنا بعضنا البعض بدورنا. ثم تأمَّلنا بعضنا. قلت لها بعينيّ: "لقد حضرت لأجلكِ بالفعل". وقالت لي عيناها: "أجل، لقد فعلت". أما "رالف"، فقال بلسانه:

- لماذا لم تتصلا لتقولا إنكما آتيان؟ كان من الممكن أن نتناول العشاء معًا الليلة. لقد اشترينا خنزيرًا كاملًا من السوق اليوم. هذا مثير حقًا! خنزير كامل!

هزت "كارولين" كتفيها، وهي تنظر إليّ. فقلت:

- الحقيقة أننا حضرنا للتو. ولم نكن نخطط لـ... نحن نقيم في المخيم.

زأر "رالف" في صخب، وكأنه يسمع نكتة جديدة:

- في المخيم!

في تلك اللحظة، تنحنح الرجل أشيب الشعر، فانتبه له "رالف":

- أوه، المعذرة. نسيت أن أعرفكم ببعض. "ستانلي".. "مارك". إنه طبيبي. وهذه هي زوجته الرقيقة.. "كارولين".

صافح الرجل الذي قدمه "رالف" باسم "ستانلي" زوجتي أولًا، وهو يقول:

- "ستانلي فوربس".

ثم صافحني، وهو يكرر اسمه الأول فقط:

- "ستانلي"..

أدركت لحظتها سبب ألفة وجهه. لم يكن "ستانلي فوربس" هو اسمه الحقيقي. كان له اسم آخر يوم أن غادر هولندا إلى أمريكا منذ ربع قرن. "يان"؟ "هانز"؟.. "هانز يانسن"؟ هو أحد تلك الأسماء الهولندية التقليدية وحسب، لكنني لا أتذكره الآن. مضت السنوات الأولى من دون أن يسمع أحد عنه

شيئًا يستحق، ولكن المخرج السينمائي الهولندي، الذي غيَّر اسمه وقتذاك إلى "ستانلي فوربس"، نجح في أن يصنع لنفسه اسمًا في هوليوود. واصل "رالف" صخبه، وهو يريح ذراعه فوق كتف السيدة الأخرى:

- وهذه صديقة "ستانلي".. "إيمانويل".. هؤلاء أصدقاء لنا من هولندا.. "مارك" و"كارولين".

لو قلت لك إن "إيمانويل" جميلة فإنني لا أوفيها حقها بالتمام. صافحت "كارولين" ثم صافحتني. شعرت لحظتها كأن واحدة من موديلات مجلات الأزياء قد خرجت لي من بين الصفحات. يدها رقيقة.. هشة.. مثل يد طفلة. ولما نظرت لها عن قرب، أدركت أنها لا يمكن أن تكون أكبر من "جوليا" إلا بخمسة أعوام. عمرها سبعة عشر؟ ثمانية عشر؟ لا يمكن أن تكون أكبر من عشرين عامًا بالتأكيد. انتقلت عيناي من وجهها إلى ذلك الأشيب. لقد أخطأت في تخمين عمريهما. إنها ليست أصغر بعشرين عامًا من "ستانلي فوربس"، بل بأربعين عامًا. فهل نجحت في تأمين دور لها في فيلمه المقبل بعلاقة كهذه؟ تأمَّلت وجه المخرج: أكبر منها بأربعين عامًا. ورغم هذا فإنني أراه يرتدي بنطلونًا أبيض من الكتان الشفاف، وقميصًا من نوع القماش نفسه. ويظهر شعر صدره الأبيض غزيرًا من فتحة قميصه.

شرد ذهني لثوانٍ، تخيلته فيها وهو معها بهذا الجسد العجوز. كيف ينام إلى جوارها، ويضع يده على جسدها. كيف يداعبها. كيف يثيرها في الفراش ورائحة الجسد العجوز تفوح من جلده اليابس. وكيف تفكر في أثناء كل هذا. لا بد أنها تفكر قبل كل شيء في أن ذلك الدور السينمائي قد صار لها. وهل هذا ما كان يحلم به "هانز"، أو "يانسن"؟ ذاك عندما غادر هولندا؟ في الفتيات اللاتي لا تترددن، إعجابًا بموهبته أو سعيًا وراء دور في أحد أفلامه، عن النوم معه بكل سعادة؟

الآن، حان دور أم "جوديث". صافحتها وأنا أمعن النظر في وجهها، ولكن لم يتولد لديَّ انطباع أنها ربطت بشكل مباشر بيني وبين ذلك الحوار الذي دار بيني وبينها عبر التليفون منذ عدة أسابيع. كانت تردد بعد أن قدمتها ابنتها لنا:

- مستر "شلوسر".

- "مارك".

نظرت حولي بحثًا عن ترابيزة قد تكون فارغة، ولكنني لم أجد إلا بعض الكراسي الخاوية. وفي ذات اللحظة، عاد الفتى الذي يرتدي الجينز حاملًا ما طلبناه. فقال رالف":

- آه.. أنتم لم تتناولوا طعامكم بعد.

- ممكن.. ربما تخلو ترابيزة قريبًا. أو أن نجد كرسيين.

فقالت "جوديث":

- دعونا نتركهم يتناولون طعامهم على راحتهم. كما أن ماما متعبة. لو رغبتم أنتم الثلاثة في البقاء.

كانت تتحدث إلى "رالف" و"ستانلي فوربس"، قبل أن تكرر الكلام نفسه بالإنجليزية لأجل "إيمانويل".

- أعتقد أن من الأفضل أن تعود ماما إلى المنزل الصيفي الآن. هي متعبة جدًا.

بعد كلماتها، خيمت لحظات من التردد. كان "رالف" ينظر حوله هو أيضًا، بحثًا عن ترابيزة أو كَراسي فارغة. ورمقتني "كارولين"، قبل أن تشيح عينيها عني. ومالت "جوليا" على "أليكس"، الجالس قبالتها في كرسي "ليزا"، تهمس بشيء في أذنه. أما "توماس" فكان يركض وراء "ليزا" عند الشاطئ. وأحاط "ستانلي فوربس" خصر "إيمانويل" بذراعه، وجذب جسدها إلى جسده. ووقفت أم "جوديث" بين الترابيزات وكأن لا علاقة لها بكل ما يجري من حولها. وفي النهاية، سألتنا "جوديث":

- أنتم هنا لعدة أيام، أليس كذلك؟ هل لديكم مانع أن نتناول العشاء معًا في الغد؟

16

البروفيسور "آرون هرتزل" هو أول من شرح لنا سبب اختلاف الساعة البيولوجية للرجل عنها لدى المرأة.

أخبرنا أن الساعة ثابتة لا تتغير، ولكنها تعني للرجل شيئًا مغايرًا لما تعنيه للمرأة.

- هي مثل الزمن الطبيعي. ولكن أحيانًا ما تكون السابعة إلا الربع وقتًا مبكرًا لنا. وأحيانًا أخرى نعتبر أنفسنا قد تأخرنا جدًا حتى لو كانت الساعة السادسة والثلث.

كنا نتلقى كل أسبوع محاضرتي بيولوجيا، والتي كانت مادة اختيارية في ذلك الوقت. وعادةً ما يحضر البيولوجيا طالبات أكثر من الطلاب. وكان "آرون هرتزل" يقترب من عامه الستين، ورغم ذلك فقد كانت الفتيات تسعدن وتخجلن لو أنه خاطب إحداهن بشكل مباشر. وهو من هذه الناحية يعتبر دليلًا حيًا على صحة نظرياته. وهي النظريات نفسها التي ستكون سببًا، بعد بضع سنوات، في طرده من الجامعة. وذات محاضرة، قال لنا وهو ينظر في شرود عبر القاعة:

- ربما تنزعج طالباتي مما سأقوله لكم الآن. ولكنها الحقيقة بكل بساطة. وليس بيدنا شيء حيالها. ورغم أن هذه الحقيقة قد لا تكون عادلة، ولكن الواقع يقول إن الحياة المديدة السعيدة تنتظر المرأة التي تتقبل هذه الحقيقة الظالمة مقارنة بمن تحاول التمرد عليها.

كنا نسمع بالفعل ضحكات أنثوية مكتومة متفرقة عبر أرجاء قاعة المحاضرات. أما نحن الطلاب، فكان لنا رأينا الخاص في أستاذ البيولوجيا الطبية. وهي في الحقيقة مشاعر متضاربة تجاهه. فلم نكن نستسيغ حقيقة أن أغلب الزميلات منجذبات إلى ذلك العجوز الأصلع، في تناقض تام مع المبادئ البيولوجية. نحن أمامهم. شباب. كلنا حيوية. وفرصة أن تحظى الفتاة من خلال علاقة مع أحدنا على مولود سليم تبلغ ثمانمئة ضعف فرصتها مع ذلك العجوز، وقد تعلمنا ذلك بالفعل في محاضرات طب النساء. ولكننا رغم ذلك نرى ما يجري أمامنا. واعتبرنا البروفيسور "آرون هرتزل" ذكرًا منافسًا لنا. وهكذا كنا نعمد في أي تجمع مع الطالبات إلى السخرية من البروفيسور وإطلاق النكات على عجزه الجنسي الأكيد، ولكننا كنا نشعر بأن هناك شيئًا ما يميزه – أقرب إلى هالة من حوله، أو كاريزما – يجعل هرمونات الفتيات تتحفز إلى أقصى درجة في حضوره. على حسابنا نحن.

سعل البروفيسور عدة مرات، ثم تنحنح. يرتدي "الجينز" وسويتر "بولو". لا يرتدي جاكيت. شد أكمامه لأعلى وهو يتجه إلى منصة المحاضرة. ثم مرر أصابعه في خصلات شعره الرمادي المتبقي على جانبي رأسه.

– بدايةً.. لا بد من الاقتناع بأن كل ما هو حولنا ميسر لحفظ الجنس البشري. أو على الأقل حفظه من الانقراض. وعندما أقول كل ما هو حولنا، فإنني أعني ذلك تمامًا. الجاذبية بين الجنسين، الافتتان، الرغبة، أو أيًا ما تحبون تسميته. المتعة. اللذة. كل ما ينم عن انجذاب جنسي بين الذكر والأنثى. كوننا نحب ملامسة الجنس الآخر. ونرغب في تلاحم جسدنا بجسده. إن الخلق عمل مثالي لدرجة تفوق ما يريد لنا هؤلاء المفكرون الحداثيون أن نعتقده. أنتم تحبون رائحة الطعام. وتكرهون رائحة الفضلات. تلك النتانة هي التي تنبهنا إلى أن ليس من الفطرة أن نأكل فضلاتنا. والبول نتن أيضًا، ولكن بدرجة أقل،

وذلك حتى نتقبل بدرجة ما، في حالات الكوارث، مثل غرق سفينة أو تحطم طائرة في الصحراء، فكرة أن نضطر إلى شرب بولنا. تسعة في المئة من عدد سكان العالم من المثليين، وتسعة في المئة يستخدمون يدهم اليسرى. وتلك نسب لم تتغير أبدًا طوال تاريخ البشر على ظهر الأرض. وعبر مراحل التطور. لماذا؟ لأنها النسبة التي بوسعنا احتمالها. ومن شأن زيادة النسبة أن تشكل خطرًا على استمرار النوع. والحقيقة أن المثليين هم أشبه بوسيلة منع حمل تمشي على قدمين. ونحن هنا بالطبع لا نتحدث عن المثليين الذين يستخدمون أيديهم اليسرى، فتلك هي الفئة المستحيلة.

تعالت الضحكات في القاعة، وربما هذه المرة من الأولاد أكثر من البنات.

- استمرار النوع. تلك هي الغاية. وأنا لا أتحدث هنا عن السبب الذي يعلل استمرار النوع في حد ذاته. فالبكتيريا نفسها غايتها الوجود. وكذلك حال الخلايا السرطانية. البقاء هو المحرك الذي يحفز الخلق. ولكن ما السبب؟ بمعنى، كيف يمكننا أن نصدر حكمًا ذا قيمة على هذه الحقيقة؟ لقد هبط الإنسان بالفعل على سطح القمر. فلم يجد حياة هناك. أي نوع من الحياة. ولكن، ما عيب القمر البور؟ القمر الذي لا يحتوي على نباتات أو حيوانات أو زحام مروري؟ وكذلك، ما العيب في أرض بور؟ أو، لنقلها مجددًا، ما الذي يمكننا أن نحكم به على أرض بور ليس فيها حياة؟

هنا، توقف البروفيسور "هرتزل" ليشرب من كوب الماء الموضوع أمامه على المنصة.

- كل من يريد التفكير في الغرض من الخلق، أو إذا شئتم سموه الغرض من الحياة، عليه أن يفكر أولًا في الديناصورات. عاشت الديناصورات على ظهر كوكبنا على مدار مئة وستين مليون عام. ثم اختفت جميعها فجأة. وعقب عدة ملايين من السنين، ظهر الإنسان في المشهد. ولطالما تساءلت عن السبب. وما كان الغرض من تلك المخلوقات التي عاشت على مدى مئة وستين مليون عام؟

يا له من زمن ضائع! لم يظهر لنا أي رابط تطوري مباشر بيننا وبين الديناصورات. فإذا كانت البشرية واستمرارية الجنس البشري أمرًا مهمًا، فما كان الغرض من تلك الديناصورات؟ وما سبب بقائها تلك المدة الطويلة؟ ليس ألف عام، ولا مليون، لا، بل مئة وستين مليون عام! ولماذا لم تجرِ الأمور بالعكس؟ لماذا لم يظهر الإنسان أولًا؟ لماذا لم يبدأ التطور من الأسماك إلى الثدييات ومن ثم إلى الإنسان؟ وبعدها، وفي غضون عشرات آلاف السنين، ينتقل من العيش في الكهوف إلى اختراع العجلة، ثم المركبات، وبعدها الراديو الترانزستور، والقنبلة الهيدروجينية؟ ثم تمر بضعة آلاف أخرى من السنين، أو حتى بضع ملايين، إلى أن تختفي البشرية فجأة. بسبب نيزك، أو انفجار شمسي، أو شتاء نووي، أو أيًا كان السبب. وهكذا ينقرض الجنس البشري. تدفن عظامه تحت طبقة كثيفة من الغبار، وأسفل أطلال المدن، ومع السيارات، ومع الأفكار، والذكريات، والآمال والرغبات. كل شيء راح. وعندئذٍ، وعقب عشرين مليون عام آخر، تظهر الديناصورات. وأمامها كل زمن الدنيا. فلم نعد نحن موجودون. أمامهم مئة وستون مليون عام، مثلًا. ولأن الديناصورات ليست من هواة الحفر والتنقيب، فإنها غير مهتمة بالماضي. وغير مهتمة بالحصول على ماجستير أو دكتوراه في الآثار. لذلك لن تهتم بالبحث أسفل طبقات الغبار، بالطريقة التي نقوم بها نحن. وهكذا لن يتسنى لهم العثور على مدن مفقودة. أو الطرق السريعة ذات الحارات الأربع، أو أجهزة تليفزيون، أو آلات كاتبة. ولا سيارات مرسيدس مجهزة مدفونة تحت الأرض. ربما عثرت، بالصدفة، على جمجمة بشرية. تتشممها، ثم لا تجد منها نفعًا غذائيًا وتلقيها إلى أبعد ما يكون عنها. لا فضول لدى الديناصورات لتبحث عمن كان يعمر الأرض قبلها. هي تعيش حاضرها. أولئك الجهلة بالتاريخ محتوم عليهم أن يكرروا أحداثه، هكذا قيل لنا. ولكن، أليس التكرار هو جوهر الوجود؟ الميلاد والموت،

ثم الميلاد والموت. شروق الشمس كل صباح وغروبها كل مساء. صيف.. خريف.. شتاء.. ربيع. نسميه الربيع الجديد. رغم أنه ليس بجديد. نتحدث عن أول سقوط للثلج، رغم أنه هو الثلج نفسه الذي سقط في العام الماضي. يخرج الرجل للصيد، بينما تحافظ المرأة على دفء الكهف. يمكن للرجل خلال اليوم الواحد أن يعاشر عدة نساء فتحملن جميعًا منه. ولكن كل واحدة منهن ستبقى لمدة تسعة أشهر غير قادرة على المساهمة في زيادة أعداد الجنس البشري. وبوسعنا في عصرنا أن نحسب لكل سيدة عدد المواليد التي بوسعها أن تلدها قبل أن تصل إلى سن اليأس. والعدد معروف: 20. وبعد ذلك الرقم تتزايد المخاطر عليها. بينما تقل جاذبية الأنثى لدى الذكر. وهكذا يتنبه الذكر إلى أن عليه ألا يعاشر هذه الأنثى بالذات بغرض أن تحمل منه. هكذا تمت صياغة العالم. والحيوانات المنوية لها ميزة الاحتفاظ بخصائصها التخصيبية لزمن كبير في الظروف المناسبة. ولا يمكن تجاهل المخاطر الصحية التي يتعرض لها الطفل المولود لأب متقدم في السن. وصرنا هذه الأيام نسخر من الأب الذي تجاوز الخامسة والسبعين لطفل أنجبه من فتاة في العشرين. رغم أنه لا داعي إلى السخرية إطلاقًا. فالطفل هو مجرد طفل. طفل جديد آخر. طفل ما كان ليوجد لولا ذاك الرجل. الرجل يتقدم في السن، ولكن جاذبيته لا تتأثر. وذلك في حد ذاته دليل على عبقرية الطبيعة. الطعام الطازج رائحته شهية. بينما الطعام العفن نتن الرائحة. نشم علبة الحليب حتى نعرف ما إذا كانت صلاحيته قد انقضت أم لا. وهكذا نفعل مع بعضنا البعض نحن البشر. قبل أن تقول المرأة لصديقتها: هذا الرجل لا يصلح. إنه عجوز للغاية. ولكن، هيهات. المرأة التي انتهت فترة صلاحيتها تفقد جاذبيتها لدى الرجل؛ لأنها فقدت سبب وجودها. ولن يكون لها دور في استمرار النوع البشري. وهنا أود أن أتوقف لحظات عند فكرة الظلم. أنا أتعاطف مع المرأة التي تجد في كل هذا ظلمًا لها.

فالمرأة هي نجمة عالم الخلق. ولكنها مثل لاعبي كرة القدم؛ تعتزل بدءًا من سن الخامسة والثلاثين. وتعمل ما في وسعها لكي تكون قد أنجزت مهمتها قبل هذه السن. وضمنت لنفسها بيتًا وزوجًا وأولاد. المرأة أسرع قبولًا بفكرة الارتباط مقارنة بالرجل. أي رجل. وتجد ذلك واضحًا في المرأة العانس. ورغم أنها قد تكون جميلة، ولكن الظروف فرضت عليها أن تصل إلى سنها ذاك من دون زواج، فترضى بالارتباط بأي رجل والسلام، حتى ولو كان مجرد كهل آخر، ولكن المهم أنه قادر على أن يجعلها تنجب. فالغريزة هي التي تحكم كل شيء. بما فيها استمرارية النوع البشري. تجدها ترضى بكهل يمتلك سيارة وبيت يسترها. فهي لا تفكر في نفسها فقط، ولكن في مولودها أيضًا. لا بد أن يكون مهد الطفل في مكان دافئ وجاف، تمامًا مثل كهف الإنسان الأول. وميزة الكهل أنه قادر على سداد أقساط الرهن العقاري بانتظام، مقارنة بالشاب الوسيم الذي لم يفقد بعد ميزة القدرة على الاختيار من بين الإناث. ولكن عيب الشاب الوسيم أنه لا يجد ما يمنعه من أن يحمل حقيبة ظهره في أي وقت ويرحل عن أنثاه. هكذا نجد أن الغريزة في المرأة أقوى من رغبتها. هي بالطبع تحلم أن تكون في أحضان ذلك الوسيم كل ليلة. ولكن نية الوسيم مختلفة عن نيتها. غريزته تفرض عليه العمل على معاشرة أكبر عدد من الإناث، حتى تنتقل جيناته القوية السليمة، وتلك هي أولويته. إنها ساعته البيولوجية. ورغم أن الوقت في ساعته وساعتها واحد، فإنه يعني لها أن وقت الاستقرار قد حان، بينما يعني للرجل أن الوقت مبكر جدًا على الاستقرار. وهكذا نجد في النهاية ثقافات ترعى تلك النساء اللاتي وصلن إلى تلك المرحلة. وعلينا أن نمعن النظر في تلك الثقافات. أما هنا في الغرب، فإن المرأة التي تصل إلى تلك المرحلة تنطوي على نفسها حتى تغيب في سنين الوحدة والحزن. ومع ذلك نعتبر أنفسنا الثقافة الأكثر تحضرًا. وتلك الثقافات التي أحدثكم عنها تحرص على تزويج الفتيات

وهن في سن صغيرة. وربما تعتقد المرأة أن من الظلم ألا يحمل الرجل. ولكننا لن نجد رجلًا يرغب في ذلك الدور. لا يمكن لرجل أن يتصور أنه مضطر إلى أن يتحول في الدنيا وهو يحمل في بطنه جنينًا على مدار تسعة أشهر. فتلك بطن تعوق مهمتنا التي تفرضها علينا غريزتنا. وأنتم ما زلتم صغارًا. فافعلوا ما ترغبون في فعله. افعلوا مرارًا وتكرارًا. قدر ما أمكنكم. ولا تفكروا في المستقبل. واحرصوا على أن تحققوا شيئًا يجعلكم فخورين به فيما بعد. تجاهلوا فكرة الظلم.. انتهى حديثي معكم اليوم.

يقع المنزل الصيفي فوق تلة بين بقية المنازل الأخرى، على بعد يقل عن ثلاثة أميال عن الشاطئ. وميلان عن مخيمنا. ولأنها مسافة بعيدة لنمشيها، فقد ذهبنا بالسيارة. علقت "كارولين" عندما رأت المنطقة:

- هاه.. كنت أتوقع مشهدًا مختلفًا.

كنا نبحث عن العنوان، ونمعن النظر في أرقام المنازل، وهو أمر لم يكن بالسهل، لأن لوحات الأرقام كانت إما غير موجودة أو يغطيها اللبلاب وغيره من النباتات.

- في البداية كان الرقم ثلاثة وخمسين، ثم خمسة وخمسين، ولكن الأرقام تتراجع من جديد.

أوقفت السيارة، وأخرجت رأسي من النافذة لأتحقق.

- اثنان وثلاثون، اللعنة! ما الذي يعنيه هذا الرقم، تقسيمًا مختلفًا؟

- لا أدري. ربما هي فلسفتهم الخاصة في الترقيم، من يدري؟

عندما صعدنا إلى القمة، استدرت بالسيارة. استطعنا من موقعنا أن نرى البحر مثل شريط أزرق، والطريق على شكل متعرج ينتهي عند الشاطئ. رمقت زوجتي. هي بدورها كانت على وشك أن تتزوج من كهل منذ سنوات. التقيتها أول مرة في حفلة. عيد ميلاد صديق لي. وكانت "كارولين" صديقة زوجة

صاحبنا منذ الطفولة. أما ذاك الكهل فلم يكن له أصدقاء. ولكنه كان بصحبتها. قال لي: "أنا لا أعرف أحدًا في الحفلة". كنا واقفين عند مائدة المقبلات. وضع كوب "الكوكا كولا"، وأخرج غليونه. "أتيت مع صديقتي". راقبته وهو يعبئ الغليون بالتبغ. أي امرأة هذه التي تعجب برجل يدخن الغليون؟ في اللحظة التالية، ظهرت "كارولين" إلى جواره، وسألته:

- هلا ذهبنا؟ أشعر أنني متعبة؟

أحيانًا ما يكون الفارق بين الرجل والمرأة هائلًا لدرجة تدفعك إلى التساؤل عما إذا كان هناك عوامل أخرى وراء ذلك الارتباط. عوامل مادية، مثلًا. أو هي المكانة الاجتماعية والشهرة. مثل تلك التي تجمع بين عارضة أزياء عشرينية ومليونير ستيني. تجمع بين جمال طاغٍ وأقبح لاعبي كرة القدم على الإطلاق. ليس لاعب درجة ثالثة، ولا حتى لاعب درجة ثالثة بوجه وسيم مثل وجه "ديفيد بيكهام". كلا، بل هو نجم كرة قدم عالمي. ولكنه قبيح، خفيف الشعر، وابتسامته تكشف انقراض أسنانه. الأمر أشبه بعقد اتفاق. مقابل أن تظهر معه الموديل أمام الكاميرات، يمنحها كل المال الذي تحتاج إليه حتى تتسوق بكل جنون في متاجر ميلانو ونيويورك. وفي المقابل، يثبت لاعب الكرة القبيح أو المليونير العجوز لبقية البشر أنه قادر على أن يختطف من بينهم أجمل النساء. ولكنك أحيانًا ما لا تنتبه على الفور إلى ذلك الاتفاق. وتسأل نفسك: حسنًا، كيف يعقل هذا بحق السماء؟ ما الذي تراه تلك المعتوهة في هذا الكهل؟

انتبهت "كارولين" إلى وجودي، فمدت يدها تصافحني:

- أوه.. آسفة.

- "مارك".

قاومت في البداية الرغبة في أن أبقي يدها في يدي لفترة أطول مما هو مقبول. ثم قاومت الرغبة في أن أقول لها كلمات "ظريفة". رمقت رجلها، الذي

كان منشغلًا في نفث حلقات من الدخان الكثيف من غليونه. وراودني حدس عجيب. وهو أنني غير مضطر لأن أقول لها أي كلام ظريف. وهذا لأنني أجد نفسي أشد جاذبية من ذلك الوغد.

سبق لي أن وصفت لك ملامحي. ولكنني أود أن أضيف على ذلك أن من يراني للوهلة الأولى لا يعتقد أبدًا أنني طبيب. في حفلات عيد الميلاد على الأقل. ولو حدث أي مكروه خلال أي حفلة، وبدأ الحاضرون يبحثون عن طبيب، فإنهم لا ينظرون ناحيتي أبدًا، فهم يستبعدون – من مظهري – أن أكون طبيبًا. يقولون إن هذا رجل يرتدي حذاءً رياضيًا قديمًا، و"جينز غير نظيف"، و"تيشيرت" شبابي بالكاد يصل طرفه إلى حزامه. وشعره مصفف على موضة الشباب. أجل، فقد وهبت تلك النوعية من الشعر التي تجعلني أعبث به بيدي فيبدو وكأنني قد نهضت للتو من تحت يدي مصفف شعر شهير، على الموضة. أقف قبل أي حفل أمام المرآة. وأحرك أصابعي في خصلات شعري في كل اتجاه، وهكذا أحصل على التسريحة التي تجعلني "كوول".

تأملت السيدة التي قدمت لي نفسها باسم "كارولين". فأدركت فجأة سبب وجودها مع هذا الكهل. إنها الساعة البيولوجية. نظرت إلى ساعتها وأدركت أن الوقت يوشك أن يفوت. ولكنني عدت لأنظر إلى الرجل، وعرفت أن فرصتها ستضيع معه، فقد رأيت فيه جينات ضعيفة. أي أطفال ضائعين.. سيكون بانتظارهم هذا الغليون عند خروجهم من باب المدرسة. خفق قلبي بقوة عندما قالت إنها متعبة. ماذا لو كان وقتي يوشك على الانتهاء أيضًا؟ وجدت الفكرة مرعبة لدرجة أنني تجاهلت كل تكليف وانتقلت مباشرة إلى صلب الموضوع.

بالنسبة لي، أنا الرجل، فلن أجد المرأة الحامل جذابة. يمكنني تبادل المجاملات معها فحسب، ومن ثم أتركها لزوجها الممل. ولكي يكبر طفلها في منزل تغطي رائحة التبغ كل شيء فيه. قلت لها:

- تعتقد بعض السيدات أن من غير المسموح لهن تناول الشراب أثناء الحمل. ولكن لا بأس في كأس من النبيذ الأحمر. الحقيقة أن ذلك الكأس الوحيد يفيدها. يفيد الأعصاب، ويفيد الجنين.

احمر وجه "كارولين". خشيت في البداية أن أكون قد أخطأت التخمين، ولكنني وجدتها تنقل نظرها بين رجلها وبيني.

- أنا.. نحن.. نحن نحاول.. نحاول الإنجاب. ولكن ليس بعد.

وجدتني أتنهد في ارتياح.

- اعذراني، فربما تتساءلان عما دفعني إلى التحدث في موضوع قد لا يخصني. ولكنه نوع من عيوب المهنة. فعندما أسمع سيدة تشتكي من الدوار، أعتقد على الفور أنها.. أنها..

حدقت في من خلال أجفانها الطويلة. تلك العينان تسألني: عيوب المهنة؟ أي مهنة هذه؟ لذلك بادرت أقول:

- أنا طبيب عام.

لم أرفع عينيَّ عنها، وأنا أمرر أصابعي في شعري بحركة لا إرادية، فأزيده لخبطة. أنا الآن أتجاهل الكهل تمامًا. وكأنه غير موجود. وكأننا وحدنا، نحن الاثنان. وأنا عندما أتذكر ذلك الآن أرى أنه وصف صحيح للغاية.

- طبيب عام!

ابتسمت. ولم تحاول أن تخفي نظرتها السريعة إلى جسدي. هي في الغالب معجبة بما رأته؛ لأن ابتسامتها اتسعت؛ لتُظهر بياض أسنانها الناصع.

سألتها ذات مرة فيما بعد عما كانت تفكر فيه لحظتها. كنت أكرر ذلك السؤال مرة أو مرتين كل عام. بقينا لفترة طويلة عقب قبلتنا الأولى نحاول توصيف أول لقاء جمع بيننا.

كان رد "كارولين" دائمًا هو أنها لم تتخيل أبدًا لحظتها أنني طبيب. فيا له من طبيب وسيم. هكذا قالت لنفسها. بتلك الملابس الشبابية، وتسريحة الشعر "الكوول". وأنت؟ ماذا قلت لنفسك؟

أخبرتها أنني كنت أفكر في عبثية أن تكون امرأة مثلها مع رجل مثله. وكنت أتحسر على الجمال الذي سيضيع عندما يقضي كيان لطيف مثلها بقية حياته مع غليون ينفث الدخان.

انتبهنا إلى صوت يأتينا من كواليس المشهد:

- إذا كنتِ متعبة حقًا يا "كارولين"، فربما من الأفضل أن نذهب.

- بل أعتقد أنني أفضل البقاء لبعض الوقت. أرغب في كأس نبيذ أخرى.

صاحت "ليزا" من كرسيها في الخلف فجأة:

- انظر! بابا! انظر!

ضغطت الفرامل بقوة:

- ماذا؟ أين؟

- انظر! الولد الذي يمشي هناك. إنه "أليكس".

17

- هل هناك من يريد المزيد من السردين؟ هناك الكثير.

مسح "رالف" أصابعه في التيشيرت الذي يرتديه ونظر إلينا واحدًا واحدًا، وكأنه يتوسل إلينا:

-أنتِ، "كارولين"؟ "إيمانويل"، تريدين المزيد؟ انتظري، كيف تقولينها بالإنجليزية؟

ثم التفت إلى "ستانلي"، وقال له غامزًا بعينه:

- لا بد من أن أحرص في كل كلمة أقولها لها. وأنت يا "مارك"، المزيد؟ هيا، فأنت الدكتور. والسردين مفيد. طعام صحي، أليس كذلك؟

قلت له وأنا أربت على معدتي:

- طبعًا، بالتأكيد. ولكنني شبعت تمامًا يا "رالف". أشكرك.

كنا نجلس عند مدخل المنزل، إلى ترابيزتين من البلاستيك. كانت مساحة المدخل محاطة بسور دائري قصير من تلك الأحجار التي تستخدم في الديكور، ترصعه القواقع والأحفوريات البحرية.. الباربيكيو له مكان في تجويف في السور، وله مدخنة مصنوعة من بلاط الأسطح. ورغم وجود مدخنة، فإن رائحة السلمون المشوي كانت قوية وثقيلة حولنا، وكأنها دخان حريق. علقت الرائحة بكل شيء، ملابسنا، شعرنا، وأوراق العنب، وسعف النخيل. أما أنا، فكنت أتمنى تناول اللحم. ولو حتى فخذ دجاجة. فأنا لا أحب السردين. ليس السردين

المعلب، الخالي من الشوك، ولكن السردين الطازج، حيث يستغرق تنظيف السمكة من الشوك وقتًا أطول من وقت تناولها. ورغم أنك تعتقد أنك نجحت في التخلص من كل الشوك، ولكنك تجد في فمك العشرات منه مع كل لقمة. شوك دقيق يعلق بلثتك أو في سقف فمك، أو الأسوأ أن يقف في زورك. ثم هناك تلك الرائحة. أشمها رائحة عفنة. رائحة تنبهني إلى ألا أتناول من هذا الطعام. وهي رائحة تبقى في أصابعك لأيام. تحت الأظافر. وعليك أن ترسل بملابسك التي كنت ترتديها وأنت تأكل السردين إلى المغسلة مباشرة. وأن تغسل شعرك. وحتى مع كل هذا، يبقى التجشؤ الذي يذكرك طوال الليل وحتى الصباح بما تناولته على العشاء في تلك الليلة. التفت "رالف" الآن إلى أم "جوديث":

- "فيرا"؟ إياكِ أن تخيبي ظني.

كانت أول مرة أسمع فيها أحدهم وهو يناديها باسمها. لها شعر قصير أشيب. تصفيفته عملية. كررت الاسم في ذهني.. "فيرا". شعرها أقرب أكثر إلى اسم مثل "ثيا" أو "ريا". ووجهها حلو، ولكنه فارغ، وتجاعيده قليلة بالمقارنة بعمرها. إنها امرأة عملية تحافظ على صحتها، وفي الغالب عاشت حياة حريصة من دون إفراط أو تفريط، ويبدو أنها بدأت تغالب النعاس بعد الكأس الأولى من النبيذ الأبيض. وتوقعت أن تغادر الترابيزة في أي لحظة، وتستأذن لتصعد إلى غرفتها.

كانت "جوديث" قد اصطحبتنا في جولة داخل المنزل الصيفي عقب وصولنا ببرهة. يحتوي الطابق الأول والأكبر على غرفتي المعيشة والطعام، والمطبخ، وثلاث غرف نوم. وحتى من دون مساعدة "جوديث"، كان سيسهل علينا التعرف على صاحب كل غرفة نوم. فتلك التي بها سرير كبير وكومة من الكتب والمجلات هي غرفتها مع "رالف". أما الغرفة الأصغر ذات السريرين والتي تغطت أرضيتها بالملابس والأحذية المتناثرة، وأدوات السباحة والغطس وكرات

التنس، هي بالطبع غرفة "أليكس" و"توماس"، أما الغرفة الأصغر ذات السرير الوحيد، فهي بالطبع غرفة الجدة. ولسبب لا أعرفه، توقفت قليلًا عند مدخل تلك الغرفة الأخيرة، بعد أن عادت "جوديث" ومعها "كارولين" إلى غرفة المعيشة. السرير فارغ أمامي، وأحسست كأنها غرفة راهبة من الراهبات. هناك سترة بنية معلقة على ظهر الكرسي الوحيد، وأسفل الكرسي شبشب حمام موضوع بكل اهتمام. لوحة مرسومة بالقلم الفحم معلقة على الحائط وراء السرير، تُصوِّر قارب صيد رسا عند الشاطئ. هناك صورة داخل برواز - أو افترضت أنها صورة، فقد كان ظهر البرواز ناحيتي - موضوع فوق الكومودينو. أنصت إلى ثرثرة "جوديث" وزوجتي. كان بوسعي أن أفعلها. أن أتقدم خطوتين لأنظر إلى الصورة، وأعرف صاحبتها أو صاحبها، ولكنني لم أفعل. قلت لنفسي فيما بعد. فيما بعد. هناك الكثير من الوقت. هناك واجهة زجاجية عريضة في الجهة المطلة على خارج المنزل في غرفة المعيشة. تطل على التلال المنتشرة على طول الساحل في تلك المنطقة، ولكن البحر غير ظاهر. ذوق أثاث المكان قبيح في أغلبه. أريكة خضراء ومعها مقعدان من اللون نفسه، القماش إما من البلاستيك أو هو نوع من الجلد. ترابيزة من الخيزران وسطحها زجاجي داكن. أما السفرة فمن الخشب الأسمر الداكن الثقيل، وأظهر كراسي السفرة من المخمل الأحمر. علقت "جوديث" قائلة:

- أصحاب المنزل بريطانيون.

في الطابق الأرضي جراج وشقة منفصلة لها مدخلها الخاص. يقيم فيها "ستانلي" و"إيمانويل". تمنيت، بلا سبب معين، أن نتجول في تلك الشقة هي الأخرى، ولكن "جوديث" فتحت الباب قليلًا ونادت بكلمات ما، وعندئذٍ خرج لها "ستانلي". يلف نصفه السفلي بمنشفة بالكاد تصل إلى ركبتيه.

- "إيمانويل" في الحمام.. تأخذ "شاور".

رمقت الجزء العاري من جسده. عضلات بطنه مشدودة رغم تقدمه في السن. مشدودة، مُسمَرَّة من الشمس. ولكن بشرته نفسها غير ذلك. الشعر على صدره وأسفل سرته أبيض. سألته "جوديث":

- ألن تلحقا بنا لنشرب شيئًا؟

في النهاية، وصلنا إلى الحديقة، حيث توجد إلى جوار المنزل مساحة صغيرة مسقوفة، بها ترابيزة "بنج بونج". وهناك فوق باب الجراج شبكة كرة السلة. التربة في الحديقة - بعيدًا عن الممشى المغطى بالحصى - سمراء جافة، يكاد يكون لونها أحمر. وهناك عتبات متدرجة لأسفل تربط بين مدخل المنزل والبسين. سألتنا "جوديث":

- أتحبان نزول البسين أولًا؟

نظرت أنا و"كارولين" إلى بعضنا ثم قالت:

- ربما فيما بعد.

البسين على شكل رقم 8. ففي منتصفه جزيرة دائرية صغيرة قطرها نصف متر من الحجر الصناعي، تتصاعد من قلبها نافورة رقيقة. تطفو على ماء البسين عوامات مطاطية وألعاب بلاستيكية وبساط بلاستيكي على شكل تمساح، له مقبضان على الرأس. وفي الجزء الذي يشبه الدائرة الأكبر في الرقم 8 يوجد لوح القفز إلى الماء.

- نقضي معظم الوقت هنا. ونجد مشقة كبيرة في إقناع الولدين بالذهاب إلى الشاطئ.

في تلك اللحظة، خرجت "ليزا" ومعها "توماس" من المنزل يركضان. لم يبطئ ابن "جوديث" الأصغر من سرعته حتى عندما وصل إلى حافة البسين. وحتى آخر لحظة، بدا لي أنه لم يقرر ما إذا كان سيغطس أم سيقذف بجسده

في الماء فحسب. ومع نصف تعثر، ونصف تزحلق فوق البلاط المبتل، سقط في البسين صانعًا رذاذًا كثيفًا. صاحت فيه "جوديث" تعنفه:

- "توماس"!!

فصاح هو الآخر، وهو يشوح بذراعيه، فتراجعنا خطوات حتى لا نبتل:

- هيا يا "ليزا"! تعالي! هيا!

ترددت ابنتي الصغيرة عند الحافة للحظات، قبل أن تقفز هي الأخرى في الماء. سألتها "كارولين":

- "ليزا".. "ليزا"، أين "جوليا"؟

كانت "ليزا" قد صعدت الآن فوق التمساح البلاستيكي، ولكن "توماس" جذبها إلى داخل الماء من جديد. سألت أمها:

- ماذا قلتِ يا ماما؟

- أين "جوليا"؟

- لا أعرف. هما في الداخل.. ربما.

بعد السردين كانت سمكة "الشفنين". كانت كبيرة حتى إنها غطت الشواية. وتصاعد من تحتها الدخان. وفوق الترابيزة الحديدية الصغيرة بجوار الباربيكيو، وضع "رالف" صحنًا كبيرًا به الكثير من الكائنات البحرية. أغلبها من الحبار، كما يبدو. جميع أنواع الحبار الممكنة: حبار أبيض مستدير له مجسات، وحبار مثل عيش الغراب تتدلى سيقانه، وحبار شبيه بالأخطبوط.

قال "رالف" وهو يبعد الدخان عن عينيه بيده:

- نشتري كل السمك من محل في القرية يجلبها طازجة من المراكب. هو لا يبدو مثل أي محل من الخارج. ولا يفتح أبوابه إلا عندما يحضر الصيد. ولا يمكن لأحد أن يحضره طازجًا أكثر من ذلك.

كنت مشغولًا بمحاولة انتزاع شوكة سردين وجدت طريقها إلى سقف فمي عند نقطة مستحيلة، خلف السن الأمامية، وأحاول ألا ينتبه إليَّ أحد. بينت له أنني قد سمعت ما قاله. ولأنني كنت أجلس قريبًا جدًا من الباربيكيو، فقد كان أغلب الدخان يتصاعد نحو وجهي. رائحة دخان الشفنين أقل فداحة من دخان السردين، ولكنني كنت قد فقدت شهيتي على كل حال. ملأت كأسي بالنبيذ الأبيض مجددًا، وجرعت منها جرعة كبيرة. حاولت وأنا أحرك النبيذ في داخل فمي أن أستعين بطرف لساني في محاولة للتخلص من تلك الشوكة، ولكن لساني آلمني من وخز الشوكة. بينما كان "ستانلي" يتحدث إلى "كارولين":

- من الواضح أنه سيكون ثلاث عشرة حلقة. وكل حلقة خمسون دقيقة. ربما يكون أضخم إنتاج في تاريخ التليفزيون.

كنت أجلس مع "كارولين"، أمام "ستانلي" و"إيمانويل". أشعلت "إيمانويل" سيجارة طويلة الفلتر، وكانت تسقط رمادها في طبقها الذي تبقى فيه قليل من السردين. لم تخلع نظارتها الشمسية، رغم بداية حلول الظلام. عدساتها الكبيرة تجعلك لا تعرف إلى أين تنظر بالضبط. سأل "ستانلي" "كارولين":

- هل شاهدتي مسلسل "آل سوبرانو"، أو "ذا واير"؟

- لدينا جميع مواسم "آل سوبرانو" على أسطوانات "دي في دي". أعتقد أنه رائع. وتمثيل عظيم. وكثير من الناس أخبروني أن "ذا واير" جيد جدًا. ولكننا لم نشاهده بعد. ولكن ماذا عن مسلسل "ربات بيوت عنيدات"؟ تعرفه؟ لدينا المسلسل على أسطوانات أيضًا.

- "ذا واير" هو أفضلها. لا بد أن تشاهديه، وعندها سوف تدمنينه. غالبية الممثلين من السود. لذلك تصنيفاته أقل بكثير من "سوبرانو". ولكن "ربات بيوت عنيدات".. أنا آسف، ولكنه مسلسل خفيف للغاية. ولكن ربما هو أنسب

للسيدات. "إيمانويل" مثلًا تعتقد أنه ممتاز. أليس كذلك؟ "إيمانويل"؟ تحبين "ربات بيوت عنيدات"، أليس كذلك؟

كان عليه أن يربت على ذراعها حتى تنتبه إلى أنه يتحدث إليها. وكرر السؤال. فقالت، من دون أن توجه كلامها لشخص بعينه:

- مسلسل.. لطيف.

فقال "ستانلي"، وهو يبتسم لـ"كارولين":

- أوكيه، نحن متفقون إذًا. وعلى كل حال، فإن هذا المسلسل من إنتاج "إتش بي أو"، التي أنتجت المسلسلين الآخرين. ولكن هذا هو المسلسل الأضخم إنتاجًا على الإطلاق. ذكرت هذا من قبل، أليس كذلك؟

- بالفعل، ولكن لا بأس.

- يحكي قصة صعود الإمبراطورية الرومانية. العصر الذهبي بأكمله. من "يوليوس قيصر" وحتى "نيرون". ولكننا لم نتوصل إلى اسم له حتى الآن. سوف يختارون من بين "روما" و"أغسطس". ولكن بما أن المسلسل يتحدث عن فترة حكم "أغسطس" من الحلقة السابعة وحتى الأخيرة، لذلك أعتقد أنهم سيسمونه "أغسطس".

تدخلت في الحوار، وسألته:

- وماذا عن "رالف"؟

- سيكون الإمبراطور. "قيصر أغسطس".

- أجل، أعرف هذا. ولكنني لم أقصد ذلك. بل كنت أتساءل عن اختيار "رالف" للدور. كيف اخترته له؟

- عملت مع "رالف" منذ سنوات، وقت أن كنت أعيش في هولندا. هل شاهدت له "الأحباب"؟

كان عليَّ أن أفكر في كلامه. وعندئذٍ تذكرت أنني لم أشاهد الفيلم في السينما وقت عرضه، ولكنني شاهدته لَمَّا عُرض في التليفزيون. فيلم عن الدراجات النارية والجنس والعنف. يحتوي على مشهد عظيم، من النوع الذي يتحاكى عنه الناس لسنوات. من نوعية المشاهد القادرة على تخليد أي فيلم، حتى لو كان سيئًا. يقوم صبيان بشد سلك رفيع عبر الطريق. عند ارتفاع الرقبة. ثم تقترب دراجة بخارية بسرعة عالية. وعندئذٍ، يطير الرأس لتسقط فوق الأسفلت. ويتدحرج الرأس، قبل أن يستقر في حفرة محاذية للطريق. وتقترب الكاميرا، فنرى العينين المذهولتين في الرأس الذي بالكاد يطفو فوق المياه الراكدة. إنهما ترمشان. ثم يتغير المشهد. لنرى ما تنظر إليه العينان. تنظر إلى ضفدع جالس، ومصدوم هو بدوره. ثم ينفق الضفدع قبل أن يتشوش المشهد، وتسود الشاشة. والتلميح هنا واضح. كان الرأس الذي اجتزه السلك لا يزال حيًّا عندما استقر في الماء. سمعت "كارولين" تقول:

- لم يكن أبواي ليسمحا لي بمشاهدته.

أجابها "ستانلي" في انبهار:

- حقًا؟ وهل كنتِ صغيرة وقتذاك إلى ذلك الحد؟

سألته:

- هل كان "رالف" في ذلك الفيلم؟ "الأحباب"؟ أنا لا أتذكر هذا.

صاح "رالف"، الذي كان ينصت إلى كلامنا بالفعل، ضاحكًا:

- لا تزال رقبتي تؤلمني من ذلك المشهد!

سألت "ستانلي":

- أكان هو؟

ثم التفت إلى "رالف":

- أكنت أنت الذي في الماء؟ لم أدرك ذلك أبدًا.

- جميل أن أعرف أنك متابع للأفلام الكلاسيكية يا "مارك". ما رأيك، "ستانلي"؟ يسعدنا أن نسمع من الناس أنهم يتذكرون أحد تلك المشاهد، أليس كذلك؟

قالت "كارولين":

- أوه، يا إلهي، الآن تذكرته! ذلك الرأس المقطوع في الحفرة! أوه، كنت مرعوبة لدرجة منعتني من أن أنظر. وأدركت لاحقًا أن والديَّ كانا على حق في عدم مشاهدته.

تعالت قهقهة "رالف" الجهورية. وضحك "ستانلي" بدوره. ورفعت "إيمانويل" رأسها للحظات. على وجهها ابتسامة حالمة، ولكنها لم تسأل عن سبب ضحكنا. تذكرت الأفلام التي أخرجها "ستانلي فوربس" بعد ذلك. تلك التي صنعها في هوليوود.. لم أكن شاهدتها جميعها، ولكنها أفلام اعتمد فيها المخرج كثيرًا على الرعب ومشاهد الدم والعري. أفلام "تكشف كل شيء"، كما يقولون. تعرض للأوصال المقطعة والأطراف المبتورة من ناحية، والجنس وتفاصيله من ناحية أخرى. ما إن تشاهد الفيلم، حتى تنسى القصة والحبكة، ولا تتذكر سوى تلك المشاهد. صاح "رالف":

- أين "جوديث"؟ أكاد أموت عطشًا.

فعلًا، أين "جوديث"؟ نهضت منذ دقائق لتحضر المزيد من النبيذ الأبيض، ولم تعد حتى الآن. بينما رفعت أم "جوديث"، التي تجلس عند الطرف البعيد من المائدة، يدها إلى فمها وهي تتثاءب. كانت تلك هي الحركة الوحيدة التي بدرت منها طوال نصف الساعة الماضي.

تطلعت حولي بحثًا عنها. نظرتِ أولًا إلى العتبات الحجرية التي تقود إلى الطابق الأول. ثم إلى المنطقة المسقوفة عند جانب المنزل، حيث تلعب "ليزا" و"توماس" "البنج بونج" تحت أضواء الفلورسنت الصفراء. كان طبق السردين كافيًا لهما، فاستأذنا للانصراف عن المائدة. وكذلك فعلت "جوليا"

و"أليكس". ولكنني لا أعرف إلى أين ذهب الاثنان. نظرت إلى البسين، الذي أضاءت مصابيحه السفلية الماء الآن. لم يكن في ذلك المساء أي نسيم. فبقي التمساح البلاستيكي بلا حراك فوق سطح الماء. وكنت قد تعمدت ألا أنظر ناحية "جوديث" ونحن نتناول السردين. وهي بدورها لم تحاول أن تنظر نحوي مباشرةً. ولكنها ضحكت في لحظة على تعليق لـ"كارولين" لم يكن خفيف الدم إلى تلك الدرجة، وبالغت في الضحك وهي تضع يدها على ساعد زوجتي. حتى أنني تساءلت عما إذا كنت لم أفهم التعليق جيدًا. هل فاتني شيء؟ نظرة. إيماءة منها. أي شيء ينبهني أن عليّ أن أنتظر قليلًا ثم أتبعها إلى داخل المنزل. هل أذهب وأبحث عن "جوديث"؟ كررت هذا السؤال في عقلي عدة مرات، ولكنه ظل بالنسبة لي مجرد سؤال من نصٍّ لفيلم رخيص.

وفجأة، سمعنا حركة عند أعلى السلم. رأيت "أليكس"، ثم "جوليا" من خلفه، ومن خلفهما "جوديث". شعر "جوليا" متناثر حول وجهها، ولما اقتربت أكثر، وجدت أن خديها محمران. ولم أكن قد انتبهت كثيرًا إلى "أليكس" لأعرف ما إذا كان شعره غير مصفف أيضًا، أم أن هذه هي عادته.

- بابا؟

كانت "جوليا" واقفة الآن خلفي، وتضع يديها على جانبي عنقي، وهي تدلك كتفيَّ برفق. هكذا اعتادت أن تفعل كلما كانت تريد أمرًا ما، نقود زيادة على مصروفها حتى تشتري "سويتر" أعجبها، أو حتى تشتري ذلك السنجاب اللطيف الذي شاهدته في محل الحيوانات الأليفة، أو تريد الذهاب إلى حفلة المدرسة، حيث سيبقى الجميع حتى منتصف الليل.

- إمممم؟

أخذت يسراها في يميني وداعبتها برفق. ونظرت إلى "كارولين". لا تبدأ "جوليا" بطلب أي شيء من أمها أولًا. هي تعرف أنني أكثر حنانًا، وأنني لن أجرؤ على أن أرفض لها شيئًا، كما تصنفني "كارولين".

- هل يمكن أن نبقى هنا؟

- نبقى هنا؟ ما قصدكِ من أن نبقى هنا؟

حاولت أن أنظر إلى "جوديث"، ولكنها كانت قد وضعت للتو زجاجتي نبيذ أبيض فوق المائدة وتناول الفتاحة لـ"ستانلي". شعرت بحرارة في وجهي. وتزايد نبض قلبي.

- تقصدين أنكِ تريدين المبيت هنا؟ لا أعتقد أن هناك مكانًا كافيًا.

أجابتني، وهي تزيد من قوة تدليك كتفي:

- كلا، أقصد أن نبقى جميعًا. أن نبيت كلنا هنا. وليس في ذلك المخيم السخيف.

تنحت "جوديث" بعيدًا عن المائدة، وصارت خلف زوجتي مباشرة. ونظرت إليَّ. وقالت:

- لقد دعوناكما خلال تلك الحفلة. ولكن "ستانلي" و"إيمانويل" جاءا من أمريكا، ولم يعد هناك مكان في المنزل الصيفي. ولكنني أعتقد أن لديكما خيمة. فلماذا لا تحضرانها وتنصبانها في الحديقة؟

نظرت إليها. طريقة وقفتها، ووجهها البعيد عن ضوء الشموع. لا أستطيع أن أرى عينيها بوضوح. همست "جوليا" في أذني:

- أرجوك؟ أرجوك؟

- لا أدري. أين سنفعل ذلك؟ أقصد أن في هذا إزعاجًا وتعبًا كبيرين عليكم. لديكم ضيوف بالفعل. وسيكون هذا غير مستحسن.

تدخل "رالف" بصوته العالي وهو يضحك ضحكته الغريبة:

- كلام فارغ! ما أحلى اللمة.. المكان يتسع لجميع الأحباب.

وقالت "جوديث":

- أرى أن هناك مكانًا مناسبًا، عند جانب المنزل. مكان ترابيزة "البنج بونج". هناك مساحة كافية للخيمة. ويمكنكما استخدام الحمام داخل المنزل الصيفي وكل شيء آخر.

سمعنا صوت فرقعة مكتومة. فنظرنا إلى "ستانلي"، الذي كان قد فتح الزجاجة للتو.

- آسف.. كلا، أقصد أنني آسف على حضورنا هنا قبلكما. لم نكن نعرف أنكما مدعوان.

فقالت "كارولين":

- لا أحبذ هذه الفكرة. الأرض هناك صلبة كالصخر. ولا يمكن نصب الخيمة فيها. سوف نعود إلى المخيم لاحقًا وحسب.

ونظرت لي، قبل أن توجه كلامها إلى "جوليا":

- يمكنكِ أنتِ وأختكِ الحضور إلى هنا وقتما تحبان. ويمكننا الالتقاء عند الشاطئ. ولكن المساحة كافية لنا في المخيم. وهذا أمر مريح للجميع كذلك.

قالت "جوليا":

- لكنني لم يعجبني المخيم.

بادرتها "جوديث":

- اسمعي، الأرض ليست مشكلة. كما أنكما هنا بعيدان عن الرياح. ويمكنكما استخدام الكتل الحجرية في تثبيت الخيمة عوضًا عن الأوتاد. لن يطير النسيم الخيمة على الإطلاق.

- هل يمكنني يا بابا؟

نسيت أنها لا تزال تدلك كتفيَّ بكل قوة، حتى أنها صارت تؤلمني.

- هل يمكنني.. أرجوك؟

مكتبة

18

شارف الوقت على منتصف الليل ونحن نعود بالسيارة إلى المخيم.

بقيت "كارولين" صامتة طوال الطريق، ولكنها أخبرتني، بعد أن تمنينا ليلة سعيدة للبنتين، أنها ستجلس خارج الخيمة لتدخين سيجارة.

كنت متعبًا، تناولت الكثير من النبيذ الأبيض. وأرغب بشدة في الدخول في كيس نومي، إلى جوار البنتين. ولكنني انتبهت إلى أن "كارولين" أقلعت عن التدخين منذ عامين. كما أنها لم تكن ترد عليّ في وقت سابق من هذه الليلة، حينما سألتها عن رأيها في أن ننقل خيمتنا إلى الحديقة في ذلك المنزل الصيفي. اكتفت بأن أخرجت سيجارة من علبة "إيمانويل" وأشعلتها في صمت. ولاحقًا، بعد العشاء، دخنت أكثر من سيجارة. ربما دخنت أكثر من خمس. حتى أن "إيمانويل" فضلت ونحن نودع الجميع أن تعطيها العلبة بما بقي فيها من سجائر قليلة.

بدت لي فكرة جيدة أن أجالس زوجتي خارج الخيمة لبعض الوقت.

- قل لي إذًا، ما الذي كان يفترض بي أن أقوله؟

سألتني، بعد أن جلست في الكرسي السفاري. حاولت أن يكون صوتها هامسًا، ولكنه خرج أعلى من الهمس. وكأنها تبصق الكلمات. حتى إنني أحسست برذاذ لعابها على خدي.

– تجلس أنت وتفكر، وترى أنه لا مانع لديك في أن تنصب خيمة في حديقتهما. ثم، وبعد كل هذا، تأتي لتسألني عن رأيي؟! بينما البنتان واقفتان، ما الذي كان يفترض بي أن أقوله؟ كل ما بوسعي فعله هو أن أسكت لأرى ماذا ستقول "ليزا" و"جوليا". وهكذا أظهر أنا بمظهر الأم العنيدة التي لا تتوانى عن إفساد كل لحظة سعيدة. بينما تبقى أنت بابا المنفتح الذي يعمل على إسعادهما. تبًا، "مارك"، لن أسمح بهذا!

لم أتفوه بكلمة. تأمّلت طرف سيجارتها وهو يتوهج في الظلام. يتوهج في غضب. عندما التقيتها أول مرة، كان كلانا من المدخنين. نشعل السيجارة لبعضنا في السرير. أقلعت عن التدخين قبلها بعامين. بعد إنجابنا البنتين، وكنا قبل ذلك ندخن في الحديقة فقط. تركتها تكمل كلامها:

– قلت لك إنني أحب ألا أختلط بأحد خلال إجازتي. وخصوصًا في أول أسبوع منها. وأنت أخبرتني ألا بأس بذلك، بل وعرضت عليّ أن نرحل من هنا في الغد لو أحببت. ولكن، ها نحن ذا نمضي ليلة معهم ونتناول السمك ونسمع إلى كلامهم التافه عن مسلسل تليفزيوني مبالغ فيه، وأجدك مهتمًا بكل هذا غاية الاهتمام.

– ذلك لأجل "جوليا". أعرف أنني متساهل وأنني لا أقول لا. ولكنني وجدتهم سعداء ويمرحون في البسين وكذلك عندما لعبوا "البنج بونج". كما أن الولدين لطيفان. أليست هذه أمور يجب أن نضعها في اعتبارنا؟ أنا بدوري أحب أن نمضي الإجازة وحدنا نحن الأربعة. ولكن لا بأس بين وقت وآخر في أن ننظر للإجازة من منظور البنتين. هل ستجدان الكثير من الترفيه والمرح وهما بصحبة بابا وماما فحسب؟

– ليس هذا ما قصدته يا "مارك"! لا تحاول أن تظهر بمظهر الشخص الذي يهمه أن تكون الإجازة ممتعة لبناته. لاحظت فعلًا أنهما سعيدتان مع

الولدين. ولكن هذا لا يعني أن نتخلى عن خصوصيتنا مرة واحدة هكذا. ما ضايقني بالفعل هو الطريقة التي جرت بها الأمور. الطريقة التي وضعتني بها أمام الأمر الواقع وجعلتني لا أستطيع الرفض.

انتبهت إلى وجود بصيص نور. ذلك الضوء الذي دومًا ما يصفون به نهاية النفق. ستارة تتنحى جانبًا، لنجد الفجر هناك خارج الشباك. لو كنا في جدال عادي، لقلت لها بعناد إنها لا يمكن أن تتعلل بخصوصيتها، بينما نحن نمضي الإجازة بصحبة البنتين. وأن من العيب عليها كأم أن تتقمص دور الضحية. ولكنني أعرف أننا الآن لسنا في جدال عادي. قلت:

- أنا آسف. لم أدرك هذا بالفعل. كان من الأفضل أن أطرح السؤال بشكل مختلف. أو في وقت آخر. آسف.

عندئذ، سكت كلانا. وخيل إليَّ أنها تبكي. ولكنني رأيت شفتيها مزمومتين على فلتر السيجارة.

مِلت نحوها، وأمسكت رسغها. أحكمت أصابعي حوله في رفق.

- كم سيجارة تبقت معكِ؟

- "مارك"، أرجوك. هذا ليس وقته.

- لا، حقيقي. كم من الأذى يمكن أن تسببه سيجارة واحدة؟ لديَّ رغبة في أن أشعل سيجارة الليلة. هنا في الخارج. معكِ.

- أتعلم؟ صرت أشعر بالقلق كثيرًا مؤخرًا. عليك. وعلى الطريقة التي تتعامل بها مع مرضاك.

كنت أفتش في الظلام عن علبة السجائر. ووجدتها، وسط حبات الصنوبر أسفل كرسي زوجتي.

- دائمًا ما تتحدث عنهم بطريقة فيها تعالٍ واضح. على هؤلاء الممثلين والممثلات والمُزيفين. ترى نفسك أفضل منهم. ومعك حق في هذا. وتمقت حضور

ليالي افتتاح العروض الأولى وتوقيع الكتب، مثلي تمامًا. كل ذلك الهراء الأجوف من أناس يعتبرون أنفسهم طبقة أفضل من بقية البشر لمجرد أن لهم صلة بالفن. الرسامون المدَّعون الذين لم ينجحوا حتى في بيع لوحاتهم، ومخرجون يصنعون أفلامًا لا تبيع أكثر من مئة تذكرة. ولكن من هذا الذي يهتم بالناس الذين يبذلون الجهد بالفعل في أعمالهم ولأجل قوت يومهم. من هذا الذي يهتم بأشخاص مثلك يعالجون الناس.

- "كارولين"..

- انتظر، أنا لم أنتهِ من كلامي بعد. ذلك هو أكثر ما يؤلمني. نظرتهم لك. أحيانًا ما أتساءل عما إذا كنت تنتبه لها، مثلما أنتبه أنا لها. إنهم ينظرون إليك من أعلى يا "مارك". وفي قرارة أنفسهم يعتبرونك مجرد دكتور ضئيل الشأن. دكتور لا يرقى لمكانتهم، لمجرد أنه ليس بفنان معتوه يرسم لوحات خرقاء لن يشتريها أحد. ويرفض أن يشحذ المال حتى يتمكن من إخراج مسرحية منحطة أو فيلم فاشل لن يدخل أحد السينما ليشاهده. أرى ذلك في كل شيء يقومون به. حتى في نظرتهم لي. أنا طبعًا أقل كثيرًا منك في نظرهم. أنا زوجة الدكتور. حثالة الأرض. أهناك أحط من ذلك؟ هذا ما أعرف أنهم يفكرون فيه. ثم يهملونني ويتلفتون حولهم بحثًا عن شخص ألطف. وكلما أفلتوا من زوجة الدكتور التافهة أسرع، كان ذلك أفضل.

- "كارولين"، لا يمكنكِ أن..

- اصمت. أنا لم أنهِ كلامي. اسمعني وأنت ساكت. فأنا لن أفتح هذا الموضوع بعد ذلك أبدًا. أبدًا. أعدك بهذا.

أخذت سيجارة "كارولين" من بين أصابعها، وأشعلت بها سيجارتي.

- أسمعكِ.

- لم أعد أحتمل. أو ربما يمكنني أن أحتمل، طالما أنك تدرك وعن اقتناع أنك أفضل منهم. ولكن ألا يزال هذا صحيحًا؟ ألا زلت تشعر بأنك أعلى مكانة منهم يا "مارك"؟

فكرت في كلامها. فكرت في حقيقة شعوري، وعرفت الإجابة. لقد عايشت العديد من أحلام اليقظة، وكنت فيها عاجزًا عن احتمال كل ذلك. ما الذي سأخسره، حقيقةً، لو أنني حقنتهم جميعًا بالسم فينتهي كل شيء؟ تخيلت ذلك أكثر من مرة. أي فيلم "لا بد من إخراجه" - على حد وصف أحد مرضاي - سيكون من الأفضل ألا يتم إخراجه؟ أي لوحة نتمنى ألا تكون قد رسمت؟ أو كتاب؟ أكنا سنخسر الكثير؟ أكنا سنلاحظ ذلك من الأصل؟

أحيانًا، وبين كل مريض وآخر، أمضي نصف دقيقة وحدي في المكتب. وعندئذٍ أتخيل الأمر. أتصل بهم واحدًا واحدًا. الذراع اليسرى؟ الذراع اليمنى؟ هل يمكن أن ترفع كم القميص؟ إنها مجرد شكة دبوس. سوف أنهي المهمة كاملة في غضون أسبوع. عندئذٍ، سيوضع مشروع الفيلم على الرف. وتلغى العروض المسرحية. ويبقى الكتاب فارغ الصفحات. هل سنخسر شيئًا حقيقيًا؟ أم أننا سنشعر جميعًا بالارتياح؟

- ما الذي يضحكك؟

- لا شيء، كنت أتخيل شكل العالم من دونهم. أقصد مرضاي، لو أنني أعدت صياغة عمل عيادتي. وعلقت لافتة على بابها: "بدءًا من اليوم، لا نقبل إلا المرضى العاديين. أولئك الذين يعملون بانتظام من التاسعة إلى الخامسة كل يوم".

سحبت نفسًا من سيجارتي، واستنشقت الدخان. أعجبني ذلك الإحساس. كأنها أول مرة أدخن فيها. كانت أول مرة في ساحة المدرسة. وتمامًا مثل المرة الأولى، سعلت بشدة وبشكل متواصل.

- انتبه يا "مارك". لم تعد معتادًا على التدخين مثل الأول.

- ولكن، ما الذي تقصدينه تحديدًا، بشأن أنني لم أعد أرى نفسي أفضل منهم؟ لماذا تقولين هذا؟

- لا أدري، ولكنني أعتقد أن هذا بدأ منذ يوم التقيت "رالف ماير". الأمر هو أنك.. أتخيل أنك معجب به. وهذا لم يحدث معك من قبل، أن تكون معجبًا بأحد مرضاك. كما أنك تكره ليالي الافتتاح تلك. ترى أنها مضيعة للوقت، وهكذا كنت تقول لي دومًا.

أخذت نفسًا ثانيًا من السيجارة. بحرص هذه المرة، حتى لا أسعل مجددًا.

- ربما كانت كلمة "إعجاب" مبالغة منكِ، ولكن لا بد من الاعتراف بأن "رالف" موهوب فعلًا. وهو على كل حال مختلف عن الفنانين المزيفين الذين يعتبرون أنفسهم ذوي أهمية. هو ممثل قدير. أنتِ نفسك وصفتينه بهذا عندما شاهدتي مسرحية "ريتشارد الثاني".

- أكيد، أعتقد أنه ممثل جيد جدًا، برغم شخصيته الحقيقية المنحطة. وأعتقد أن من المهم أن يفصل بين الشخصيتين تمامًا. بين الموهبة والحقيقة. ولكنني أتحدث عن أمر آخر. أنت معجب بموهبته، ولكنك معجب أكثر بطبيعة حياته. لاحظت هذا خلال حفلة الحديقة. واليوم. وحقيقة أنك بحثت فعلًا عن مخيم قريب منهم. وحماسك لفكرة إقامة الخيمة في حديقتهم. الأمر أنك راغب بشدة في أن تكون إلى جوارهم، سواء بوعي منك أو بغير وعي. أجد هذا غريبًا. هذا ليس أنت يا "مارك". لم تكن كذلك. هذا ليس "مارك" الذي أعرفه. ليس "مارك" الذي أعجبني.. أو كنت معجبة به. "مارك" الذي لا يمكن أبدًا أبدًا أن يفكر في قضاء إجازته في المنزل الصيفي لأحد مرضاه. حتى ولو كان ذلك المريض ممثلًا مشهورًا. بل خصوصًا لو كان ممثلًا مشهورًا.

انفتح مدخل الخيمة. كانت "ليزا" واقفة هناك، في بيجامتها. تطرد النوم بيديها عن عينيها.

- تتشاجران؟

مددت ذراعيَّ نحوها، واحتضنتها:

- كلا يا حلوتي. لسنا نتشاجر. ما الذي جعلكِ تظنين ذلك؟

- سمعت كل كلامكما. ولم أنم.

احتضنتها أكثر. ووضعت "ليزا" يدها فوق رأسي، ومررت أصابعها خلال شعري.

- بابا!

- نعم يا حلوة؟

- أنت تدخن!

برد فعل غريزي، سارعت بدفن عقب السيجارة في الأرض، ولكن هذا جعلني أؤكد على ذنبي. سألتني "ليزا":

- ولكنك لا تدخن، أليس كذلك؟

- طبعًا.

- حسنًا، لماذا تدخن الآن؟

وسط الظلام، لمحت طرف سيجارة "كارولين" المشتعل يطير في الهواء إلى الأرض قبل أن يخمد.

- اسمعي، دخنت هذه المرة فقط. وهذا لأنني..

- ولكن لا يجب أن تدخن! التدخين يضرك. لو دخنت، ستموت. وأنا لا أريدك أن تدخن. لا أريدك أن تموت.

- لن أموت يا حبيبتي. انظري، إنني أطفئها.

دست على بقية السيجارة بحذائي بقوة في الأرض. فقالت "ليزا":

- أنتما لا تدخنان أبدًا. ماما لا تدخن. لماذا تدخنان الآن؟

تنهدت في قلة حيلة. شعرت بوخز في عينيَّ، ولكن الدخان لم يكن السبب. وقالت "كارولين":

- بابا لا يدخن أيضًا. كان يجرب فقط، حتى يتأكد من سوء مذاقها.
سكتنا جميعًا. بقيت أحتضن ابنتي وأربت على ظهرها. سألتنا "ليزا":
- هل سنذهب إلى البسين غدًا؟
لم أتفوه بكلمة. أحصيت الثواني في الظلام. واحد.. اثنان.. ثلاثة.. وسمعت "كارولين" تتنهد بعمق، قبل أن تقول:
- طبعًا يا حبيبتي. غدًا سنذهب إلى البسين.

19

هكذا بدأت إقامتنا في منزل آل "ماير" الصيفي.

الحق أقول إنها كانت إقامة إلى جوار المنزل الصيفي. إلى جواره. والحقيقة أن الأرض لم تكن صلبة إلى حد يمنع تثبيت أوتاد الخيمة. وهكذا كنت أنظر في تساؤل إلى "كارولين"، بينما أقوم ببسط أرضية الخيمة، وأستمر في أعمال تثبيتها. لكنها قالت لي في عناد، قبل أن تتركني وتذهب إلى حمام السباحة:

- لا، حبيبي. هذه المرة ستقوم بكل العمل وحدك.

مفارشنا هوائية غير سميكة. ولم تكن الأرضية قاسية إلى الدرجة التي تصورناها، ولكنها قاسية لحد ما. وشعرنا بكل تعرج فيها، وكذلك كل حجر لم أنتبه إليه وأنا أنظف الأرضية، من أسفل المفارش التي ننام عليها. كما أن الخيمة كانت إلى جوار ترابيزة "البنج بونج". لذلك كنت أنام ليلًا وأستيقظ صباحًا على صوت الكرة المملل. فلم يكن "أليكس" و"توماس" مجبرين على النوم في موعد ثابت. وعندما لا يلعبان "البنج بونج"، يلهوان في حمام السباحة لوقت طويل بعد منتصف الليل.

لم تعلق "كارولين" بأي شيء، لم توبخني بعبارات مثل "هل أنت سعيد الآن؟ هل هذا ما كنت تريده؟"، بل اكتفت بالنظر إليَّ في صمت.

غير أنها ابتسمت في النهاية.

ذهبنا مع آل "ماير" إلى الأسواق المحلية. وهناك كان "رالف" يفاصل بصوت عالٍ مع البائعين على أسعار السمك واللحم والفواكه. قال لنا:

- كلهم يعرفونني. ويعرفون أنني لست مجرد سائح عادي. ولا يمكنهم أن يخدعونني في سعر كيلو الجمبري.

وذهبنا إلى مطاعم، حيث كان في كل مرة ينحي المنيو جانبًا، ويقول:

- في مطاعم مثل هذه، لا تطلب من المنيو. بل تسألهم عما هو طازج لديهم اليوم.

أخذ يداعب الجرسونات، ويربت على ظهورهم.

- لن تجدوا أجواءً كهذه في أي مكان آخر.

وضعوا أمامنا صحون المأكولات البحرية. دائمًا مأكولات بحرية. على كل شكل ولون وحجم. بعضها لم أكن أعرف من الأصل أنه موجود في هذا العالم. وبعضها لا تعرف له رأسًا من ذيل. أنا عن نفسي أفضل اللحوم. ولكن "رالف" لا يمنحني أي فرصة لمطالعة المنيو. لكنني نجحت في بعض المناسبات في أن أنتهز الفرصة لأشير بعيني للجرسون ناحية طبق في مائدة مجاورة، بما يعني أنني أريد مثله. طبق لحوم طبعًا. قطعة ستيك أو قطعة من الضلوع غارقة في صوص بني سميك لذيذ. عندئذٍ يصيح "رالف" وهو يهز رأسه بقوة:

- هذا مكان لأكل السمك. غدًا نشتري لحمًا ونشويه باربيكيو. أعرف مزرعة تبيع لحم الضأن ولحم الخنزير طازجًا. أما اللحم هنا فهو من السوبر ماركت. لأن هذا مطعم سمك. لذلك.. "بون أبيتي"!

نذهب إلى الشاطئ في الأيام التي لا نقضي نهارها عند حمام السباحة. أو هي شواطئ صغيرة. فلم يكن ذلك الشاطئ الذي التقينا بعضنا بعضًا عنده أول مرة بالشاطئ الجيد. فحسب رأي "رالف": "الكل يذهب إلى هناك"، من دون أن يتعب نفسه بشرح ما يعنيه بذلك. كما أن الذهاب إلى تلك الشواطئ الصغيرة التي يعرفها "رالف" مهمة شاقة. فبعد أن نوقف السيارات، نستغرق قرابة

ساعة في السير في دروب صخرية وعرة، بها الكثير من الشجيرات الشائكة التي تجرح سيقاننا العارية بجروح دامية. تطن من حولنا الحشرات ذات البطون الحمراء والصفراء في الهواء الساخن، قبل أن تلدغ في الأرداف أو الأعناق. ومن بعيد في الأسفل نلمح زرقة البحر. صاح "رالف":

- لا أحد يأتي هنا أبدًا! انتظروا وسوف ترون أنها جنة!

كل واحد منا يحمل حقيبة مثقلة بالأشياء. "رالف" و"جوديث" يصطحبان معهما كل شيء: كراسي سفاري، وشمسيات ملونة، وكولمان معبأ بزجاجات النبيذ وعلب البيرة، وسلة طعام تمتلئ بالخبز الفرنسي، والطماطم، وزيت الزيتون، وأنواع اللحم البارد والجبن، وعلب التونة والسردين والحبار. وما إن نصل إلى الشاطئ، حتى يسارع "رالف" بخلع ملابسه والدخول في الماء بين الصخور. ويلهو في الماء مثل الصغار، وهو يصيح:

- واو، هذا جميل! "أليكس"، ألقِ إليَّ بنظارة البحر! أعتقد أن هناك كابوريا. وقنفذ البحر. آي! اللعنة! هل يمكنكِ مساعدتي يا "جوديث"؟ أعتقد أن الشبشب في الحقيبة الزرقاء. "مارك".. ماذا تنتظر؟

بالفعل، ماذا أنتظر؟ أنا أخبرتك من قبل عن رأيي في مشاهدة الأجساد عارية. تلك الأجساد العارية في عيادتي. والجسد العاري في عيادة طبيب يختلف عنه في أي مكان خارجها. نظرت إلى "رالف" حينما خرج من الماء ودس قدميه في الشبشب الذي أحضرته "جوديث" من الحقيبة الزرقاء. تأملت قطرات الماء التي تهطل من على جسده. يهز رأسه بقوة مثل كلب مبتل، فيتناثر الكثير من الماء طائرًا من شعره. ينظف أنفه بيده بصوت مسموع، قبل أن يمسح يده في فخذه. فارقت الحيوانات الأولى الماء منذ عصور سحيقة واستقرت في اليابسة. وبعد ذلك تغولت أكثر داخل الأراضي. ولم يعد البشر إلى الشواطئ إلا منذ حوالي مئتي عام، وكانت البداية بأعداد قليلة. نظرت إلى الشعر تحت سرة "رالف"، إلى

حيث يتساقط الكثير من الماء، حتى إنك لم تعد تعرف ما إذا كانت هذه مياه البحر أم أنه يتبول وهو واقف وحسب.

- "مارك"، تعالَ يا رجل. المياه صافية لدرجة أنك ترى قاعها بوضوح.

أراح يديه على فخذيه وهو يتطلع حوله جيدًا، "شاطئه الصغير"، الذي لا يعرف عنه أحد شيئًا، إلا هو. حجب عنا الشمس بجسده الهائل لبضع ثوانٍ. قبل أن يستدير عائدًا إلى البحر، بخطوات قليلة عملاقة، ونعل الشبشب يرتطم بكعبيه في صخب.

ليست الحكاية أنني أفضل الاحتشام، أبدًا. ولكن، كلا، أنا وبكل صراحة لا أحب التعري، وأفتخر بذلك وبحقيقة أن أتجول أمام الناس وأغلب أعضائي ظاهرة لكل مدقق بعينيه. اعتقادي هو أن من الضروري وجود محاذير معينة لا بد أن تراعى مع الأجساد العارية. لذلك أتجنب شواطئ العُراة، مخيمات العراة، وأماكن العراة الأخرى، مثل من يتجنب مريض الجذام. يدرك كل من شاهد عراة يلعبون الكرة الطائرة عند الشاطئ أن العُري لا يحقق أي نوع من الإثارة الجنسية، وهذا وصف مهذب له. ومن رأى المقابر الجماعية، يعرف أنها تحتوي على أجساد عارية عديدة متجاورة. ما أقصده هو أن العُري يتعارض تمامًا مع حفظ كرامة الإنسان. وهي حقيقة لا يفهمها مؤيدو مبدأ "التعرِّي". فهو باعتقاده أنه بتعريه يكون أقرب كثيرًا إلى الطبيعة، يفرض على غيره أن يلمح مشاهد مقززة لمناطق من جسده يكون أفضل كثيرًا لو سترها. لا تقل لي إن من يرَ تلك المشاهد لا يشعر باشمئزاز بالغ. ولكنك تجدهم يتهمونك أنت بمحدودية العقل والتَزمُّت لو واجهته بتلك الحقيقة المرة.

نظرت حولي لأرى ماذا يفعل الآخرون. ارتدى الولدان مايوهين شبابيين مشجرين بألوان زاهية. هو أقرب إلى شورت يصل إلى الركبة. بينما خلعت "كارولين" بلوزتها واستلقت بالبكيني فوق فوطة كبيرة. وارتدت ابنتاي

البكيني. الحقيقة أن "ليزا" لا تزال في عمر لا يتيح لها ارتداء القطعة العلوية منه، ولكنني أفهم طبعًا أنها لا تريد أن تظهر أمامنا أقل من "جوليا" في أي شيء.

تجرأت أخيرًا، ونظرت نحو "جوديث". كانت تجلس القرفصاء أمام الحقيبة الزرقاء التي أخرجت منها شبشب "رالف". أخرجت زجاجة لوشن واقٍ من الشمس، وبدأت تمرر الكريم على ذراعيها. رأيتهما بكل وضوح. أجل، فهي لم تكن ترتدي سوى الجزء السفلي من البكيني. ولكنها كانت لمحة سريعة فحسب. خشيت أن تنتبه إلى أنني أنظر إلى نهديها، لذلك أشحت بنظري بعيدًا نحو البحر. لم أجد "رالف" هناك. أمعنت النظر في الماء، ولكنني لم أره. ذلك الشاطئ الصغير ينتهي إلى ما يشبه الخليج الصغير. وعند نقطة التقاء الخليج بالبحر يوجد مصد صخري ترتطم به الأمواج. خطر لي أنها ستكون بداية غريبة لإجازتنا لو أن "رالف" غرق في أول يوم نخرج فيه إلى الشاطئ. أو ربما لم يغرق، وسيكون علينا أن نجره جرًا إلى فوق حصى الشاطئ، بينما يسعل بشدة ويرتجف جسده طلبًا للهواء. بالطبع هناك طبيب على الشاطئ. أنا المرشح الوحيد لمنحه قبلة الحياة. أن أريحه على ظهره وأدلك بطنه، حتى يخرج ما ابتلعه من ماء البحر. تخيلت فمي مطبقًا على فم "رالف". لا بد أن مذاقه سيكون مذاق الحبار. "هذا مطعم سمك!".. وجدتني أنفجر ضاحكًا بشدة.

- "مارك"! "مارك"!

ها هو يقف هناك، فوق أعلى نقطة بين الصخور. يضع النظارة وأنبوب التنفس فوق جبهته. ويلوح لي.

حسمت قراري. وهو قرار سيكون له تبعات بعيدة المدى تتعلق ببقية أيام الإجازة، وهو ما أدركته في ذلك الوقت. خلعت "التيشيرت"، و"الشورت"، وما تحته أيضًا. كان ظهري للشاطئ، وكنت أقرب ما يكون للخيط الرفيع الفاصل بين اليابسة والماء، حيث ترتطم الأمواج بالصخور. وهكذا، يمكن لأي شخص

أن يراني عاريًا تمامًا، إلا إذا كان ذلك الشخص واقفًا خلفي. أخرجت المايوه من الفوطة الملفوفة وأحنيت جسدي وأنا أرتديه. مجرد شورت بسيط ينتهي طرفه عند الركبة. مشجر وليس فاقع اللون. بالأبيض والأسود. ارتديته وأحكمت رباطه. أما مغزى ما فعلت فهو أنني طالما ارتديت "الشورت" في أول يوم لنا على الشاطئ، فسيتوجب عليَّ أن أرتدي "الشورت" دائمًا من الآن فصاعدًا؛ حتى لو كنت عند حمام السباحة.

- "مارك"، "مارك". تعالَ وانظر.

بعد أن صعدت فوق الصخور إلى حيث "رالف"، ناولني أنبوب التنفس ونظارة الغوص. وقال لي وهو يشير بيده موضحًا الاتجاه:

- هنا في الأسفل يا رجل. محشور عند صخرة. هائل الحجم. أخطبوط. ضخم بالفعل. سيكون من الرائع أن نصنع منه باربيكيو الليلة.

لم يصحبنا "ستانلي" و"إيمانويل" أبدًا إلى تلك الخلجان الصغيرة البعيدة والشواطئ التي يغطيها الحصى. كانا يفضلان البقاء في المنزل الصيفي. يجلس "ستانلي" إلى ترابيزة عند مدخل المنزل، منشغلًا بالعمل على سيناريو حلقات "أغسطس"، بينما تسبح "إيمانويل" في هدوء داخل حمام السباحة. أو يخرجان في نزهات إلى البلدات والقرى القريبة، أو إلى المتاحف والكنائس والأديرة. لدى "ستانلي" كاميرا رقمية ذات شاشة كبيرة. وفي كل مرة يعودان فيها، يعرض علينا الصورة التي التقطها في ذلك النهار. صور لقمم الكنائس، والأروقة المعمدة المسقوفة المشيدة حول أفنية الأديرة، وحدائق الأديرة. حاولتُ التظاهر بالاهتمام بما أرى، برغم صعوبة ذلك. وبالطبع هناك الكثير من الصور لـ"إيمانويل"، وهي تضم ركبتيها إلى صدرها، بينما تجلس فوق سور صغير إلى جوار تمثال يمجد أحد الفرسان، وهي تبدو مثل قطة صغيرة مرحة

واقفة إلى جوار نافورة على شكل سمكة "شبوط"، وهي جالسة إلى ترابيزة في الهواء الطلق فوقها مفرش أبيض، وعنق زجاجة نبيذ يتوارى أسفل منديل سفرة أبيض، بينما بقية الزجاجة مغموسة في دلو ثلج، وهي تمتص اللحم من ساق إستاكوزا أو كابوريا. صور "إيمانويل" تفوق عددًا بقية الصور بكثير. وأحيانًا ما يتمهل "ستانلي" لوقت أطول عند صورة من صورها؛ ليسألنا وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة حالمة، حتى نؤكد له على جمالها. وهو محق بالفعل. شيء ما يتغير في "إيمانويل" عندما تقف لعدسة الكاميرا. تتخلص من نفسها. تتخلص من وجودها المادي، الذي يعطي انطباعًا بالخمول واللا مبالاة. والحظ أن "ستانلي" ينسى نفسه وهو يتصفح الصور. وكأنه اقتطع تلك الصور من مجلة ما. مجلة من ذلك النوع الذي يخفيه المراهق بعيدًا أسفل فراشه.

وهناك أمضينا وقتنا من الصباح وحتى المساء عند حمَّام السباحة. حيث يقوم "رالف" عند الظهر بإيقاد الشواية، بينما تخرج "جوديث" زجاجات النبيذ الأبيض وعلب البيرة من الثلاجة. وبعدها نستمتع بتلك "الوجبة الخفيفة" عند مدخل المنزل. ونقضي بقية الظهيرة في خمول على كراسي حمام السباحة، وبعضنا يستغرق في النوم سريعًا. كان الولدان قد مدا حبلًا من الطابق الثاني وحتى لوح القفز ثم يخرج كل منهما من النافذة ويهبط منزلقًا وقد تمسكت يداه بالحبل إلى أن يصل إلى لوح القفز، ومنه يقفز إلى الماء، وسط تصفيق حار وهتاف من البنتين، بعد أن منعناهما من استخدام ذلك الحبل. لا يخلع "رالف" "الشورت" وهو يشوي، ولكنك تلحظ عليه دائمًا لهفة وشوق إلى اللحظة التي سوف يتخلص فيها من "الشورت" بعد تناول الغداء. فعندما يقفز إلى مياه حمام السباحة وهو يطلق هتافًا صاخبًا، يتناثر الماء بكل قوة من حوله إلى الحواف. ودائمًا ما أتأمَّل تلك القفزة الأولى باهتمام خاص. أتأمَّلها بعين الطبيب. منذ عشرين عامًا، كانوا يحذرون الناس بشدة من النزول إلى

المياه بعد تناول الطعام مباشرة. ولكنها فكرة تبين خطأها، بل صار من المستحب اليوم أن تسارع بالنزول إلى المياه فور أن تتناول الطعام. حيث إن عملية الهضم الفعلية لا تبدأ إلا بعد ساعة من الأكل. أي أن الخطر الفعلي بعد ساعة من الطعام. عندما يتحرك الدم إلى المعدة والأمعاء. ويتضاءل النشاط العصبي. ويتباطأ التفكير، إلى أن يتوقف تقريبًا في النهاية. كما أن كمية الدم التي تتدفق إلى بقية أنحاء الجسم تقل بدورها. وبالتالي تقل كمية الأكسجين في الجسم. وتعاني الساقان من محدودية ما يصلها من أكسجين، إلى أن تعاني من الشد العضلي. ويسري التنميل في الذراعين. وبالتالي يخاطر كل من ينزل البحر خلال مرحلة الهضم بأن يكون تحت رحمة أمواجه. وأن تسحبك التيارات العاتية بعيدًا إلى داخله. ولكنك إن نزلت الماء بعد تناول الطعام مباشرة فلا مشكلة تذكر. صحيح أن المعدة تكون ممتلئة. وصحيح أن هناك شيئًا من المخاطرة، وخاصة إذا تناولت طعامًا فيه الكثير من الجبن المقلي أو المشوي؛ لأنه يتحول إلى ما يشبه الكتلة المتحجرة داخل معدتك. وتنغلق الفتحة بين المعدة و"الاثنا عشر" بسببها. وبالتالي لا يوجد تدفق للطعام إلى الأمعاء. فيبدأ ما تناولته من صلصة في التعكُّر، وكأنه بترول داخل ناقلة يتلاعب بها إعصار في عرض المحيط، فترتطم بالصخور وتنقسم نصفين. تضرب الصلصة جدران المعدة إلى أن تفور صاعدة إلى المريء. وهكذا يتعرض من يسبح في المياه لخطر أن يختنق بقيئه؛ لأن القيء سوف يرتد إلى القصبة الهوائية. وعندئذٍ، يستغيث صاحبنا طلبًا لمن ينقذه من الماء. ولكن أحدًا عند الشاطئ لن يراه. أحدًا عند الشاطئ لن يسمعه. وهكذا يغرق، ولن تظهر جثته إلا عقب أيام (وأحيانًا أسابيع) على بعد أميال، عند شاطئ آخر بعيد.

هكذا تخيلت ما سوف يجري لـ"رالف" عندما غاص في حمام السباحة. في كل مرة أفكر في احتمال ألا يظهر مرة أخرى على سطح الماء. واحتمال أن

ترتطم جمجمته بالقاع فيصيبه شلل كامل وفوري. ولكنه يخرج في كل مرة إلى السطح، ليسعل ويعطس ويلهث، قبل أن يجر جسده جرًا إلى حيث سلم الحمام. ثم يبسط فوطة فوق كرسي البحر ويرقد تحت أشعة الشمس حتى يجف. لا يبالي بتغطية جسده العاري. بل يباعد بين ساقيه، رغم أن جسده أضخم من أن يسعه كرسي واحد، وتبقى قدماه معلقتين في الهواء.. نموذج حي للاسترخاء والكسل، تحت أشعة الشمس.

- هل هذه إجازة أم هذه إجازة؟

يتساءل في تعجب، وهو يتجشأ ويغمض عينيه. وما هي إلا دقيقة، حتى يستغرق في النوم وقد صار فمه مفتوحًا تمامًا وتصاعد شخيره عاليًا. أتأمل بطنه وساقيه. وأنظر إلى عضوه الراقد فوق فخذه. ثم أنظر نحو بناتي. "جوليا" و"ليزا". لا يبدو لي أن المشهد يضايقهما. وهما منشغلتان باللعب واللهو داخل حمام السباحة. مع "أليكس" و"توماس". وأحيانًا تشاركهم "كارولين" اللعب بأن تلقي عملة معدنية في الماء وتطلب منهم استعادتها. حتى إنني ظننت أن أفكاري تلك تنبع من أفقي الضيق. هل أنا مخطئ حينما أعتبر أن مشهد "رالف" العاري تمامًا القريب للغاية من بناتي هو مشهد قذر لا يرضى به عاقل؟ عجزت عن حسم رأيي، وطالما بقيت عاجزًا عن ذلك، فسأظل أعتبره مشهدًا قذرًا. أتذكر ذات ظهيرة حضر فيها عامل تابع للوكالة التي تؤجر المنزل. كانت هناك مشكلة في ضغط المياه، كان تدفق المياه في المواسير يضعف في المساء. نهض "رالف"، هكذا عاريًا من دون أن يرتدي "الشورت" أو يلف وسطه بالفوطة، وذهب ليستقبل الرجل. لاحظت تعبيرات وجه العامل. أو بالأحرى كيف أشاح بوجهه تمامًا عن صاحبنا. كان أقصر من "رالف" شبرين على الأقل. أي أن ليس بينه وبين عضو "رالف" إلا مسافة سنتيمترات. ولكن "رالف" تصرف وكأنه يرتدي ملابسه كاملة. ارتدى الشبشب وتقدم العامل إلى

داخل المنزل. عادا بعد ربع ساعة، و"رالف" لا يزال عاريًا كما عهده دائمًا. صاح "رالف" وكأنه يلقي بيانًا:

- العيب في الخزان فوق السطح. مسدود. والأسوأ هو أنها لم تمطر هنا منذ أشهر.

في الصباح التالي، لم نجد أي مياه على الإطلاق في الشاور. وكذلك الحال في بقية الحنفيات في المنزل أو في خارجه. أخذ "رالف" يسب ويلعن وهو يطلب رقمًا على تليفونه:

- نحن ندفع مبالغ طائلة في هذا المكان. عليهم أن يحلوا هذه المشكلة بأي طريقة. ما ذنبي أنا أن ليس هناك مطر.

لكن الوكالة لم ترد عليه. فارتدى "رالف" الشبشب من جديد، وارتدى البنطلون هذه المرة على غير العادة:

- سأذهب إليهم. وسأحرص على أن أوضح لهم رأيي فيهم وفي خزانهم.

عندئذٍ، تطوعت "كارولين" باقتراح أن أذهب أنا وهي إلى الوكالة. ولكن "رالف" اعترض بشدة، فقالت له:

- كلا، اسمع. سوف أتسوق أنا و"مارك" ونشتري بعض الأشياء بعد مشوار الوكالة. نحن من سنجهز العشاء هذه الليلة.

كانت تتحدث وهي ترمقني، وتبتسم. ورغم ارتياحي للابتسامة، فإنني كنت متيقنًا من نظرة عينيها، إنها تفكر في أمر آخر.. جاد للغاية. وجدتني أتمتم بكلمات غير مفهومة، قبل أن أسرع إلى الخيمة لإحضار مفاتيح السيارة.

20

ظلت "كارولين" صامتة طوال الطريق من التل حتى القرية. وبينما كنت أستعد للانعطاف يسارًا في الطريق الرئيسي، قاصدًا مكتب التأجير عند أطراف البلدة القادمة، وجدتها تضع يدها على ساعدي، وتقول:

- لا، لنتناول الإفطار أولًا. عند الشاطئ.

هكذا، كنا بعد دقائق نجلس في بلكون المطعم نفسه الذي كنا فيه يوم أن التقينا عائلة "ماير". غمست "كارولين" قطعة الكرواسون في مَجِّ القهوة بالحليب، وهي تقول مع تنهيدة:

- ها نحن وحدنا أخيرًا. كنت أتمنى هذه اللحظة منذ زمن.

معها حق، ولا يمكنني أن أنكر ذلك. فلقد صرنا، رغمًا عنا، في خضم تلك الصورة النمطية لإجازة جماعية في منزل بالإيجار. في حالة من القوى الضاغطة التي تعصف بك من دون أن تشعر بها. تلك الحالة التي لا تكون فيها وحدك. ولا خصوصية فيها على الإطلاق. جربت بضع مرات أن أذهب إلى القرية وحدي لأشتري الخبز، ولكنني دومًا ما أجد أحدهم وهو يتطوع لمرافقتي. "رالف" في الغالب:

- ذاهب إلى القرية يا "مارك"؟ عظيم. اليوم هو يوم السوق. نشتري السمك الطازج والفاكهة بالمرة.

وهكذا، أجد نفسي واقفًا إلى جوار السيارة لأكثر من نصف الساعة والمفاتيح في يدي، قبل أن يظهر "رالف" عند مدخل المنزل، وهو يصيح:

- سيأتي الأولاد. يمكنهم مساعدتنا في حمل الأكياس. دقيقة واحدة.. "أليكس" خارج من الشاور.

قلت لـ"كارولين":

- معكِ حق. أنا أيضًا كنت أتمنى هذه اللحظة. فكرة ممتازة.

راقبت أبًا وهو يطيِّر طيارة ورقية مع ابنه الصغير. كانت من النوع الذي له خيطين، حتى يمكنك أن تناور بها في الهواء. وفي كل مرة يناول فيها الأب الخيط لابنه، تهوي الطيارة لتصطدم بقوة بالرمال. أما هناك في البحر، وفي هذه الساعة، فلا تجد سوى قليل من المراكب الشراعية. بينما كانت هناك سفينة سياحية بيضاء تتحرك عند الأفق، من اليسار إلى اليمين. سألتني "كارولين":

- إلى متى سنستمر في هذا الوضع؟

- أي وضع؟

- "مارك".. أنت تعرف ما أتحدث عنه. "جوليا" و"ليزا" سعيدتان، ولكن إلى متى سنستمر؟ قبل أن نضطر إلى الرحيل ونحن نشعر بالذنب؟

- هل الموضوع سيء إلى هذا الحد؟

ولكنني رأيت تعبيرات وجهها، فأردفت على الفور:

- آسف. أقصد معكِ حق. إنه شيء مزعج. بل وصعب عليَّ أنا أيضًا أحيانًا. كل هؤلاء الناس.. و"رالف".

ثم نظرت إليها في تساؤل:

- ألا يزال يضايقكِ؟ نظراته لكِ؟

- لم يعد ينظر إليَّ، والفضل لصاحبتنا الموديل.

انتبهت إلى شيء ما في نبرة صوتها. تلك النبرة الواضحة وهي تنطق آخر كلمتين.. "صاحبتنا الموديل". تظن المرأة أن الرجل يجدها غامضة، إلا أنها لا تعرف كم هي شفافة في الحقيقة بالنسبة له. قلت لها وأنا أضحك:

- إذًا فقد فضل "رالف" موديل أنيقة وصغيرة عليكِ. والحقيقة التي أراها هي أنكِ آسفة لذلك. فأنتِ، وأي امرأة يتقدم بها العمر، فقدتِ جاذبيتكِ في أعين ماسحي النوافذ والواجهات، والفنانين المشاهير.

تظاهرت "كارولين" أنها ستضربني بالملعقة، فتطايرت قطرات من رغوة الحليب لتستقر على وجهي.

- "مارك"! إياك والسخرية! أنا في الحقيقة سعيدة لابتعادي عن سخافاته. هذه هي الحقيقة. ولكن، ألم تلاحظ نظراته إلى "إيمانويل"؟

هززت كتفيَّ، من دون تعليق. فقالت هي:

- في الأمس؟ قبل أن يأتي السباك؟ كان يتصرف وكأن أحدًا لا يهمه. وكان "ستانلي" يعمل على ترابيزته الصغيرة، بينما تتمدد "إيمانويل" فوق كرسي البسين. أتعرف، عندما كان "رالف" يتجول ومعه زجاجة النبيذ الأبيض؟ مال بجسده فوقها وهو يمد يده لتناول كأسها. ثم وقف في مكانه ينظر إليها وهو يصب النبيذ. ينظر إلى كل تفصيلة فيها ما عدا وجهها. بدأ بقدميها، ثم تحركت عيناه ببطء إلى أعلى. ثم عادت عيناه فوق جسدها ثانيةً. وكأنه غير مهتم أبدًا. ولكنه حرك لسانه على شفتيه في تلذذ. وكأنه يتناول سمكة. وحينئذٍ.. حينئذٍ.. أوه، هذا فظيع بالفعل!

غطت "كارولين" وجهها بيديها، ومالت بجسدها حتى كادت جبهتها تلامس طرف الترابيزة. فبادرتها:

- ثم ماذا؟ ماذا؟

- كانت الزجاجة في يد، والكأس في اليد الأخرى. ولكن يده صارت حرة بعد أن أعاد وضع الكأس في مكانها. وفي البداية، مسح بيده على بطنه، ثم حول سرته. ثم حركها لأسفل. وأمسك به يا "مارك". وكأنه يعتصره. وكل هذا بحركات عادية، وكأن ذلك أكثر تصرف طبيعي في العالم. ولو كان رآه أي

شخص، لكان قد تظاهر بأنه يهرش. ولكنه، صدقني، كان يقصد ما يفعله! وبعد دقيقة أو أقل، وضع الزجاجة على الأرض قبل أن يغوص في الماء! كان جسده ساخنًا لدرجة كدت أسمع معها صوت انطفاء حرارته في المياه!

ضحكت. وضحكت "كارولين" بدورها، رغمًا عنها. ولكنها سرعان ما عادت إلى جديتها.

- إنها مهزلة بالفعل. ولكنها قذارة بحق. منتهى القذارة.

- اسمعيني. لقد تعمدت "إيمانويل" أن تصل به إلى هذا الحد. ولا أعتقد أنها تمانع أبدًا. انظري إلى الطريقة التي جعلت بها "ستانلي" مثل خاتم في إصبعها.. كما أنها جميلة للغاية. لا تنسِ هذا.

- أترى أنها جميلة يا "مارك"؟ أتعتقد أنها جميلة للغاية؟ هل تنظر أنت أيضًا إليها، مثلك مثل "رالف"؟

- أجل، أعتقد أنها جميلة. ومن هذا الذي يرى العكس؟ وبالفعل، أتأملها أحيانًا. أنا رجل يا "كارولين". بل عليكِ أن تشكي في رجولتي لو أنني لا أنظر إليها.

- أوكيه.. حسنًا. ولكن ليس هذا ما قصدته عندما قلت لك إن الموضوع قذر. نظرات "رالف" لها. أنت نفسك وصفته بذلك. جميلة للغاية. كما أن "إيمانويل" لا تزال صغيرة. ولا أريد أن أعرف طبيعة العلاقة بينها وبين "ستانلي". هذا شأنهما. ولكن هناك فتيات أخريات حول البسين.

نظرت إليها. الصورة التي أتخيلها قذرة للغاية. جسد "رالف" العاري تمامًا وهو قريب من "جوليا" و"ليزا" داخل حمام السباحة، ولكنني لم أفكر أبدًا في تلك النقطة من قبل. قالت لي:

- أنا كنت منتبهة لما يجري. وأعترف أنني لم أجده يتصرف نحوهما بأي تصرف مشين. ولكن.. هو ليس أحمق لهذه الدرجة. ربما يتظاهر بالعكس طالما كنا أنا وأنت موجدين. ولا أعرف كيف يتصرف معهما ونحن بعيدان.

لم أتفوه بشيء. أغلقت عينيَّ من شدة سطوع الشمس على الشاطئ. هناك نقاط سوداء تتكون أمام عينيَّ. تتراقص من اليسار إلى اليمين في مجال رؤيتي. بينما أردفت هي:

- نحن نقول لأنفسنا أنهما بنتان صغيرتان وحسب. ولكن انظر إلى "جوليا". أيوجد فارق عمر كبير بين "جوليا" و"إيمانويل"؟ عامان؟ أربعة؟ لو كنا في بقعة أخرى من جنوب العالم، لكانت "جوليا" امرأة متزوجة في هذه السن.

لحظتها، تذكرت شيئًا. حدث منذ بضعة أيام. كان "رالف" يلعب "البنج بونج" مع "أليكس" و"توماس" و"جوليا" و"ليزا". ليست مباراة حقيقية. كان في يد كل منهم مضرب، ويتقافزون حول الترابيزة، ويقوم كل واحد منهم بضرب الكرة بالدور. ومن تطيش كرته، يخرج من اللعبة. وما أتذكره بكل وضوح هو "رالف". كان يرتدي "شورت"، ولكن المنظر كان عجيبًا، جسد ضخم يتقافز حول ترابيزة "البنج بونج" وسط تلك الأجساد الضئيلة الهزيلة. مشهد كوميدي. كان حافي القدمين، وكانت هناك بقعة ماء على الأرض. انزلق وسقط بكامل جسده على البلاط. كنت قد نهضت من الكرسي وتمشيت نحو ترابيزة "البنج بونج" وفي يدي علبة بيرة. شعرت وكأن الأرض ارتجت لحظة أن سقط "رالف". كأن شاحنة ضخمة تمر مسرعة في الشارع بالخارج. كان يزأر ويتأوه بشتائم ولعنات مختلفة، بعد أن جلس مكان البقعة التي انزلق عليها وهو يفرك ركبته بشدة. كانت الخدوش واضحة عليها. وهناك دماء تسيل. كان سبابه منحطًا.. يقول الكثير من الألفاظ القذرة.

توقف الصغار عن الركض حول الترابيزة. وقفوا بعيدين عنه قليلًا، وهم يتأملون تلك الجثة الهائلة الجاثمة على الأرض. على وجوههم دهشة وانبهار، النظرة نفسها التي يمكنك أن تنظر بها إلى جسد حوت ضخم تائه عند الشاطئ. وسرعان ما كان "أليكس" يضحك. ثم تبعه "توماس". وكانت تلك

إشارة لكي تضحك "جوليا" و"ليزا" أيضًا. نظروا إلى "رالف" مرة أخرى، وبعدها انخرطوا جميعًا في فاصل من الضحك. ضحك أقرب إلى الصراخ، وصراخ أقرب إلى الضحك. هيستريا. وكأنه لن ينتهي. وكأنه لا حدود له. كانوا في الحقيقة لا يضحكون على "رالف" وحده، بل على كل الرجال. كل صنف الرجال. ذلك الكائن الضخم القوي. الأقوى كثيرًا من المرأة. ولكنه مثلها، يمكن أن يسقط أرضًا. عندما تكون هناك قوة أخرى أعظم منه. قوة الجاذبية.

صاحت "ليزا"، والدموع تسيل على خديها من فرط ما ضحكت:

- أوه.. أكاد أتبول على نفسي!

تأملت "رالف"، بجسده المترامي فوق الأرض، والخدوش على ركبته. كانت إصابة "طفولية". مثل تلك التي تجدها في صبي سقط عن دراجته، فراح إلى أمه يشكو إليها وهو يبكي، فتجد الأم نفسها بين شعورين، الفخر بكل هذا الدم الذي يسيل من رَجُلِها الصغير، والخوف من أن تضع بعض اليود فوق الجرح. ولو أحسنت السمع، لوجدت مثل تلك المشاعر في ضحكات "جوليا" و"ليزا". الضحكة نفسها التي تجدها لدى كل الأمهات. الأمهات اللاتي تضحكن بشدة على تصرفات الأولاد. ألقى "رالف" نظرة أخيرة على الجرح، والألم على وجهه، ثم هز رأسه. ثم فعل الشيء الوحيد الذي بوسعك فعله في هذا الموقف. بدأ يضحك هو الآخر. ضحك مع أولاده. ومع بناتي. وعلى نفسه. أو على الأقل بدا وكأنه يضحك على نفسه، وكأنه يمتلك القدرة على السخرية من الذات. ولكنه في الحقيقة يضحك ليحفظ ماء وجهه. ضحك بغرض السيطرة على الضرر. فمن المضحك أن يسقط رجل ناضج على هذا النحو. صاح وهو يقف بصعوبة على قدميه من جديد:

- تبًا لكم يا أوباش! تضحكون على رجل عجوز مثلي؟

وفي تلك اللحظة، حدث ذلك الأمر. تلك التفصيلة الصغيرة التي لا تنتبه لها إلا فيما بعد. عندما تفكر فيها.

كان "رالف ماير" ينهض وهو يستند إلى ركبته غير المصابة. لا يزال يتظاهر بالضحك، ولكنه لم يعد ضحكًا حقيقيًا. هذا لو كان كذلك من البداية.

- وأنتِ.. من الأفضل لكِ أن تنتبهي لخطواتكِ!

كان يشير بإصبعه إلى ابنتي الكبيرة. إلى "جوليا". ووجدتها تصرخ في رد فعل مبالغ للغاية:

- لا!.. لا!

غطت قطعة البكيني السفلى بكلتا يديها. وتشبثت بها بكل قوة.

رأيت كل ذلك بوضوح. ولا تفسير آخر لذلك التصرف. إن "رالفِ ماير" يهدد ابنتي بشيء ما. أن يفعل شيئًا ما. شيء فعله من قبل. ورغم أنه كان يمزح ويغمز بعينه. ولكن الأمر واضح.

كما قلت لك، كانت مجرد تفصيلة بسيطة. رأيتها، وتنحيتها جانبًا. أو إن جانبًا خفيًا بداخلك هو الذي فضل ذلك. فأنت لا ترغب في التفكير على هذا النحو. لا ترغب في البحث في الخبايا. أنت تعيش مع جار لسنوات. وتجده جارًا لطيفًا. جار ودود. جار طبيعي. وذلك هو ما تخبر به محقق الشرطة عندما يطلب منك معلومات عن جارك. "طبيعي. لطيف. لم أنتبه لأي شيء غريب". بينما هناك، في منزل الجار، ترقد بقايا بشرية. بقايا بشرية تعود لأربع عشرة امرأة مفقودة. وجدوها في داخل ثلاجته. وفي أرض حديقته. ولما تعرف ذلك، تنتبه فجأة إلى تفصيلة ما. تفصيلة لم يكن لها معنى. سبق لك أن شاهدت جارك وهو يروح ويجيء إلى سيارته عدة مرات وهو يحمل أكياس قمامة. يضعها في صندوق السيارة. ليس في ساعات الليل المتأخرة، أو أي وقت آخر يثير الشكوك. بل في وضح النهار. لم يكن حتى يتلفت حوله وهو يفعل ذلك. بل

يقوم بكل شيء بكل راحة وهدوء، وأمام الكل. وبعدها يرفع يده نحوك محييًا. أو قد يقترب منك ويدردش معك للحظات. عن الطقس. أو عن جيران جدد في الشارع. شخص طبيعي. ويقول لك مفتش المباحث:

- أعتقد أنك تذكرت للتو شيئًا ما.

ولحظتها تحكي له عن أكياس القمامة.

لا يعني رد فعل "جوليا" هذا الذي رأيته سوى أن "رالف ماير" قد حاول تعريتها من قبل. خلال لعبة ما، أو في حمام السباحة.. لم أفكر في الأمر كثيرًا وقتذاك، ولكن الآن، وأنا جالس عند الشاطئ مع "كارولين"، أتساءل عن ذلك السبب الذي جعلني لا أفكر في كل هذا.

- أشعر أنك مشغول بالتفكير في أمر ما.

نظرت إلى عيني زوجتي مباشرة:

- أجل، أفكر في ما قلتِه للتو. في "إيمانويل" و"رالف". وفي "جوليا".

والآن أفكر في شيء آخر أيضًا. ماذا سيكون رد فعل "إيمانويل" لو أن "رالف" جذب الشورت البكيني الذي ترتديه؟ أو ماذا عن رد فعل "ستانلي"؟

رمشت عيناي مجددًا، ولكن البقع السوداء لا تزال موجودة.

- كان من اللازم أن تعرف. أنت رجل. كيف تنظر يا "مارك"؟ هل تنظر إلى ابنتك أحيانًا على أنها امرأة؟ تلك المرأة التي ستكون عليها؟

نظرت إلى زوجتي. وفكرت فيما قالته. لقد طرحت عليَّ سؤالًا. ولم أجده سؤالًا غريبًا. على الإطلاق. بل ظهر لي وكأنه السؤال الحقيقي الوحيد الذي يمكنك أن تسأله.

- أجل. وكذلك الأمر مع "ليزا".

عندما يكون للرجل ابنتان. ووقت أن تكونا صغيرتين، تجلسان على حجره. تحتضنانه وتقبلانه قبل النوم. وفي صباح يوم الإجازة، تدخلان في

سريره، وترقدان إلى جواره أسفل البطانية. إنهما بنتان. ابنتاك. وأنت الذي تحميهما. وتعرف أنهما ستصيران امرأتين يومًا ما. وأنهما امرأتان بالفعل. ولكنك لا تنظر لهما على النحو نفسه الذي ينظر به الرجل إلى امرأة. أبدًا. أنا طبيب. وأعرف ما ينبغي القيام به مع من يرتكب زنى المحارم. لا يجدي معه سوى حل وحيد. وهو حل غير متاح للنقاش لدواعٍ حكومية وقانونية. ولكنه الحل الوحيد.

- الحقيقة أنني قصدت أمرًا مختلفًا. هل بوسعك أن تتخيل كيف ينظر رجال آخرون، غير والدهما، إلى ابنتيك؟ كلا، انتظر، لنتحدث عن "جوليا" وحدها. كيف ينظر رجل إلى "جوليا"؟

- أنتِ تعرفين. أنتِ قلتها بنفسك. فلو أنها في مجتمعات أخرى، لكانت زوجة الآن. وانظري إلى "أليكس". إنه يحبها، وهي تحبه. ما الذي تعرفينه عما يفعلانه مع بعضهما في أي وقت؟ أو ما يفعلانه الآن؟ أليس علينا أن نتحدث في ذلك؟ "أليكس" عمره خمسة عشر عامًا. أتمنى أن يكونا واعيين لما يمكن أن يحدث.

- حبيبي، أنا لا أتحدث عن الصبيان هنا. أعتقد أن من الجميل أن نتابع تلك العلاقة بينهما. بالأمس لمحت يدها في يده أسفل مائدة العشاء. أرى أن "أليكس" خامل بعض الشيء، ولكنه وسيم. أفهم هذا تمامًا. وأعرف ما عليَّ أن أفعله لو كنت مكان "جوليا".

- ماذا نسمي هذا إذًا؟ امرأة ليست صغيرة وهي معجبة بصبي مراهق؟ هل هناك اسم لطيف لتلك العلاقة؟

ضحكت وأنا أقول لها ذلك، ولكن "كارولين" لم تضحك:

- تلك العلاقة لا تحمل الاسم الذي في عقلك إلا عندما تصل إلى مرحلة ممارسة الجنس. أنا لست عمياء. أنا أشاهد فتيانًا مراهقين. وأعجب بوسامتهم. ولكن هذه هي الحدود التي أقف عندها. وتلك هي الطريقة نفسها التي ينظر

بها الرجل إلى الفتاة المراهقة بالطبع. أغلب الرجال. ربما تراودهم خيالات أحيانًا. ولكنهم لا يقدمون على فعل أي شيء. صحيح؟ أنا هنا أتحدث عن الرجال الطبيعيين. وهذا هو ما أحاول أن أسألك عنه. باعتبارك رجلًا. إلى أي مدى تعتبر "رالف" شخصًا طبيعيًا؟

- أعتقد أنه من نوعية الرجال الذين لا يتورعون عن السفر إلى البلاد التي تزدهر فيها تجارة الجنس مع الصغيرات. ولكنه هنا لا يختلف عن غيره.. عن عشرات وربما مئات آلاف الرجال، أليس كذلك؟

- هل تعتقد أن "رالف" مثل هؤلاء الألوف؟ إذا كان هذا رأيك، فإنني مصرة على الرحيل اليوم. أنا لن أعرض ابنَتِي – أو ابنتينا – لقذارته. أرجوك! فكر في الأمر!

ارتسمت في مخيلتي صورة "جوليا" وهي تتشبث بالبكيني. وتصرخ. ثم تذكرت تلك النظرة التي عرَّى بها "رالف" جسد زوجتي ونحن هناك في استراحة مسرح البلدية. تلك الطريقة التي حرك بها فمه. كيف جزَّ على أسنانه، وكأنه يتذوق لحمها على لسانه. الرجال ينظرون للنساء. والنساء تنظرن إلى الرجال. ولكن "رالف" ينظر للمرأة وكأنه يقلب صفحات مجلة "بلاي بوي". يعتصر عضوه بيده وهو يفعل ذلك. لقد تجرأ وجذب بكيني بنت صغيرة، سواء كان ذلك خيالًا أم حقيقة. أم هي حقيقة بالفعل؟ أنا لم أره بعينيَّ يفعل ذلك. يبقى دائمًا احتمال أن تكون ابنتي قد بالغت وظنت أنه سيفعل ذلك. ربما كانت تلك لعبة لعبها الصغار الأربعة من قبل وهم في مياه حمام السباحة، أن يجذبوا ملابس بعضهم في مرح وبراءة. مجرد لعبة بريئة. هي براءة بالنسبة لصغار أعمارهم بين التاسعة والخامسة عشرة، ولكنها ذنب يلام عليه أي رجل في الأربعين من عمره.

فكرت في أنني ربما قد أكون تسرعت في اتهام "رالف". كما أن هناك شيئًا آخر، لقد قالت "كارولين" للتو أنها لو وجدت في "رالف" تهديدًا لابنتينا، فإنها ترغب في الرحيل عن ذلك المكان اليوم. ربما هي بدورها متعجلة بعض الشيء.

- وما رأيكِ في "ستانلي"؟

- ماذا؟

- علاقة "ستانلي" و"إيمانويل". ماذا تقول عنها؟ كم عمرها في اعتقادك؟ تسعة عشر؟ ثمانية عشر؟ سبعة عشر؟ أعتقد أنها في سن قانونية، ولكن أتعتبرين تلك العلاقة طبيعية؟ صحية؟

- أليست تمثل قمة الفانتازيا التي يحلم بها أي رجل تجاوز الأربعين؟ أن يكون جذابًا لفتاة صغيرة؟ ولكنني أقول مجددًا.. ليس كل الرجال. أنا لا أعتقد، مثلًا، أنك تجد فيها مشكلة.

- ليس الأمر أنني أراها مشكلة. بوسع "ستانلي" أن يفعل ما يشاء. فهو رجل مشهور. وهناك طابور من الفتيات الصغيرات في انتظاره بكل شوق. لا يحتاج إلا إلى إشارة من طرف إصبعه. وهناك فائدة تعود عليهن أيضًا. ولو كان ذلك مجرد دور صغير في أحد أفلامه. ولكن ربما لا يتوجب عليه القيام بذلك. ربما كان من الكافي جدًا لهن أن تجاوره واحدة منهن وهو يسير فوق السجادة الحمراء في المهرجانات السينمائية.

- أهذا هو كل شيء يا "مارك"؟ أن الفارق في موضوع الفتيات بينك وبينه أنك دكتور؟ لم أتصور أبدًا أن تكون مهتمًا بأشياء كهذه.

- كلا، أنتِ محقة. لن أسعد بمثل تلك العلاقة. سوف أمل منها سريعًا. وسوف أفضل أن اصطحب الفتاة إلى متنزه أو إلى الديسكو. وليس أكثر.

ضحكت "كارولين"، ثم تناولت يدي:

- أنت تفضل المرأة التي في مثل عمرك، حبيبي؟

- بالفعل.

لكنني تحاشيت النظر إليها وأنا أجيبها، بل نظرت نحو الشاطئ والبحر، وأنا أردف:

- يبدو لي هذا أكثر عدلًا وإنصافًا.

21

بعد انتظار دام نصف الساعة في مكتب التأجير، أخبرتنا موظفة الاستقبال، بعد أن ألقت نظرة على أجندة مواعيد، أن السباك سيحاول المرور على المنزل في تلك الظهيرة.

- اليوم يوم جمعة. سوف نبذل جهدنا. ولكننا لا نعمل خلال إجازة نهاية الأسبوع. وبالتالي قد يكون الموعد يوم الإثنين.

كانت فتاة غير جذابة بالمرة. وزنها زائد على المتوسط بحوالي سبعة وعشرين كيلو جرامًا، ويمتلئ وجهها المنتفخ بالحبوب والبثور. ومساحة وجهها أقرب إلى أرض بور خاوية، لا يحدث فيها أي جديد، ولم تحمل أي تعبيرات وهي تتكلم. حتى ظننت أنها تعرضت لحادث جعلها تبدو هكذا. ربما ارتطم وجهها بالزجاج الأمامي لسيارة وهي طفلة.

ملت بجسدي على الكاونتر الذي تجلس وراءه. وقبل أن أفتح فمي، رمقت "كارولين" بنظرة كانت واضحة تمامًا للفتاة، كانت واقفة عند الباب، مشغولة عنا وهي تطالع صورًا لمنازل صيفية أخرى. سألتها:

- هل لديكِ أي ارتباط خلال هذه الإجازة؟ الليلة؟ الغد؟

اندهشت الفتاة، وهي ترمشها بعينيها بسرعة. والحق أن عينيها حلوة. احمر وجهها. ذلك الجزء الذي فيه بقايا حياة على الأقل، فالواضح أن الدماء

التي تجري أسفل الجزء الميت تواجه صعوبة هائلة في الوصول إلى السطح.
قالت لي في همس:

- لديَّ صديق، سيدي.

غمزت بعيني لها:

- صديقكِ محظوظ. أتمنى أن يكون مدركًا لتلك الحقيقة.

خفضت عينيها في خجل:

- إنه.. إنه مشغول جدًا. ولكنني سأطلب منه أن يمر على منزلكم هذه الظهيرة لإصلاح مشكلة المياه.

حدقت فيها مندهشًا. إنه السباك إذًا! ذلك العامل ضئيل الجسد الذي صعد إلى السطح مع جسد "رالف" العاري. الواضح أنه داهية، قصير مكير، ويجيد أشياء تتجاوز إصلاح خزانات المياه المسدودة. حاولت استحضار الصورتين معًا، ولكن خيالي لم يصل إلى أبعد من منظر السباك والفتاة وهما جالسان على أريكة، ويشاهدان التليفزيون: يمسك يدها، وفي يده الأخرى يشرب لتر "كوكاكولا" بأكمله، أما هي فتدس ذراعها داخل كيس شيبسي من الحجم العائلي.

- "مارك".. انظر.. أليس هذا هو منزلنا؟

انتبهت إليها، ونظرت إلى حيث كانت تشير. هناك صور ملتصقة بلوح من الورق المقوى: واحدة للمنزل، وواحدة للحديقة، وواحدة لحمام السباحة.

للبيع

منزل صيفي بحمام سباحة

أسفل الصور شرح موجز لعدد غرف النوم، ومساحة كل من المنزل والحديقة. وفي الأسفل السعر، ورقم تليفون، وعنوان بريد إلكتروني. علقت "كارولين":

- يبدو لي معقولًا.

- الحقيقة أنه في قلب حي سكني ولا يبعد عن الشاطئ سوى بضعة كيلومترات. ولو كنت سأشتري منزلًا هنا، لكنت أفضل أن يكون قريبًا من الشاطئ جدًا.

مرت "كارولين" بإصبعها على الإعلانات، قبل أن تتوقف عند واحد، وهي تقول:

- هذا هو. هذا على الشاطئ.

كان ذلك المنزل معروضًا بدوره تحت وصف "منزل صيفي بحمام سباحة". والفارق هو أنه يقع فوق تلة مرتفعة تطل على أحد الخلجان، ويمكن لمن هو في حمام السباحة أن يرى البحر بعيدًا في الأسفل. وكان السعر المطلوب يفوق بخمسة أضعاف سعر المنزل الذي أمضينا فيه بضعة أيام. قلت لها:

- هذا ما كنت أتحدث عنه.

تناولت "كارولين" يدي في يدها، وعلى وجهها الأسى:

- ماذا سنفعل؟

أجبتها ممازحًا:

- نشتري ذلك المنزل. ثم نرى ما سيحدث بعدها.

- كلا، أقصد الآن. متى سنرحل؟ أرغب بشدة في الرحيل عن ذلك المنزل يا "مارك".

فكرت في كلامها. أو بالأحرى تظاهرت بأنني أفكر في كلامها. لأنني كنت في الحقيقة قد جهزت ردي على كلامها هذا منذ ساعات.

- اليوم يوم جمعة. والزحام المروري فظيع يومي السبت والأحد. وسيكون من الصعب علينا أن نعثر على مكان مناسب لنقيم فيه. حتى لو كان مخيمًا. لذلك أرى أن نرحل يوم الإثنين.

- لكننا سنرحل حقًا يوم الإثنين، أليس كذلك؟

- يوم الإثنين.. نرحل.

22

كنا في صباح السبت التالي، عندما عثرت "ليزا" على طائر صغير.

كان راقدًا إلى جوار خيمتنا، وربما يكون قد سقط من فوق شجرة الزيتون هناك. أخذت "ليزا" تهز كيس نومي وهي تصيح:

- دادي! دادي، تعالَ. طائر صغير سقط على الأرض.

وجدت الصغير راقدًا على جانبه، وهو يرتجف، بينما يحاول يائسًا أن يقف مجددًا على قدميه. قلت لها:

- أعتقد أنه سقط من عش.

كنت أطرد النوم عن عيني بأصابعي، وأحدق في الأغصان، ولكنني لم أجد أي عش. فقالت "ليزا":

- أنا حزينة لأجله. ولكنك دكتور يا دادي. سوف تعالجه.

التقطت الطائر بحرص. كان ينقر راحة يدي، ولكن بضعف شديد. لم أجد فيه ساقًا مكسورة أو أي إصابات أخرى، ظاهريًا على الأقل. وجدتني أتأسف في داخلي على ذلك. طائر صغير بساق مكسورة يمثل لي فرصة في حد ذاتها. وسبق لي أن انتهزت فرصة مماثلة من قبل في إحدى الإجازات. ذلك القط الذي انقطع ذيله في تلك الجزيرة اليونانية التي زرناها منذ عامين. وبينما كنت أعقم الجرح الدامي، عضني القط بقوة في ساعدي حتى أن العضة استدعت أن أحقن نفسي بـ"التيتانوس" وسلسلة أخرى من حقن التحصين المؤلمة. ولكن الأمر كان

يستحق. وأبدى القط امتنانًا كبيرًا لنا. وفي غضون ثلاثة أيام، كان يتناول لحم الضأن النيئ من أيدينا. وعندما أزلنا الضمادة، كانت هناك فترة للتعود. فقد تعافى الجرح بشكل نظيف، ولكن القط واجه صعوبة في حفظ توازنه بعد أن لم يتبقَ من ذيله سوى مجرد بوصة. وتسلق شجرة لوز ثم عجز عن الهبوط منها. ولما حاولت مساعدته وصعدت الشجرة بدوري، قفز القط في وجهي وخدش جفني الأيسر بمخالبه. وسقط بقوة من ارتفاع خمسة عشر قدمًا فوق الأرض الخرسانية. ولكنه لم يغادرنا بعد ذلك. بل تبعنا في كل مكان. في المنزل، في الحديقة، في القرية، حيث كان ينتظرنا بصبر خارج محل الجزار أو المخبز، كما كان يرافقنا دومًا إلى الشاطئ.

كان الوداع صعبًا. بكت خلاله "جوليا" و"ليزا". لم يكن من الممكن أن نصطحب القط معنا. هذا ممنوع على متن الطائرة، وخاصة أن القط من دون التحصينات المطلوبة، وهو ما يعني حجزه في الحجر الصحي لشهور، علاوة على أنني حاولت مع "كارولين" إقناع البنتين بأن القط لن يكون سعيدًا بعيدًا عن جزيرته، وعن عائلته وأصدقائه، حيث يمكنه اصطياد الفئران والسحالي، في هذا الطقس الجميل. ولكن "جوليا" تساءلت باكية:

- ولكن أين تلك العائلة؟ لماذا لم يأتِ منها أحد ليطمئن عليه؟

كانت عيناي تدمعان كلما تذكرت ذلك اليوم الأخير. ظن القط أنه سيأتي معنا كالمعتاد، وكان يتأهب للقفز داخل الكرسي الخلفي للسيارة. ولكنه وجد نفسه يركض خلف السيارة التي تنطلق بصعوبة فوق ذلك الدرب الترابي، قبل أن تصل إلى الطريق الرئيسي. وفي النهاية، لم يكن بمقدوري فعل أي شيء سوى أن أخرج بجسدي من نافذة السيارة وألقي عليه الحجارة؛ لم ترغب البنتان في النظر إلى ما يجري بالخلف، ورقدتا تبكيان في الكرسي الخلفي. ومسحت "كارولين" دموعها بمنديل. وبكيت أنا أيضًا. مثل طفل، وأنا ألتقط أول حجر

من أرض الطريق. في البداية ظن القط أنها لعبة، ولكنني أجدت التصويب، وأصبته بالحجر في رأسه. وهكذا فزع، وانطلق عائدًا بأقصى سرعة إلى المنزل.

في اليوم التالي، وجدت "ليزا" تقول:

- آسفة يا "بيرت"، سوف نعود إليك يومًا ما ونطمئن عليك.

كانت قد اسمته على اسم أحد معلميها.

وها أنا ذا أنظر إلى الطائر في يدي. آسفًا لكونه غير مصاب. إنه صغير. صغير وضعيف للغاية، ولا يمكنه أن يعتني بنفسه. قلت لـ"ليزا":

- اذهبي للمنزل وكوني هادئة، لا توقظي أحد. احضري أي صندوق من الكرتون. وبعض القطن وفوطة وجه من الحمام.

شرحت لنا "جوديث":

- لديهم ما يشبه حديقة الحيوانات هنا. تنعطف يسارًا قبل أن تصل إلى الشاطئ، في الطريق الصاعد. مررنا فيه من قبل. تجد سورًا وفوقه بعض الرايات. ولافتة "حديقة حيوانات" فوق بوابة، وقد رسموا صور حيوانات على السور.

كنا في وقت الإفطار، ونجلس عند مدخل المنزل. الطائر في صندوق الكرتون، الذي كان يحوي من قبل زجاجات النبيذ. جوانب الصندوق مرتفعة بعض الشيء، وعندما تنظر إلى الطائر القابع في القاع فوق الفوطة، تتخيل على الفور ساحة السجن. سألت "ليزا":

- ما رأيكِ؟ إنه ليس مريضًا أو جريحًا. هو فقط صغير للغاية. أصغر من أن يعتني بنفسه. هل نأخذه إلى حديقة الحيوانات؟

كانت "ليزا" حزينة. الصندوق على الكرسي المجاور لها. وتنظر في داخله كل عشرين ثانية، قبل أن تخبرني: "إنه يشرب".. "إنه يرتجف". كنت أتمنى أن تقول لي لا، ورغبت في أن ترفض أن نأخذه إلى حديقة الحيوانات، وأن تخبرني

أنها ستعتني بالطائر، حتى يكبر ويقف على قدميه. ثم نتركه يطير. الأمر ليس شبيهًا بكلب أو قط يعتاد علينا مع الوقت. فالطائر سيرغب في نهاية المطاف في أن يطير. سيبتعد عنك في يوم من الأيام.

ستكون تلك لحظة لطيفة. لحظة تحب أن تشارك فيها ابنتك الصغيرة. تحمل الطائر الصغير في راحة يدك بحرص. وترفع ذراعك. يهز الطائر جناحيه قبل أن يحاول الطيران متعثرًا في البداية. ولكنه سرعان ما يحافظ على توازنه إلى أن يصل إلى غصن قريب. يجلس فوقه لبعض الوقت. ينظف ريشه بمنقاره ويتطلع حوله. يتأملنا نحن، من أنقذناه. فنقول لأنفسنا إنه ممتن لنا. وعندئذٍ يميل برأسه إلى جانب، ويحدق في السماء، قبل أن ينطلق نحوها.

كانت الخطة هي أن نرحل يوم الإثنين. وكنت أشك في أن يتعافى الطائر في غضون يومين. ولكنني فكرت أن بوسعنا أن نصطحبه، وأن نضع الصندوق في الكرسي الخلفي.

كان ذلك السيناريو المثالي. بالنسبة لي. ولكن "ليزا" سألتني:

- هل سيعاملونه معاملة خاصة في حديقة الحيوان؟

- ماذا تقصدين بالمعاملة الخاصة؟

عضت "ليزا" على شفتها السفلى، قبل أن تتنهد بعمق:

- لديهم في حديقة الحيوانات نمور وفيلة، أليس كذلك؟ وهو طائر صغير عادي. ربما عليهم أن يعاملونه معاملة خاصة.

في تلك اللحظة، ضحك الجميع بقوة. "جوديث"، و"رالف"، والكل. حتى "إيمانويل"، ضحكت من وراء نظارتها الشمسية، ولكن من دون أن تهتم بالسؤال عن سبب ضحك الجميع.

يرتدي حارس الحديقة "شورت" زيتيّ و"تيشيرت" أبيض. وعندما ألقى نظرة إلى داخل الصندوق، ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجهه. وقال لـ"ليزا":

- تصرف لطيف منكِ أن تحضريه إلى هنا. طائر صغير مثله لم يكن ليعيش ليوم واحد من دون أمه.

سألتني "ليزا" عما يقوله، فقد كان يتحدث بلغته الأجنبية، فأومأت برأسها بجدية:

- ماذا سيفعلون له؟

قال لها الحارس:

- سوف نحتفظ به هنا لبضعة أيام. وربما أسبوع، عند الضرورة. إلى أن يكون قويًا كفاية. ولكنكم ترون أحيانًا أن طيورًا مثل هذا الطائر لا يرغب في العودة إلى الطبيعة. وأنه قد صار مرتبطًا بالبشر جدًا. ولو كان الحال كذلك، فيمكنه البقاء هنا لبقية حياته.

تقدمنا الحارس إلى حيث قفص الطيور، حتى ترى "ليزا" أين سيعيش الطائر الصغير. لم أرَ في طريقنا الكثير من الحيوانات اللافتة. بضعة غزلان، وكبش، وخنزير أسود بدين للغاية، وطاووسين، وطيور لقلق. ورأيت ذئبًا واقفًا يحك فراءه في أعمدة قفصه الصغير بالنسبة لحجمه. سألت الحارس:

- هل لديكم لاما؟

هز رأسه، وهو يجيبني:

- جميع الحيوانات هنا من الصنف الشائع، كما ترى. لدينا ظبي جبال، وظبيان أفريقيان، وهذا كل شيء.

- لنفرض أن أحدهم هنا لديه حيوان لاما، ومر عليه وقت لم يعد قادرًا فيه على رعاية الحيوان. أو رعاية أي نوع حيوان آخر. فهل تتعهدون برعاية الحيوان بدلًا منه؟

- سيسعدنا طبعًا أن نربي اللاما. ولكننا لا نميز بين الحيوانات. قادرون على حماية وتربية أي حيوان بلا مأوى. بشكل مؤقت أو دائم. وأحيانًا ما نجد من يرغب في اقتنائه في منزله. ولكننا حريصون للغاية في هذه النقطة. فلا ننفذ له طلبه إلا إذا تأكدنا تمامًا من أنه محب حقيقي للحيوانات.

- جميل أن أسمع ذلك. لو أعطيتني رقم تليفونك، سأتصل بك في حال صادفت شيئًا من هذا القبيل.

عندما عدنا إلى المنزل الصيفي، وجدنا "أليكس" و"توماس" و"جوليا" في حمام السباحة.

ولما سألت "أليكس" عن الباقين، قال لي:

- ذهبت زوجتك إلى البلدة مع بابا و"ستانلي" و"إيمانويل". لا أحد هنا سوى ماما وجدتي.

نظرت نحو الطابق الثاني من المنزل. رأيت أم "جوديث" جالسة أمام شباك المطبخ. كان ظهرها لي. كانت "ليزا" قد ركضت إلى خيمتنا حتى تحضر المايوه. سألت "أليكس":

- هل أخبروكم متى سيعودون؟

- كلا. غادروا وحسب. ربما منذ عشر دقائق.

كانت "جوديث" تجلس مع أمها إلى ترابيزة المطبخ الصغيرة. تلون "جوديث" أظافر أمها. لم يكن طلاء الأظافر من النوع اللامع، بل وردي أقرب إلى الشفاف، لون مناسب لسيدة عجوز. سألتني "جوديث":

- هل وجدتم حديقة الحيوانات؟

هناك براد قهوة فوق البوتاجاز، وكسرولا بها القليل من الحليب الساخن. رمقت الساعة فوق باب المطبخ. الحادية عشرة والنصف. لمَ لا؟ وعلى كل حال لم أجد في نفسي رغبة لتناول القهوة. قلت لها وأنا أفتح الثلاجة لأخرج منها علبة بيرة:

- كانت زيارة لطيفة. وسهلت على "ليزا" لحظات توديع الطائر الصغير.

وجدت كرسيًا فارغًا إلى جوار ترابيزة المطبخ، ولكنني أحسست أن من غير اللائق أن أجلس مع السيدتين وفي يدي علبة بيرة. لذلك بقيت واقفًا. استندت إلى كاونتر المطبخ وفتحت العلبة. وما هي إلا جرعتين، حتى شعرت أن رأسي قد صار أخف. سألتني العجوز من دون أن تنظر إليَّ:

- هل أنت دكتور ابنتي الجديد؟

فقالت لها "جوديث":

- كلا، ماما، وقد قلت لكِ ذلك من قبل. إنه دكتور "رالف" الجديد.

الآن التفتت أم "جوديث" لتنظر إليَّ:

- ولكنك عندما اتصلت ذاك اليوم أخبرتني بغير ذلك. قلت..

- هل يمكنني؟

كنت قد بادرت بمد يدي نحو علبة سجائر وولاعة كانت فوق الترابيزة. بينما نبهت "جوديث" أمها:

- ماما، هلا جلستي ثابتة لدقيقة؟ وإلا أفسدتِ الطلاء.

- لقد قال لي إنه دكتورك.

أشعلت سيجارة، وألقيت علبة البيرة الفارغة في سلة المهملات. ثم فتحت الثلاجة وأخرجت علبة جديدة. ولما نظرت إليَّ "جوديث" في استغراب، اكتفيت بهزة من كتفي في لا مبالاة. قلت وأنا أنظر إلى "جوديث":

- معكِ حق بالتأكيد. لا بد أنني أخطأت وأخبرتكِ أنني دكتور ابنتكِ.

خبرتي كطبيب علمتني أن الثناء على قوة ذاكرة العجائز حيلة مضمونة لكسب قلوبهم. هكذا صاحت أم "جوديث" بنبرة ثقة:

- أرأيتِ؟ أنا لا أعاني من الزهايمر.

غمزت لي "جوديث" في خبث. وغمزت لها. وقلت لأمها:

- أنتِ أصغر من ذلك بكثير يا "فيرا".

ربما كان ذلك من تأثير البيرة. هذه الثقة المفرطة. فلم يسبق لي أن ناديت أم "جوديث" باسمها. ولكنها حيلة أخرى ناجحة. أعرفها ليس من واقع مهنتي فحسب، بل وكذلك خارج السياق المهني. يكفي أن تنادي المرأة باسمها مجردًا. والأفضل أن تكرز ذلك. في كل جملة. هكذا وجدت أم "جوديث" تضحك. قالت لابنتها وهي تنهض متأملة أظافرها الملونة:

- إنه لطيف. شخص لطيف بالفعل. راقبت تصرفاته مع بناته.

رمقتني في تلك اللحظة. وجدت خديها متوردين. ولم أجد فيهما أي تجاعيد تقريبًا. لا بد أنها تعيش حياة صحية جدًا. لا إفراط ولا تفريط. حياة من الخبز الأسمر والزبدة. وركوب الدراجات لمسافات طويلة في مساحات من الطبيعة. أردفت وهي تنظر إلى عيني مباشرة هذه المرة:

- طبعًا. لي عينان. ورأيت كيف تعامل البنات بكل لطف. ليس كل الآباء مثلك. ورأيت كيف تحبك البنات. حب حقيقي غير مصطنع.

جاء دوري ليتورد خدي. لم أتمكن من تذكر أنني سمعت أم "جوديث" وهي تتحدث بهذا الانطلاق من قبل، وخاصة معي أنا. كما أنني أحسست بانتقاد في نبرة صوتها، شيء من السخرية وهي تقول: "ليس كل الآباء مثلك". وربما يكون هذا خيال، ولكنني أعتقد أنها كانت ترمق ابنتها وهي تقول تلك العبارات.

نظرت بدوري في عينيها مباشرة. أحذرها من نفسي. ربما كانت آسفة على اختيارات ابنتها في الحياة. "ليس كل الآباء مثلك". وهي تعتبرني "لطيف".

ألطف من "رالف ماير". ولكنني لست لطيفًا إلى تلك الدرجة، ليس كما تظن هي على الأقل.

أتاني صوت ضحكات من الحديقة. أحدهم يصفق. وأحدهم يصفر. التفتت أم "جوديث" إلى الشباك، وبدورها فعلت "جوديث". ثم قالت:

- أوه.. انظروا!

سارعت بالاقتراب من الشباك. كان أمامي اختياران: إما إلى يسار الترابيزة إلى جوار أم "جوديث"، أو إلى يمينها، حيث لا تزال "جوديث" تجلس. واخترت الوقوف إلى جوار أمها.

هناك في الأسفل، كانت "جوليا" و"ليزا" تقفان عند لوح الغطس. بينما جلس "أليكس" و"توماس" عند حافة البسين، وأقدامهما في الماء. تقدمت "جوليا" في البداية إلى طرف اللوح. توقفت لحظة، ثم وقفت على أصابع قدميها ورفعت ذراعيها مثل "باليرينا". ثم خفضتهما إلى جانبيها، ودارت حول نفسها مرتين، قبل أن تعود إلى وضعها السابق. صفق "أليكس" وهتف، بينما صفّر "توماس" ثلاث مرات.

ثم حان دور "ليزا". مشت بخطوات أسرع من خطوات أختها الكبيرة، وفي لحظة كانت عند طرف اللوح، حيث دارت حول نفسها سريعًا لدرجة أن توازنها اختل، وسقطت في الماء. الآن صار الولدان يصفقان بشدة. التقط "أليكس" خرطوم الحديقة الذي كان إلى جوار البسين وأخذ يرش المياه على "جوليا". توقعت أن تركض ابنتي مبتعدة، ولكنها ثبتت في مكانها. بل إنها وقفت على أطراف أصابعها والمياه تندفع بقوة نحو البكيني وبطنها العارية. وضعت يديها خلف رأسها؛ لترفع شعرها المبتل، قبل أن تتركه ينسدل مجددًا وهي تنفضه بقوة. صاحت "جوديث" عبر الشباك:

- انتبهوا لأنفسكم يا أولاد.

كان تحذيرًا لا لزوم له، فمن الواضح أن الكل مستمتع بهذا اللهو. نظرت إلى ابنتي الكبيرة بإعجاب. الآن أرى خلف تدفق المياه، أو خلف الحيز الذي صنعت فيه المياه هالة من الرذاذ، الألوان المتراقصة لقوس قزح. صاح "توماس" وهو يصنع بيديه بوقًا أمام فمه:

- نحن نلعب يا ماما. و"جوليا" هي الفائزة!

فصاحت "ليزا"، وهي تصعد السلم لتخرج من البسين:

- لا، هي لم تفز! رُش المياه عليَّ يا "أليكس"! رُش المياه عليَّ!

استدارت "جوديث" لتنظر إليَّ. أرى من تعبيرات وجهها أنها تحاول جاهدة ألا تضحك. هززت كتفيَّ وبادلتها الابتسام. بينما قالت أم "جوديث":

- بنات حبوبات. أنت رجل محظوظ يا "مارك". لو كنت مكانك لانتبهت لهم كل الانتباه.

ابتعدت عن الشباك، وهي تردف:

- أنا متعبة الآن. سأرتاح في غرفتي لبعض الوقت.

23

جلس كلانا إلى ترابيزة المطبخ.

صبَّت "جوديث" كأس نبيذ أبيض ووضعت فيها مكعبي ثلج. وسحبت أنا علبة بيرة ثالثة من الثلاجة. بينما فوق الترابيزة طبق زيتون. وأشعل كلانا سيجارته الثانية.

خيم الصمت علينا لبعض الوقت. ننظر عبر الشباك، إلى الحديقة، والبسين، حيث انتهت لعبة رش المياه. وكان "أليكس" و"جوليا" مستلقيين على كرسي البسين. تسند "جوليا" رأسها على ذراع "أليكس"، وتضع يدها فوق بطنه، أسفل سرته تمامًا. لم أرَ "توماس" و"ليزا"، ولكننا نسمع صوت كرة "البنج بونج" يأتينا من خلف المنزل.

هذه أول مرة نكون فيها وحدنا، منذ أن وصلت إلى هنا. نظرت إليها. ومددت يدي فوق سطح الترابيزة، أمسكت بإصبعين من يدها بين إبهامي وسبابتي؛ لأسحب يدها بلطف نحوي. أسندت سيجارتها إلى الطفاية. تنهدت بعمق، ورمقت المشهد بالخارج قبل أن تنظر إليَّ:

- لا أعرف، "مارك".. لا أعرف ما إذا كا..

- بوسعنا أن نتمشى. أو نذهب إلى الشاطئ، في سيارتي.

لا زلت متمسكًا بإصبعيها. ومررت بأصابعي فوق يدها. قلت لنفسي أن بمقدوري أن أصطحبها إلى أي مكان بسيارتي. ليس إلى الشاطئ، بل فوق المرتفعات، عبر واحدة من تلك الطرق الرملية على امتداد الساحل. أتذكر أنني رأيت مساحة وسط الغابة، وموقفًا للسيارات مهجورًا تمامًا. على بعد أكثر من ساعة مشيًا إلى واحد من الشواطئ التي يعرفها "رالف". ولكن ليس علينا أن نذهب إلى أي شاطئ. يكفينا موقف السيارات.

- لا أعرف ما إذا كانت ماما.. ماذا ستقول لو أنها استيقظت ولم تجدنا هنا.

- سنترك لها رسالة. أننا خرجنا.

ورفعت علبة البيرة، وأنا أردف مبتسمًا:

- ربما نفدت منا البيرة فجأة.

رمقت "جوديث" باب المطبخ، الذي كان مواربًا. تحدثت بكلمات متلاحقة، وبصوت أقرب إلى الهمس:

- "مارك"، هذا يبدو.. غريبًا. إنه غريب. أشعر بقلق. ماما. الأولاد. زوجتك.. أقصد أنهم قد يأتون في أي لحظة.

وضعت علبة البيرة فوق الترابيزة، وأسندت سيجارتي إلى الطفاية. ملت نحوها، وصار وجهي قريبًا من وجهها، بينما كانت تنظر عبر الشباك نحو البسين:

- "جوديث"..

- انتظر لحظة.

سحبت يدها من يدي، ونهضت ومشيت على أطراف أصابعها إلى باب المطبخ. ثم التفتت إليَّ وهي تضع إصبعها أمام شفتيها تحذرني أن أسكت:

- سألقي نظرة.

تركت الباب مفتوحًا. راقبتها وهي تذهب إلى غرفة المعيشة، ثم انعطفت يسارًا إلى الردهة، حيث الحمام وغرف النوم. أخذت السيجارة وأخذت منها

نفسًا. لا يزال مذاق تلك السيجارة الأولى، تلك التي تناولتها منذ أقل من أسبوع في المخيم، يشبه مذاق أول سيجارة تناولتها في حياتي. شعرت بالدوار الخفيف نفسه الذي شعرت به يومذاك، وأنا صبي في الحادية عشرة واقف في ملعب. ولكن مذاق السيجارة سرعان ما تحول إلى ذلك المذاق الذي شعرت به منذ خمسة عشر عامًا، أيام أن قررت الامتناع عن التدخين. هذا طبيعي. فهو مذاق السجائر. ولكنني اشتريت علبة منذ بضعة أيام.

سمعت أصواتًا مكتومة تأتي من عند غرف النوم. تنهدت ونهضت. لا تزال هناك علبة بيرة في الثلاجة. الوقت مناسب تمامًا للقيام بالتسوق وشراء بعض الأشياء من البقالة.

فتحت العلبة، ورفعتها إلى فمي. كنت واقفًا عند الثلاجة حينما عادت "جوديث". وحدث كل شيء بسرعة. أحطت خصرها بذراعيَّ وجذبتها نحوي. قبّلت عنقها في البداية. ووضعت العلبة فوق الكاونتر. ضممتها إليَّ بشدة وقبلتها مجددًا، أقرب إلى أذنها هذه المرة. ارتعش جسدها بشدة، وضعت يديها على صدري، وكأنها تحاول أن تدفعني بعيدًا عنها. ولكنها كانت تتصنع ذلك. تحركت يدي بحرية على ظهرها حتى أسفله، لم تكن ترتدي سوى بلوزة خفيفة مفكوكة الأزرار فوق البكيني، فتحركت أصابعي بحرية فوق جسدها. همست في أذني:

- "مارك". ماما.. ماما مستيقظة. إنها..

- "جوديث".. حبيبتي.. "جوديث".

ثم شعرت بيدها. أصابعها. تداعب صدري وبطني. كنت أرتدي قميصًا فوق "الشورت". أخذت تفك أزراره. وبأظافرها، داعبت أسفل بطني، ثم انزلقت أصابعها لأسفل. المسافة بين أذنها وشفتيها قصيرة. ولكنني حاولت أن آخذ وقتي بينهما. كانت يدي تعتصر مؤخرتها، بلطف في البداية، ثم بكل قوة.

قبلتني في لهفة محمومة، وهي تدس لسانها في فمي. لامس لسانها لساني. كانت تغمض عينيها طوال الوقت. مثل كل النساء. أما أنا فلم أغمضها أبدًا. مثل كل الرجال. ولأن عينيَّ كانت مفتوحتين، فقد كنت أرى باب المطبخ كذلك. هناك، خلف خصلات شعر "جوديث". خلف ذراعي ويدي (تلك التي لا تعتصر مؤخرتها في تلك اللحظات) التي اندست أصابعها في ثنايا شعرها.

يراودك ذلك الإحساس، حينما تخرج من غرفة لدقيقة ومن ثم تعود إليها، وما إن تنظر فيها حتى تشعر أن هناك شيئًا ما اختلف. كنت متيقنًا من أن "جوديث" قد تركت باب المطبخ مواربًا عندما عادت. ليس مغلقًا، بل مواربًا.

تذكرت الآن أن الباب كان مفتوحًا بعض الشيء عندما جذبت جسدها إليَّ. مفتوحًا بعض الشيء.

وفي ذات اللحظة، لمحت شيئًا ما يتحرك عند الجانب الآخر من الباب. ظل فوق الأرضية. بلا صوت. وفي جزء من الثانية. جزء من الثانية مثل ذلك الذي يرافق نبضة قلبك. حدقت في الباب. ربما كنت أتخيل. ولكن الظل تحرك مجددًا. لست مخطئًا. كان هناك أحد خلف الباب.

سحبت يدي من فوق مؤخرة "جوديث"، ووضعتها على صدرها. أبعدتها عني برقة، وأنا أبتعد عنها بدوري.

ظنت "جوديث" أن هذا جزء من مداعبتي لها: وأنني سأغير فقط من وضع مداعبتي لها. هكذا ندت عنها آهة متعة مثيرة، وابتسمت وهي تحتضن يدي بيدها.

لكنها انتبهت عندما فتحت عيناها. انتبهت إلى شفتي اللتين تحذرانها من دون صوت.

الباب.. شخص ما خلف الباب.

لا تزال "جوديث" واقفة على أطراف أصابعها، ولكنها الآن عاودت تقف على قدميها، فصارت أقصر من جديد. نظرت إليّ فوجدت عينيها تتسعان وتضيقان في قلق وفزع. تركت يدي، ودفعتني بعيدًا عنها.

- أتريد علبة بيرة أخرى يا "مارك"؟ سألقي نظرة في الثلاجة. أتمنى أن تكون هناك واحدة.

كان صوتها طبيعي. طبيعي للغاية. بتلك الطريقة التي يبدو عليها الصوت حينما يبذل صاحبه جهدًا حتى يبدو طبيعيًا. هندمت شعرها بيديها. وعدلت أنا من وضع قميصي.

هكذا وقفنا في المطبخ، مثل مراهقين في حالة تلبس. لمحت حمرة خدي "جوديث". لا بد أن وجهي محمر للغاية الآن. وبرغم أننا عدلنا من شعرنا وكذلك ملابسنا، إلا أن ذلك الاحمرار في وجوهنا يفضحنا.

مشت "جوديث" نحو الباب. وهي تشير إلي أن أفتح باب الثلاجة.

ولكنني لم أفعل ذلك. فعلت شيئًا مختلفًا. وسوف أسأل نفسي لاحقًا عن سبب قيامي بذلك. ربما يكون هاجسًا، ولكنه أقوى من ذلك. رجفة خوف. قلب ينبض بقوة من القلق. أو هو قلب توقف عن النبض. إنها مثل لحظة في فيلم رعب، تسحب ملاءة مخضبة بالدماء، فتجد جثة أحدهم أسفلها. جثة تهشمت جمجمتها، وتقطعت أوصالها بكل دقة ومهارة، ووضعت في أكياس قمامة.

ذهبت إلى الشباك، ونظرت عبرها. لم يكن هناك أحد عند البسين. ذلك الكرسي الذي كانت "جوليا" تجلس إليه مع "أليكس" فارغ الآن.

- ماما؟

التفت، فوجدت "جوديث" تفتح باب المطبخ.

- ماما؟

ملت بجسدي خارج الشباك، ولكنها كانت من النوع ذي الإفريز المنخفض، هكذا كدت أفقدت توازني. نبضات قلبي تتزايد سرعة وقوة. فزع. أدرينالين. قلبي يطير. هذه علامات أعرفها بصفتي طبيب. تشعر بها إما وأنت تهرب أو وأنت تقاتل. تتزايد سرعة نبضات القلب حتى تزيد من كمية الأكسجين الذي يذهب إلى أطراف الجسد وبأسرع ما يمكن. تلك الأطراف التي تكون في أمس الحاجة إلى الأكسجين: القدمان عند الهرب، واليدان عندما تريد أن تسدد أقوى لكمة ممكنة إلى وجه خصمك.

لم أرَ أحدًا. أنصت جيدًا، ولكن الحيوانات وحدها هي القادرة على تعزيز قدرتها السمعية عندما تشاء. لم أسمع شيئًا. ولا الهواء. لا حركة في أغصان الأشجار. تسمع صوت عصافير في يوم حار مثل ذلك اليوم، ولكن يبدو أن الجو أشد حرًا من أن تزقزق فيه العصافير.

هناك شيء ما مفقود، رغم أنني لم أعرف ما هو في البداية. صوت ما في الصمت. صوت كان موجودًا في الخلفية منذ دقائق فحسب.

كرة "البنج بونج"! صوت كرة "البنج بونج"!

حبست أنفاسي. ولكنني لم أخطئ. الصمت يخيم على المنطقة خلف المنزل الآن، حيث ترابيزة "البنج بونج". كانت "جوديث" تقف الآن في غرفة المعيشة:

- ماما؟ ماما؟

الآن حان دوري لأمشي إلى باب المطبخ. بكل هدوء ممكن. وبشكل طبيعي تمامًا. قلت لنفسي أن شيئًا ما لم يحدث. ليس بعد. حاولت أن أبتسم. ابتسامة طبيعية. ولكن شفتي كانتا جافتين، فتألمت.

تجاوزت "جوديث" نحو الباب الأمامي.

- "مارك"..

كانت تقف عند باب الحمام، تحاول أن تفتحه، ولكنه كان مغلقًا.

- ماما؟ أنتِ بالداخل؟

- سألقي نظرة في الخارج أولًا.

خرجت عبر المدخل، ونزلت السلم، ومشيت إلى البسين.

أدركت لحظتها أن ليس ثمة خطأ. لم يحدث شيء. لو أن ابنتيَّ هناك في الحديقة، فسيكون من المهم ألا يبدو عليَّ القلق. هذا الوجه الأحمر اللاهث غير مرغوب.. ما الأمر، يا بابا؟ وجهك أحمر! أنت تلهث! وكأنك شاهدت شبحًا.

هكذا، مشيت بخطوات بطيئة. وتوقفت عند البسين الخاوي. حدقت في المياه لثانية. صفحة الماء اللامعة التي تعكس صورة قمم الأشجار والسماء الزرقاء الصافية. جلست القرفصاء، وتفحصت قاع البسين. لا شيء هناك. لا توجد جثة ساكنة بلا حراك وقد صنع شعرها هالة حول وجهها. بلاط أزرق فحسب.

تجولت خلف المنزل. لا أحد عند ترابيزة "البنج بونج". المضربان فوق الترابيزة. والكرة أسفل مضرب منهما.

ذهبت إلى الخيمة. كانت السوستة مغلقة. لم أكن أريد مفاجأة أو إخافة ابنتي. لذلك تنحنحت.

- "جوليا"؟.. "ليزا"؟

فتحت السوستة، ولكنني وجدت الخيمة فارغة. استأنفت جولتي حول المنزل، إلى أن صرت عند المدخل من جديد. أجبرت نفسي على عدم صعود السلم بسرعة. وجدت "جوديث" عند باب الحمام:

- ماما تأخذ شاور.

- والأولاد؟ هل رأيتِ الأولاد؟

لم أنتظر ردها، ومشيت عبر الردهة، حيث غرف النوم. طرقت باب غرفة "أليكس" و"توماس". لم يجبني أحد، ولكنني سمعت صوتًا، تمتمة خافتة، وكأنه صوت يأتي عبر راديو.

فتحت الباب. لأجد "أليكس" و"توماس"، و"ليزا" و"جوليا"، مستلقين فوق السريرين المتلاصقين. يجلس "توماس" وسطهم، وعلى حجره لابتوب. بادرتهم بكل سعادة، أدركت لاحقًا أنها كانت مبالغة غير محمودة على الإطلاق:

- أهلًا! يا شباب! هل أنتم هنا؟

قاومت رغبة في أن ألكم وجهي بقبضتي وبكل قوة، تمامًا كما تفعل مع التليفزيون حينما تختفي صورته من دون سبب. كنت أريد أن أبدد تلك السعادة المبالغ فيها من تعبيرات وجهي.

حدقت "ليزا" فيّ، بينما تصرفت "جوليا" وكأن أحدًا لم يدخل الغرفة من الأصل. بينما عدل "أليكس" من وضعه قليلًا، بحيث استرخت ذراعه فوق كتفي ابنتي الكبيرة. وكان "توماس" يضحك على شيء يراه على الشاشة. ولم يشاركه الباقون الضحك.

- ماذا تشاهدون؟

كان عليَّ أن أكرر سؤالي، قبل أن يجاوبني "أليكس":

- مسلسل "ساوث بارك".. مستر "شلوسر".

هل سبق له أن ناداني بهذه الطريقة من قبل؟ لا أعتقد. لا أتذكر. هو دومًا ما ينادي "كارولين" بـ"مسز شلوسر"، رغم أننا نبهناه أكثر من مرة إلى عدم ضرورة ذلك التكليف.

تنهدت بعمق. لا سعادة ولا ابتهاج بعد الآن.

- ما رأيكم يا أولاد في أن نلعب "البنج بونج" لاحقًا؟ ننظم بطولة تضمنا كلنا؟

ومجددًا، لم أجد أي رد في البداية. وفي النهاية أجابني "أليكس":

- ربما.

نظرت إلى "ليزا" و"جوليا". ربما كنت أتخيل، ولكن بدا لي أن "جوليا" على وجه الخصوص غير مهتمة بالأحداث التي تجري على الشاشة. وكأنها تبذل مجهودًا حتى تتجاهلني قدر الإمكان.

- "جوليا"؟

تسارعت نبضات قلبي من جديد. بللت شفتي بطرف لساني. شعرت أن طرف لساني هو رمز لخطئي. حاولت التهرب من هذا الشعور، ولكنه ظل يسيطر عليَّ. حرصت على ألا يظهر الاضطراب في أي بادرة مني. صوتي. شفتي السفلى. ذراعي وساقي. جسدي كله.

- "جوليا"!

ها هي تنظر إليَّ أخيرًا. نظرة محايدة لا مبالية.

- "جوليا".. أنا أتحدث إليكِ.

- أسمعك. وماذا تريد أن تقول؟

لم تكن لديَّ أدنى فكرة عما أريد أن أقوله. المزيد عن بطولة البنج بونج المزعومة. لا، هذا لن يجدي.

حدقت في عيني ابنتي. لم أجد شيئًا. ليس هناك اتهام. ولا حزن. ربما هو ضيق من حقيقة أنني ما زلت أقف أمامها هنا في الغرفة.

- هل تشربين ما يكفي من الماء يا "جوليا"؟ أقصد أن الجو شديد الحرارة. انتبهي حتى لا تصابي بالجفاف. انتبهوا جميعكم إلى ذلك. أترغبون في أن أصنع لكم عصير الليمون؟

لا معنى لكل هذا الذي أثرثر به. وهذا واضح جدًا. عادت "جوليا" تتابع شاشة اللابتوب، وهي تقول:

- لا يهم.

بينما صاح "أليكس":

- أجل، من فضلك يا مستر "شلوسر". أو يمكنك أن تحضر لنا كوكاكولا.

وقفت في مكاني لثانيتين. بوسعي أن أقول أي شيء. أو أن أرفع صوتي وأصيح فيها.. هذه ليست طريقة محترمة للتحدث مع والدكِ! ولكن شيء ما بداخلي همس لي بأن هذا ليس الوقت المناسب. بينما همس صوت آخر.. ليس من حقك ذلك.. ذلك صوت لساني المذنب.

عدت عبر الردهة، حيث كانت أم "جوديث" خارجة من الحمام. ترتدي روب حمام أبيض وتلف رأسها بفوطة.

- أهلًا.. "مارك".

كانت تنظر إليَّ وتبتسم. ثم تركتني وذهبت إلى غرفتها.

نظرت إلى "جوديث"، التي هزت كتفيها وأشارت بيدها إشارة لا معنى لها. أو ربما إشارة تقول.. أنا لا أعرف. في تلك اللحظة، سمعنا صوت سيارة تتوقف بالخارج. ثم سيارة أخرى. وانفتحت أربعة أبواب. قالت "جوديث":

- يا إلهي! إنهم لم يضيعوا أي وقت!

اقتربت منها. وضعت يدي على ذراعها.

- اهدئي. لنتصرف بشكل طبيعي. لم يحدث شيء.

مشيت إلى الباب الأمامي، وفتحته. وجدت أمامي في الأسفل كل من "كارولين" و"ستانلي" و"إيمانويل" إلى جوار سيارة "رالف"، الذي كان يخرج شيئًا ما من صندوق السيارة.

رحبت بهم بكل سعادة، ولكنها سعادة بدت طبيعية هذه المرة. كنت ألوح لهم بيدي، ولكن "كارولين" وحدها هي التي نظرت نحوي.

- أهلًا.

بينما صاح "رالف":

- "مارك"! تعال، ساعدني. أنت و"ستانلي". هذه ثقيلة جدًا.

كان يخرج شيئًا ما من صندوق السيارة. لمحت ذيل سمكة. سمكة هائلة الحجم.

- إنها سمكة أبو سيف يا "مارك"! لم يكن من الممكن أن نتركها. سوف نشويها الليلة. إنها السعادة العارمة يا صديقي!

24

كانت القرية تحتفل ليلة السبت بحلول منتصف الصيف.

ألعاب نارية وجلسات حول النار عند الشاطئ. كنا نسمع أصواتها الصاخبة طوال اليوم. لم تكن الألعاب النارية مماثلة لتلك التي في بلدنا. ليست صواريخ تندفع في السماء قبل أن تنفجر لتصنع العديد من الألوان المتوهجة، بل هي أقرب إلى انفجارات مدفعية. وكأنها غارة حربية وليست ألعابًا نارية. تشعر بها تتغلغل في نفسك. وترتج لها أضلاعك. وقلبك.

خططنا للذهاب إلى الشاطئ معًا. ولكن علينا أن نتناول الطعام في البداية طبعًا. هكذا عمد "رالف" إلى تقطيع السمكة أبو سيف. فعل ذلك بالساطور فوق بلاط مدخل المنزل. انبهر الأولاد بما كان يفعل في البداية، ولكنهم كانوا يتراجعون إلى الوراء خطوة مع كل ضربة ساطور. وظهرت أعضاء السمكة: الكبد، قطع البطارخ الكبيرة، الكيس الهوائي، وعضو لامع بني داكن، في حجم كرة رجبي لم يتعرف أحد عليه. وفي بعض الأحيان، كانت ضربات "رالف" قوية لدرجة كانت تتجاوز السمكة لتهشم شظايا من البلاط، تطايرت في كل اتجاه. علقت "جوديث":

- خذ حذرك يا عزيزي. ينبغي علينا أن نسترد التأمين الذي دفعناه للوكالة.

لكن "رالف" وجد متعة في التقطيع، حتى أنه بدا وكأنه لم يسمعها. كان مستغرقًا تمامًا، وقد خلع الشبشب. نظرت إلى قدميه الحافيتين، من حين لآخر، كان الساطور يهوي بالقرب من أصابع قدميه على البلاط. نظرت لذلك كطبيب. فعلى سبيل الاحتياط ليس إلا، كنت أفكر فيما سينبغي عليَّ المبادرة بفعله أولًا في حال إصابة كهذه. يمكن إعادة أصابع القدمين واليدين المبتورة إلى مكانها من خلال عملية جراحية في المستشفى إذا أمكن الاحتفاظ بها في الثلج. وإذا أخطأ "رالف" وقطع بالساطور إصبع أو أكثر من أصابع قدميه، فلا بد من وجود شخص قريب منه وهادئ الأعصاب ليتمكن من التصرف السريع. وهناك بالفعل طبيب في المنزل. وسيكون على الطبيب العمل على وقف تدفق الدم وتضميد الأصابع في فوطة مبللة ووضعها في مكعبات الثلج. قد تجزع النساء والأطفال، وقد يغمى عليهم، ولكن وحده الطبيب القادر على الاحتفاظ بهدوء أعصابه. "جوديث".. أحضري الثلج من الثلاجة! وفوطة مبللة! "كارولين".. ساعديني في ربط شريط ضاغط لمنع النزيف، إنه يفقد الكثير من الدم! "ستانلي".. أدر السيارة وجهز الكرسي الخلفي! "جوليا".. "ليزا".. "أليكس".. "توماس".. ادخلوا المنزل وأفسحوا المجال لنا. اتركوا "إيمانويل" وشأنها، فقط ضعوا وسادة تحت رأسها، وسوف تعود إلى وعيها بعد دقائق.. هذه فرصتي لنيل الدور الرئيسي في المشهد، الدور الذي يناسبني تمامًا، ولكن الساطور لم يقترب من إصبع قدم "رالف" الكبير إلا مرة واحدة، ومن بعدها أخذ حذره.

- ما الذي تنظر إليه يا "مارك"؟ آه.. يبدو لي أنك جعت، أليس كذلك؟ اسمع.. ناولني زجاجة بيرة أخرى من فضلك.

حلَّ الظلام. وكان لهب الشواية يعلو من حين لآخر. نجلس في شبه دائرة عند المدخل، نتناول البيرة والنبيذ الأبيض. وضعت "جوديث" أطباق الزيتون

والأنشوجة والسوسيس المتبل على المائدة. صوت شواء قطع السمكة يتعالى. وكلما نظرت إلى "جوديث"، إلى وجهها الذي تنعكس عليه أضواء النيران الصفراء الذهبية، أجدها تخفض عينيها. كانت "كارولين" تنظر أمامها وهي تشرب من كأس النبيذ. هي بدورها تبذل جهدها حتى لا تنظر إليّ. لغة جسدها تقول لي: أنا جالسة هنا، ولكني في الحقيقة في عالم آخر.

يلعب "توماس" "البنج بونج" مع "ليزا". ويجلس "أليكس" مع "جوليا" هناك عند البسين. تقاسم كلاهما طرفا سماعة أذن متصلة بـ"آيبود" "جوليا". حاولت عدة مرات في الساعات القليلة الماضية أن أتواصل مع ابنتي الكبيرة، ولكن بلا جدوى. كلما سألتها سؤالًا وجدتها تهز كتفيها، وتكتفي بتنهيدة عميقة ليس لها معنى. "هل تذهبين لمشاهدة الألعاب النارية؟"، هزة كتف وتنهيدة. "لو كنتم لا ترغبون في ذلك فيمكنكم البقاء هنا"، هزة كتف وتنهيدة. "يمكننا أن نلعب أي شيء.. "مونوبولي" مثلًا"، هزة كتف وتنهيدة، وأضف إلى ذلك هذه المرة أنها تلم شعرها لأعلى قبل أن تتركه ينسدل. ذات مرة قالت لي: "سوف نرى"، قبل أن تتركني واقفًا وتنصرف. من دون حتى أن تنظر إليّ. لم تكن تتحدث إلا إلى "ليزا" وأم "جوديث". وفي أثناء تحضير المائدة، كانت "فيرا" تبتسم إليّ كلما تلاقيت أعيننا. وبينما كان "رالف" يجهز على السمكة، كانت تهز رأسها في امتعاض ولكنها تبتسم لي أيضًا. و"ليزا"؟ لا تزال تنظر إليّ بالطريقة التي تنظر إليها بنت في الحادية عشرة من عمرها إلى والدها. الرجل المثالي. صورة من زوج المستقبل.

قلت لنفسي إن عليّ الاستمرار في محاولة احتضان عيني "جوليا" بعينيّ. لا يمكن لعينيها أن تكذب. تكفيني نظرة. سوف أتمكن من نظرة واحدة من عيني ابنتي أن أفهم الحقيقة المؤلمة كلها. أو ربما لا أتمكن. يبقى ممكنًا بالطبع أنني أتخيل الأمر كله. ربما تتصرف على هذا النحو لشيء ما وقع بينها وبين

"أليكس". ربما مرت بتجربة نضج مبكرة ومتسارعة، كما يسمونها، ولم تعد تشعر برغبة في وجود تلك الهيمنة الفارغة لأب لا يملُّ من إصدار الأوامر. تلك هي البيولوجيا. ولا سبيل إلى مراوغة البيولوجيا.

قال "رالف" وهو يوزع على أطباقنا القطع الأولى من أبو سيف:

- أعتقد أن ما حكيته لنا هذه الظهيرة مشوقًا للغاية يا "ستانلي". ونحن في السيارة. أعتقد أن "مارك" سيهتم بسماع ذلك.

رمقت "ستانلي"، على سبيل الأدب أكثر من الاهتمام. ولو أنني لاحظت في وجه بادرة تردد واحدة، لما أصررت على الأمر أكثر. طعن بشوكته قطعة السمك في طبقه، فأخرج منها عصارة بسيطة، قبل أن يقطع منها قطعة صغيرة دسها في فمه. وقال:

- أوكيه.. حسنًا.

في تلك اللحظة بالذات، وفي حديقة مجاورة، انطلق صاروخ. سبق لنا أن شاهدنا صواريخ وهي تنطلق، ولكن لم يحدث أبدًا من قبل أن شاهدناه على هذا القرب. حبس الكل أنفاسه وهو يراقب الصاروخ ينطلق نحو السماء مصدرًا هسيسًا قويًا وفي ذيله شرر متعدد الألوان. ثم انفجر. حدث انفجار ثم وميض. أو هو وميض ثم انفجار. فالضوء أسرع من الصوت كما تعلم. انفجر الصاروخ فوقنا تمامًا، وانعكس وهج الانفجار على وجوهنا، قبل أن يصل دوي الانفجار إلى أسماعنا. كان مثل سابقيه. ثقيلًا ومدويًا. مثل الرعد. أو مثل قذيفة مدفع. أو انفجار سيارة. ولكنه كان شديد القرب هذه المرة لدرجة أن جسدك كله يرتج بشدة. كيانك كله. تندلع الشرارة في معدتك، قبل أن تندفع نحو أضلاعك، ولا تغادر الجسد إلا عبر فمك وأذنيك. فتصرخ النساء والأطفال. ويسب ويلعن الصبيان والرجال. وسقطت زجاجة وتهشمت فوق أرض المدخل. وتوقف في مكان ما في الخارج صوت إنذار سيارة. بينما صاح "رالف" غاضبًا:

"سحقًا لهم!". بعد أن سقطت منه قطعة كبيرة من أبو سيف على الأرض. ترددت أصداء الانفجار بين المرتفعات من حولنا عدة مرات. قبل أن تتخافت، وتختفي.

- واو!

كان هذا "أليكس". خلع هو و"جوليا" السماعة من أذنيهما ونهضا مسرعين عن الكرسي. كانت "جوليا" تنظر حولها في هلع. ونظرت إلى أمها. ثم إلى "رالف". وإلى "جوديث". بل وإلى "ستانلي" و"إيمانويل". عداي أنا.

بينما أتى "توماس" يركض من عند ترابيزة "البنج بونج"، وهو يصيح:

- بابا، بابا! هل يمكننا الحصول على تلك الصواريخ أيضًا؟ بابا! هل سنفجرها بهذه الطريقة أيضًا؟

فقالت "جوديث":

- هذا فظيع للغاية. أي متعة يمكن أن يجدها عاقل في أشياء كهذه؟

نظرت إلى وجه "جوديث". كان تجسيدًا للامتعاض الصادق. أما "كارولين"، فوضعت يدها على صدرها وأخذت تشهق وتزفر عدة مرات. في تلك اللحظات، فكرت في الفوارق بين النساء والرجال. تلك الفوارق التي لا يمكن أن تختفي. تلك الفوارق التي يستحيل عليك تفسيرها.

لا يهتم الرجل إلا بالضجة الكبرى. وكلما كانت الضجة أكبر، زادت درجة اهتمامه. وهو ما يجعله مثل الطفل في عين المرأة. بل هو أشد طفولة من الطفل. حتى أنه يتحصل على حنان وعطف المرأة. وتقول المرأة للمرأة: هذا الرجل لن ينضج أبدًا. وهن محقات. أنا أتذكر كيف كنت، وأنا في عمر السادسة عشرة، أسخر من كل قواعد إطلاق الألعاب النارية. ولم أستعمل أبدًا ولاعة الأمان. بل ذلك اللهب الحقيقي. من عيدان ثقاب حقيقية. فكل ما كنت أريده هو النيران الحقيقية، وليس تلك النار المروضة. لم أضع الصاروخ في عبوة فارغة على بعد آمن. بل أشعلته بيدي. رغبت في أن أشعر بقوة الصاروخ بين أصابعي. بتلك

الطريقة تكتسب أنت بدورك شيئًا من تلك القوة. وفي أول مرة، قبضت على الصاروخ بشدة لدرجة أن شظايا من العصا الخشبية دخلت في جلد أصابعي عندما اندفع الصاروخ بقوة متخلصًا من قبضتي ومتجهًا صوب السماء. تعلمت فيما بعد الطريقة الصحيحة. وهي ألا أقبض عليه بقوة. عليك أن تقلل من مقاومتك للصاروخ. تعلمت أن للصاروخ إرادة. رغبة في الحرية والانطلاق. لم أفكر أبدًا في تلك اللحظات في الطبيعة الاحتفالية. ناهيك عن حقيقة أنها كانت ليلة رأس السنة. بل كنت أتخيل الحرب. الصواريخ والمدافع المضادة للطائرات. المتمردون وهم يصوبون نحو طائرات الهليوكوبتر وناقلات الجنود وليس بجعبتهم سوى صواريخ "آر بي جي". وغالبًا ما كنت أعجب بتلك الغواية، فأصوب الصاروخ بزاوية غير آمنة. وعندئذٍ كان ينفجر في شبابيك الجيران على الناحية الأخرى من الشارع. "آسف!"، هكذا كنت أصيح في حال خرج الجار المذعور لينظر ماذا جرى. "آسف، لقد انطلق في اتجاه خاطئ تمامًا". وأرسم على وجهي أعمق تعبيرات النفاق. ذلك التعبير الذي تراه على وجه لاعب كرة قدم يعرقل منافسه بكل تعمد، فيلحق به إصابة قد تجبره على الاعتزال، بينما ينظر إليه اللاعب بكل براءة وكأنه لم يفعل أي شيء. صوبت الصاروخ التالي على شِلَّة كانت تقف على البعد في الشارع. وكأنها الحرب. والأفضل لك أن تربح حربًا من أن تخسرها. هكذا علمنا التاريخ. والبيولوجيا. أن تضرب أحدهم حتى تقضي عليه خير من أن يضربك ويقضي عليك. الإنسان يحمي باب كهفه منذ فجر التاريخ. ويطرد عنه المقتحمين. من بشر، وحيوانات. ومن يصر على الاقتحام يتحمل عواقب فعلته. علمنا البروفيسور "هرتزل" في مادة البيولوجيا الطبية أن "الإنسان يتحاشى القتال عندما تكون احتمالات انتصاره ضعيفة". "وعندما يساويه الخصم في القوة أو يكون أضعف منه، فإنه يدرس الاحتمالات. ثم يكور

قبضتيه. ويتلمس مقبض سيفه أو مسدسه. أو يحرك مدفع دبابته قبل خصمه بجزء من الثانية. ويصوب ويطلق النار. وينتصر".

انحنى "رالف" وغرس شوكة الباربيكيو في قطعة السمك التي سقطت على الأرض، وأعاد وضعها فوق الشواية. ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة:

- اذهب وشاهد من هناك تحت المظلة يا صغيري. عند ذلك الباب المجاور لترابيزة "البنج بونج". وأنت أيضًا يا "أليكس".

شعرت بفراغ مفاجئ، بينما ركض الاثنان خلف المنزل. فراغ في قلبي. فلقد اشترى "رالف" ألعابًا نارية. وأنا لم أشترِ. مررت في الأمس على كشك يبيعها. من تلك الأكشاك القائمة عند طرف البلدة. وترددت. أبطأت السيارة. حتى ألقي نظرة على ما يبيعونه. ولكن لم يكن هناك مكان لأوقف فيه السيارة، لذلك لم أتوقف.

لو كان لديَّ ولدان، مثل "رالف"، لكنت قد أوقفت السيارة حتى لو اضطررت للعودة مشيًا خمسة أميال إلى ذاك الكشك. لكنني أب لابنتين. أتذكر ليلة رأس سنة منذ بضع سنوات. خرجت واشتريت صواريخ وألعابًا نارية. وعند منتصف الليل، وضعت الصاروخ الأول في زجاجة نبيذ أمام باب منزلنا. وربطت ثلاثة ألعاب نارية ببعضها، وأشعلتها قبل أن أطوح بها لأعلى في الهواء. ولكن "جوليا" و"ليزا" وقفتا في خوف عند الباب. وما إن دوى الانفجار الأول حتى ركضتا إلى داخل المنزل في ذعر. ثم ظهرت "كارولين" عند الباب. ثلاثتهم هناك، تنظرن إليَّ في دهشة. أشعلت المزيد من الصواريخ. وضعت علبة فارغة فوق الألعاب النارية حتى يكون الصوت أقوى. ناولت "كارولين" البنتين واحدة من تلك الألعاب النارية التي تطلق شررًا كثيرًا عند إشعالها، ولكنهما وقفتا خائفتين، ومدت كل واحدة يدها إلى أبعد ما يمكن عن جسدها في انتظار أن ينطفئ الشرر، وحتى لا يسقط على دواسة المدخل. وقفتا تنظران إلى أبيهما. أباهما الذي يتصرف بشكل غريب ومختلف. وكأنه ولد في الثانية عشرة. خلال

أزمنة الحرب، تخيط النساء الملابس العسكرية. وتعملن في مصانع الذخيرة. تساهمن في المجهود الحربي، كما يقولون. ولكن الحرب الحقيقية تبقى مهمة الرجل.

- بابا، بابا! هل يمكن أن نشعل واحدًا الآن؟

عاد "توماس" و"أليكس" من عند المظلة وهما يحملان الصواريخ. بعضها كان أطول منهما. كانت كثيرة جدًا. وجدا صعوبة في حملها، بل وسقط بعضها على الأرض منهما.

- ألا يمكن أن ننتظر بعض الوقت؟ سوف نذهب جميعًا إلى الشاطئ خلال ساعة.

أجابه "أليكس":

- ولكن الجيران أشعلوا صاروخًا بالفعل.

وقال "توماس":

- أرجوك، بابا. أرجوك؟

هز "رالف" رأسه. وتناول زجاجة فارغة من فوق الترابيزة وهو يضحك.

- أوكيه.. واحد فقط.

نظرت إلى كومة الصواريخ الجاثمة على الأرض أمام الولدين. أصغر صاروخ منها طوله نصف متر. تخيلت أنها أسلحة أصبحت غنائم حرب بعد معركة. كانت في مخزن ذخيرة لميليشيا أو جماعة إرهابية. ولكن العدو متقدم تكنولوجيًا عليهم ولديه دبابات وطائرات. القوات المحتلة تمتلك طائرات هليوكوبتر تطلق قنابل موجهة بالليزر، ولكن صواريخ القسام البدائية تطلق على أهداف مدنية عشوائية، فتسبب أضرارًا نفسية أكثر منها مادية. صاح "رالف":

- لا، ليس هنا. ليس قريبًا من بقية الصواريخ. شرارة واحدة وننفجر كلنا. والمنزل أيضًا. هيا نشعله عند البسين.

تساءلت "جوديث":

- هل أنت متأكد من أنها فكرة جيدة؟

وقالت "كارولين":

- الأفضل أن ننتظر إلى أن نذهب إلى الشاطئ.

بينما علقت أم "جوديث":

- أنا سأدخل المنزل.

فقال "رالف" ضاحكًا:

- الأولاد مصرُّون.

أشحت وجهي بعيدًا عن الصاروخ، الذي كان "أليكس" و"توماس" يضعانه في الزجاجة عند حافة البسين، باتجاه البنات. وعندما اشتعل الفتيل، وضعا أصابعهما في آذانهما. وصرخت "جوليا" عندما انطلق الصاروخ من الزجاجة مع صفير عالٍ، وسقطت الزجاجة متهشمة. وتطاير بعض شظاياها في مياه البسين.

دوى صوت الانفجار بأسرع مما توقعنا. كان عاليًا وعميقًا، وأعلى وأعمق من صاروخ الجيران الذي أطلقوه منذ دقائق. رج جسدي من أسفل قدميَّ إلى قمة رأسي. مرت لحظة توقفت فيها الأنفاس. وفي هذه المرة، تصاعدت أصوات أكثر من جرس إنذار في السيارات المجاورة. ونبحت كلاب بشكل هستيري. وصرخت "جوليا" و"ليزا". وصاح صوت أنثوي، وعندما التفتنا إليه عرفنا أنه صوت "إيمانويل"، التي كانت تحمل قاعدة كأس نبيذ تحطم من الانفجار. كانت بقايا الكأس تحت قدميها. وهناك بقع حمراء كبيرة على بلوزتها البيضاء.

وصاحت "جوديث":

- مسرورون أنتم الآن؟

ولكن "توماس" كان يصيح:

- واحد آخر.. واحد آخر.

بينما كان "أليكس" يعبر عن انبهاره بما يجري على طريقته. وانصاع "رالف" لهما:

- أوكيه.. صاروخ آخر.

- لا تفكر حتى في ذلك! أرجوك خذ هذه الصواريخ معك إلى الشاطئ وامرح هناك كما تشاء! أعتقد أنك سمعتني يا "رالف"؟

هكذا رفع "رالف" يديه مستسلمًا:

- أوكيه.. أوكيه.. سنذهب إلى الشاطئ.

تملكني إحساس عميق بالندم مجددًا. ندمت على عدم شرائي صواريخ. ما كنت لأستسلم سريعًا كما فعل "رالف". حاولت أن أنظر في عيني "كارولين". ربما لا تحب زوجتي أصوات الانفجارات، ولكنني لا أعتقد أنها - وخلال كل تلك السنوات التي أمضيناها معًا - تحدثت إليَّ بذلك الأسلوب الذي خاطبت به "جوديث" زوجها.

نظرنا إلى بعضنا البعض في اللحظة ذاتها. كانت "كارولين" تقف إلى جوار "إيمانويل"، وتضع يدها على كتفها، وهي تحاول أن تزيل بقع النبيذ بأصابعها عن بلوزة "إيمانويل". وعندئذٍ، التفتت تنظر إليَّ.

لم أصدق ما رأيته. زوجتي تغمز لي. لم أكن متأكدًا مما إذا كان للغمزة علاقة بالبلوزة المبقعة بالنبيذ أم بالموقف كله وكذلك غضب "جوديث"، ولكن هذا لم يكن يهمني كثيرًا. لقد انتبهت "كارولين" للجانب الكوميدي في الموقف. إنها راغبة بالتأكيد في الرحيل يوم الإثنين، كما قالت، ولكنها بدأت بالفعل تودع عائلة "ماير" ومنزلها الصيفي. إنها تتأهب للرحيل. وبينما كنت أغمز لها بدوري، تذكرت ما جرى في المطبخ منذ ساعات. طرف لساني يداعب أسنان "جوديث"، ويديَّ على مؤخرتها. وأصابعها تتشبث بقميصي.

جمعوا الصواريخ، ودخل البعض لإحضار السترات أو المعاطف، في حال صار الجو باردًا عند الشاطئ ليلًا، وتجمعنا عند السيارات. قالت "إيمانويل" إنها لن تذهب، ولم يحاول "ستانلي" كثيرًا أن يثنيها عن قرارها. وبقيت أم "جوديث" في المنزل أيضًا.

رغبت "جوليا" و"ليزا" في مرافقة "أليكس" و"توماس" في سيارة "رالف". وخلال ركوب "جوديث" السيارة إلى جوار زوجها، رمقتني للحظة. نظرت إليها، بطريقة من ينظر إلى امرأة وفي رأسه أفكار تجاهها. دوافع مستترة. لمحت ضوء مصباح الجراج منعكسًا في عينيها. فكرت في الاحتمالات عند الشاطئ. سيكون هناك الكثير من الناس من حولنا. يمكننا أن نكون وحدنا. يمكن لبعض الناس أن يجلسوا بمفردهم. ويمكن للبعض أن يعثر على البعض الآخر.

- أعتقد أن من الأفضل أن أبقى أنا أيضًا.

هكذا أخبرتني "كارولين" وهي تقترب من سيارتي، وتضع يدها على ذراعي.

- حقًا؟

أدرت رأسي قليلًا، حتى أبعد ضوء مصباح الجراج عن وجهي. وأردفت:

- لا سبب يدعوكِ للذهاب طالما لا ترغبين في ذلك. ولا مانع عندي. لو كنتِ متعبة، فلا بأس في أن أذهب وحدي.

25

أحيانًا ما تسترجع شريط حياتك لتحدد تلك النقطة التي كان بوسعك فيها أن تتخذ مسارًا مغايرًا.

ولكنك أحيانًا لا تجد أي داعٍ للعودة إلى الماضي. أنت نفسك لا تعرف ذلك بعد، ولكن الزر الوحيد الذي لا يزال فعالًا في حياتك هو زر التشغيل للأمام. وتتمنى لو أمكنك توقيف المشهد.. أو تضغط على زر الإيقاف.. ثم تقول لنفسك: ها هو ذا. لو كنت قلت هنا كلامًا مختلفًا.. أو أقدمت على تصرف آخر.. لو..

ذهبت إلى الشاطئ في ذلك المساء. ولما عدت، كنت إنسانًا آخر. ليس لساعات أو لأيام.. بل إلى الأبد.

تجد بقعة في بنطلونك. إنه بنطلونك المفضل. فتحاول أن تتخلص من تلك البقعة. تغسله عشر مرات في غسالة فول أوتوماتيك وبدرجة حرارة عالية. تفرك البقعة وتحكها. تستدعي المدفعية الثقيلة. تحضر جميع أنواع المبيضات، حتى مستحضرات التخلص من الدهون. ولكن البقعة تبقى مهما فعلت. ما تحصل عليه بعد كل هذا المجهود هو شكل جديد للبقعة نفسها. علاوة على أن القماشة نفسها تفسد. وتلك القماشة التي فسدت هي تمامًا مثل ذاكرة الإنسان. ستظل تحتفظ بتلك البقعة مثل القماشة. والآن أمامك أمران: إما أن تلقي بالبنطلون في القمامة، أو أن ترتديه بقية حياتك بتلك البقعة. ولكن فساد

قماش البنطلون يذكرك بما هو أكثر من البقعة. يذكرك بزمن كان فيه البنطلون نظيفًا.

لو عدت بشريط الذكريات لزمن كافٍ، فسيظهر لك البنطلون نظيفًا في تلك المشاهد. ولكنك تدرك حينذاك أنه بنطلون مقدر له أن يفسد رغم كل شيء.

أعلم أنني سأبقى أسير العودة للذكريات فيما تبقى من حياتي. وسوف أطرح السؤال نفسه مرارًا وتكرارًا، وأنا أفتش في شريط حياتي السابقة.

ها هي.. نظيفة.

وها هي.. بعد أن فسدت.

ما إن خرجنا من الطريق المُترَّب إلى الشارع، حتى أخرج "ستانلي فوربس" علبة "مارلبورو" من جيب قميصه ومد يده بها إليَّ. تناولت منها سيجارة، وأنا ممتن له. قال لي:

- انتبه.

- لماذا؟

- أنت تسير في أقصى اليمين، وكدت تحطم مرآة تلك السيارة "الفان".

أنا من الرجال الذين لا يتقبلون أي انتقاد لمهارتهم في القيادة. أبدًا أبدًا. ولكنني أدركت ومن منظور منطقي أن "ستانلي" معه حق. وأنا أعرف أنني في أحوال كثيرة أكون ثملًا إلى حد يصعب معه أن أقود السيارة. كانت هناك لحظة ترددت فيها. تهيأ "ستانلي" لقيادة سيارته التي استأجرها إلى الشاطئ. وقف والمفاتيح في يده، لكنه قرر فجأة أن يرافقني في سيارتي.

- أشكرك. انتبه أنت إلى اليمين، وسأنتبه أنا إلى اليسار.

أبطأت من سرعة السيارة. رأيت على مسافة أقل من ثلاثين مترًا الأضواء الحمراء لمؤخرة سيارة "رالف" "الفولفو"، قبل أن تنعطف في الطريق. حاذرت

وأنا أوقف السيارة على جانب الطريق. ورغم ذلك احتكت السيارة بجانب الطريق بصوت ذكرني بذلك الصوت البشع لاصطكاك الأسنان ببعضها البعض. سأل "ستانلي":

- ما الذي تفعله؟

- اسمع.. اليوم يوم إجازة رسمية في هذه البلاد. وربما يكون هناك أكثر من كمين شرطة على الطريق الرئيسي المؤدي للشاطئ. صادفت بعضها من قبل، وهم لا يترددون في سحب الرخصة على الفور.

- أوكيه.

- ولكن هناك طريقة أخرى للوصول إلى الشاطئ. عبر الطريق الرملي. أتذكر أننا كنا نقيم في مخيم في بداية الإجازة؟ لو أمكنني الوصول إلى المخيم من هنا، فسوف يكون الوصول إلى الشاطئ سهلًا.

لم يكن الأمر سهلًا، حيث وجدنا أنفسنا في طريق مسدود مرتين، ولكننا في النهاية عثرنا على الطريق الرملي الذي يؤدي بنا إلى المخيم. هناك أشجار على جانبي الطريق. فتحت شِبَّاكي وأضأت المصابيح القوية.

- على يمينك أشجار يا "مارك". وعلى يسارك أيضًا.

ضحكنا معًا على ملاحظته، وحتى أبين له أنني مسيطر على الموقف، زدت من سرعة السيارة قليلًا. قاومت إطارات السيارة الرمال وهي تندفع إلى الأمام.

- ياهوووا هذا هوا انطلق بنا!

شعرت أنه يردد جملة من فيلم شهير، ولكنني لم أعرف أي فيلم هو. ولم أجد في نفسي رغبة في أن أسأل "ستانلي" عن ذلك. مع أن في عقلي العديد من الأسئلة التي أود لو طرحتها على المخرج "ستانلي".. ما هو عمر "إيمانويل" الحقيقي؟ هل هي كسولة خلال الجنس كما هي عليه في بقية ساعات حياتها، أم أن المظاهر خداعة؟ هل تصاب بالإنهاك التام وأنت معها، خاصة وأنت في

هذه السن؟ هل ترتدي نظارتها الشمسية وهي معك في الفراش؟ لكنني لم أطرح عليه تلك الأسئلة. سألته عوضًا عن ذلك:

- ما هي تلك الحكاية؟ التي قال "رالف" قبل العشاء إنه يحب أن تحكيها لي.

- آه.. الحكاية.

- ليس عليك أن تحكيها الآن لو أنك لا ترغب في ذلك، ربما لاحقًا.

صار الطريق وعرًا بعض الشيء، وهو يتجه لأسفل، وتلمح بين الحين والآخر أنوارًا خافتة هناك بين الأشجار، ربما هي أضواء البارات والمطاعم المنتشرة عند الشاطئ. نحن في الطريق الصحيح إذًا.

أنزل "ستانلي" زجاج شِبَّاكه. ألقى بعقب السيجارة، قبل أن يشعل أخرى.

- عقب أحداث سبتمبر بأشهر قليلة، وجهت إدارة "بوش" الدعوة إلى عدد قليل من المخرجين السينمائيين لحضور اجتماع في البيت الأبيض. أغلبهم من مخرجي أفلام الخيال العلمي، "ستيفن سبيلبرج"، "جورج لوكاس"، و"جيمس كاميرون"، وأنا. كنت قد أخرجت فيلمي خيال علمي. أحدهما لم يعرض في السينما، بل تم توزيعه في السوق الأوروبية على أسطوانات "دي في دي"، ولكن الفيلم الآخر حقق نجاحًا كبيرًا. اسمه "الرعشة". هل شاهدته؟

بدا لي الاسم مألوفًا، ولكنني أعتقد أن آخر فيلم شاهدته من تلك النوعية هو فيلم "يوم بعد غد".

- كلا، لم أتشرف.

- لا يهم. المهم هنا هو الغرض من تلك الدعوة. جلسنا في المكتب البيضاوي مع المجموعة كلها. "جورج بوش"، و"ديك تشيني"، و"دونالد رامسفيلد". وكان هناك "جورج تينيت" من "السي آي إيه"، ومستشارة الأمن القومي، ومجموعة من الجنرالات. والمخرجين طبعًا. قدموا لنا أطباق فول سوداني

وسناكس. وقهوة وشاي. وكذلك بيرة وويسكي وجين. لا تنسَ أنهم أحضرونا للاستفادة من خيالنا. وتلك المشروبات تطلق العنان للخيال.

صار الطريق الرملي أضيق. وأكثر تعرجًا. ومنعطفات مفاجئة. نقلت السرعة، وأنا أسمع عبر الشباك أصوات صراع الإطارات مع الرمال. شممت رائحة الصنوبر الجاف. ورائحة البحر. تذكرت "كارولين"، التي فضلت البقاء في المنزل الصيفي. وتذكرت لحظة أن ودعتها، وهي تقبلني على خدي وتهمس في أذني.. "أمتأكد من أنك لست ثملًا؟ هل يمكنك قيادة السيارة؟".

- كان الغرض من دعوتنا هو طرح كل ما يشطح به خيالنا أمامهم على الطاولة. أن نساعدهم بما لدينا من حس خيالي. لا أعرف من صاحب فكرة هذا الاجتماع، وما إذا كان هو "بوش" نفسه أو أحد مساعديه. وعلى كل حال. تناولنا القهوة والشاي في البداية، ولكننا سرعان ما فضلنا البيرة والويسكي عليهما. وكذلك فعل الرئيس. شرب كأسي ويسكي في ثوانٍ. أما "ديك تشيني" و"دونالد رامسفيلد"، فشربا الجين. سمعنا أصوات الموسيقى تعلو في المكان. أغاني "بوب ديلان" و"جيمي هندريكس" و"ديكسي تشيكس". عندما أتذكر ذلك المشهد الآن، لا أصدقه بالمرة. ولكننا قمنا بما علينا يومها: قدمنا لهم الخيال. لم يخطر ببال إنسان قبل 11 سبتمبر أن يفكر الإرهابيون في استخدام طائرات ركاب ويحولونها إلى أسلحة. الكل كان يركز على تأمين داخل الطائرة فحسب. حتى لا يكون على متنها قنبلة أو إرهابي يختطفها. أما فكرة أن تخترق الطائرة نفسها برجًا فكانت ضربًا من الخيال الشاطح. لذلك أحضرونا: حتى نتخيل ما لا يمكن لهم تخيله. أن نستعين بذلك الحس الفانتازي الذي أتاح لنا أن نقدم أفلامًا تغزو فيها الكائنات الفضائية الأرض، أو يتنقل فيها الأبطال بين الأزمنة، فقد كانوا يريدون منا أن نتخيل ما يمكن أن تتوصل إليه عقول الإرهابيين في المستقبل. وهناك شيء آخر نسيت أن أخبرك به. وهو أن

فيلم "رعشة" كان مأخوذًا عن رواية. كتبها أمريكي اسمه "صامويل ديمر". هل سمعت به من قبل؟

- لا أعتقد ذلك.

- أوكيه.. لا يهم. القصد هو أنني قرأت الرواية. وتخيلتها فيلمًا على الفور. بدأت قراءتها في منتصف الليل، وانتهيت منها في السادسة صباحًا. اتصلت بـ"ديمر" في الثامنة. بنفسي. فقد جرت العادة أن يقوم مدير أعمالي بالاتصالات، ولكنني كنت أود أن أنقل إليه حماسي تجاه روايته. ومن يعرف "ديمر" يدرك أن التعامل معه صعب. فهو لا يفضل الظهور في برامج تليفزيونية أو إجراء حوارات مع الإعلام. ورأيي أن هذه النوعية من الكُتاب تستحق الشفقة. على كل حال، وجدته متحفظًا ونحن نتحدث عبر التليفون، وبدا لي أنه غير مهتم بالمرة بتحويل مخرج متحمس لروايته إلى فيلم. ولكنني سمعت بحدسي شيء آخر على الطرف الآخر من الخط. أدركت أنه في قرارة نفسه سعيد للغاية بحقيقة أن هناك من اهتم به ورغب في التواصل معه. سعيد بأنه يتحدث مع معجب لا يعرفه. أقصد أن الشخصيات من هذا القبيل لديها أزمة تتعلق بصورة شخصيتها. فقد وجدت أنه لم ينزعج من فكرة أنني أتصل به في ساعة مبكرة. باختصار.. حصل بيننا توافق. ثرثرنا لبعض الوقت عن روايته وإمكانية تحويلها إلى فيلم، وخلال ذلك سألني سؤالًا مفاجئًا. سؤال لم أنسه أبدًا. حتى أنه تحول إلى شعاري الشخصي. "لماذا لا تتوصل أنت إلى فكرة لفيلمك؟". وأعترف لك أنني ارتبكت. لم أعرف ماذا أقول له. فسألته عن قصده. سمعته يتنهد تنهيدة عميقة، قبل أن يقول لي: "أقصد تمامًا ما قلته للتو. أشعر أنك شخص مبتكر للأفكار. بدرجة تفكيك، لو فهمت قصدي. فما الذي يدعوك إلى إخراج فيلم يعتمد على فكرة لشخص آخر؟ لماذا لا تبتكر أنت فيلمك؟ تحدثنا بعدها لنصف ساعة آخر. في كل شيء. في الكتب التي نحبها. وعن

الأفلام. ثم التقينا في يوم لاحق. وكان تعاونًا مثمرًا وملهمًا. وأسهم سؤال "ديمر" في تغيير حياتي للأبد. وهكذا أخرجت فيلم "الرعشة". لم أعتمد على الرواية إلا في خيوطها الرئيسية، وهو لم يجد غضاضة في ذلك. ووضعت في مقدمة الفيلم ونهايته تلك العبارة.. "عن رواية صامويل ديمر". وبعد ذلك الفيلم، لم أقدم أبدًا على تحويل أي عمل أدبي إلى فيلم. أبدًا. لقد اقتنعت بفكرة "ديمر"، وصرت أبتكر أفكار أفلامي بنفسي.

رأيت في ضوء السيارة لافتة على جانب الطريق. لافتة صغيرة عليها رسم لخيمة واسم المخيم الذي بتنا فيه ليلتين. تبقى نصف كيلومتر. وكما أتذكر منذ أول ليلة، يزداد الطريق وعورة، ولكن بعد ثلاثة أو أربعة منعطفات حادة نصل إلى الشاطئ. هكذا انتبهت إلى أنني الآن في آخر جزء مستقيم من الطريق. سألته:

- وما الذي تخليتموه هناك في البيت الأبيض؟ أين ستكون العملية الإرهابية الكبرى التالية، وكيف ستكون؟

- حسنًا. ربما لن يكون انفجارًا من الأصل. أعني أننا تخيلنا ما هو أبعد من ذلك في تلك الظهيرة. المشكلة أن كل ما جرى يندرج تحت بند سري للغاية. طلبوا منا أن نقسم على عدم سرد أي شيء مما جرى في تلك الغرفة. وحده "سبيلبرج" الذي باح لاحقًا بلمحات عما جرى. أنا حتى لا أتذكر ما قاله، ولكنني أعتقد أنه لم يكن بالشيء المهم، ولكن ما أجمعنا عليه كلنا في نهاية تلك الظهيرة التي ثملنا فيها جميعًا هو أن الأمر سيكون أسوأ من أسوأ صورة رسمها خيال أي واحد منا. أسوأ من أي صورة خشي أي منا أن يتخيلها. سيكون شيئًا في غاية الرعب والفظاعة. كابوس حقيقي. نحن على مشارف حقبة جديدة. لن يكون هناك مكان آمن. بالمعنى الحرفي للكلمة. بدأ عصر النهضة باختراع نوع جديد من المدافع. نوع بمقدوره أن يخترق أسوار أي قلعة. وكان هذا إيذانًا بانتهاء الصورة القديمة للعالم. نحن الآن في بدايات عصر

مشابه. أما تلك القلعة فهي عالمنا الغربي المعاصر، أوروبا الغربية، أمريكا، جنوب شرقي آسيا. دانت لنا السيطرة لأمد طويل. ولكن المستقبل القريب يحمل لنا السلاح القادر على اختراق أسوارنا.

- ما هو إذًا؟

- كما قلت لك، لا يمكنني أن أتحدث في هذه النقطة. ولكنه سلاح مختلف عن ذاك المدفع. ليس سلاحًا واحدًا. بل أسلحة. كلها في الوقت نفسه.

أعترف لك أنني لم أكن في البداية مهتمًا إلى ذاك الحد بسماع حكاياته، ولكنني في تلك اللحظة وجدتها تتملك عقلي تمامًا.

- ألا يمكنك أن تخبرني ولو معلومة واحدة؟ أقسم لك ألا أحكي هذا لأي إنسان.

وعلى سبيل تأكيد كلامي، رفعت يدي عن المقود، وقربت فمي من إصبعين قبل أن أرفعهما أمام وجهي، وأنا أنظر إليه في صدق.

- أقسم لك.

وفجأة، مرت سيارة عن يميني، وهي تحاول تجاوزي والانطلاق في الطريق الرملي. فجأة. وبتصرف عفوي، ضغطت الفرامل بقوة وأنا أدير المقود إلى اليسار. ولكن تحديد المسافة المناسبة لضغط الفرامل مسألة تعتمد على التوافق العصبي الحركي. وتتطلب انتباهًا تامًا. وهكذا لم يكن هناك مفر من احتكاك السيارتين بصوت معدني مميز. لم يكن بالاحتكاك القوي، ولكنه يبقى احتكاك. معدن في معدن. توقفت السيارتان قبالة بعضهما. ولكن سيارتنا هي التي توقفت تمامًا، بينما استأنفت السيارة الأخرى طريقها وكأن شيئًا لم يكن. وسرعان ما اختفت تمامًا عن أنظارنا في المنعطف التالي. صاح "ستانلي":

- الوغد! هل رأيت؟ الأحمق ابن الـ... ! تبًا يا له من وغد!

مسحت العرق عن جبهتي. كانت يداي وجبهتي متعرقتين.

- اللعنة.. اللعنة.

- هذا الحثالة لم يكن يضيء أنوار سيارته! هل رأيت؟ ينطلق في هذا الطريق من دون أضواء.

- لكنني رأيت أنوار الفرامل. الآن، عندما أوقف السيارة.

- لم يحدث إطلاقًا! نعم هو ضغط الفرامل. ولكنه لم يضئ مصابيح السيارة.

انتبهت في تلك اللحظة إلى توقف محرك السيارة. ساد الهدوء من حولنا. سمعت صوتًا مثل النقر يأتي من أسفل غطاء المحرك. وسمعت أصوات الأمواج تأتي من هناك في الأسفل. وإلى جوار رائحة الصنوبر وملح البحر، صرت أشم رائحة مطاط محترق.

انفعل "ستانلي"، وضرب بقبضته التابلوه:

- هيا يا "مارك". سوف نلقن هذا الحثالة درسًا! هيا!

تنهدت بعمق. واعتصرت المقود بيدي في غضب. يداي متعرقتان تمامًا.

- ماذا تنتظر؟ هيا.. أدر المحرك!

- "ستانلي".. ليست هذه بالفكرة الجيدة. أنا ثمل للغاية. ينبغي أن نشكر الظروف لأن هذا الوغد لم يتوقف. سيقع اللوم عليَّ في كل الأحوال، مع كل هذا الكحول الذي يجري في دمي.

عندئذ، سكت "ستانلي". فتح باب السيارة، وترجل منها.

- ماذا تفعل؟

دار حول السيارة، وفتح بابي، وطلب مني أن أنزل. إنه يريد أن يتولى القيادة.

- "ستانلي".. هذه ليست فكرة جيدة. أقصد أنك بدورك سكران. ربما أكثر مني.

- ثلاث كؤوس. كما أنني شربتها على نحو متقطع.

- "ستانلي"..

- هيا يا "مارك". هلا انتقلت للكرسي الآخر؟ علينا أن نسرع. لو وصل ذلك الحمار إلى الشاطئ قبلنا فلن نتمكن من فعل أي شيء له.

انتقلت بصعوبة إلى الكرسي المجاور، وأنا انتبه لأول مرة إلى ذلك الثقل الذي صار يهيمن على رأسي. ذلك الثقل الذي يجعلك واخمًا تمامًا، بينما يتعافى جسدك من أثر الكحول. ولأنني طبيب، أعرف أن الجسد يكون بحاجة إلى الكثير من الماء، ولكن المشكلة هي أنك لا تنتبه إلى ذلك إلا متأخرًا. فتجد نفسك تطلب المزيد من الكحول. كوب كبير من البيرة مثلًا. هكذا تتخلص من ذلك الثقل ببدايات ثقل آخر.

أدار "ستانلي" المحرك، وانطلق. تطايرت الرمال من حول السيارة المسرعة. وصاح هو بشدة:

- هذا هو! تمسك جيدًا يا "مارك".

عند أول منعطف، سمعت أصوات احتكاك قاع السيارة بأحجار الطريق. وعند المنعطف التالي، كاد يرتطم بشجرة.

- "ستانلي".. "ستانلي"!

- ها هو ذاك.

على بعد عشرة أمتار أمامنا، رأيت أضواء فرامل سيارته عند المنعطف التالي. أخذ "ستانلي" يتنقل بين الإضاءة القوية والخافتة.

- سوف أعميه. لقد نلنا منه يا "مارك".. نلنا منه.

زاد من سرعة السيارة، وهو يسألني:

- هل شاهدت فيلم "عفاريت الأسفلت"؟

لم ينتظر ردي، وهو يردف:

- كان ذلك الفيلم أول نجاح حقيقي لي في أمريكا. وبرغم تفاهة القصة، إلا أنه السيناريو الوحيد الذي كان متاحًا لي وقتها. عن سباقات "ناسكار". عن سائق مصاب بالسرطان ويريد أن يخوض سباقه الأخير. ولكن سيارة تطيح به من مضمار السباق، فيموت محترقًا داخل سيارته.

- "ستانلي".. أرجوك.

- الجميل في الموضوع هو أنني مثلت في ذلك الفيلم. لعبت دور أخي البطل. وكان هذا هو أجمل شيء في ذلك الفيلم، حيث أتيح لي أن أقود واحدة من سيارات السباق تلك. بسرعة تصل إلى ثلاثمئة كيلومتر في الساعة. وبالتالي مجرد لمسة بسيطة بين سيارتين كافية لأن تُطيِّر واحدة منهما في الهواء بكل قوة.

صرنا الآن قريبين من السيارة الأخرى، "رينو 4" قديمة. أخذ "ستانلي" يضغط على الكلاكس.

- يجب أن يستمر بسرعته، وإلا لن يكون لذلك أي معنى. هيا، أيها الوغد!

اتجه مقدمة السيارة نحو الجانب الأيمن من مؤخرة تلك السيارة. سمعت صوت الاحتكاك المعدني، وكان أعلى هذه المرة. وتهشم المصباح.

- نلت منه!

انزلقت "الرينو" فوق الرمال ودارت حول نفسها. شعرت أنها ستنقلب في أي لحظة، خاصة بعد أن ارتفع أحد الإطارات مترًا عن الأرض، وكأن السيارة تعلقت في الهواء لثوانٍ، ولكنها سرعان ما عادت إلى الأرض مجددًا فوق إطاراتها الأربعة. ظننت أن "ستانلي" سيستمر في طريقه وحسب، ولكنني وجدته يعود بالسيارة إلى حيث توقفت "الرينو". صاح في سائقها، الذي كان ينظر إلينا بكل خوف عبر الشباك المفتوح:

- ما رأيك يا حقير! أتمنى أن ينفجر ذلك الورم في مخك اليوم قبل الغد، أيها الوغد!

ثم انطلق "ستانلي" بالسيارة، وهو يطلق ضحكات مجنونة هادرة، ويقود بكل مهارة عبر المنعطفات الأخيرة قبل الشاطئ.

- أوه.. "مارك"! هل رأيت وجهه؟ مدهش.. جميل.. تلك هي اللحظات التي تستحق أن نعيشها فعلًا. كما أنه تلقى درسًا مجانيًا في السباب أيضًا.

سكت، ولم أعلق. عندما كان السائق ينظر إلينا، تواريت خلف "ستانلي".

كان شعر ذلك السائق أشعث وغير مصفف بالمرة. بل كانت حالته أسوأ مما كانت عليه يوم أن التقيته أول مرة. لقد تعرفت عليه ما إن رأيته، إنه صاحب المخيم، الذي أهمل حيوانات مزرعته.

كاد "ستانلي" يموت من الضحك. التفت إليَّ ورفع ذراعه نحوي. لم أدرك إلا بعد ثوانٍ أنه يريد مني أن أرد التحية.. هاي فايف. قال:

- زجاجتان.

- ماذا؟

- أنا شربت زجاجتين. بالإضافة إلى علبتي بيرة قبل العشاء وثلاثة براندي مع القهوة. وعليك أن تعترف الآن.. ومع حقيقة أنني سكران جدًا.. أنا سائق لا بأس به بالفعل!

26

كان الشاطئ مزدحمًا لدرجة أننا لم نعثر عليهم بسهولة.

بدأنا نبحث عنهم في البارات المفتوحة في الهواء الطلق، والتي تميزها تلك المصابيح، ثم تجاوزنا المنطقة المتلئة بحلقات من الناس جالسة حول نيران، واقتربنا من البحر. هناك من يطلقون الصواريخ عن يميننا ويسارنا. وبين الصاروخ والصاروخ، تسمع وقع موسيقى الديسكو تأتي من مكان بعيد هناك في الرمال. نبهني "ستانلي":

- إنهم هناك.

وجدت "رالف" و"جوديث" عند بداية مياه الشاطئ، وقريب منهم تركض "ليزا" ومن ورائها يركض "توماس". تصرخ "ليزا" بمرح وهي تلقي بنفسها إلى الرمال، فيقفز "توماس" فوقها. صاح "رالف" لما رآنا:

- أتيتم في الوقت المناسب.

كان "رالف" قد دفن ماسورة من الكرتون المقوى في الرمال، بعد أن عبأها بالألعاب النارية؛ كانت ماسورة صغيرة في حجم إصبع ديناميت، ويستعد لوضع طبق نحاسي ثقيل على فوهة الماسورة، ويبدو أنه أحضر ذلك الطبق من المنزل الصيفي، فهو طبق شوربة قديم، من النوع الذي يعلقونه بسلسلة فوق النيران. حذرنا "رالف":

- ابقوا بعيدًا.

مرت لحظات لم يحدث فيها أي شيء. وبغتة، دوى صوت قوي كالرعد، ثم اختفى الطبق. لم نره وهو ينطلق نحو السماء، وكأنه تبخر في الهواء وحسب. خلف الانفجار حفرة عميقة عرضها قدم، يتصاعد الدخان من داخلها. وصاح "رالف" في فرح:

- انظروا! هناك!

كان يشير بإصبعه. وهناك، في قلب سماء الليل، رأينا الطبق الذي صار متوهجًا بنيران الألعاب النارية. كان من الصعب علينا تحديد ارتفاعه: خمسون؟ مئة متر؟ كان لا يزال ينطلق للأعلى، وهو يدور حول نفسه مثل نقطة مضيئة. وقبل أن يتوه عن أبصارنا، بدأ رحلة الهبوط. كان في طريقه إلى قلب البحر. وكانت آخر مرة رأيناه فيها على ارتفاع عشرة أمتار فوق أمواج البحر. علقت "جوديث" على المشهد قائلة:

- الآن ضاع علينا تأمين المنزل.

بينما لاحقنا "رالف":

- واو! أرأيتم هذا؟ أرأيتم هذا؟ مشهد لا يصدق. وانظروا هنا، إلى الحفرة. تبًا. لقد أصابت قطع القواقع وجهي.

سألته "جوديث":

- كيف سنشرح الأمر لوكالة التأجير؟

- أوه، توقفي عن الشكوى والتأنيب. لقد عثرت على ذلك الطبق مهمل في المخزن، لن يعلموا من الأصل أنه كان موجودًا.

رمقت "جوديث". هناك تجعيدة صغيرة على جبهتها الآن، فوق أنفها تمامًا. ينعكس وهج نيران الشاطئ على خديها وعينيها. قلت لنفسي.. بوسعي أن أفعلها. بوسعي ذلك. ومع هذه المرأة. وفي هذه الأمسية بالذات.

فكرت فيما جرى في المطبخ صباح اليوم. عندها شعرت بانقباضة في صدري، وعاود رأسي ذلك الثقل الذي كان قد تبدد بعد مغامرة "ستانلي" مع صاحب المخيم. وفكرت في ابنتي، "جوليا"، التي لا بد أنها هي التي رأتنا في المطبخ. ومن غيرها قد يكون؟ أم "جوديث"؟ ربما. ممكن. "توماس" أو "أليكس"؟ "ليزا"؟ استبعدت "ليزا" من القائمة على الفور. فهي على الأقل تتصرف معي بشكل طبيعي حتى الآن.

الحقيقة أنها هي الوحيدة التي تتصرف معي بصورة طبيعية. أحاول الآن أن أتخيل المشهد الذي ربما يكون من وقف خلف باب المطبخ قد رآه، بالضبط. أو سمعه. ربما لم يرَ أو يسمع، هكذا قلت لنفسي. ولكنني سرعان ما انتبهت إلى أنه ربما يكون قد رأى وسمع كل شيء.

فكرت في ما عليّ أن أفعله. "جوليا". أفضل شيء هو الصراحة. ليست تلك الصراحة الكاملة المباشرة. لا أدري ما الذي رأيتيه، ولكن أم "أليكس" كانت حزينة للغاية لأمر يخصها. وكنت أحاول تهدئتها. كانت حزينة لأنها.. ذلك أمر مما تحزن لأجله السيدات، وسوف أشرحه لكِ في مناسبة أخرى. انتبهت على صوت "رالف":

- "جوديث"؟ "جوديث"، إلى أين أنتِ ذاهبة؟

كانت "جوديث" تبتعد بخطوات سريعة غاضبة في الرمال، متجهة إلى منطقة المطاعم. لم تنظر خلفها. بينما اكتفى "رالف" بابتسامة غير مبالية. وقال لي:

- لا يهمك يا "مارك". عندما تكون في ذلك المزاج يكون من الأفضل أن تتركها وشأنها إلى أن تهدأ.

فكرت للحظة أن أتبعها إلى حيث المطاعم، ولكنني فضلت ألا أفعل. سيكون هذا تصرفًا مكشوفًا للغاية. إشارة مفضوحة. سأنتظر. ستأتي الفرصة المناسبة

قريبًا. سأعمل على أن أقنع "جوديث" بأنني حساس تجاه مشاعرها بدرجة أكبر من "رالف". ما هذا الذي أقوله؟ حساس أكثر من "رالف"؟ إنني بالفعل كذلك. ولهذا السبب تجاوبت مع ابتسامته بإيماءة يفترض أنها تعني أنه هكذا هو حال النساء.. لغز من ألغاز الحياة الكبرى.

- ما هذا الذي تفعله؟ كل هذا لأجل طبق نحاسي قديم؟

- معك حق. أحيانًا ما تتصرف "كارولين" على النحو نفسه. ويكون علينا نحن الرجال أن نشعر بالذنب تجاههن ومن ثم نحاول أن نعرف ما هو الخطأ الذي ارتكبناه.

اقترب "رالف" مني، وأحاط كتفيَّ بذراعه:

- يبدو لي أنك أكثر خبرة مني في التعامل مع النساء يا "مارك". أنت على الأقل تتعامل معهن يوميًا في عيادتك.

أشم تلك الرائحة في أنفاس "رالف". سمكة أبو سيف.. أنا لم أستطع أن أكمل قطعتي أثناء العشاء، فغطيتها بمنديل، ثم تناولت قطعًا صغيرة من الخبز الفرنسي. الآن أشعر بالجوع. من اللازم أن أتناول أي شيء يشبعني. قبل أن أشرب البيرة لأتخلص من هذا الثقل في رأسي. سمعت "ستانلي" يصيح:

- ليتراجع الجميع!

كان قد خلع حذاءه ودخل في المياه حتى ركبتيه. يحمل في كل يد صاروخًا، ويصوبه إلينا وهو يضحك. لقد أشعل الصاروخين بالفعل. صاح فيه "رالف":

- ابعدهما! ابعدهما يا مجنون!

وفي اللحظة الأخيرة، استدار "ستانلي" حتى صار ظهره لنا، وصوب الصاروخين إلى البحر. ليس بزاوية، بل في اتجاه أفقي. وانطلق الصاروخان من يديه. اختفى أحدهما داخل أسطوانة كبيرة لا تبعد كثيرًا عن الشاطئ. بينما انطلق الآخر فوق سطح الماء. انتبهت إلى وجود أناس في الماء. ليسوا كثيرين،

ربما خمسة.. ومر الصاروخ من بين رؤوسهم الظاهرة فوق سطح المياه. ومرت ثوانٍ لم يحدث فيها أي شيء. ثم سمعنا صوت انفجار مكتوم، وارتفعت نافورة من المياه إلى أعلى. بدأ من في المياه في الصياح والتلويح لنا، ولكن "ستانلي" اكتفى بالتلويح لهم بدوره، وهو يضحك. وأخذ يصيح فيهم:

- إنها القيامة! إنها القيامة!

كان يصنع بيديه بوقًا أمام فمه:

- "رالف".. "رالف".. ناولني صاروخًا آخر. سوف نفجرهم وهم في الماء!

نحن لم ننسَ أمر الصاروخ الأول الذي أطلقه. ولكن ما يجري جعلنا نتوقف عن التفكير فيه. ولكننا انتبهنا إلى ذاك الانفجار. عميق ومكتوم. وكأن سفينة عملاقة ألقت بمرساها إلى المياه بقوة. ليرتطم بصخرة كبيرة في القاع. وتطايرت مياه البحر والرمال والأحجار الصغيرة في كل اتجاه. ارتطم شيء ما بعيني اليسرى. أما "ستانلي"، الذي كان أقرب شخص إلى مكان الانفجار، ففقد توازنه وسقط على وجهه في الماء. غاص جسده للحظات، قبل أن يظهر مجددًا على السطح، وهو يسعل بقوة. كان يسب ويلعن، وهو يخرج طحلبًا من فمه. ولكنه سرعان ما عاد يضحك:

- نيران صديقة! نيران صديقة!

لا يسعك في مثل هذه المواقف سوى أن تضحك، تمامًا كما ضحك "رالف" وهو يسخر من نفسه لما وقع على الأرض عند ترابيزة "البنج بونج". لذلك ضحكت أنا و"رالف" بقوة، بينما جثم "ستانلي" فوق رمال الشاطئ في "الشورت" و"التيشيرت" اللذين يقطران الماء. وجدت من يشدني من معصمي، فالتفت لأجد "ليزا":

- بابا؟ بابا، هل يمكن أن أذهب مع "توماس" لشراء آيس كريم؟

- طبعًا.

فركت عيني اليسرى بأصابع يدي الأخرى. بدأت الدموع تسيل وأنا أشعر بألم حاد فيها. هناك شيء ما في عيني. ربما حبة رمل أو جزء من قوقع. سألت "ليزا":

- أين "جوليا"؟

في تلك اللحظة، أتانا "توماس" يركض، إلى أن ارتطم بها؛ لتسقط فوق الرمال، وهي تسب "توماس".

- "ليزا".. ليس من الجيد أن تتفوهي بمثل هذا الكلام!

ضرب "توماس" صدره بقبضتيه، وهو يصيح مثل طرزان. سألتهما مجددًا:

- أين "جوليا"؟

فقالت "ليزا":

- من أين لي أن أعرف؟

وقفت متعثرة، قبل أن تلطم "توماس" على وجهه. لطمة قوية فعلًا، ربما أقوى مما قصدت هي. وكان من الطبيعي أن يصيح "توماس" بدوره غاضبًا، وأن يسبها بكلمات قذرة. حاول أن يمسك بها، ولكنها سبقته وركضت عبر الرمال. صاح "ستانلي":

- ما رأيكم في أن نذهب لشرب البيرة؟

كان جسده مبتلًا تمامًا، وشعره الأبيض ملتصقًا برأسه، حتى أنك ترى جمجمته البيضاء اللامعة من أسفله. كان "رالف" لا يزال غارقًا في الضحك:

- كان مشهد يستحق أن تسجله بكاميرتك يا "ستانلي"!

سألت "رالف":

- أين "جوليا"؟

بينما تحسس "ستانلي" جيوبه:

- تبًا.. أعتقد أن جميع النقود قد.. أو لا، ها هي..

أخرج بضع أوراق نقدية من جيبه. كانت مبتلة تمامًا. أخذ يصيح:

- من معه مجفف شعر؟! أدفع نصف عمري مقابل مجفف شعر!

كررت السؤال على "رالف":

مكتبة

- أين "جوليا" و"أليكس"؟

- ذهبا إلى الديسكو في الشاطئ الآخر. هناك.. عند تلك الأضواء.

- وحدهما؟ هما الاثنان فقط؟

رأيت الأضواء التي أشار إليها "رالف". يصعب عليَّ تحديد المسافة. ربما هي كيلومتر. أو ربما أكثر. لم يكن هناك أي شيء في المسافة بين هذا الجزء من الشاطئ حيث المطاعم وهناك عند الديسكو، إلا خليج صغير. شريط طويل ومظلم من الشاطئ.

- "مارك"، لا يمكنك أن تربط الأولاد بحبل. آخر شيء قد يرغبان فيه هو أن يبقيا إلى جوار الآباء.

- بالفعل، ولكنني أتساءل فحسب.. كان بوسع "جوليا" أن تنتظر حتى حضوري على الأقل.

حاولت ألا أظهر ضيقي من سماح "رالف" لابنتي بالذهاب إلى الشاطئ الآخر. إنه لم يكلف نفسه عناء أن يسألني رأيي. ولكنني سألت نفسي عما إذا كنت أبالغ بتصرفات طفولية. أم أنه كان من المنطقي أن يطلب منها أن تنتظر حتى مجيئي وموافقتي على أن تذهب إلى حيث تريد؟

- ما الذي جرى لعينك؟

- لا شيء. يبدو أن شيء ما دخل فيها. حبة رمل في الغالب.

بينما صاح "ستانلي" وهو يقبض على حفنة النقود المبتلة:

- بيرة؟

27

كانت جميع الترابيزات مشغولة، فوقفنا عند البار.

كان كاونتر البار عند الشاطئ، من تلك النوعية المؤقتة مسبقة التجهيز. ولم أجد "جوديث" هناك. ولم يبدُ على "رالف" أي قلق من عدم وجودها. حتى أنه لم يحاول أن يبحث عنها.

- تبًا! هل يفترض أن نتعذب بهذه الطريقة؟

انتبهت لصياحه، وهو يضرب كوب البيرة بقوة فوق كاونتر البار. تتبعت نظراته، فرأيت ثلاث فتيات في البكيني عند إحدى الترابيزات التي لا تبعد عنا سوى مترين. كانت ظهورهن لنا، ونحن نحاول العثور على ترابيزة فارغة. هز "رالف" رأسه قائلًا:

- تعرف يا "مارك"، أنا مستعد لأن أرتكب جريمة للحصول على القليل من هذا. القليل فحسب.

كان لسانه يتحرك في لذة على شفتيه. تأوه، وهو يداعب أزرار "الشورت"، وأصابعه تنزلق فوق السوستة. ها أنا ذا أرى في عينيه تلك النظرة مجددًا، النظرة نفسها التي تأمل بها جسد زوجتي في المسرح. وهذه المرة كذلك، رأيت غشاءً شفافًا يغطي عينيه، وهو يتأمل كل تفصيلة في أجساد الفتيات، إلى أن استقرت عيناه على أردافهن. صاح "ستانلي" بابتهاج. كان يلوح للفتيات في تحية لهن.

- هاي! انظرن! انظرن ماذا هنا!

هز "رالف" رأسه في حسد، وقال لي وهو يحدق في كوب البيرة:

- نحن نفكر.. وهو ينفذ.

كانت الفتيات تهمسن فيما بينهن لبحث ما ينبغي عليهن فعله. رؤوسهن متقاربة في أثناء ذلك. وتضحكن ضحكات خفيفة. حاولت أن أتخيل ما رأينه فينا: ثلاثة رجال في منتصف العمر يرتدون "الشورت"، وفي أيديهم أكواب البيرة، وأكبرهم سنًا هو أكثرهم جرأة. لو كنت مكانهن لتركت المكان وانصرفت.

كم كانت دهشتي وأنا أراهن، بعد لحظات التردد تلك، آتيات نحونا. أحيانًا ما تسيء الحكم على المرأة لو أنك لم ترَ منها سوى ظهرها. فأنت ترى شعرًا طويلًا منسدلًا فوق أكتاف عارية، ولكنك تكتشف عندما تلتفت إليك أنها ليست سوى فتاة صغيرة مراهقة. ولكن المشهد هنا مختلف: كأن كل واحدة منهن خرجت للتو من غلاف مجلة من مجلات الموضة. حاولت تخمين أعمارهن. تسعة عشر؟ عشرون؟ هن أصغر من خمسة وعشرين في كل الأحوال، فتيات ولسن سيدات. رمقت "رالف"، الذي أخذ رشفة سريعة من البيرة، وداعب بيده بطنه. كأنه جائع. هكذا كان ينظر إلى الفتيات، كأنه في حفلة واقترب منه الجرسون بصينية عليها مجموعة مقبلات شهية. فقد بدأ يلعق شفتيه مثل حيوان مفترس. علق قائلًا:

- ولا غلطة.. سحقًا لي.. منتهى الجمال.

نظر "ستانلي" إلينا وكأنه شيطان:

- مساء الخير، آنساتي. مشروب؟ ماذا ترغبن؟ نبيذ أبيض؟ مارجريتا؟ كوكتيل؟

هو رجل أفعال لا أقوال. فحتى وهو لا يزال يتفحص منيو المشروبات، كان قد وضع يده على الكتف العاري لأقرب الفتيات إليه. ضحكن مجددًا، ولكنهن لم تنصرفن. صافحته الفتيات وكل واحدة منهن تعرف نفسها لنا. سألهن "ستانلي" عن بلادهن. اثنتان من النرويج، وواحدة من لاتفيا. وسألهن عما إذا

كنَّ هنا للعمل أم للمتعة. تلك هي الكلمة التي استخدمها بالفعل. كانت نبرة صوته جريئة موحية، وكأن الفارق بين العمل والمتعة يحمل العديد من المعاني الخفية. بدت لي آخر فرصة للفتيات للهروب من فخنا هذا. ولكنهن ضحكن وحسب. كانت الفتاتان النرويجيتان تشربان المارجريتا. أما اللاتفية فشربت كأس الفودكا الدوبل في جرعة واحدة.

قال لي "رالف":

- أنت محظوظ يا "مارك"، فنصفك الحلو بقي في المنزل.

أردف وهو يشير إلى "ستانلي":

- وهو أيضًا محظوظ. أما أنا فعليَّ توخي الحذر. لا أحتمل غضب "جوديث".

تلفت حوله، ووجدني أتلفت معه، قبل أن يردف:

- تلك القصيرة تناسبك أكثر.

كان يومئ برأسه إلى اللاتفية. قبل أن يعود إلى تأمل سيقان النرويجيتين في تلذذ. بينما احتضن "ستانلي" الفتاة الواقفة إلى جواره. تظاهر بأنه يحاول وضع شفتيه على طرف الشاليمو الساكن في كأسها، بينما هو في الحقيقة يحاول أن يدس أنفه في عنقها. أبعدته الفتاة بلطف، وقالت شيئًا ما بالنرويجية لرفيقتها، التي ما إن سمعتها حتى جذبت "رالف" نحوها. صاح الأخير وهو منبهر:

- مهلًا.. مهلًا.. لا تستعجلي! يا للهول يا "مارك"، إنهن ساخنات فعلًا. ماذا فعلنا حتى نستحق هذه المكافأة؟

رأيته يتلفت حوله من جديد، قبل أن يحيط خصر الفتاة بذراعه، ويضمها إليه. ليس خصرها بل أسفل قليلًا، عند البكيني. وما هي إلا ثوانٍ، حتى كانت أصابعه قد اقتحمت البكيني. نظرت إلى يده. ومعصمه. حجمها كبير. بل إن معصم "رالف" أضخم من خصر الفتاة. رأيت كيف دس أصابعه الغليظة بين ردفيها، وراح تفكيري إلى بقية أجزاء ذلك الجسد. تلك الأجزاء غير المتناسقة.

ولكنني لم أجد الوقت الكافي للوصول بخيالاتي إلى ما هو أبعد. فقد حاولت الفتاة إبعاد "رالف" عنها، ليس بلطف كما فعلت رفيقتها مع "ستانلي"، بل بقوة وتصميم. لم يكن "رالف" يرى وجهها. أما أنا فأراه. كان فمها ممتعضًا، وكأنها تذوقت للتو طعامًا فاسدًا، أو كأنها تتألم، ولأن "رالف" لا يرى ذلك فقد زاد من قوة احتضانه لها، وهو يحاول في ذات الوقت أن يُقبِّل عنقها.

سمعت صيحة، أو هو سباب بلغة لا أفهمها. بالنرويجية. "فاركينسفيتر"! ثم قالت له كلمة أخرى، هذه المرة بالإنجليزية وبلكنة قوية.. "فك أوف"! قبل أن تضربه في الأسفل بركبتها ضربة قوية إلى أحد جعلني أشفق عليه.

فغر "رالف" فاه عن آخره. كان يلهث لأجل الهواء، وهو يتشبث بعضوه المسكين أسفل "الشورت" (باليد نفسها التي كانت منذ دقيقة داخل ذلك البكيني).

- آه..آه.. أيتها الـــ....

ألقت الفتاة بما تبقى من مارجريتا، مع الثلج وكل شيء، في وجهه. لم أعرف ما إذا كانت تقصد ما حدث، أم أنها كانت ثملة وفقدت اتزانها، ولكن حافة كأسها مزقت الشفة العليا لفم "رالف". وارتطمت بأسنانه. سمعت صوت شيء ينكسر. قطعة من سن أو قطعة من كأس، لا أعرف. رفع "رالف" يده إلى فمه. ومر بلسانه على صف أسنانه الأمامي، قبل أن ينظر إلى أصابعه المخضبة بالدم.

- أيتها العاهرة!

كان يترنح مثل خرتيت، ونحن نحاول أن نوقفه. كان يريد لكم الفتاة في وجهها. ولكنها طاشت، بفعل الآلام التي يشعر بها في الأسفل. صاح فيه "ستانلي":

- اهدأ! اهدأ، يا رجل!

- عاهرات قذرات! تتصرفن تصرفات قذرة في البداية ثم تنقلبن فجأة إلى الأم تريزا؟! اللعنة، اللعنة عليكِ يا قذرة!

الآن أمسك الفتاة. لوى ذراعها بقوة، حتى فقدت اتزانها وسقطت على الرمال. وصرخت. أرجع "رالف" ساقه إلى الوراء، كأنه يستعد لتسديد ضربة جزاء. أدركت أنه سيركل الفتاة في بطنها. صحت فيه أحذره، ثم دفعته بكتفي، وأنا أركله في ركبته. بكل قوة. كان يقف على ساق واحدة، ولو كان واقفًا على ساقيه لما أمكنني زحزحته. ترنح جسده لثانية، قبل أن يخر نحو الأرض ببطء، وكأنه عمارة تتهدم. ارتطمت مؤخرة رأسه بحافة البار بقوة. ولم أعرف ما إذا كان ذلك الصوت هو صوت تهشم جمجمته أو هو تحطم الطرف الخشبي للبار.

اندفع الناس نحونا من كل اتجاه. أغلبهم من الرجال. انقضوا عليَّ أنا و"ستانلي". وساعدوا النرويجية في الوقوف على قدميها. سمعت "ستانلي" يصيح فيهم، ولكنني لم أعد أراه، ولم يعد واقفًا عند البار من الأصل.

صحت باسمه، أناديه. وانقض عليَّ رجلان، وأوقعاني فوق الرمال. جلس ثالث فوق صدري، ولكمني بكل قوة في أضلاعي. شعرت أنني أختنق. صحت فيه بصوت خرج مثل النحيب:

- اهدأ! تمهل، أرجوك..

شعرت أنني سأموت مختنقًا.

لمحت بطرف عيني النرويجية وهي تنقض على جسد "رالف". أخذت تسدد إلى وجهه لكمات قوية متقنة، إلى أن اضطر رجلان قويان لجذبها بعيدًا عنه.. حتى لا تقتله.

28

دخلت دورة مياه المطعم الذي كنا فيه خلال أول يوم إجازة.

نظرت في المرآة الصغيرة فوق الحوض. حاولت إبقاء عيني اليسرى مفتوحة بينما أنظر فيها. لم أتمكن من الرؤية بوضوح، ولكنني رأيت ما يكفيني. كانت عيني حمراء كالدم. نزيف دموي. لقد استقر شيء ما في عيني، حبة رمل، قطعة من قوقعة، أو حصوة صغيرة. أصاب القرنية. زاد قلقي وتصاعدت أنفاسي وتسارعت نبضات قلبي، ربما اخترق ذلك الشيء الدقيق القرنية واستقر في سائل مقلة العين نفسها.

أنا من الأصل لديَّ مشكلة نفسية تجاه العين. بوسعي أن أنظر إلى أي شيء من دون خوف، جرح مفتوح وكسور، منشار طبي يعمل على عظام حوض، مخ مفتوح، قلب ينبض وهو داخل صينية الكروم في غرفة العمليات، لفات الشاش الطبي التي نضعها أثناء عملية قلب مفتوح تمامًا، أي شيء، إلا ما له علاقة بالعيون. وخاصة الأشياء التي لا يفترض أن تكون داخل العين، قطع زجاج، حبة رمل، غبار، عدسة ضلت طريقها داخل العين.. ولأنني طبيب أدلى بالقسم، فإنني لا أحيل إلا أقل عدد ممكن من مرضاي إلى الاختصاصيين، إلا من يعاني من شيء في عينيه، فهو لا يدخل غرفة الكشف من الأصل. أقول لمساعدتي: أترين ذلك الرجل الجالس وهو يضع منديلًا مبقعًا بالدم على عينه؟ أخرجيه من هنا. على الفور. ارسلي به إلى قسم الطوارئ في أي مستشفى. أو

امنحيه خطاب إحالة إلى اختصاصي عيون. أنا لم أتناول إفطاري بعد، ولا أريد لشيء أن يفسد شهيتي، فكيف أعالجه أو حتى أتعامل معه؟!

لا أعرف السبب الحقيقي وراء ذلك، ولكن الأكيد أن له علاقة بواقعة حدثت لي في الماضي. ويعمل عقلي الباطن جاهدًا حتى يكبتها داخل عقلي. غالبية أنواع الخوف المرضي تترسخ فينا خلال السنوات الأربع الأولى من حياتنا: الخوف من العناكب، المياه، النساء، الرجال، المساحات الواسعة، الأماكن العالية، الجبال، الحشرات، رأس السمكة، الشلالات العملاقة، المولات التي تبيع الأثاث، أنفاق المشاه. هناك دومًا خوف مرضي من شيء ما. تنسب الناس مخاوفها إلى تجارب مؤلمة، وتلجأ إلى الأطباء النفسانيين حتى يناقشوا معهم ما يحدث لهم. وبعد سنوات من البحث والتنقيب، يظهر شيء قد يكون السبب: امرأة تاهت في سوبرماركت، شمعة يسيل شمعها، حلزون وجدته في حذائك الرياضي، عم "ظريف" يستعرض نفسه بحلقات دخان يطلقها من فمه عبر جريدة ملفوفة، ولكنه في الحقيقة يفعل ذلك لأنه يريد غواية الطفلة أو الطفل الذي أمامه، أو خالة لها شعر في وجهها، ولكنها تصر على تقبيلك قبل أن تنام، مدرس يأخذ شاور وهو في معسكر صيفي للمدرسة، ولا يجد أي غضاضة في أن يقف عاريًا أمام التلاميذ الصغار، وبعد العودة إلى المدرسة تقاوم الرغبة في التقيؤ كلما رأيته أمامك في الفصل.

كما أن العين الواسعة المليئة بالدموع تذكرني بالبيضة المقلية. بيضة مقلية لم تستوِ بعد، ولا يزال بياضها وصفارها في الحالة السائلة، ويتحركان في المقلاة مثل قنديل بحر في مياه الشاطئ. سمعت أحدهم يحاول فتح باب الحمام، قلت بالهولندية:

- ابتعد، ألا ترى أن هناك أحدًا في الداخل؟

لا أتمكن من إبقاء عيني المصابة مفتوحة إلا ثانيتين في كل مرة. ليس بسبب منظرها الغريب فقط، ولكن كذلك بسبب ذلك الألم الشديد. كأن أحدهم يطفئ سيجارته في بياض عيني، البيضة المقلية. تلك صورة لم أتمكن من طردها من مخيلتي.

أحدهم يحاول فتح الباب مجددًا. بكل قوة هذه المرة. سمعت صوتًا. رجل يتمتم بلغة لم أفهمها. صحت فيه:

- تبًا لك.

رمشت عيني المصابة عدة مرات. ولكن من دون جدوى. عجزت عن طرد ذلك الألم الشديد غير المحتمل. أخذت أسب وألعن. وتناولت منديلًا ورقيًا من الماكينة، وكورته، ثم بللته بعض الشيء بالماء. شعرت بلحظة سريعة من البرودة والراحة عندما ضغطت بالمنديل على عيني.

- تفضل.. دورك.

قلت للرجل الواقف في الردهة المعتمة عند باب دورة المياه. يرتدي "شورت" و"تيشيرت" بلا أكمام. خداه وذقنه وشفته العليا متعرقة ولم تتعرض لشفرة الحلاقة منذ أيام. هممت بالخروج، عندما ألقيت نظرة ثانية عليه. بدا لي وجهه مألوفًا من دون سبب. وفي ذات اللحظة لمحت شيئًا آخر. كان بدوره ينظر إليَّ وكأنه يعرفني، كانت عيناه تلتمعان، وكأنه يحاول أن يتذكرني. قال لي بلكنة ثقيلة:

- آسف.. كنت متعجلًا.

ابتسم. سقطت عيناي على كتفيه العاريتين وأعلى ذراعيه. على أحدهما وشم طائر، يبدو أنه نسر، يقبض بمخالبه على قلب أحمر. أما ذراعه الأخرى فعليها آثار جرح. كأنها خدوش وكدمات. أو هي بسبب الناموس.

انتبه لنظراتي، فمسح بيده لا إراديًا على ذلك الجرح. كانت ذراعه متعرقة. أومأنا لبعضنا مجددًا، بطريقة من يعرفون بعضهم من بعيد، قبل أن يتوارى داخل دورة المياه.

وقفت عند باب المطعم، وتطلعت حولي على مهل قبل أن أخرج. تأملت المنطقة عند بار الشاطئ، حيث كنت مستلقيًا على الرمال منذ ربع ساعة فحسب وسط مجموعة من الرجال. لم أجد أثرًا لهم.. ولا "رالف".. ولا "ستانلي".. أو حتى الفتيات الثلاثة. كنت ما أزال أضع المنديل المبلل على عيني، وأنا أمر عبر الترابيزات. ربما كنت أتخيل، ولكنني أحسست أن العين ترتجف وتنبض، ربما هي ليست العين نفسها، ولكنها المساحة خلف العين. حيث العضلات والأوتار التي تمسك بالعين في مكانها. تذكرت محاضرات طب العيون التي لم أكن أنتبه لها تمامًا. أحاول أن أتحاشى النظر إلى كل شريحة يعرضها البروفيسور على الشاشة. شرائح تعرض علينا العين وهي تتدلى من محجرها، ولا يربطها بالجمجمة سوى أوردة مليئة بالدماء. وذات مرة، تأوهت بصوت عالٍ، لدرجة أن البروفيسور أوقف المحاضرة في قلق، وسألني عما إذا كنت بحاجة إلى مساعدة طبية.

الآن أشعر بذلك النبض خلف عيني، ووجدته يتناغم إيقاعيًا مع الموسيقى التي تصدح عبر مكبرات الصوت من حولي، وكأنهما لحن واحد.

ربما لم أكن منتبهًا، أو ربما أثَّر التجول وأنا أعور بهذا الشكل على إدراكي الحسي، ولكن تلك الفتاة التي كانت تجلس على كرسي عند مدخل المطعم وقفت سريعًا وفي اضطراب. ارتطم كتفها اليسرى بأسفل أنفي، فتراجعت إلى الخلف خطوات في توجع، استعدت توازني وتمكنت من تفادي السقوط في حِجْر رجل عارٍ. تأسفت للرجل. وتحسست فمي، ثم نظرت إلى أصابعي، لا دم.

تأسفت لي الفتاة جدًا. بدا عليها القلق لما وجدتني أضع المنديل على عيني، ولكنني بادرتها قائلًا:

- أوكيه.. لا مشكلة.

لم تكن الفتاة ضخمة القوام، ولكنها كانت بدينة. تأمَّلتها في تلك اللحظات، ووجدت أنني لثاني مرة في غضون دقائق أصادف وجهًا أعرفه. ولكنني هذه المرة تمكنت من تحديد سبب معرفتي له في غضون دقيقة، إنها فتاة مكتب التأجير. تلك التي وعدتنا أن يحضر إلينا السباك في أسرع زمن ممكن ليحل مشكلة المياه.

وفجأة أيضًا، عرفت من هو الرجل الذي صادفته عند دورة المياه. إنه السباك! كانا معًا، أليس كذلك؟ نظرت في عينيها، ولاحظت أنها كانت تبكي. الفتاة الحمراء الدامعة. اضطربت عيناها في ارتباك وهي تتأسف لي مجددًا.

رفعت يدي، بما معناه ما من مشكلة. ربما تبكي لأن ذلك السباك قد انفصل عنها للتو. وهناك علامات حمراء على خدها. لقد بكت عندما سمعته يخبرها أنه سيتركها. بكت ومسحت بأصابعها بقوة على عينيها وخديها. أليس من الظلم أن تتعرض كل الفتيات اللاتي تشبهها لمثل تلك المواقف دومًا؟ خطر لي ذلك السؤال. أم هو أمر متوقع في كل مرة؟ ألم تكوني تتوقعين ذلك، وأنتِ تسعدين بالوجود برفقة سباك متعرق يصاحبك لبضعة أسابيع (أو لبضع ساعات)، ولا يمل من تقبيل عنقك أو الهمس في أذنك بهراء من النوع الذي تحبين سماعه؟

- أنا.. عليَّ أن أذهب. هل أنتِ بخير؟

أومأت برأسها بنعم. من الصعب تحديد ذلك من كل تلك الحمرة في وجهها، ولكن يبدو لي أن وجهها احمر خجلًا. ثم تركتني وذهبت إلى المنطقة الأشد ازدحامًا في المطعم.

لم ينتبه إليَّ أحد عندما مررت على البار. يبدو أن أولئك الرجال الذين ضربوني أنا و"رالف" قد ذهبوا إلى مكان آخر. وعلى بعد خمسين مترًا، وجدت "ليزا" و"توماس" يلعبان الكرة، مع مجموعة أطفال من عمرهما. من حظي أنهما لم ينتبها إلى الفضيحة التي جرت عند البار. كنت قد ذهبت إلى "ليزا" قبل أن أقصد دورة المياه.

- لا تبتعدي عن هنا، أوكيه؟ سأذهب إلى الحمام، ولو احتجتِ إلى شيء تعالي إليَّ.

أشرت ناحية المطعم، ولكنني شعرت أن "ليزا" لم تنتبه إلى كلامي، فقد اكتفت بهز رأسها دون أن تنظر إليَّ، قبل أن تركض مبتعدة نحو "توماس" وثلاثة أولاد كانوا يلعبون بالكرة.

وفي النهاية، نجح "رالف" في التخلص من الرجال الذين ثبّتوه إلى الأرض. كان يسب ويلعن، ويلهث وهو يمسك بحقيبة الألعاب النارية ويمشي بخطوات واسعة نحو البحر. لم يتبعوه وتركوه لحاله. صاح في وهو في طريقه:

- ربما يسعد هؤلاء القوادين بأن يلعبوا دور البطولة أمام العاهرات!

لم ينظر خلفه، وكأنه توقع مني أن أتبعه وحسب.

لم أعرف ما جرى لـ"ستانلي". وقفت أنظر حولي بعيني السليمة، وأنا أنفض الرمال عن "الشورت" والقميص.

في ذلك الحين، كانت فتاة الفودكا اللاتفية قد فقدت الوعي. وبعد أن كانت واقفة إلى جوارنا، والكأس الفارغة في يدها، انهارت فجأة. من دون صوت. وكأنها ورقة شجر تسقط بهدوء إلى الأرض. تفقدها الرجال في قلق. لطموا وجهها في رفق. وقرَّب أحدهم ملاحة فلفل أسود إلى أنفها حتى تشمه. بينما أحضر أحدهم قماشة مبتلة من البار، ووضعها على جبهتها. اضطربت عيناها، ولكننا لم نرَ فيهما إلا البياض. أشحت وجهي بسرعة، ووضعت يدي بشكل غريزي على عيني. صاح أحدهم في الناس:

- دكتور.. نحتاج إلى دكتور.

كان في مقدوري أن أسارع بالابتعاد عن المكان. لم يعد أحد ينتبه إلى وجودي على أي حال. أخذت نفسًا عميقًا وأنا أنظر إلى البحر. لم تعد هناك ألعاب نارية الآن، وبقي البحر داكنًا أسفل سماء سوداء مرصعة ببعض النجوم. يمكنك أن تسمع هسيس الأمواج بوضوح خلال الفترات البسيطة التي تتوقف فيها الموسيقى. وجدتني أقول لهم:

- أنا دكتور.

29

كثيرًا ما سألت نفسي لاحقًا عما إذا كانت مجريات الأمور لتتغير لو أن تلك اللاتفية لم تفقد وعيها.

وعما إذا كنت موجودًا في الوقت المناسب. حسبت حسابات في عقلي، ولكنني لم أتوصل إلى إجابة شافية. الأمر أشبه بأن تصدر حكمك على شخص ما. حكم شديد. في رأيك أنت على الأقل. ترقد ساهرًا في الليل، وأنت تسترجع شريط حوار. ولكن كلما مرت الساعات، صارت الكلمات ملتبسة. وفي اليوم التالي، تستجمع شتات شجاعتك. هل قلت لك شيئًا ما ضايقك ليلة أمس؟ هكذا تسأل. أنا لا أذكر من الأصل أي شيء؟ هكذا تأتيك الإجابة.

استغرق الأمر مني ربع ساعة قبل أن أعيد فتاة الفودكا اللاتفية إلى وعيها. تفحصت نبضها، ووضعت أذني على صدرها لأتأكد مما إذا كانت هناك أي سوائل (فودكا!) في رئتيها. كانت مسألة حياة أو موت، وقد تعلمت ذلك من تجربة مريرة. فالفتيات اللاتي في مثل حجمها – أنا هنا أتحدث عن فتاة لا يمكن أن يتجاوز وزنها الخمسين كيلو جرامًا، وهو ما تأكدت منه لاحقًا عندما

حملتها عن الأرض – تَمُتن أحيانًا من جرعة خمور زائدة. حيث يتفاجأ الجسم بكم لا قِبَل له من الكحول. ولا يجد له مكانًا بالداخل. فيبذل القلب جهدًا أكبر حتى يوزع تلك الجرعة الزائدة، ويتسارع تدفق الدم في الأوردة. ولا يكون هناك أي سبيل. وفي النهاية، يستسلم القلب. فيتباطأ. قبل أن يتوقف تمامًا. لم يكن لديَّ وقت للتفكير في نظرات الرجال من حولي عندما وضعت أذني على صدرها. كان نهداها صغيرين وبالكاد أسمع من فوقهما صوت القلب المكلوم. ينبض ببطء وجهد كبير. هو في النزع الأخير. أمامه خمس دقائق على الأكثر. وضعت ذراعي اليسرى أسفل رأسها ورفعته قليلًا. وفي الوقت نفسه وضعت يدي اليمنى فوق معدتها. وعندما وضعت فمي على فمها وجدت مذاق الفودكا.

أحاول إسعاف قلبها بقبلة الحياة. وهو أسلوب لم أعتد على استخدامه. فعلتها ذات مرة مع غريق، وكان أب لثلاثة أولاد، ونحن في أحد المخيمات. نزل في الزحليقة المائية العملاقة بكل قوة، فارتطم رأسه بحافة البسين، وغرق في القاع. وفعلتها مرة أخرى مع كاتب عجوز في عيادتي. فقد الوعي بينما كنت أنظف أذنيه من الشمع. أتذكر ما جرى بوضوح، كنت أحدق في الطبق المعدني في يدي، وذلك الشمع الأسود القذر الطافي في الماء. ثم نظرت إليه، بعد أن سقط على جانبه فوق ترابيزة الفحص.

وكما هو حالي في أغلب الأحوال، كنت أفكر في تلك اللحظات في الخيارات المتاحة أمامي كطبيب. فيمن عليَّ أن أساعده أولًا. آجلًا أم عاجلًا، يواجه كل طبيب ذلك الاختبار. حتى ولو أنكرنا ذلك. وهو في الحقيقة ينطوي على اعتبارات بسيطة. من النوع الذي لا تتحدث عنه أبدًا. لأب الأبناء الثلاثة حق في الإسعاف بقبلة الحياة، أكثر من كاتب عجوز أنهى مهمته في هذه الدنيا. كاتب لم يعد لديه جديد ليقدمه. وعندما تغرق السفينة، ينقذون النساء والأطفال أولًا. ولو كنا في عالم مثالي، لتنازل العجوز عن مكانه في قارب النجاة لأم شابة

وطفلها. فالعجوز يقف عند نهاية السلسلة البيولوجية. وبالنسبة لفتاة شابة، فسيكون من المحزن أن تقطع كل هذه المسافة من لاتفيا لأجل أن تموت بتسمم الكحول في هذا الشاطئ البعيد. وأنا أعرف طبيعة المشهد الذي قد يراه أي عابر. إنه لا يرى طبيب ينفذ قبلة الحياة، بل يرى رجلًا ناضجًا يميل على فتاة ويقبلها بقوة. بينما تتحرك يده بحرية عند أسفل بطنها..

أغلقت منخاريها بإصبعيّ، وأنا أنفخ الهواء في رئتيها. وفي الوقت ذاته أضغط بيدي الأخرى على معدتها. فعلت ذلك مرة واحدة، فحدث كل شيء مرة واحدة. لم أجد الوقت الكافي لأبعد فمي عن فمها. فقد تدفقت الفودكا من فمها. ليست الفودكا وحدها. بل خليط بغيض من الفودكا وطعام مهضوم وعصارات معوية. عدلت من وضع جسدها، حتى لا تختنق بقيئها. لعقت شفتيّ في اشمئزاز وبصقت عدة مرات على الرمال. نزل القيء على بطنها وساقيها. ولكنها فتحت عينيها. أصدرت أصواتًا غريبة. كأنها بالوعة مسدودة تم تصريفها فجأة. بعدها تكلمت. بلغتها اللاتفية. وقفت، ورفعت ذراعيها فوق رأسها. إنها بحاجة إلى هواء. أكسجين. إنها بحاجة ماسة إلى أن تتنفس لتنهل من الأكسجين. بدأ بعض الرجال يصفقون، ممن كانوا منذ دقائق يلقنونني أنا و"رالف" و"ستانلي" درسًا. وغني عن التعريف أن ذلك من أسعد اللحظات لي. أنا الطبيب. الطبيب الذي أنقذ حياة إنسانة. أقف ولو لدقائق في دائرة الضوء. من قبل، زارني أبو الثلاثة أبناء ليهديني زجاجة نبيذ. ولكن طبيعة البشر هي النسيان.

تفرق الجمع وأنا آخذ طريقي إلى المطعم، ولا تزال عيني اليسرى خارج الخدمة. بعضهم ربت على كتفي في تشجيع. وغمز لي أحدهم في استحسان. لكنني كنت أشعر بضيق يتنامى بداخلي. ربما أدركت الآن أنني كنت أستخف بالموقف الذي أنا فيه: ابنتي التي في الثالثة عشرة من عمرها عند شاطئ بعيد مع صبي في الخامسة عشرة. لم أكن أريد أن أبدو ضيق الأفق. صحيح أنني

تضايقت من أن "رالف" لم ينتظرني، وأنه وافق لابنه و"جوليا" بكل بساطة في عدم وجودي. ولكنني سرعان ما نسيت كل هذا مجددًا. فعقلي مشغول بأمور أخرى، وهو ما وجدت صعوبة في الاعتراف به. تلك الأمور دفعت إلى مؤخرة عقلي حقيقة أن ابنتي المراهقة قد مشت كل هذه المسافة المظلمة حتى الشاطئ الآخر. حاولت ألا أطلق العنان لخيالي. حتى لا يتملكني. وبذلت جهدًا حتى أوقفه عند حده. قلت لنفسي أن عليَّ الاعتناء بعيني أولًا. اعتبرت نفسي أنني لم أعد صالحًا بهذه العين المتألمة المغلقة. ولكن ما إن دخلت دورة المياه وحاولت أن أنظر في المرآة، حتى فقدت السيطرة على عقلي. اعتقدت أن تلك الأفكار من الطبيعي أن يفكر فيها أي أب. أقصد أي أب له ابنة. تلك المسافة المظلمة حتى الشاطئ. تلك المسافة المظلمة بين المدرسة والمنزل، بعد الحفلة. هناك الكثير من الرجال السكارى في كل مكان. وفكرت في "أليكس". ربما لا ينبغي لابنتي أن تقلق من ناحيته. فهو مجرد فتى كسول وسيم، يحب أن يمسك يدها، ومن يدري ربما يمسك ما هو أكثر من يدها. ولكنه كذلك كسول لدرجة أنه لن يحميها لو تعرض لها رجال سكارى قذرون. خلال كل تلك المسافة الطويلة المظلمة، أو حتى هناك في النادي. لم أفكر في أي شيء آخر. استبعدت أن تتعرض ابنتي للموقف نفسه الذي تعرضت له اللاتفية. فعندما نكون في مطعم خلال الإجازة، يكون مسموحًا لها أن تتذوق شيئًا من النبيذ أو البيرة التي نطلبها. ولكنها لم تكن مهتمة بذلك. بل ترفع الكأس إلى شفتيها فقط لكي تسعدنا، وليس لإسعاد نفسها. كلا، أنا أفكر في أولئك السكارى القذرين الذي قد يجدون في فتاة صغيرة فريسة سهلة. أوغاد. ولا أدري لماذا تصورتهم في صورة "رالف".

كما فكرت في أمر آخر. في "كارولين". أخبرتك من قبل أنني دائمًا ما ألعب دور الأب الذي لا يمانع في أي شيء، ربما ليس أي شيء، ولكنني على أي حال

أقل تزمتًا بكثير من الأم. ذلك الدور يناسبني جيدًا، طالما كنت و"كارولين" معًا في المكان نفسه. وبالطبع فإن الأمور تكون ألطف عندما أكون مع البنات وحدي. في مطعم، أو مول، أو عند شاطئ! وكلما وجدت الكثير من الناس، أو القليل منهم، أو كنا في مكان معتم، فإنني أظل أنظر حولي لأطمئن على وجودهما. لم يعد الأمر هذه الأيام كما كان وقت أن كانتا صغيرتين، ولكن.. لذلك الفزع وجهان. الوجه الأول هو الخوف المباشر من أن يحدث لهما أي شيء في أي لحظة، أن تخرج كرتهما إلى الشارع، أو أن يتحرش بهما ولد، أو أن تسحبهما الأمواج. أما الوجه الثاني فهو وجه "كارولين". أو بالأحرى صوتها. لماذا لم تنتبه لهما؟ كيف فكرت في أن تتركهما لوحدهما وسط كل تلك السيارات؟ كنت أفكر أحيانًا في أن الأمور ستكون أقل فزعًا وقلقًا لو كنت أربيهما وحدي. أقصد وحدي بالفعل. مطلق أو أرمل. ولكن شريط تفكيري يتوقف تمامًا عندما تظهر تلك الكلمة: أرمل. ينعدم الخيال ويتبدد. لا يجب عليَّ التفكير بهذه الطريقة، هكذا أوبخ نفسي، وهكذا أخرج من عالم الفانتازيا سالمًا.

في هذه المرة أيضًا سمعت صوت "كارولين". كيف فكرت في أن تتركها تذهب وحدها مع ذلك الصبي إلى نادي الشاطئ؟ نظرت في مرآة الحمام. في عيني الدامية. لم يكن بيدي شيء، هكذا صغت الإجابة في عقلي. ذهبا قبل أن أصل إلى هناك. وافق "رالف" و"جوديث" على ذهابهما.. إجابة متخاذلة واهنة.. أعرف. ضعيفة.. غير مبررة.

هكذا حسمت قراري، حتى من قبل أن يجد صوت "كارولين" الفرصة كي ينطق بالجملة في ثنايا عقلي: لو كنتِ موجودة، لما حدث كل هذا.

30

كان أول ما فعلته بالطبع هو أن أتصل بتليفونها.

اشترينا لـ"جوليا" تليفونًا عندما التحقت بالمرحلة الثانوية العام الماضي. كان منطقنا هو أن التليفون يطمئننا عليها. كما أنه يتيح لنا التواصل معها في أي وقت. ولكن "جوليا" أبدت منذ اليوم الأول مهارة كبيرة في غلق تليفونها، وصارت لا تتركه مفتوحًا إلا حينما يروقها ذلك. حجتها دومًا هو أن التليفون كان في الحقيبة فلم تسمعه. هذا بالإضافة إلى حجة البطارية الفارغة.. الحجة التقليدية.

لذلك لم أندهش أبدًا وأنا أستمع إلى رنة التليفون أكثر من مرة، قبل أن يتم تحويلي إلى البريد الصوتي. وعرفت أن لا فائدة من أن أترك لها رسالة. فهي لا تستمع أبدًا إلى رسائل البريد الصوتي. لم أندهش، ولم أقلق أيضًا. بل من الممكن جدًا ألا تكون قد أحضرت تليفونها من الأصل، وأنها تركته هناك في المنزل الصيفي. وحتى لو كان معها، فإنها ستغلقه في هذه الليلة بالذات. فهي في الخارج، بصحبة ولد وسيم، عند الشاطئ وتحت النجوم، فهل يعقل أن تفكر في أن تتصل بأمها أو أبيها في ليلة كهذه؟

ذات مرة، نجحت في أن ألفت انتباه "ليزا"، فاقتربت مني، وسألتها:

- هل رأيتِ "جوديث"؟

- من؟
لم تكن تسمعني حقًا، بل كانت تتابع الأولاد وهم يلعبون الكرة.
- "جوديث".. أم "توماس".
لم ترد عليَّ. كان وجهها متعرقًا، ومسحت بعض خصلات عن أمام عينيها.
- "ليزا"..
- ماذا؟
- لقد سألتكِ سؤالًا؟
الآن، نظرت إليَّ لأول مرة:
- آسفة.. ما هو السؤال؟.. أوه، ما الذي حدث لعينك يا بابا؟
أغلقت عيني، ثم حاولت أن أفتحها. ولكن بلا جدوى. فقد بدأت تدمع من جديد.
- لا شيء.. ربما دخلت حشرة أو شيء آخر فيها.
- أم "توماس" هناك.
كانت تشير ناحية منطقة من الشاطئ يلعبون فيها كرة القدم. هناك، كانت "جوديث" تجلس فوق الرمال وقد ضمت ركبتيها إلى صدرها. لم ترني عندما لوحت لها، ثم انتبهت إليَّ فلوحت بيدها.
هممت أن أطلب منها أن تعود للعب الكرة، ولكنها كانت قد بادرت بالعودة فعلًا. مشيت عبر اللاعبين، قاطعًا الملعب إلى الناحية الأخرى. قالت لي:
- هل أشعلت الكثير من الصواريخ؟
كانت تدخن سيجارة. فأخرجت علبتي من جيبي. وملت نحوها حتى تشعل لي السيجارة. قلت لها:
- سأذهب إلى النادي عند الناحية الأخرى من الشاطئ؛ لأرى إن كان "أليكس" و"جوليا" هناك.
حاولت أن أجعل نبرة صوتي عادية، ولكن صوتي خرج ممتزجًا بالقلق.

- أترغب في أن أذهب معك؟

سحبت نفسًا من السيجارة. الأمواج تضرب رمال الشاطئ بقوة على بعد أمتار. يتناثر الرذاذ المالح، ويصيب بعضه وجهي. أجبتها وأنا أومئ تجاه الملعب حيث الصغيران الآخران:

- لا أدري.

- إنهما لا يباليان على أي حال. وهناك الكثير من الناس. وطالما بقيا في الملعب.. سوف أخبر "توماس" أننا سنأتي بعد قليل. ما الذي جرى لعينك؟

وجدت تلك المنطقة المظلمة من الشاطئ أخف ظلمة مما تصورت. فالأضواء متناثرة هنا وهناك، وخلف وفوق الرمال، حيث المنازل الصيفية. وما هي إلا عشر دقائق مشيًا حتى كانت أصوات موسيقى الشاطئ قد خفتت، وبدأت أصوات موسيقى الديسكو تتعالى. موسيقى مختلفة، إيقاعات لاتينية. كنت و"جوديث" نمشي حفاة الأقدام.

تبدد الضيق الذي كنت أشعر به منذ دقائق. وقلت لنفسي إنه لم يكن هناك سبب لقلقي. فما الذي يمكن أن يحدث في هذا المكان؟ يمر علينا جماعة من الناس بين الحين والآخر، أغلبهم من الشباب، والمراهقين الذين يرتدون "الشورت" والبكيني، وكذلك المتزوجون حديثًا، الذين يتبادلون القبلات كل خمس ثوانٍ.

- أنا آسفة لأنني ابتعدت عنكم هكذا. لكنني أفقد أعصابي كلما تصرف "رالف" على هذا النحو. إنه مثل طفل كبير. وأحيانًا ما ينسى أنه أب له أولاد. كم أغضب عندما يتصرف أمامهم بهذا الشكل.

سكت ولم أعلق. اقتربت منها بعض الشيء، حتى تلامس ذراعانا. شممت رائحة غريبة، هواء البحر ممزوج بمسحة من عطر أو مزيل عرق. كنت أعرف

أنها مسألة وقت. أو هي مسألة توقيت. وليس علي أن أتعجل الأمور، وأجذبها من خصرها إليّ. قدّرت المسافة إلى أضواء نادي الشاطئ. عشر دقائق. خلال عشر دقائق ستكونين ملكي. ولكن عليَّ أن أتصرف بذكاء. ليس بذلك الذكاء والمكر. عليَّ أن أبقى غامضًا في عينيها.

- لا أتمالك نفسي من الضحك وأنا أرى "رالف" يتصرف هكذا. يفعل كل شيء بحماس، سواء وهو يغطس في الماء أو وهو يقطع السمك. كله طاقة وانطلاق. حتى أنني أغار منه أحيانًا. فأنا لا أملك كل تلك الطاقة.

تشتكي المرأة من زوجها أحيانًا بغرض التصريح بما تشعر به من حزن وأسى. ولكن لا ينبغي للرجل الذي يسمعها أن يجاريها. لا تفعل ذلك أبدًا. لا تجعلها تتأكد من أنها أساءت الاختيار. بل افعل العكس. دافع عن رجلها الذي تنتقده هي. فأنت بذلك تثني على حسن اختيارها، بطريقة غير مباشرة.

- أهذا رأيك حقًا؟ أنا أحيانًا ما أتعب من ذلك. من كل تلك الطاقة.

"إنها نكدية"، هكذا وصف "رالف" زوجته، ونحن عند الشاطئ بعد أن أشعل الصاروخ الذي طيَّر الطبق النحاسي. ولو سألتني عن رأيي لصارحتك أنه محق. "جوديث" بالفعل متذمرة. تلك كلمة يستخدمونها لوصف المرأة كثيرة الشكوى. فحتى عندما كانوا يشعلون الصواريخ عند المنزل، كانت تعترض وتشتكي من دون سبب حقيقي وجيه. ولكنها تبقى جميلة، وطيبة الرائحة. ولكن الزواج من امرأة مثل "جوديث" تصرف محفوف بالمخاطر. فأنت بذلك تصير عبدًا لنظام دقيق صارم. مثلًا، عليك ألا تضع قدميك على الترابيزة في كل مرة تأتي فيها. عليك أن تقص العشب في الوقت المحدد، وألا تشرب البيرة في السرير. كل شيء بميعاد. وإن تجشأت مثلًا أو أحدثت ضراطًا، تبدو عليها إمارات الغضب نفسها على الفور. وكل تصرف تفعله على عاداتك تقابله هي بكل تهديد ووعيد في حال تكرر. ولكنني لست زوجها. من حسن حظي. إنها

معي لهذه الليلة وحسب. أو لبعض مرات بعد تلك الليلة، عندما نعود جميعًا من هذه الإجازة.

وربما يصعب عليَّ أن أعترف لك أن طباعها تلك تثيرني، حتى ولو لم أكن واعيًا لذلك. إنها امرأة من النوع الذي لا يمكنه أن يضحك لو أن زوجها أطلق ريحًا. ولو كان الأمر بيدها لطردته من المنزل فورًا إذا كرر ذلك مجددًا. ولما سمحت له بالعودة إلى داخل المنزل إلا بإذن منها. شعرت به يتحرك أسفل "الشورت" بعد أن غرق عقلي في تلك الخيالات. وقاومت رغبة في أن أنقض عليها وألقي بها فوق الرمال، وأفترسها. لأبدأ بالخطوة الأولى. المرأة دومًا ما تعشق هذا النوع من الاغتصاب. كل النساء تعشقه.

- أتخيل أنكِ ربما تملين من ذلك. ولكنني أرى أن ذلك الملل لا يمكن أن يصيبكِ وأنتِ بصحبة زوج مثل "رالف". فهو متجدد دومًا.

كنت أعرف أنني كنت لأموت مللًا لو عشت معه. ولو حتى يومًا واحدًا. ولكنني لست امرأة. لست امرأة مثل "جوديث". كما أنني لست من النوع الكئيب. كثير الشكوى إلى حد المبالغة. إنها بالفعل متذمرة كثيرة الشكوى، مندفعة وحساسة، ولكنها الصفات التي تستثير خيالات جميع الرجال، وبالذات لو كانت وظيفتها تتوجب عليها السمع والطاعة (مثل جرسونة في مطعم أو بار، مدرسة، عاهرة)، كما أنها شفافة للغاية. وتلك الشفافية هي أكثر ما يثيرني فيها. تلك المرأة التي تشتكي من كل شيء. من الصواريخ، من الضجة التي تضايق الجيران، ومن تطاير طبق نحاسي لمئات الأمتار في الهواء، ومن زوجها الذي يتصرف مثل طفل، ولكنها.. ولكنها كذلك من ذلك النوع الذي تتمنى أن تمارس معه الجنس.. وعندئذٍ تكون السيطرة الكاملة لها.

- الأمر أنه لا يعاملني بالاحترام الكافي.. دومًا. وخاصة حينما يكون هناك أناس حولنا. وهو ما يضايقني. ينجح دائمًا في أن يظهرني بمظهر المرأة التي

تشتكي من كل شيء. ولأن هذا يثير جنوني، في وجود أشخاص آخرين، فإنني أفقد أعصابي.

- أوكيه.

وجدتني أرد بهذه الكلمة. رغم أنني أعترض دائمًا عندما أسمع بناتي وهن يستخدمنها في الرد عليَّ، فإن من الواضح أنها كلمة معدية. وأهميتها تكمن في ما تحمله من معنى مزدوج. أنت تُشعر من يتحدث أنك توافق على كلامه، وفي الوقت نفسه تُعرفه أنك تتفهم كلامه.

- بدأت أنتبه إليه. إنه لا يفعل ذلك معي فحسب. بل مع جميع النساء. أقصد أنه يجيد التعامل مع المرأة، ولكنه يرى أن المرأة أغبى من الرجل بكثير. ربما أدركت ذلك من طريقة كلامه، أو من نظرات عينيه..

- أوكيه.

- لا تفهمني خطأ: "رالف" يعرف كيف يتعامل مع المرأة. ولهذا أغرمت به. نظراته لكم، ونظراته لي، كامرأة، إنه يشعرني بجاذبيتي. وأنني مرغوبة. وهو إحساس رائع للمرأة، أن ينظر لها رجل على هذا النحو. ولكنها تدرك بعد فترة أن رجلها لا ينظر إليها هي وحدها بتلك النظرات. بل يوزع نظراته على جميع النساء من حوله.

فضلت هذه المرة أن أصمت. وفكرت في "رالف"، الذي يجيد التعامل مع المرأة. وفكرت في نظراته الشهوانية لزوجتي "كارولين".

- ألم تحدثك "كارولين" من قبل عن مثل هذه الأفكار؟ أقصد أن لديك زوجة جميلة يا "مارك". ولن يدهشني أن تحدثك في ذلك أبدًا.

- كلا، ليس على هذا النحو. لا أعتقد. أنا لم أسمعها على الأقل.

كنت أنظر أمامي، إلى أضواء نادي الشاطئ الذي يقترب. عليّ أن أكون سريعًا، وإلا سيفوت الأوان بعد دقائق، ولكنها لم تكن اللحظة المناسبة. وكنا نتحاور في الموضوع غير المناسب.

توقفت "جوديث"، وهي تقول لي:

- وهناك أمر آخر.

شعرت أن هذا في صالحي. فطالما أننا لا نتحرك، فإن هذا يعني أن الزمن لا يتحرك بدوره.

- ولكن عليك أن تعدني ألا تخبر به أحد. ولا أي شخص. حتى زوجتك.

نظرت لها. لا يتسنى لي رؤية وجهها بوضوح، بل مجرد ظلال على خلفية البحر الداكنة. ولكنني لمحت عينيها تلمعان، ذكرتني بنور شمعة خافت.

- أعدك.

لم يكن هناك أي إنسان حولنا. كل ما عليّ هو أن أقترب منها. خطوة واحدة، ومن ثم يحدث كل شيء.

- إنه أحيانًا ما يخيفني. أحيانًا وليس في كل وقت. نتشاجر مثلًا، وأنظر إلى عينيه، أتخيل أنه سيضربني. اسمعني، لم يحدث أن فعلها. ربما يلقي بكل أطباق المائدة نحو الحائط، ولكنه لا يضربني. ورغم ذلك أتوقعها من عينيه. أرى فيهما أنه يتمنى لو استطاع أن يضربني. وأعرف أن مخيلته ترسم مشاهد كاملة يكون هو بطلها وأنا الضحية.

- أوكيه.

شعرت أن هذه قلة ذوق مني، فأردفت:

- ولكن لا بأس في ذلك طالما أنه مجرد خيال، أليس كذلك؟

تنهدت "جوديث" بعمق. وأمسكت معصمي. قاومت رغبة في أن أجذبها نحوي.

- أجل، ولكنها الشكوك. عجزت عن طرد تلك الأفكار وذاك الإحساس بأنه قد يفعلها ذات يوم. أن يفقد السيطرة على أعصابه فيلكمني في وجهي. وأحيانًا ما أفكر في أنه يعرف ما أشعر به. وربما يكون ذلك هو ما يمنعه عن ضربي.

- هل تحدثتما سويًا في ذلك الأمر؟ أقصد، أليس من الأفضل أن تتحدثا فيه؟ قبل أن يحدث فعلًا.

أدرك أن كلامي هذا هراء. والحقيقة أن الموضوع كله لا يهمني أصلًا. ولكن من الطبيعي ألا أدفعها إلى الشعور بذلك. عليَّ أن أجاريها، وأن ألعب دور الرجل الحنون. أتظاهر باهتمام صادق. وحده الرجل الحنون يحقق مبتغاه في النهاية.

- ما رأيك؟ أتعتقد أن "رالف" يمكن أن يتحول إلى شخص عنيف فجأة؟

تذكرت الفتاة النرويجية التي لوى ذراعها منذ أقل من ساعة، حتى سقطت على الأرض، وتذكرت كيف حاول أن يركلها في بطنها. أتخيله في عقلي وهو يصرخ في زوجته.."أيتها العاهرة القذرة!"، أمسكت بمعصم "جوديث"، وأنا أقول:

- كلا، أنا أستبعد ذلك. أقصد أن لدى "رالف" فائض طاقة. ومثله يغضب كثيرًا. حتى ينفث عن تلك الطاقة. ولكنني أرى أنه يفعل ذلك بحساب. في كل تصرفاته. وفي تعامله مع من حوله ومع ما هو حوله. ولكنني لا أعتقد أنه من النوع الذي يمارس العنف مع زوجته. إنه أطيب من أن يكون كذلك.

كنت أداعب معصمها بإصبعي.

- ماما.

لم ننتبه إلى "أليكس". وجدناه يقف أمامنا فجأة.

تباعدت يدانا في اللحظة ذاتها. أدركت على الفور أنه قد رآنا على ذلك النحو. بادرته "جوديث":

- هاي.. "أليكس".

- ماما..

تقدم نحونا. بعض خصلات من شعره المتموج على عينيه. ورغم صعوبة رؤية وجهه في هذه العتمة، فإن هناك شيئًا ما يلمع عليه. ربما عرق؟ أو هي دموع؟ سألته "جوديث":

- أين "جوليا"؟

- ماما..

خرج صوته متحشرجًا.. من البكاء.

اقترب أكثر من أمه، وارتمى في أحضانها. إنه يماثلها طولًا. ربتت "جوديث" بيدها على مؤخرة رأسه في حنان، واحتضنته.

- ما الأمر يا "أليكس"؟ أين "جوليا"؟

31

أين "جوليا"؟

يظهر هذا السؤال في كل مرة أسترجع فيها شريط حياتي. غالبًا ما يبدأ الشريط به. ولا يتجاوزه لأي فترة أقدم منه. أشاهد أمامي شاطئًا ومنزلًا صيفيًا، وبسينًا وصواريخ، وقطعًا من سمكة أبو سيف تشوى فوق النار. مشاهد عادية من إجازة عادية. بلا أي معنى مضمر. وبلا أي عواطف مشحونة. حياتي تبدأ من عند ذلك السؤال.. "أين "جوليا"؟"، وليس الأمر أن تلك المشاهد تكتسب معنى أو إحساسًا بذلك السؤال. كلا، ليس الأمر كذلك، فالحقيقة أنني لم أعد أرغب في رؤيتها بعد الآن.

- ما الأمر يا "أليكس"؟

سألته "جوديث"، وهي لا تزال تحتضنه. لم يجبها، واستمر في البكاء ووجهه مدفون في صدر أمه.

أنا لا أحاول تفسير أي شيء. بل فعلت ما فعلت. يقول لك أي شخص دومًا "في المرة القادمة سأفعل الشيء نفسه بالتمام"؛ لأجل أن يبرر طيش أفعاله. أما أنا فلا أقول ذلك. كنت لأفعل كل شيء بطريقة مختلفة. كل شيء. صحت في "أليكس"، وأنا أجذبه بقوة من حضن أمه:

- أين ابنتي، أيها اللعين! ماذا فعلت بها، أيها الأحمق؟

- "مارك"!

خلّصت "جوديث" ابنها من يدي، وجذبته نحوها مجددًا. خاطبتها في برود:

- أنتِ.. اخرسي الآن.

حدقت في للحظات، قبل أن تترك "أليكس".

- آسف.

عدت للصبي:

- "جوليا".. أين "جوليا"؟

- آآآ.. أنا.. لا أعرف.

ثم بدأ يحكي، بكلمات متقطعة ومن دون ترتيب محدد. وبذلت جهدًا حتى لا أستمر في مقاطعته. كان عليّ أن أركز. حتى لا تفوتني أي معلومة. من هنا كانت أهمية أن أتحلى بأذن الطبيب. تلك التي تساعدني على التشخيص السريع للحالة. والوصول إلى العلاج الأمثل في دقيقة. لتكون بقية الدقائق التسع عشرة من زمن الكشف لي وحدي.

ذهبا إلى النادي عند الطرف الآخر من الشاطئ. وهناك تناولا مشروبًا عند البار. قال لأمه:

- تناولت "كوكاكولا" يا ماما، أقسمَ لكِ. وتناولت "جوليا" فانتا.

شاهدا الرواد يرقصون. ورغبت "جوليا" في أن ترقص، بينما رفض "أليكس". أخذت تحاول إقناعه بالرقص معها. ولكنه أصر على عدم الرقص. وكان هناك الكثير من الشباب في المكان. أكبر منهما. كانا الأصغر سنًا. وهو خجول ولا يمكنه الرقص. وطلب منها أن يغادرا النادي ويعودا من حيث جاءا. وكان قلقًا من أن نتساءل نحن عن سبب تأخرهما. سخرت منه، ومن جبنه، ثم دخلت إلى ساحة الرقص وحدها. وقف يراقبها لبعض الوقت، وتأمّلها وهي ترقص بمفردها وسط الشباب. لم تعد تنظر إليه. وانهمكت في الرقص. رقصت

في البداية مع شلة بنات أكبر منها، ولكن سرعان ما اقترب منهن الشباب. كان يشعر بالحزن.

كان بوسعه أن يفعلها، أن يذهب إليها، ويرقص معها، وبالتالي كانت الأمور لتجري على طبيعتها، ولكنه خشي من أن تسخر منه، ومن جبنه.

وجدت القصة مألوفة لي. هي قصة كل رجل، ويكفيني هذا السبب لأتأكد من صحتها. قال لي إنه غضب. فما كان لها أن تتركه وحده بهذا الشكل. وفي لحظة قرر الخروج من البار إلى الشاطئ. وكان يفكر في أن يرد لها الصاع صاعين. سوف تخرج لتبحث عنه ولن تجده. مشي حتى بداية المياه. ووقف هناك للحظات، وربما لدقائق، لا يدري. أخذ غضبه ينحسر. فعاد بخطوات بطيئة إلى النادي، ومنه إلى داخل ساحة الرقص. سوف يفاجئها. سيرقص معها. ولكنه لم يجدها. لقد ذهبت. بحث عنها في كل مكان. في كل مرة يخيل إليه أنه لمحها، ولكنه يكتشف أن من رآها فتاة أخرى تشبهها. فتش عنها في كل أرجاء النادي. وبحث عنها عند دورة المياه. حاول أن يتخيل ما يمكن أن يكون قد حدث. ربما أصابها الملل من الرقص وخرجت لتبحث عنه. وعندما لم تجده، قررت العودة إلى الشاطئ، حيث أبوها ووالداه.

سألته "جوديث":

- ألم يكن معك تليفونك؟

فكرت في الاحتمالات. ألم يكن من المفترض أن يتصل بها؟ ولكن "جوليا" لم تحضر تليفونها.. وأدركت أنه السؤال مهم. فكان بمقدوره أن يتصل بنا نحن. بأمه. ليسأل عن "جوليا". ولكن "أليكس" أخبرها أن التليفون لم يكن معه. تركه في المنزل؛ لأن البطارية كانت فارغة. بحث عنها حول النادي مرة أخرى. وهناك خلف النادي تمتد مساحة من الصخور. نادى عليها بصوت عالٍ أكثر من مرة. وفي النهاية رأى أن أفضل شيء يمكنه أن يفعله هو أن يعود من حيث

أتى. فمشي بطول الشاطئ عائدًا، ولكن سرعان ما تملكته الوساوس. هل يعقل أن تكون قد مشت كل هذه المسافة المظلمة وحدها؟ بالطبع لا. لا يمكنها ذلك. حتى ولو كانت تقصد أن تصيبه بالقلق والخوف.

لذلك عاد إلى النادي. وذهب إلى "البارمان" وسأله. هل رأيت فتاة في الثالثة عشر؟ شعرها أشقر طويل؟ كان عليه أن يسأل بعلو صوته حتى يسمعه الرجل وسط ضجيج الموسيقى. يتحدث "البارمان" إنجليزية متعثرة. ولكن زميل له ذكر أنه ربما يكون قد رآها. تلك الأوصاف مألوفة. ولكن عاد لينفي أن يكون قد رآها منذ وقت قصير. قال إنه لمحها فقط وهي ترقص. من فترة. سأله "أليكس" عما إذا كانت قد غادرت مع أي شخص؟ ولكن "البارمان" لا يعرف. كل ما قاله هو أنه لاحظ أنها لم تعد موجودة وسط من يرقصون. بدأ "أليكس" يفكر في الاحتمالات مجددًا. أعليه أن يسأل آخرين؟ أعليه أن يعاود البحث عنها؟ أم أن الأفضل أن يعود إلينا؟

تسارعت أفكاري. وشعرت أن قصة "أليكس" صارت ممطوطة. لم أكن فزعًا، بل هيمن عليَّ هدوء شديد وغريب. لم تتسارع نبضات قلبي، بل تباطأت. حسن التصرف وسرعته هو المهم. وأنا أجيد ذلك. سأل "أليكس":

- ألم ترياها في طريقكما؟

لاحظت شيئًا في ذلك الولد، ولكنني لم أدركه تمامًا بعد. ربما هي تلك النبرة التي سألنا بها توحي بأنه سؤال من المنطقي أن يطرحه علينا، وليس لأنه مهتم للغاية.

كما أنه لم ينظر إليَّ وهو يسأل. نظر إلى أمه فقط. إنه خائف مني. يشعر بالذنب لأنه فقد شيئًا يخصني. ابنتي. كان عليه أن يكون أشد حرصًا. وما كان لي أن أترك ابنتي تذهب معه. ولكنني فعلت! هكذا أدركت الموقف.

سيطرت على أعصابي حتى لا أتصرف معه بعنف أشد. نحن لم نرَ "جوليا". من الممكن، طالما أن الاحتمال ليس مستحيلًا مئة في المئة، أن تكون قد عادت إلى منطقة المطاعم وحدها، ومرت علينا ولم نرها. ولكن هذا احتمال نظري. كانت "جوديث" تجلس في منطقة تسمح لها بكشف الشاطئ كله، عندما كانت تراقب "ليزا" و"توماس" وهما يلعبان الكرة. أنا نفسي قضيت عشر دقائق في حمام المطعم. كان من المنطقي أن ترانا. وأن نراها.

حسمت رأيي، "جوليا" ما زالت هناك. إنها إما في النادي أو في المنطقة من حوله. زاد تباطؤ قلبي، وصار أثقل. تصرف الآن، لم يعد هناك وقت، وكل ثانية تفرق، كدت أضحك على هذه الجملة الأخيرة، وكأنني استحضرتها من مسلسل تليفزيوني بوليسي، وليس من الحياة (حياتي!). بدأت أركض نحو النادي، من دون أن أنتظر "جوديث" وابنها. صاحت تناديني:

- "مارك"! انتظر!

لم ألتفت نحوها، بل ركضت وحسب. ربما لعشرة أمتار أخرى. قبل أن أدرك عدم حكمة ما أقدمت عليه، بوسع ثلاثتنا التعاون بشكل أكثر كفاءة. على ثلاثتنا البحث عن "جوليا". لذلك توقفت، وأشرت إليهما:

- هيا! بسرعة!

ذهبت "جوديث" تبحث في دورة المياه، واصطحبني "أليكس" إلى البارمان الذي سأله عن "جوليا". جذبت الرجل نحوه، وسألته وأنا أصيح في أذنه. صاح بدوره في أذني بكلمات لم أفهمها. ثم أشار إلى الرواد المتجمعين عند البار. أخبرته أنني والدها. نظر إليَّ، وكأنه يحاول أن يظهر تعاطفه معي. ولكنني قرأت في عينيه أنه يجدني أبالغ، وأن الفتيات يكبرن، ويبدأن في التصرف بالطريقة التي تحلو لهن، ومن دون رغبة في أن يعرف الآباء عنهن أي شيء.

تركته واتجهت إلى ساحة الرقص المزدحمة. كنت أشق طريقي فيها. لا جدوى من أن أسأل أشخاصًا لا أعرفهم عما إذا كانوا قد رؤوا فتاة في الثالثة عشرة. هناك إلى جوار الديسكو، وجدت عند الرمال مقعدين وترابيزتين من الألومنيوم. كانت "جوديث" تقف إلى جوارها.

- أين "أليكس"؟

- طلبت منه العودة.

حدقت فيها، غير مصدق.

- طلبت منه العودة إلى هناك بأسرع ما يمكنه. وأن يطلب من "رالف" أن يحضر إلى هنا. ولكن ربما وجدوا "جوليا" هناك.

تأمّلت وجهها، الذي تنعكس عليه أضواء الديسكو الحمراء والصفراء. الوجه نفسه الذي كنت أتوق إلى تقبيله منذ وقت غير طويل، ولكنني أراه الآن وجه أم يتملكها القلق. ليس القلق على ابنتي، بل على ابنها. لا أدري إن كانت تلك الفكرة قد خطرت لي آنذاك أم بعد ذلك بوقت طويل، ولكنني شعرت بعدم ارتياح إلى القصة التي حكاها "أليكس". ربما في جزئية التوقيت. فكم مر عليه من وقت قبل أن يفكر في البحث عنها؟ كان يبكي عندما التقانا. ولكن، هل كان يبكي قبلها، أم أنه بكى عندما رأى أمه؟

- كان بمقدوره مساعدتنا. كانْ بوسعه أن يتعرف على أحد هنا. من الشباب الذين كانوا يرقصون مع "جوليا"، مثلًا. أو ربما خطرت له فكرة.

- أرى أن من الأفضل أن يكون مع أبيه الآن. إنه مرتبك تمامًا يا "مارك". أنت رأيت كم يشعر بالذنب تجاهنا.

كدت أضحك على ما قالته. أن يكون مع أبيه. ربما كان من الأفضل له أن يكون مع أبيه. ربما علمه أبوه كيفية إجبار الفتيات على الخضوع له.

- هل وجدتي في كلامه سببًا وجيهًا يدفعه للشعور بالذنب يا "جوديث"؟

ندمت على ذلك السؤال فور أن نطقت به. وندمت على نبرة الاتهام. لقد فشلت في أن أخفي شكوكي تجاه حكاية "أليكس". وليس هذا في مصلحتي. فقد أثرت انتباه أمه الآن. وسيكون من الصعب عليَّ أن أتبين كذبه من الآن فصاعدًا.

- "مارك"، أرجوك.. "أليكس" لا يزال طفلًا. وقد تاهت منه "جوليا". ولكنك سمعت القصة. إنها يمكن أن تحدث معنا. ولكن "جوليا" هي من بادرت بتركه، وليس "أليكس".

نظرت إليها. عددت إلى عشرة في عقلي. نظرت إلى ضوء مصابيح الديسكو الذي يتراقص من فوقنا، وينعكس على جبهتها، وخديها، وفمها. أهي امرأة حمقاء؟ أم أنها أذكى مما أعتقد؟ كان عليَّ أن أحاذر في كلامي، ولكنني وجدت صعوبة في السيطرة على أعصابي. كدت أصرخ فيها أنها امرأة. وأنها أكثر من يعرف ما يمكن أن يحدث لامرأة مثلها. وأن على الرجل أن يحمي المرأة. حتى ولو كان مجرد طفل كما تقولين! ولكنني تنهدت بعمق، قبل أن أقول:

- معكِ حق، لا ينبغي أن نستبق الأحداث.

من حسن الحظ أن الإنسان يلجأ إلى مثل هذه الجمل التي صارت "كليشيه". و"الكليشيه" هو للمرء بمثابة طوق النجاة الذي ينقذه من الغرق في دوامة الحياة. فعندئذٍ، وجدت وجه "جوديث" يسترخي. وأخرجت تليفونها:

- هل عليَّ أن أتصل بـ"رالف"؟ أسأله عما إذا كان "أليكس" معه؟ على الأقل ليعرف أن "أليكس" في طريقه إليه.

فكرت، أجل، افعلي ذلك. اتصلي بـ"رالف". سيخبرك من واقع تجاربه أن كل النساء عاهرات. وعندئذٍ لن يشعر أي أحد بأي ذنب بعد الآن. تجاوزت نظراتي "جوديث" إلى زبد الأمواج الذي يداعب أطراف الشاطئ. قاومت رغبة في أن أتركها هنا وأنصرف. من دون أي كلمة. ولكنه تصرف غير حكيم. لكثير من الأسباب.

- اتصلي به. وأنا سأواصل البحث.

كنت أشير تجاه البحر، حيث المنطقية الصخرية. التي تنحدر لتعانق مياه البحر. قصدت المنطقة الصخرية المرتفعة القريبة من الشاطئ. كان القمر يبزغ من ورائها.

رأيت في نور القمر الشاحب جماعة من الناس. يقفون معًا على بعد مئة متر منا، لم نكن نراهم لأنهم كانوا متوارين خلف الصخور. ربما هم خمسة أو ستة. يبدو أنهم ينظرون إلى شيء ما. شيء على الأرض أمامهم. يتحلقون حوله.

- "رالف"؟.. أين أنت؟

فارق أحدهم المجموعة، وهو يركض نحو النادي.

- ماذا قلت؟ أين؟

دست "جوديث" إصبعها في أذنها، وهي تبتعد قليلًا عني لتسمع جيدًا:

- ماذا تقصد؟ لماذا أنت لا..

لم أسمع بقية المكالمة. كنت أركض بدوري، إلى حيث البقعة التي يقفون عندها، وأحاول في الوقت نفسه أن ألتقي الرجل الذي يركض نحو النادي، كان قد اقترب ورأيت أنه رجل يرتدي "بنتاكور" وتيشيرت أبيض وحذاءً رياضيًا أبيض أيضًا. تلك التفاصيل من النوع الذي تبقى تتذكره لفترة طويلة. في تلك اللحظة، أدركت أن لكل هذا المشهد علاقة بي أنا، أنا وليس أي إنسان غيري. صحت فيه بالإنجليزية:

- ما الأمر؟ ماذا حدث؟

- نريد الإسعاف!

صاح في وهو يلهث. علينا الاتصال بالإسعاف.

أخبرته أنني طبيب.. للمرة الثانية في تلك الليلة.

كانت "جوليا" راقدة فوق الرمال المبتلة وسط الصخور. أفسحوا لي الطريق حتى أجلس إلى جوارها، وأتحسس نبضها. وضعت أذني على صدرها، وأنا أهمس باسمها. لم تندُ عنها أي حركة، وجهها بارد، ولكن هناك نبض ضعيف. ضعيف ولكنه منتظم.

أسندت رقبتها على ذراعي ورفعتها بعض الشيء. تفحصت عيناي بقية جسدها. كنت أنظر إليها بعيني طبيب وليس بعيني أب. ولأنني طبيب، فقد رأيت في تلك الثواني كل ما جرى. هناك علامات واضحة لا تدع مجالًا للشك. ولأنني أب، فلن أحكي لك عن طبيعة وتفاصيل تلك العلامات. ليس لأنني أقسمت على السرية المهنية وحسب، بل لأنني أب ومن حقي الحفاظ على خصوصية عائلتي. وخصوصية ابنتي.

لذلك، لن أحكي لك إلا عن الأفكار التي عصفت بعقلي في تلك اللحظات.

فكرت في الشخص المسؤول عما جرى فهو على قيد الحياة من الناحية البيولوجية فقط. إنه في مكان ما قريب من هنا، وهذا منطقي ومن طبيعة بني البشر. يمشي. وقلبه ينبض. فالقلب قوة لا عقل لها. وما دام القلب ينبض، فإننا نتحرك. ولكنه سيتوقف يومًا ما. عاجلًا أم آجلًا. ولأنني طبيب.. فسوف أعمل على تحقيق تلك الغاية.

- بابا..

ارتعشت عيناها قليلًا، قبل أن تسكنا ثانيةً.

- "جوليا".

هززت رأسها برفق، ووضعت يدي الأخرى عند مؤخرة رأسها. تخللت أصابعي خصلات شعرها، وأنا أضمها إلى صدري.

- "جوليا"..

32

لم تنطق "كارولين" بأي شيء.

هي على الأقل لم تتفوه بالكلمات التي كنت أخشاها: كيف سمحت لها بالله عليك أن تذهب وحدها إلى الديسكو؟ لماذا لم تذهب في أعقابها على الفور؟ لو كنت فعلت ذلك، لما كان حدث لها أي مكروه!

كلا، لم تقل أي شيء وأنا أحمل "جوليا" من داخل السيارة إلى المنزل الصيفي. دفنت وجهها في كفيها، لثانيتين على الأكثر. ثم سيطرت على أعصابها وتهيأت للقيام بدورها كأم. داعبت خصلات شعر "جوليا"، وهي تهمس لها بكلمات في أذنها.

وحتى بعد أن مرت فترة من الوقت، لم تتحدث معي بما توقعته. تسمع أحيانًا عن أن الدقائق أو الساعات الأولى هي الحاسمة في أي مأساة تتعرض لها عائلة، حيث إن تلك الدقائق أو الساعات الأولى تحدد ما إذا كانت العائلة مترابطة بقوة كافية لتجاوز تلك المأساة أم لا. والشخص الذي يبادر بتوجيه الاتهامات يتسبب في ضرر لا يمكن إصلاحه. وأنا أعرف الإحصائيات. فهنا يكون الطلاق هو القاعدة وليس الاستثناء. ربما تعتقد أن المأساة تزيد من ارتباط الطرفين ببعضهما، وأن الحزن والأسى يعزز العلاقة. ولكن الأمر عكس

ذلك. كثير من الناس يرغبون في نسيان الأحزان. ويدركون أن الطرف الآخر هو الذي يذكرهم بها دومًا.

لا ألوم من اختار أن ينسى. ولا أريد أن أدعي لنا مكانة أخلاقية أعلى لمجرد أننا قررنا أن نقترب من بعضنا أكثر. بل لا أجرؤ على الزعم بأن ذلك كان اختيارنا. بل هي طبيعة ما تطورت إليه الأحداث.

كنا نقف عند أعتاب المنزل الصيفي. لا أزال أحمل "جوليا". كانت لحظة تردد. هل أريد حقًا أن أحملها إلى الداخل؟ أن أضعها فوق كنبة في غرفة المعيشة؟ حتى يراها الكل؟ ولكن غرفة نوم "رالف" و"جوديث"، أو غرفة نوم أم "جوديث"، أو غرفة نوم الأولاد، جميعها خيارات غير مناسبة. الأفضل أن أذهب بها إلى خيمتنا. وكنت أعرف ما أرغب فيه. أرغب في أن أخفي ابنتي عن أعين الآخرين. أن أكون وحدي معها. معنا. أن تكون هي وحدها معنا.

في تلك اللحظة، خرجت "إيمانويل" من المنزل. لوحت لنا من عند باب الطابق الأرضي.

- تعالوا.. تعالوا إلى هنا.

كنت في البداية قد حملت "جوليا" إلى داخل النادي. ولحظتها كنت لا أدري أنسب تصرف أقوم به تجاهها. اقترحت "جوديث" أن نتصل بالإسعاف، ولكنني بادرتها بالرفض. وبحسم. تخيلت تلك السيارة بأضوائها الوامضة، والناس المتجمعين حول النقالة وهم يحملونها إلى داخل السيارة. وسرينة الإسعاف. وتلك الوجهة المحتومة، المستشفى. وهناك في المستشفى سيرى أناس آخرون ابنتي. ممرضات. أطباء. وأنا طبيب. وكنت أول من فحص حالتها. وحددت التشخيص المضبوط. فلا حاجة بي لآخرين ليقوموا بالتشخيص ذاته.

ثم عرضت عليَّ "جوديث" أن تحضر السيارة بينما أبقى أنا مع "جوليا". أعترف لك بأنها كانت تتصرف بكفاءة. برباطة جأش، كما يقولون. والصراحة أنني كنت أتوقع أن تجزع وتنفلت أعصابها. ولكنها بقيت باردة كالثلج. ولم تحاول أن تجادلني. ووافقتني على كل ما رغبت فيه. حاولت أن تضع يدها فوق جبهة "جوليا"، ولكن عندما أبعدت ابنتي عنها لم تحاول أن تكرر المحاولة. كنت أريد الخروج منها في أسرع وقت ممكن. فقد كان الناس قد تجمعوا بالفعل من حولنا. وكم كنت غاضبًا من نظراتهم الفضولية إلى ابنتي. هم كثيرون. أخبرتهم أنني طبيب. وطلبت منهم الابتعاد. وأن كل شيء تحت السيطرة.

رفضت اقتراح "جوديث". سوف نخرج من هنا، بينما أحملها. وهكذا فعلنا. فقدت "جوليا" وعيها مجددًا. ولكنني أيقظتها. لا بد من أن تبقى واعية. وجدنا "أليكس" عند الشاطئ، ومعه "توماس" و"ليزا". لا أثر لــ"رالف" و"ستانلي". وبالنظر إلى الظروف، أجد أنني حافظت على هدوئي. راقبت ردود أفعال "أليكس". رمق "جوليا" بنظرة سريعة، قبل أن يشيح وجهه. لم يقترب منا. وعندما أفكر في ذلك الآن، أجد أن لغة جسدي كانت واضحة له تمامًا. كنت مثل حيوان يغضب ويزمجر في حال فكر حيوان دخيل الوصول إلى صغاره. كلا. أنا لست مثل حيوان. بل كنت حيوانًا بالفعل.

كنت قلقًا على "ليزا". لاحظت وجهها وهي تقترب راكضة نحونا. بادرتها، قبل أن تسأل:

- "جوليا" متعبة. تعالوا، سندخل المنزل.

تقافز "توماس" من حولنا عدة مرات، وهو يصيح:

- كرة قدم!! كرة قدم!!

إلى أن جذبته "جوديث" بقوة من ذراعه لدرجة أنه وقع فوق الرمال. رأيت الدموع في عينيه، ولكن "جوديث" رفعته عن الأرض بالقوة والقسوة نفسيهما:

- توقف عن الشقاوة قليلًا يا "توماس". هيا، تحرك.

هكذا تحركنا إلى السيارة. أتقدمهم أنا حاملًا "جوليا"، ومن خلفنا "جوديث"، ممسكة بيد "ليزا"، ومن ورائهما "أليكس" و"توماس" العنيد. أخبرتني "جوديث" ونحن عائدان من النادي إلى الشاطئ أن "رالف" في المنزل الصيفي، وأن السيارة معه. ولم نعثر على "ستانلي". سألتني "جوديث":

- أوه.. ما الذي حدث لسيارتك؟

كانت تشير إلى مقدمة السيارة، التي كانت ساقطة من ناحية. كان إطار الكروم من حول المصباح الأيسر مكسور، والزجاج متهشم. تذكرت ستانلي وما قاله لي عندما وصلنا إلى الشاطئ منذ بضع ساعات:

- اذهب إلى الجراج في صباح الغد، وأصلحه. سأدفع لك التكاليف، ولكن تلك اللحظات تستحق كل قرش سأدفعه.

قلت لها:

- لقد أتينا عبر الطريق المترب. لا بد أن السيارة احتكت بشجرة.

لم تطرح عليَّ "جوديث" المزيد من الأسئلة. أبقت الباب الخلفي مفتوحًا حتى أضع "جوليا" داخل السيارة. ثم دلفت إليها بجوار ابنتي، وأسندت رأسها إلى حجرها. وطلبت من "أليكس" أن يجلس إلى جوارها. وطلبت من "توماس" و"ليزا" الجلوس معًا في الكرسي الأمامي. صاح "توماس":

- ولكن هذا ممنوع! ضد القانون!

- "توماس"..

كانت هذه كافية، فعقد ذراعيه أمام صدره في غضب، قبل أن يجلس إلى جوار "ليزا".

اتصلت بـ"كارولين" قبل أن أدير محرك السيارة. قلت لها بصوت هادئ:

- لا تغضبي. الأمر ليس سيئًا إلى ذاك الحد، ولكنني لا أريد لأحد أن يفزع قبل أن نصل إلى هناك.

كنت حريصًا على ألا تسمع "جوديث" ما أقوله لزوجتي:

- لم يتأذَ أحد. أنا في الطريق الآن.

تلك بالطبع كانت كذبة.

هندمت "إيمانويل" السرير المزدوج. ووضعت "جوليا" فوقه، بينما ذهبت هي إلى الحمام وعادت ومعها فوطة ووعاء بورسلين فيه ماء. جلست إلى الطرف الآخر من الفراش، وبللت طرف الفوطة، قبل أن تضعها بلطف على جبهة "جوليا".

- "ڤوالا"!

ثم نظرت إليّ، وهي تردف:

- هل عرفت تفاصيل ما حدث؟ هل عرفت من فعلها؟

هززت رأسي بلا. في تلك اللحظة، حينما نظرت إليها مباشرة، انتبهت إلى أنها لا ترتدي نظارة الشمس. كانت تلك هي المرة الأولى منذ أن وصلنا. المرة الأولى التي أنظر فيها إلى عينيها.

- ماما..

تناولت يد "جوليا":

- ماما ستكون هنا خلال دقيقة.

كانت "جوديث" و"كارولين" قد صعدتا إلى الطابق العلوي مع "ليزا" و"توماس". تطوعت "جوديث" أن تبقى معهما حتى يناما، ولكنني نظرت إلى زوجتي، فبادرت "كارولين" باصطحاب "ليزا" والذهاب معها. رأيت في عينيها تلك المشاعر الممزقة، كانت ترغب في أن تبقى مع "جوليا"، ولكنها تريد أيضًا ألا تكون ابنتها الصغيرة مع امرأة غريبة، تحت أي ظروف. دومًا ما يهمل الآباء

بقية أبنائهم في حال تعرض واحد منهم لمكروه. وكانت "كارولين" تتبع حدسها منذ البداية. وحاولت أنا ذلك بدوري، ولكنني أعترف لك بأن الأمر صعب.

في تلك اللحظة، سمعت صوتًا من خلفي. وجدت "رالف" يقف عند الباب. وكأنه خرج للتو من تحت الدش. شعره مبلل للغاية وملتصق بجمجمته. وجدته قد غير ملابسه، يرتدي الآن "شورت" أبيض و"تيشيرت" أحمر.

كان يستند بيده إلى أعلى الباب، ولم يرغب في الدخول:

- سمعت أن.. أخبرتني "جوديث" للتو..

لا أزال أتذكر ما فعلته في تلك اللحظات. لم أكن لأطيق أن أرى "رالف" هنا في مكان واحد مع ابنتي. فكرت في أن أطلب منه أن يغادر المكان ويتركنا وحدنا. ولكنني فكرت في المستقبل. في المشتبه بهم. لقد رأيت ما يفعله "رالف" عند الشاطئ. ورأيت "جوليا" المذعورة وهي تتشبث بالبكيني خلال تلك الواقعة عند ترابيزة "البنج بونج". كما أنني أجد شكي في "رالف" الآن مبالغة كبيرة. أن يتحول "رالف" من تلك النسخة الحيوانية العنيفة القذرة إلى تلك النسخة الأشد قذارة بمراحل. كما أن احتمال أن يكون لـ"رالف" يد فيما حدث لابنتي مستبعد حتى من الناحية اللوجستية. فبعد ما جرى له عند الشاطئ، هل سيكون بمقدور "رالف" أن يمشي كل هذه المسافة إلى النادي، ومن ثم يعود إلى سيارته، قبل أن يقودها عائدًا إلى المنزل؟ حاولت حصر كل ذلك في إطار زمني منطقي، ولكن وجدت كل التفاصيل مستبعدة. فقد كنا عند النادي وقت أن اتصلت "جوديث" بالمنزل ورد "رالف" عليها. ولكن، أنا سمعتها تحدث "رالف"، ولكن من يؤكد لي أنه كان يتحدث من تليفون المنزل. كان عليَّ أن أنتبه أكثر، على النحو الذي فعلته مع "أليكس". وسيكون عليَّ ألا أستبعد أي شيء أو أي شخص من الآن فصاعدًا.

أنا الآن منتبه. انتقلت نظراتي من وجه "رالف" إلى وجه ابنتي. كانت عينا "جوليا" مفتوحتين. ورأيت ما كانت تنظر إليه. كانت تنظر إلى "رالف". وارتعشت عيناها. قالت بهدوء:

- هاي..

فبادرها "رالف":

- هاي.. ابنتي..

الآن أنظر إليه. أتأمل وجهه. أنظر إلى ذلك الوجه بالطريقة التي أنظر بها إلى وجوه مرضاي. بعيني طبيب. أستطيع بنظرة واحدة أن أعرف ما إذا كان هذا الواقف أمامي سكران، أو مكتئبًا، أو من تعاني من مشكلات جنسية مع زوجها. ونادرًا ما أخطئ. وأعرف الكذاب عندما يحاول الكذب. "إنها نصف زجاجة نبيذ فقط على العشاء يا دكتور، ليس أكثر.." لا أنخدع بإجابات كهذه. فأسأله: وماذا عمّا شربته بعد العمل؟ ألم تتوقف عند بار لتشرب كأسًا؟ فيعترف: "هي علبة بيرة أو علبتين. ولكن هذا كان بالأمس فقط، ولا أفعل ذلك كل يوم". أسأل السيدة التي تجلس أمامي وتحت عينيها المتورمتين هالتين داكنتين: "هل يعاني زوجكِ من القذف المبكر؟"، "هل ترغبين في أن يمارس معكِ تفاصيل معينة ولكنكِ تخجلين من التحدث عنها معه؟". أسمع أحدهم يصفر في غرفة الانتظار، يصفر حتى عندما دخل إلى مكتبي. أقول له: "الانتحار خيار واقعي. يجد البعض راحة في حقيقة أن بوسعهم التحكم في طريقة إنهاء حياتهم. ولكنهم يخشون من التنفيذ. فأن ترمي نفسك تحت قطار صعب جدًا، وتقطيع الشرايين أثناء الاستحمام دموي جدًا، والشنق مؤلم، ويمضي وقت طويل قبل طلوع الروح. وقد تلجأ إلى بلع تلك الأقراص المنومة. ولكن هناك أشياء تحقق الموت السريع غير المؤلم. ويمكنني مساعدتك في..".

داعب "رالف ماير" أنفه بإبهامه والسبابة. وتظاهر بأنه انتبه إلى أمر ما، وهو يضغط بأنامله على ركني عينيه، ويتمتم:

- أوه.. تبًا.. أتريد شيئًا تشربه يا "مارك"؟ هل أحضر لك شرابًا؟ ويسكي؟

لم أنسَ في أي لحظة حقيقة أنه ممثل.. ممثل قدير ونادر.

هززت رأسي في رفض. عاودت النظر إلى ابنتي. شعرت كأن شيئًا سقط مني حينما رأيت وجهها. شيء ما. ليس كل شيء. بل جزء صغير للغاية من ذلك الثقل الذي كان يضغط عليَّ طيلة الساعة الماضية. والذي سيبقى معلقًا في رقبتي لبقية حياتي. كنت أدرك ذلك، حتى في تلك اللحظات.

بدت بوادر ابتسامة خفيفة على محيا "جوليا"، وهي لا تزال تنظر إلى "رالف". قالت:

- أريد أن أشرب. عطشانة. أريد كوب حليب.

صاح "رالف":

- كوب حليب.. حالًا.

33

في تلك الليلة، بدأت بقية حياتنا.

دعني أصارحك بأنني لست من محبي الميلودراما. كما أنني أمقت الجمل الدرامية. مثل "بقية حياتنا".. التي أسمع أناسًا كثيرين يقولونها كثيرًا. أناسًا فقدوا شخصًا عزيزًا أو شيئًا عزيزًا. حلت بهم مصيبة لا تتمنى وقوعها لأحد، من النوع الذي يستحيل نسيانه أو الفكاك من أسره. ولكنني دومًا ما كنت أعتبرها مبالغة. ويبدو أنها يجب أن تحل بالمرء حتى يدرك أنها ليست مبالغة على الإطلاق. ووجدت أن ليس هناك من تعبير أفضل عنها إلا "بقية حياتك". يصير كل شيء ثقيلًا. وخصوصًا الزمن. يطرأ على الزمن تغيير ما. هو لا يتوقف، ولكنه بلا شك يتباطأ. وكأنك في غرفة انتظار بها ساعة حائط هائلة الحجم. تجلس في غرفة الانتظار، وعندما ترمق الساعة بعد خمس دقائق، تكتشف أن ثلاث دقائق فقط هي التي مرت. فيكون للعقل توقيته الخاص. وتعلم أن اليوم الذي يكون مشحونًا بالأعمال والمواعيد "يمر طائرًا"، كما يقولون. أما اليوم الذي تمضيه في الانتظار، فيكاد لا يمر. والأسوأ لو كنت لا تعرف ما الذي تنتظره على وجه التحديد. فأنت جالس في غرفة الانتظار. وتحاول أن تراقب الساعة. ولا تدري ما الذي تنتظره. ربما أغلقت العيادة أو المكتب الحكومي الذي تنتظر بداخله منذ زمن. ولكن أحدًا لا يأتي لينتشلك من المس الذي أصابك. لا يأتيك من ينبهك إلى أن عليك أن ترحل.

كنت منذ لحظة رب أسرة بها ابنتان جميلتان، وها أنت في تلك اللحظة جالس في غرفة انتظار. تنتظر اللا شيء. أنت في الحقيقة تنتظر مرور الوقت. كل أمَلك في أن يمضي ذلك الوقت. لا، ليس كل أمَلك. بل هو أمَلك الوحيد. وكلما مر الوقت، صرت أبعد عن النقطة التي بدأت فيها بقية حياتك. ولكنك لا تعرف متى ينتهي. فبقية حياتنا تستمر وتستمر حتى ذلك اليوم.

سوف أشرع لاحقًا في إعادة ترتيب تلك الأمسية الأولى، حتى أدق التفاصيل. "رالف" وهو يحضر كوب الحليب ويغادر من جديد. وهبوط "كارولين" من الطابق العلوي. وجلوسها محل "إيمانويل" عند حافة السرير. وإمساكها بيد "جوليا". تمرر يدها بين الثانية والأخرى في خصلات شعر "جوليا".

هناك لحظة لا أريد أن أتحدث عنها. لدواعي الخصوصية. فلقد سألت "جوليا" بحذر عما إذا كانت لا تمانع في أن ألقي نظرة لأتأكد.. فأنا طبيب. ولكنني والدها أيضًا.

- لو كنتِ لا تريدين ذلك فأخبريني وحسب. يمكننا الذهاب إلى طبيب هنا. أو إلى المستشفى.

عندما نطقت كلمة مستشفى، عضت "جوليا" على شفتها، فبادرتها قائلًا:

- كلا، ليس الأمر سيئًا إلى ذلك الحد. ليس علينا الذهاب إلى المستشفى. ولكن عليَّ أن أعرف ما علينا فعله. لا بد لأحد أن..

أومأت برأسها، وسمحت لي وهي تغلق عينيها. سحبت البطانية بحرص، وألقيت نظرة. منذ سنوات، حدث أن انزلقت "ليزا" وهي في حوض الاستحمام وسقطت بقوة على حافة معدنية. نزفت بعض الدماء. في المكان نفسه. ولكن المسألة لم تكن خطيرة، وكانت مصدومة أكثر من أي شيء آخر. عملت على تهدئتها. فأنا والدها. وفي الوقت ذاته فعلت ما عليَّ فعله، كطبيب.

حاولت فعل الشيء نفسه هنا. ولكن هذا مختلف. بكت "جوليا" وعيناها مغلقتان. ومسحت "كارولين" دموعها بطرف الفوطة، وهي تهمس في أذنها بكلمات. حاولت أن أسألها قدر الإمكان. وفعلت ما عليَّ فعله، ثم سحبت البطانية لتغطيها مجددًا.

بعدها، تبادلت و"كارولين" النظرات، سألنا أنفسنا من دون أن ننطق بحرف، هل هذه هي اللحظة المناسبة؟ أم أن على "جوليا" أن تستريح أولًا؟ أن تنام. لا نريد أن نذكرها بالأسوأ، ولكن التصرف السريع كان أيضًا الخيار الوحيد الصحيح.

كنت قد سألتها بالفعل مرة واحدة، ونحن في الطريق من النادي إلى موقف السيارات. همست في أذنها، حتى لا تسمعني "جوديث":

- من فعلها؟ من كان؟ شخص نعرفه؟

في البداية، لم تجبني "جوليا". فظننت أنها لم تسمعني، ولكنها قالت:

- لا أعرف، بابا..

لم ألح عليها. كان تشخيصي أنها في حالة صدمة. والصدمة تحجب عن أعيننا ما لا نريد أن نراه. وما لا نريد أن نتذكره.

أومأت إلى "كارولين". هي أنسب شخص لهذه المهمة، هكذا اتفقنا من دون كلام. هذا سؤال تسأله الأم لابنتها.

مالت "كارولين" على وجه ابنتها، وهي تضع راحة يدها على خدها:

- "جوليا"؟ هلا أخبرتِنا عما حدث؟ هل يمكنك أن تخبرينا من هو.. ذلك الذي غادر النادي معكِ؟ أو من غادرتِ أنتِ معه؟

- لا أعرف.

داعبت "كارولين" خدَّها:

- كنتِ في البداية مع "أليكس". ثم؟ ماذا حدث بعد ذلك؟

ارتعشت عينا "جوليا". وترقرت الدموع في عينيها.

- هل كنتِ مع "أليكس"؟ أين كنتِ مع "أليكس"؟

نظرت "كارولين" إليَّ في قلق. بينما عادت "جوليا" تبكي، وهي تقول:

- لا أعرف.. حقًا لا أعرف.

عاد "ستانلي" إلى المنزل لاحقًا في تلك الليلة. أخبرنا أنه عاد مشيًا على قدميه. فعندما ذهب إلى موقف السيارات، لم يجد سيارتينا، فاعتقد أننا نسيناه.

دخل ليسلم علينا. وكانت "إيمانويل" قد حكت له كل ما جرى. قرر و"إيمانويل" أن نبيت نحن في الشقة وأن يبيتا هما في الخيمة. عادةً ما ينبغي أن تنطق بكلمات مجاملة أمام موقف مثل هذا، ولكننا لم نكن في موقف عادي. وليس هناك أي شيء طبيعي. لذلك قبلنا من دون نقاش.

ذهبت بعد ذلك مع "ستانلي" إلى الخيمة لأحضر بعض الحاجات، وكذلك لأفسح لهما مكانًا فيها. أحاط "ستانلي" كتفيَّ بذراعه. أبدى لي مجددًا شعوره بالأسى على ما حدث. لنا. ولـ"جوليا". كان يسب ويلعن. بإنجليزيته الأمريكية. وأردف، بنفس اللهجة، مبينًا لي موقفه ممن يقدمون على تلك الفعلة. وما ينبغي القيام به ضدهم. وكنت أوافقه الرأي.

ثم أخرج علبة السجائر، وعرض عليَّ سيجارة. وقال:

- هناك شيء آخر..

وقفنا ندخن عند الخيمة، بينما حكى لي "ستانلي" عن رحلة عودته إلى المنزل الصيفي. عبر الطريق الرملي نفسه الذي ذهبنا إلى الشاطئ عبره. وبالتالي فقد مر على البقعة نفسها التي أخرجنا فيها صاحب المزرعة بسيارته من الطريق.

- كانت سيارته هناك. في المكان نفسه تمامًا. أمر غريب حقًا. فقد بدا وكأن أحدًا لم يمر على ذلك الطريق بعدنا. والأغرب..

رمق المنزل، ثم قال هامسًا:

- جربت الباب، فوجدته مفتوحًا. كما أن شبابيك السيارة كانت مفتوحة عن آخرها. أليس هذا غريبًا؟! أقصد، من هذا الذي يترك سيارته على ذلك الوضع؟ ألقيت نظرة متفحصة، ولكنها لم تكن مغروسة في الرمال أو شيء من هذا. كان بوسعه أن يأخذها ويرحل..

- ربما عجز عن إدارة محركها؟

- كلا، ليس هذا. اسمع، لقد فعلت أمرًا ربما لا يكون صائبًا. فلقد أدخلت جسدي عبر الشباك ووجدت المفتاح في مكانه.

شعرت، لأول مرة، برعشة تسري في مؤخرة عنقي. تلك التي تشعر بها وأنت في السينما عندما تحدث مفاجأة غير متوقعة.

- يا إلهي.

- هكذا دخلت السيارة وأدرت المحرك. ودارت السيارة على الفور..

أخذت نفسًا طويلًا من السيجارة، حتى شعلت.

- خرجت من السيارة مجددًا. بل وفعلت كما يفعلون في الأفلام. ولأنه لم يكن معي منديل أو ما يشابهه، فقد خلعت التيشيرت ومسحت كل آثاري به: المفتاح، الدركسيون، الباب. ثم درت حول السيارة. كان هناك منحدر وعر في الجانب الآخر. نزلت فيه بعض خطوات، ولكنني سرعان ما انزلقت. وكان عليَّ أن أتشبث بشجيرة. كما أن المكان كان حالك الظلام. لذلك أطلقت صيحة. واحدة. وفي النهاية تمكنت من العودة على قدميَّ إلى هنا.

- هل تعتقد أنه..

- لا أعرف يا "مارك". كل ما أراه هو أن من العجيب أنه لم يستمر في قيادة السيارة. ولو أنه عجز عن ذلك، لأي سبب كان، فإن من العجيب كذلك أن يترك باب السيارة مفتوحًا وشبابيكها، وأن يترك المفتاح. هناك شيء لا أفهمه.

عاودتني تلك الرعشة. تخيَّلت صاحب المخيم، الذي كان يدور حول سيارته، قبل أن يتعثر ويسقط في تلك الهاوية.

قال لي "ستانلي"، وكأنه يقرأ أفكاري:

- ربما تعبت أعصابه. وربما أخفناه إلى حد لم نتصوره. من الصعب تحديد تصرفات شخص خرجت سيارته عن الطريق بفعل فاعل.. وكنت أريد أن أعرفك بأسرع ما يمكن. حتى وأنت في هذه الظروف، بل خاصة وأنت في هذه الظروف.

الآن فهمت ما يقصده "ستانلي". ولكنني لم أتفوَّه بأي كلمة. وتركته يقولها بنفسه.

34

كانت "جوليا" نائمة.

حملت أنا و"كارولين" كرسيين، وجلسنا خارج الشقة وتركنا الباب مواربًا. ندخن سجائر. رمقت "كارولين" ساعتها، قبل أن تهمس لي:

– عليك أن تلجأ إلى الشرطة يا "مارك". لا بد أن نبلغهم بما حدث في أسرع وقت ممكن. ربما الأفضل الآن، على الفور. أم رأيك أن ننتظر حتى الصباح؟

– كلا.

– كلا، ماذا؟

– لا أريد ذلك. لا أريد اصطحاب "جوليا" إلى الشرطة. أقصد أن تلك الأسئلة سوف تضايقها. ونحن نعرف ما حدث. أنا وأنتِ. وكذلك هي، حتى ولو كانت لا تتذكر أي شيء الآن. ربما كان هذا أفضل لها. ألا تعرف أي شيء الآن.

– ولكن ليس بوسعنا ذلك يا "مارك"! فمن يدري.. ربما لا يزال ذلك الرجل في هذه الأنحاء. يقولون إن المجرم دائمًا يحوم حول مكان جريمته. وعلينا أن نتصرف سريعًا. خلال أول أربع وعشرين ساعة. فهذه هي الفترة الأهم. وكلما أسرعنا في الإبلاغ عما حدث، تضاءلت فرص ذلك الوغد في الهروب. وتزايدت فرص أن يلقوا القبض عليه.

– طبعًا. معكِ حق يا "كارولين". معكِ حق تمامًا. ولكن ليس بمقدورنا أن نأخذ "جوليا" إلى مركز الشرطة الآن. لا يمكن أن نفعل ذلك بها. لن أستطيع.

- يمكننا أن نذهب نحن الاثنان فحسب، أليس كذلك؟ أو على الأقل واحد منا. ويبقى الثاني مع "جوليا".

- أوكيه. سوف أبقى مع "جوليا".

- كلا، سأبقى أنا.

تبادلنا النظرات. ومسحت "كارولين" دموعًا عن وجهها. كانت عابسة الوجه.

- "مارك"، ليس عليَّ أن أعرفك بأشد ما هي في حاجة إليه الآن، أبوها أو أمها. وأعتقد أنها تحتاج إلى أمها أكثر. وعليك أنت بالذهاب إلى الشرطة.

كان بوسعي أن أخبرها أن أكثر ما تحتاج إليه ابنتنا هو الطبيب. هي لا تحتاج إلى والدها بأكثر مما تحتاج إلى طبيب، مثلي. طبيب يجلس إلى جوارها، لتجده عندما تفيق من صدمتها وتعاودها الذكريات. ولكنني أدرك أن "كارولين" على حق. ينبغي أن تجد "جوليا" يد أمها الحانية. كما أن أمها امرأة. امرأة، وليست رجلًا. لا يجب أن يكون إلى جوارها أي رجل. حتى لو كان ذلك الرجل هو والدها.

- لا أدري يا "كارولين". أقصد، تخيلي لو ذهبت الآن، فسوف يسألونني عما إذا كان من الممكن استجواب "جوليا". في الغد مثلًا. فهل نحن نود ذلك؟

- وهل هناك جدوى من استجوابها؟ إنها لا تتذكر أي شيء.

- وهل تعتقدين أنهم سيكتفون بذلك بمجرد أن نخبرهم أن ابنتنا لا تتذكر أي شيء؟ أرجوكِ، "كارولين"! سوف يأتون إلى هنا ومعهم فريق مباحث كامل. وكذلك اختصاصيون نفسانيون وغيرهم من الاختصاصيين. ومعهم ضابطات لديهن خبرة في مثل هذه الحالات. وبمقدورهن مساعدة ضحية الاغتصاب التي تعاني فقدان الذاكرة على التذكر والتحدث من جديد.

- ولكن هذا هو ما نريده بالفعل.

- ماذا؟

أن تتذكر أي شيء. ما حدث لها. وأوصاف المجرم.

حاولت استرجاع معلوماتي عن فقدان الذاكرة. ما تعلمته في كلية الطب منذ زمن. تذكرت أن فقدان الذاكرة حالة انتقائية في الغالب، حيث يصد المخ الخبرات المؤلمة. وأحيانًا ما يعجز المخ عن استعادة تفاصيل تلك التجربة المؤلمة من الأصل. ولقد تعرفت "جوليا" عليَّ فورًا ونحن عند الشاطئ، وكذلك تعرفت على "جوديث"، وأختها الصغيرة، و"توماس"، و"أليكس"، وأمها، و"إيمانويل"، و"رالف". ومن يعاني فقدان الذاكرة لا يعرف من هو، ولا يتعرف على وجهه في المرآة، ناهيك عن وجوه الآخرين.

وأنا لا أرغب في ظل هذه الظروف في أن أسأل "جوليا"، ولكنني أعتقد أن فقدان الذاكرة قد حدث قبل كل ذلك.

"هل كنت مع أليكس؟".. إنها لا تزال تتذكر "أليكس"، ولكنها لا تتذكر أنهما كانا معًا في الشاطئ أو النادي.

كما كان هناك شيء آخر أيضًا. فقد حاولت ابنتي في تلك الظهيرة وذلك المساء أن تتجاهلني قدر الإمكان. وعندما سألتها، لم تكن ترد عليَّ إلا بالكاد. وربما لم تنظر إلى وجهي ولو مرة.

بعد أن رأتني في المطبخ. مع "جوديث".

ولكن منذ لحظة أن وجدتها عند الشاطئ، وحملتها إلى داخل السيارة، وعدت بها إلى شقة "ستانلي" و"إيمانويل"، وكذلك طيلة الوقت الذي كنت أنظر إليها فيه، كنت أجدها تنظر إليَّ نظرات حلوة. حزينة، لكنها حلوة.

أهذا ممكن؟ أسأل نفسي الآن. أيمكن أن تكون "جوليا" قد فقدت ذاكرتها بما في ذلك تفاصيل اليوم كله، أو حتى إلى ما قبل ذلك، وأنها لم تعد تتذكر أنها رأتني في المطبخ مع "جوديث"؟

لا يمكن أن أسألها عن ذلك مباشرة، بل لا بد أن تخبرني هي بذلك بصورة طبيعية. أن تكون مجرد ملحوظة عابرة عن يوم السبت. أعدت ترتيب تفاصيل اليوم من بدايته إلى نهايته. الطائر الصغير. "ليزا" وهي تعثر على الطائر الذي سقط عن شجرة الزيتون. الإفطار. بعد ذلك، أنا و"ليزا" في حديقة الحيوان. وعندما عدت.. ولم أجد "كارولين". ولم أجد "رالف" و"ستانلي" و"إيمانويل". وصعودي إلى فوق. إلى المطبخ. وعندما كنت أنظر من الشباك مع "جوديث" وأمها.. هذه هي! لعبة التيشيرت المبلل.. كانت "جوليا" و"ليزا" تتبادلان الأدوار في اللعبة. و"أليكس" يرشهما بالخرطوم.. تذكرت ابنتي، وتلك الوقفة الاستعراضية التي كانت تقفها، وكيف رفعت شعرها لأعلى ثم تركته ينسدل..

هذا هو ما أريد أن أسأل "جوليا" عنه حينما تستيقظ. حاولت أن أصوغ السؤال في عقلي (أتذكرين هذه الظهيرة / الأمس، عندما كان "أليكس" يرش الماء عليكِ وأنتما عند حمام السباحة؟ كنتما تمضيان وقتًا مرحًا، أليس كذلك؟)

لم يبدُ لي بالسؤال المناسب، وخاصة الجزء الثاني منه. انتبهت إلى صوت "كارولين":

- كنت أفكر. ربما كنت على حق. ربما كان علينا إبعاد "جوليا" عن العيون في هذه المرحلة. لم أفكر في الموقف على ذلك النحو، وأنهم سيطرحون عليها الكثير من الأسئلة. وربما تسببوا لها في مزيد من الحيرة والارتباك. علاوة على أنها الشرطة. ولكن، ما الذي ينبغي علينا أن نفعله؟ علينا القيام بشيء، أليس كذلك؟ لا يمكن أن نترك ذلك المجرم يفلت بفعلته؟

- بوسعنا الاتصال بالشرطة. مكالمة من فاعل خير يخبرهم فيها أن هناك مغتصبًا في المنطقة.

تنهدت "كارولين"، وفي تلك اللحظة أدركت أن مكالمة مثل هذه لن يكون لها جدوى. وفكرت في "أليكس" ثانيةً. تصرفاته عند الشاطئ. لا أتخيله مجرمًا

مغتصبًا. ولكنني أشعر أنه لم يخبرنا بكل شيء. وضعت "كارولين" يدها على ساعدي، وهي تقول:

- "مارك". أنت طبيب. ويمكنك أن تشخص الحالة. إلى أي حد هي سيئة؟ أعلينا أن نذهب بها إلى مستشفى؟ أم أن الأفضل أن ندعها ترتاح قدر الإمكان؟ ترتاح ليومين، قبل أن نعود إلى منزلنا؟

- لا تحتاج إلى مستشفى. فهي لا تعرف ما حدث. أقصد أنها تعرف فقط أن شيئًا ما حدث. وربما تعرف بعض التفاصيل. إنها في الثالثة عشرة. وقد أعطيتها مسكنًا للألم. ولكنها.. تشعر أن..

شعرت بصوتي يتعثر، ويثقل في لساني، وغصة في حلقي، وبدأت أسعل. فربتت "كارولين" على ذراعي في إشفاق وقالت:

- أوكيه. إليك ما سنفعله إذًا. سوف نتركها ترتاح يومًا. ننتظر الغد. ثم نرحل يوم الإثنين، إذا ما وجدنا أنها تتحمل السفر. راقدة في الكرسي الخلفي. يمكننا أن نهيِّئ لها الكرسي الخلفي.

- سيكون من الأفضل أن..

رمقت الساعة. كانت الثانية والنصف بعد منتصف الليل. وأردفت:

- سيكون من الأفضل أن نغادر اليوم. في وقت لاحق، بعد طلوع الشمس.

- ألسنا نتعجل بذلك؟ نحن لم ننم أصلًا. وكذلك "جوليا"..

- هذا أفضل لنا. ولها. علينا الخروج من هذا المكان في أسرع وقت ممكن. علينا العودة إلى منزلنا.

35

مرت ساعتان.

ما زلت جالسًا في الكرسي أمام الشقة. أدخن، بينما رقدت "كارولين" في السرير إلى جوار "جوليا" عندما رأيت "رالف" ينزل على السلم. قال لي:

- قلت لنفسي ربما يحتاج إلى بعض من هذه.

تحت إبطه زجاجة ويسكي، وفي يديه كأسان ممتلئتان بالثلج.

جلسنا في صمت لدقائق. ليس هناك من صوت إلا صوت صرصور حقل عنيد يصر على إحداث ضجيجه وهو مختبئ في شجيرة عند الطرف البعيد من البسين. وكذلك صوت حركة الثلج في الكأسين. بزغ نور الصباح من جهة الشرق في السماء. وكنت أحدق في صفحة المياه الساكنة في البسين، التي يأتيها الضوء من القاع. ثم انتقل نظري إلى لوح القفز. خُيِّل إليَّ أنه اختلف عما كان عليه في الأمس. بالنسبة لي. وكذلك اختلفت الحديقة والمنزل الصيفي. ليس هذا فحسب. أنا لم أعد أطيق أن أرى أمامي لا المنزل الصيفي ولا الحديقة ولا البسين. ربما أتمنى ألا أراها ثانيةً أبدًا. رغبت في العودة إلى منزلنا.

مسح "رالف" على ركبته اليمنى، وهو يقول:

- تلك كانت ركلة جيدة يا "مارك". أين تعلمتها؟ في الجيش؟ في المدرسة؟

نظرت إلى ركبته. لا يمكنك أن ترى بها شيئًا غريبًا من الخارج، مجرد ركبة مُشعِرة عادية لرجل، ولكن العضلات والأوتار كانت مشدودة جدًا من الداخل،

كنت أعرف هذا. لم أنتبه إلى ذلك عندما كان ينزل السلم ويقترب ليجلس إلى جواري، ولكن الأكيد هو أنه سيعرج خلال الأيام القليلة المقبلة.

- ما الذي فعلته بعد ذلك؟ هل عدت إلى المنزل مباشرة؟

- مشيت بطول الشاطئ لبعض الوقت. عند البحر. كان الأمر أشبه بالعرج. لم أشعر بألم شديد في البداية، ولكنه بدأ يزداد. قلت لنفسي إن من الأفضل أن أعود إلى المنزل.

أعترف لك أنني لم أضع ما جرى لركبة "رالف" في حساباتي الأولى. عندما كنت أفكر في إمكانية أن يكون قد ذهب إلى النادي وعاد منه. وعما إذا كان قد عاد إلى المنزل حينما اتصلت به "جوديث". ولكنني نسيت أمر الركبة.

ما الذي يدعو "رالف ماير" للمشي مسافة تزيد على الكيلومتر وهو يعاني من ألم شديد في ركبته؟ وكذلك العودة من هناك؟ لم يكن الأمر مستبعدًا جدًا فحسب، ولكنه مستحيل من الناحية البدنية.

- من المهم أن تتحرك كثيرًا. وإلا تصلبت الركبة وأوجعتك في حال جلست لفترات طويلة.

مد "رالف" ساقه اليمنى أمامه. وحرك أصابع قدمه السمينة داخل الشبشب البلاستيكي. وتأوه. كان يعض على شفته السفلى. لو كان يمثل عليَّ، فإن هذا تمثيل بارع. أنا لا أستبعد أي شيء. فمازلت أضع في حسباني إمكانية أن يكون موضوع ركبته هذا تمثيلًا في تمثيل. وأنه يستغل ركبته تلك كحجة غياب عن مسرح الجريمة.

- لقد تحدثت مع "ستانلي" و"إيمانويل". يمكنك البقاء في الشقة كما يحلو لكم. سوف نسوي هذا الأمر.

هممت أن أخبره بأن هذا لن يكون ضروريًا، وأننا سنغادر خلال ساعات، ولكنني منعت نفسي في اللحظة المناسبة. فمن يدري، فلربما تنفس الصعداء لو علم بذلك. وأنا لا أريد له ذلك. ليس الآن. سألته:

- أين "أليكس"؟

بينما كنت أنظر أمامي، إلى مياه البسين، كنت ألمح بطرف عيني تعبيرات وجه "رالف". وبالفعل، اعتدل في كرسيه. ومال إلى الأمام قليلًا، وهو يمر بيده على وجهه، قبل أن يعود إلى الوراء ثانيةً.

- في الأعلى.

الآن يضع ساقًا فوق الأخرى، وهذه المرة من دون أن يتألم.

- نائم. أصب لك المزيد؟

التقط الزجاجة من فوق البلاط ورفعها فوق كأسي.

- لا بأس. هل حكى لك أي شيء؟

صب "رالف" الويسكي لنفسه، قبل أن يجيبني:

- إنه حزين للغاية. يشعر بالذنب. وأخبرته ألا شيء يدعوه إلى ذلك.

تنهدت عميقًا. ورفعت كأسي إلى فمي. كان الثلج قد ذاب، فوجدت الويسكي ممزوجًا بكثير من الماء.

لماذا يشعر بالذنب؟ ربما لديه الكثير من الأسباب للشعور بالذنب؟

كان بوسعي أن أقول له ذلك، ولكنني التزمت الصمت. شعرت بالدفء يسري في وجهي، ولكن هذه ليست علامة جيدة. لا بد أن احتفظ بصفاء عقلي. حرفيًا.

- كلا، ليس عليه أن يشعر بالذنب. الأمر هو أنه ربما رأى شيئًا ما. وخاف من أن يخبرنا به. لأنه يشعر بالذنب تجاهه.

- وماذا يكون في رأيك قد رآه؟

اعتدل "رالف" في كرسيه ثانيةً، وشرب الكثير من الويسكي. لغة الجسد. لو كانت لغة جسده تخبرني بشيء، فذلك هو أنه يخبرني بكل ما يعرفه بالفعل. إما هذا أو أنه يحاول ببساطة حماية ابنه.

عندئذ، انتبهت إلى أمر آخر. لم يخطر ببالي من قبل، وهذا غريب. فـ"جوليا" لا تتذكر أي شيء. وأنا لم أخبر "رالف" بهذه المعلومة. كما لم أخبر بها "أليكس"، أو أي شخص. لا أحد سوى "كارولين" وأنا يعرف ذلك. أم أنهم يعرفون؟ حاولت استرجاع تفاصيل الساعات القليلة الماضية، بأدق تفاصيلها. من كان هنا في الشقة، وفي أي وقت، ومن لم يأتِ إلى هنا من الأصل.

كانوا قد تركونا لحالنا قدر الإمكان، ولم يزعجونا بأسئلتهم. "جوديث".. بعد أن أنامت "توماس" و"ليزا"، عادت إلينا وسألتنا عما إذا كانت "جوليا" تعرف تفاصيل ما جرى لها. وقلنا لها إنها لا تزال مصدومة، وإنها لا تعرف، وإنها ربما تكون فاقدة للذاكرة، وإن هذه حالة مألوفة في مواقف مثل هذه. كنا نتحدث همسًا. وسكتنا عندما فتحت "جوليا" عينيها بعض الشيء. و"إيمانويل" لم تسألنا أي شيء. وكذلك "ستانلي". ومن الممكن أن تكون "جوديث" قد أخبرت "رالف" بما سمعته. وحتى لو.. هل كان "رالف" سيأتي ليجلس معي لنشرب الويسكي لو أنه يعرف أنها مسألة وقت قبل أن تتعرف "جوليا" على الرجل الذي هاجمها؟

ما لم.. شعرت بتوتر متزايد. ما لم تكن "جوليا" غائبة عن الوعي بالفعل وقت أن تعرضت للاغتصاب. سبق لنا أن قرأنا عن حوادث مشابهة. يضعون شيئًا في شرابك وأنت غير منتبه. مجرد قرص، يجعل الفتاة تثمل في وقت أسرع. ويغيب عقلها. وتصير أشد طاعة وأقل عنادًا. أو يغيبها عقلها تمامًا. فلا تعترض أبدًا على محاولة أي رجل معها. بل ربما فقدت الوعي بتأثير هذا المزيج من الخمر والأقراص.

حاولت ألا أنساق وراء هذا التفكير، ولكنني انسقت. رجل كبير يستغل فتاة صغيرة فقدت وعيها. كم هذا مقزز. هذا شخص مريض. ولكنني لا أراه مريضًا. فالمرض له علاج. أما هذا فشيء مختلف. إنه نقص. عيب فادح لا إصلاح له. هذا شخص مثل زجاجة شراب تنفجر فلا يكون هناك من علاج للموقف إلا رفع بقاياها من على الرف والتخلص منها. هذا ما ينبغي لنا أن نفعله مع أمثاله. لا نفع لأي علاج. مثلما يفعل مصنع يسترجع منتجه المعيب. ومن ثم يدمر الإنتاجية كلها تمامًا. ولا يبقي لها أي أثر.

ارتعشت عيني اليمنى. أدركت أنني لم أنتبه إلى عيني المغلقة المصابة منذ أن عدنا من الشاطئ. هي لم تعد تؤلمني الآن، ولكنها لا تزال مغلقة. حاولت في البداية أن أفتحها بالطريقة العادية، ولكن عندما لم أفلح، حاولت فتحها بأصابعي. فركت الرموش المغلقة بأناملي، ولكنها بقت مغلقة. عرفت أن هذه ليست علامة جيدة. سيكون عليّ الانتهاء من هذه المهمة المؤلمة قبل أن يتسنى لنا السفر بالسيارة خلال ساعتين من الآن. كان الكل قد سألني عن عيني. وحدها "كارولين" التي حاولت أن تفحصها، ولكنني رفضت ذلك.

تأملت جسد الممثل الضخم القابع أمامي. كان يميل مستندًا إلى فخذيه الآن، ورأسه بين يديه. الساعات الأربعة والعشرون الأولى حاسمة، هكذا أخبرتني "كارولين". وعليّ أن أفعل أي شيء. شيء لم يكن بوسعي القيام به من قبل. لو بادرته لاحقًا فسيجد وقتًا كافيًا للتفكير. وسيختار إجاباته بعناية. أما الآن، فنحن في الخامسة فجرًا، وهو مسطول. سألته بهدوء:

- ما الذي كنت تفكر فيه، عندما لويت ذراع تلك الفتاة وألقيت بها إلى الرمال؟

خيَّم الصمت لثوانٍ.

- معذرة؟ ماذا قلت؟

telegram @ktabpdf

- سألتك عما كنت تفكر فيه، عندما لويت ذراع تلك النرويجية وألقيت بها إلى الرمال؟

أصدر شخيرًا عاليًا. ونظر إليَّ بطرف عينه. فبادلته النظرات. في تحدٍ. هي عين واحدة، ولكنها تكفي. وحاولت ألا أرمش. سألني مبتسمًا:

- هل تمزح معي، أم ماذا؟

- هل هذا هو رد فعلك دومًا عندما ترفضك أي امرأة؟ أن تضربها؟ أو تركلها؟

- "مارك"! بالله عليك! أنا الذي ركلت أم أنت؟ انظروا من يتحدث! أنا ركلتها في..

هرش ركبته، وعلى وجهه إمارات الألم. لقد رأيت ما كان يفعله، فهو يحاول أن يقلب الآية وأن يحول الموقف إلى كوميديا، ولكنه لم ينجح في ذلك تمامًا. ولكنني رأيت كل شيء في عينيه الدامعتين، مثل بركة مياه متجمدة فوقها طبقة من الماء، أسفل تلك المياه جليد قاسٍ كالصخر. تذكرت فجأة أين رأيت تلك النظرة من قبل، خلال مباريات "البنج بونج"، عندما حاول سحق الكرة. وكذلك خلال أول ثوانٍ عندما انزلق وسقط على الأرض، وقتها لم يجرؤ أحد على الضحك، ولحظتها لم يكن يشعر إلا بالألم، ولم يكن قد حدد رد فعله على ما جرى له. قلت له:

- لقد أخبرتني "جوليا"، عما فعلت.

نظرت إليه. الآن أنظر إلى الجليد عبر تلك المياه. كنت أختبر مدى قساوة ذلك الجليد.

- ما الذي تتحدث عنه؟

- أنت تعرف جيدًا ما أتحدث عنه يا "رالف". لقد انتبهت إلى الطريقة التي تتأمل بها أجساد النساء. كل النساء، مهما كانت أعمارهن. ورأيت الليلة رد فعلك عندما ترفضك أي امرأة.

لم تكن هناك لغة جسد هذه المرة. إلا إذا اعتبرت غياب تلك اللغة لغةً في حد ذاتها.

حدق في، صامدًا، غير خائف. وسألني:

- بماذا أخبرتك "جوليا"؟

- أنك جذبت الشورت البكيني. وأنها خافت منك عندما فعلتها.

ضرب بقبضته على ركبته، في دهشة:

- ماذا؟ هل قالت لك ذلك؟ تبًا.. تلك كانت لعبة يا "مارك"! لعبة! كنا نجذب ملابس بعضنا البعض. "أليكس"، و"توماس"، و"ليزا"، و"جوليا". لقد جذبت "الشورت" الذي كنت أرتديه. كنا نموت من الضحك على تلك المواقف. من يقع في اللعبة نحكم عليه بالقفز في البسين ليحضر عملة معدنية. يا إلهي! كانت لعبة، والآن هي تقول إن.. هل قالت إنني..؟ أوه، أرجوك، من أين أتت بتلك الفكرة؟

تصاعدت نبضات قلبي بقوة. سريعة وقوية. ولكن ليس بوسعي أن أستسلم الآن.

- هل تراها لعبة عادية يا "رالف"؟ وخاصة حينما يقوم رجل كبير بجذب ملابس بنات صغيرات؟ ربما كنت أعتبرها أنا طبيعية منذ يومين فقط، ولكن بعد الذي رأيته الليلة عند الشاطئ..

تغير الآن شيء في نظرة "رالف". بدا أن رطوبة عينيه جفت في غمض البصر. لم أعد أرَ سوى احمرار شعيرات دموية.

- ما الذي تحاول أن تقوله يا "مارك"؟ هل تريد أن تحول فعلًا بريئًا إلى جريمة قذرة؟ لمجرد أن ابنتك بدأت تلامس سن المراهقة واكتشفت فجأة أنها تضايقت من تلك اللعبة، التي شاركتنا فيها من البداية للنهاية؟ أقسم لك أنني كنت لأتوقف عن اللعب في أي لحظة أجد فيها أنها متضايقة منها. أقسم لك.

شعرت بغصة في حلقي.

- ما الذي قلته؟ سن المراهقة؟

- هذا واضح بحق السماء يا "مارك"! ولقد كان "أليكس" هو ضحيتها الأولى. لقد طاردته لأيام، وفي النهاية أوقعته في حبالها، قبل أن تصده لاحقًا.

وبعد ذلك تذهب لأبيها لتشتكي من لعبة بريئة. أنت والدها وتعرف. ولديك عينان في رأسك.

عليَّ أن أختزن كل هذه المعلومات: هل أغوت "جوليا" "أليكس" ثم صدته؟ ومنذ متى؟ لقد كانا مغرمين ببعضهما في الأمس. من الواضح أن شيئًا ما قد جرى بينهما عند النادي، ولا أعرف عنه. ولكن عليَّ الآن أن أركز على "رالف".

- أنت تتحدث عن ألعاب بريئة. ولكن كيف تكون اللعبة بريئة وأنت تعرف أن "جوليا" لم تعد طفلة؟ هي على الأقل مراهقة، كما وصفتها أنت. هل يمكن لـ"إيمانويل" مثلًا أن تشترك معكما في لعبة كهذه؟ هل يمكن أن تجذب ملابسها هي أيضًا؟ هل سيكون من المعقول أن تقفز عارية في حمام السباحة لتحضر عملة معدنية؟

نهض "رالف" على قدميه في عصبية. وسقط كرسيه. تقدم خطوة، قبل أن يلتفت. كان يقف أمامي تمامًا. أشار نحوي بإصبعه السمينة. كاد طرف إصبعه يلامس أنفي.

شعرت بالخوف. من أن يؤذيني. ووجدت أن هذا طبيعي، خاصة وهو ثمل. ولو لكمني، لأسقطني أرضًا لا محالة، وربما فقدت الوعي. صاح في وجهي، والرذاذ يتطاير من فمه:

- أتعرف. أنت من ينبغي عليه أن يفكر في منبع الحقارة هنا. أنت أول من بدأ في التفكير القذر، بينما كل ما في الأمر هو لعبة. ليس أنا. أنا أعرف جيدًا أن ابنتك تجيد لعب دور البنت الصغيرة البريئة عند اللزوم. إلى درجة أن تذهب لأبيها باكية شاكية. ولكنني أقول لك يا "مارك" إنها خبيرة في التعامل مع الرجال. أعرف ذلك بنظرة واحدة لها. وأعرف كيف تغوي الجميع بنظرات وحركات راقصة فوق لوح حمام السباحة. وكيف توزع الابتسامات. والطريقة التي تتعامل بها مع الكل! من يدري حقيقة ما جرى عند النادي. من يعرف من

كانت تغويه بحركاتها وإيماءاتها وحيلها. ربما لم يفطن أبوها إلى ما تفعله، ولكن أي رجل لا بد أن ينتبه إلى إغراءات تلك الصغيرة. ربما أنت لا تريد أن ترى ذلك وتعترف به. ربما تريدها أن تبقى ابنتك الصغيرة البريئة إلى الأبد. ولكنني أقول لك إنها قد كبرت ونضجت يا "مارك"! وهي ماهرة وبارعة في أمور النساء، مثلها مثل أي امرأة!

الآن، حان دوري لأنهض عن الكرسي. ونهضت بهدوء، ولم أسقط الكرسي. ولكنني كنت جاهزًا ومستعدًا لأي شيء.. "رالف" أضخم وأقوى مني. وسوف أخسر أي مواجهة بدنية معه. ولكن بوسعي تحطيمه أولًا. للأبد. ربما لا أكون مقاتلًا، ولكنني خبير في نقاط الضعف في جسم الإنسان. وأعلم جيدًا كيف يمكنني القضاء عليه بحركات قليلة وبسيطة.

- ماذا تقول؟

حاولت أن أجعل نبرة صوتي هادئة، ولكنها كانت عصبية مرتجفة، غاضبة.

- ما معنى كل هذا الكلام عن "جوليا"؟ إغراءها؟ غوايتها؟ أتريد أن تقول أن ما جرى لها هو خطؤها؟ وإن كل ما يجري لأي امرأة في الدنيا هو في النهاية خطؤها؟ لمجرد أنها تتعامل مع من حولها بمزاح؟

سمعت صوت شباك يفتح. فوقنا. شباك المطبخ. كانت "جوديث":

- ما هذه الضجة؟ هلا خفضتما صوتكما؟ إنه مسموع في المنطقة كلها.

36

انطلقنا شمالًا.

عبر الطرق الساحلية القصيرة، إلى أن وصلنا إلى الطريق السريع. نامت "ليزا" في الكرسي المجاور لي، وجسدها وراء حزام الأمان يهتز قليلًا من حركة السيارة، ورأسها يميل بزاوية تبدو غير مريحة نحو شباك السيارة. وكذلك رمقت المرآة فوجدت "كارولين" و"جوليا" نائمتين. كنا قد أرحنا "جوليا" في الكرسي الخلفي، فوق كيس النوم، ورأسها على حِجر "كارولين". وعندما تركناها في السيارة استيقظت لبرهة، ولكنها مستغرقة الآن في نوم عميق منذ ساعتين.

نحن في صباح الأحد، وحركة السيارات قليلة. ورغم هذا، فمن الصعب عليك أن تقود السيارة بعين واحدة. بوسعي أن أرى بقية السيارات، ولكن يصعب تحديد المسافة بيني وبينها. وأنا أعرف ذلك، وقرأت عنه، وتحدثنا عنه في كلية الطب، فأنت في حالة كهذه تفقد القدرة على إدراك العمق حسيًا. لم أكن أعرف على وجه التحديد ما يفترض بي أن أتخيله من هذا التعبير، ولكنني الآن أعرف. الأمر ليس مثل أن تغلق عينك لفترة قصيرة. فعندئذٍ تتذكر العين الأخرى العمق خلال تلك الفترة، ولكنها بدورها تفقد تلك القدرة بعد مرور قرابة نصف يوم. ويصير العالم مسطحًا مثل صورة فوتوجرافية. فهناك منظور، ولكن ليس هناك حركة. ووحدها الخبرة السابقة هي التي تساعدك. فتعرف أبعاد السيارة.

وتعرفك الخبرة أن السيارة القادمة تكون صغيرة في البداية، ولكنها سرعان ما تكبر وتكبر وهي آتية تجاهك.

كانت الشمس قد صعدت في السماء بالفعل، وتنعكس أشعتها على الحواجز الخرسانية البيضاء في الطريق. كنت أود أن أرتدي نظارة الشمس، ولكنني خشيت من أن يؤثر ذلك على رؤيتي لما هو حولي. كان المخرج التالي عند محطة وقود، ودخلت فيه، في خزان السيارة بنزين كافٍ، ولكنني كنت أريد أن أتناول أي شيء. حتى ولو كوب قهوة وساندويتش أو قطعة شوكولاتة.

ترنح رأس "كارولين" عندما أوقفت السيارة، ففتحت عينيها. أشرت إليها أن تخرج من السيارة. فقامت بلف جزء من كيس النوم ليكون مثل وسادة أسفل رأس "جوليا". قلت لها:

- أريد الذهاب إلى دورة المياه. وأشتري طعامًا وشرابًا. أتريدين شيئًا؟

طردت "كارولين" النوم عن عينيها. وهزت رأسها بلا. همست لها:

- كنت أفكر في أن بمقدورنا أن نعود إلى منزلنا من دون توقف، ولكن هذه ليست فكرة جيدة. أقصد أننا سنضطر للتوقف عند نقطة ما في الطريق، فلن أتمكن من القيادة دون توقف طوال النهار. لذلك سألت نفسي عما إذا كنا نصعب الأمور على أنفسنا بهذه الطريقة؟ بوسعنا التوقف عند فندق مثلًا. على الطريق الساحلي. أو في الجبال. أن نقضي يومًا لطيفًا أولًا. يُهوِّن علينا المشقة. وحتى تُعايش أجواء جميلة، ربما تنسيها ما مرت به.

كنت قد أمضيت الساعتين الأخيرتين في التفكير، وخاصة في واقعة حدثت لي وأنا صغير. وكنت أشك في قدرتي على مواصلة القيادة على هذا النحو. وعما إذا كان هذا تصرفًا حكيمًا، بالنظر إلى كم الكحول الذي لا يزال يسري في دمي، علاوة على قلة النوم. ولا بد لي من الاعتناء بأسرتي. ولا يمكن أن أقود بهم السيارة من دون توقف. وربما غفوت في أي لحظة من دون أن أدري. وأنا

أعرف تلك الأعراض. في البداية ترمش بعينيك، وفجأة يختفي عن ناظريك شيئًا ما، وتنطلق السيارة نحو لافتة إعلانية ضخمة على الطريق، أو منزل وسط أشجار "السرو"، أو حمار هزيل الجسد يقف خلف أسلاك شائكة. وهذا لأنك غفوت سريعًا. ربما هي ليست سوى ثوانٍ، ولكنك نمت. ولن يبقى منك إلا خبر صغير في الصحف. صفحة الحوادث. سيارة تقل عائلة هولندية (....) تقتحم حاجز الطريق وتصطدم بـ...

عندما كنت في الثالثة عشر من عمري، علمني والدي أول دروس في القيادة. بدأنا في موقف للسيارات، ولكننا سرعان ما ذهبنا إلى أحد الطرق. بعض الناس لا يحبون قيادة السيارات. أما أنا فأستمتع بها كثيرًا، في الظروف العادية. وأنا متيقن من أن منبع ذلك الحب كان وأنا في الثالثة عشرة.

وذات ظهيرة، كنا ننطلق بالسيارة عبر طريق ضيق متعرج في غابات شرقي هولندا. كنت أقود السيارة، ووالدي إلى جواري، وأمي في الكرسي الخلفي. ووصلنا إلى منعطف حاد. كنت يومها قد تمرست جدًا على القيادة، وصارت عملية شبه آلية بالنسبة لي. وهي المرحلة الخطرة، التي تستدعي أشد التركيز. أتت سيارة من الاتجاه المقابل، ولكنني لم أنتبه لها إلا متأخرًا. هكذا انحرفت بالسيارة بشكل مفاجئ إلى ناحية اليمين. وخرجنا من الطريق، وكانت حافة الطريق وعرة بعض الشيء، وتمكنت من تفادي الأشجار، ولكننا توقفنا أخيرًا بعد أن ارتطمت السيارة بمصطبة خشبية من تلك التي يضعونها للمتنزهين. خرج والدي ليتفقد الأضرار التي لحقت بالسيارة. وبعدها قاد هو السيارة لبقية الطريق.

قلت لنفسي، إنه سيستمر في القيادة، ولكنني وجدته يتوقف بعد فترة ويطلب مني أن أعود لقيادتها:

- إنها لك.

كنت مترددًا، والعرق ظاهر على جبهتي وراحة يديَّ. كنت قد تأكدت من أنني لن أقود أي سيارة بعد الآن. ولكنه قال لي:

- لا بد أن تقودها الآن. هذا أمر مهم. وإلا ستبقى خائفًا من قيادة أي سيارة بعد الآن.

كان هذا ما فكرت فيه خلال الساعات القليلة الأولى بعد أن غادرنا المنزل الصيفي. وفكرت في "جوليا" ومخاطر أن نلغي إجازتنا. كنا قد قطعنا أكثر من خمسة عشر كيلومترًا في ذلك الحين، أي صرنا بعيدين كفاية، ولكن الطريق لا يزال طويلًا. وسيكون هناك أناس بانتظارنا عندما نعود إلى المنزل. أصدقاء وعائلة. سيطرحون علينا الكثير من الأسئلة. وسواء أجبنا عليها أو تجاهلناها، ففي الحالتين هناك ضرر. أما هنا، فنحن الأربعة وحدنا. وربما كان من الأفضل أن نبقى معًا وحدنا لفترة من الوقت. قالت لي "كارولين":

- لا أدري.

كنا نقف إلى جوار السيارة، ننظر عبر الباب الخلفي لها، الذي كان نصف مفتوح، إلى ابنتنا وهي نائمة في الكرسي الخلفي. وضعت يدي على كتف زوجتي. مسحت على شعرها بأصابعي.

- وأنا بدوري لا أدري. إنها مجرد فكرة. إحساس. ولكنني وبكل صراحة لا أدري. لذلك أسألكِ. قرري أنتِ.

كنت منذ ساعتين قد أيقظت "كارولين" بلطف.

- علينا أن نذهب. سوف أشرح لكِ لاحقًا.

صعدت "كارولين" إلى الطابق العلوي في المنزل، وأحضرت "ليزا". لم نوقظ "ستانلي" و"إيمانويل".

- سوف تعود إلينا الخيمة لاحقًا. ونحن لسنا بحاجة لاستخدامها على كل حال.

لم نرَ أحدًا حول المنزل. الكل نائم. ربما لا يزال "رالف" مستيقظًا، ولكنه لم يخرج حينما أدرت محرك السيارة، وانطلقت بها عبر الطريق الترابي.

كنت في بداية الطريق الإسفلتي، عندما لمحت في المرآة شيئًا ما يتحرك وراء السيارة. فأوقفتها وأمعنت النظر. كانت أم "جوديث" واقفة عند أعلى سلم مدخل المنزل. تلوح لنا. أو كانت تشير لنا أن نتوقف. ثم رأيتها في المرآة وهي تهبط السلم. وخيل إليَّ أنها تصيح لنا. ولكنني زدت من سرعة السيارة وابتعدت.

37

فندق صغير جوار جدول ماء يمتد من أعلى الجبل، وساقية.

وهناك في الأسفل، عند الوادي، ترعى الأبقار بين الأشجار. ترن أجراس الأبقار المعلقة في رقابها بعذوبة، بينما تتنقل النحلات المثلثات من زهرة إلى زهرة، وتتدفق مياه الجدول فوق الصخور. وتجد هنا وهناك على امتداد أعالي الجبال في البعد مساحات من الثلج.

بقيت "جوليا" في غرفتها خلال اليوم الأول. كانت تصحو بين الحين والآخر، لتطلب شيئًا تشربه، ولم تكن جائعة. تناوبت مع "كارولين" في الجلوس معها. وفي الليلة الأولى، بقيت مع "ليزا" في قاعة الطعام. سألتني عن حال أختها الكبيرة، فأخبرتها أنني سأشرح لها فيما بعد، في وقت لاحق، للأمر علاقة بالبنات عندما تكبرن. وجدتها تسألني:

- هل ستأتيها الدورة؟

عندما استيقظت في الصباح التالي، كانت عيني متورمة. ذهبت إلى الحمام وألقيت نظرة في المرآة. أسفل الجفن تورم في حجم بيضة. وجلد جفني ممطوط على الآخر، وصار له لون الجلد عندما تقرصه ناموسة، ببضع بقع داكنة هنا وهناك. كانت رموشي جافة وعليها "غَمَص" أصفر. كانت عيني مثل إصبع متورمة بها خُرَّاج. وبالفعل، صار في عيني خُرَّاج. ومن شأن التورم المهمل، حتى ولو كان في طرف إصبع، أن يتحول إلى تسمم دم ومن ثم البتر. وفي حال

ازداد الضغط على الشبكية، فلسوف تتمزق. ومع زيادة الضغط، سيحاول الخُرَّاج والدم في داخل العين البحث عن مخرج. وعند ذلك الحين، تكون العين قد فسدت. همست لـ"كارولين":

- أريد منكِ اصطحاب "جوليا" إلى الأسفل لبعض الوقت. لا أريد لها أن تبقى هنا.

كنت أضع فوطة صغيرة على عيني، حتى لا تراها زوجتي.

- أتريد مني أن أساعدك؟

- سوف تساعدينني لو بقيتي مع "جوليا".

لم أشعر إلا بعد فترة طويلة – بعد أيام – بذلك الاضطراب عندما تذكرت أن "جوليا" لم تعترض على الإطلاق حينما حثتها "كارولين" بلطف على أن تنهض من السرير وترتدي ملابسها. وقالت بابتهاج لابنتيها، وهي تزيح الستائر:

- هيا، سننزل لتناول إفطارًا شهيًا. إنه يوم بديع.

كنت أرقد في السرير، والفوطة لا تزال على عيني. راقبت "جوليا" وهي تدخل الحمام بمجموعة ملابس تناولتها من أمها. وبعد دقائق سمعت صوت الدش. ومرت ربع ساعة ولا يزال صوت مياه الدش مسموعًا. أصاب "كارولين" القلق، فطرقت الباب:

- "جوليا"؟ هل كل شيء على ما يرام؟ أتريدين أي مساعدة؟

نظرنا إلى بعضنا. كانت نظرة الفزع في عيني "كارولين" نسخة طبق الأصل من تلك التي رأتها هي في عيني اليمنى لحظتها. وكانت "ليزا" قد تركت سريرها، وجاءت إلى أحضاني. جذبتها إلى صدري أكثر في خوف، وضغطت رأسها إلى جسدي، وأنا أقول لزوجتي من دون صوت.. الباب.. جربي فتح الباب. فطرقت "كارولين" الباب مجددًا، وهي تحاول فتحه:

- "جوليا"؟

نظرت إليّ وهي تهز رأسها في حيرة. وبدأت شفتها ترتعش، وعيناها تدمعان. قلت لها من دون صوت أيضًا.. لا تفعلي هذا، لا تبكي. إلا أن "ليزا" انتبهت لنا:

- بابا؟

- ماذا؟

- بابا؟ هل يمكنني الاتصال بـ"توماس" اليوم؟

في تلك اللحظة، توقف صوت الدش. فمسحت "كارولين" الدموع عن عينيها بسرعة، وهي تطرق الباب من جديد:

- "جوليا"؟

انفتح الباب بعض الشيء:

- ماما؟

لم أكن أرى وجه ابنتي الكبيرة من مكاني، ولكنني سمعتها تردف:

- سأنتهي خلال دقيقة يا ماما.

وجدت في حقيبة سفر "كارولين" إبرة، وضعتها فوق لهب ولاعتي. كنت قد حضرت كل شيء على حافة الحوض؛ عيدان القطن، الشاش، اليود، وكذلك مرهم مضاد حيوي، ومسكن للآلام. كنا قد جلبنا كل ذلك للطوارئ. أنا لا أريد تخدير العين، ما دام هذا ممكنًا. ففي حالة مثل هذه يكون الألم خير دليل. فهو من يحدد لي إلى أي مدى يمكنني الاستمرار. فالخراج أشبه بحصن مسلح. جسر يقيمه العدو إلى الجسد السليم. أو هو أقرب إلى خلية إرهابية. عدد قليل من أفراد الميليشيا يحتجزون مجموعة كبيرة من الرهائن. وبينهم نساء وأطفال. سلّح الإرهابيون أنفسهم بقنابل يدوية وأصابع ديناميت تحسبًا للهجوم. جذبت الرمش لأعلى قليلًا بإصبع يدي اليسرى. حركت الإبرة الساخنة

بكل حرص. فلو أنها تجاوزت حدودها فستلحق بي عاهة مستديمة. وعندئذٍ لن يجف الخراج وحده، بل العين نفسها. إنها مهمة إنقاذ سيسفر عنها عشرات الرهائن القتلى. أي أنها فاشلة. لم تلقَ الإبرة الكثير من المقاومة. لم يكن هناك ألم. كنت أحاول بعيني السليمة أن أقدر عبر المرآة المدى الذي وصلت إليه، عندما سمعت أصواتًا فجأة. نظرت إلى جانبي. في حرص، ومن دون أن أبعد الإبرة عن عيني، وتراجعت خطوتين بهدوء، وأغلقت الشباك. في اللحظة نفسها شعرت بشيء لزج على أصابعي. وعندما عدت إلى الحوض، وجدته دمًا. كان ينسال على وجهي، ويسقط في قطرات كثيفة على السيراميك. أبعدت الإبرة وضغطت على جفني. ولكن، المزيد من الدم. يتساقط على التيشيرت. وعلى قدميَّ فوق البلاط، وبينهما. ولكنني رأيت شيئًا آخر أيضًا، شيئًا في لون المستردة. مستردة انتهت صلاحيتها. والآن أشمه كذلك. رائحة نتنة، هي وسط بين رائحة المياه العكرة في مزهرية قديمة واللحم الفاسد. وتقيّأت. وامتزج الدم بالخراج بالقيء في الحوض. ولكنني كنت أحس براحة في داخلي. ليس لها صوت. هكذا قمت بزيادة الضغط على جفني. وأخيرًا أحسست بالألم. هناك نوعان من الألم. ذلك الذي ينهبك إلى ألا تذهب أبعد من ذلك، والألم الذي يراودك في صورة راحة. فتحت الحنفية. وضغطت على عيني. حتى جف ما فيها تمامًا. وسحبت الكثير من ورق التواليت. ولم أجرؤ إلى النظر إلى عيني إلا بعد أن نظفت ما حولها تمامًا. وكانت النتيجة معجزة بالفعل. فقد رأيت عيني، من بعد ما تبقى من خراج ودم. صارت واضحة، وتتألق مثل لؤلؤة في محارتها. كانت تنظر إليَّ. بامتنان، أو هكذا تخيلت. من الواضح أنها سعيدة لرؤيتي.

التحقت بعائلتي في الخارج بعد عشر دقائق. فوق مائدة الإفطار براد قهوة و"لبّانة". وسلة بها كرواسون وخبز فرنسي. والكثير من مكعبات الزبدة والمربى. أسمع صوت أجراس الأبقار من جديد. ولمحت نحلة تختفي في زهرة

تمايلت بفعل ثقل الحشرة. وأدفأت الشمس وجهي. فابتسمت. كنت أبتسم لتلك الجبال على البعد.

- هلا بدأنا هذا اليوم بالتمشية. ما رأيكم أن نتمشى إلى جوار ذلك الجدول؟

هكذا تمشينا. وبذلت "جوليا" جهدًا في ذلك. كان الجدول ينتهي في المنحدر داخل غابة من أشجار التنوب الشاهقة. عبرنا الجدول، متقافزين من صخرة إلى أخرى. حتى وصلنا إلى شلال. رغبت "ليزا" في أن تنزل الماء. فنظرت أنا و"كارولين" إلى "جوليا". فقالت:

- لا بأس. أنا بخير هنا.

جلست إلى صخرة كبيرة مسطحة، وعقدت ذراعيها حول ركبتيها. هناك شيء ما في ابتسامتها. يبدو أنها كانت تعاني كثيرًا لأجل أن نكون سعداء بها. وحتى لا تفسد علينا ما تبقى من الإجازة. سألتها "كارولين":

- أتفضلين العودة إلى الفندق؟

كنت أنوي أن أسألها السؤال نفسه. الحقيقة أنني كنت أسألها عما إذا كانت تفضل العودة إلى منزلنا.

- كلا.. لا بأس.

تنهدت "كارولين" وهي تنظر إليّ.

- ربما تكونين متعبة، وترغبين في الراحة.

- أنا بخير. انظروا.. جميلة هي الأضواء الظاهرة عبر الأشجار.

كانت تشير إلى أعلى، حيث قمم أشجار التنوب. وتنظر إلى خيوط أشعة الشمس الساقطة خلال الأغصان. وفي تلك الأثناء، كانت "ليزا" قد خلعت ملابسها ونزلت الماء. كانت تصيح:

- أووو.. الماء باردا هل ستأتي يا بابا؟

- "جوليا"؟

نظرت إليَّ. وابتسمت مجددًا. شعرت بإحساس ما، ضعف مفاجئ بدأ يسري من ركبتيَّ إلى أعلى، إلى صدري ثم رأسي. وجدتني أتراجع خطوة إلى الخلف وأستند إلى صخرة:

- هل تودين العودة إلى المنزل يا حلوتي؟ لو رغبتِ في ذلك عرفينا على الفور. وعندها سنغادر في الغد.

بدا صوتي طبيعيًا. ربما خافتًا، ولكنني لا أعتقد أن أحدًا قد لاحظني. ولكن عينا "جوليا" ارتعشتا. واختفت الابتسامة. وعضت على شفتها السفلى.

- أجل.. هل يمكننا أن نغادر؟

38

هكذا عدنا إلى المنزل.

غادرنا في الصباح الباكر، ووصلنا المنزل بحلول منتصف الليل. ذهبت "ليزا" إلى غرفتها وجلست تلعب بداخلها قليلًا. وأخذت "جوليا" حمامًا، مجددًا، ولقرابة ربع ساعة قبل أن تنام على الفور.

فتحت "كارولين" زجاجة نبيذ. وجاءت ومعها كأسان وقطع الجبن التي كنا قد اشتريناها من سوبر ماركت على الطريق السريع، وجلست إلى جواري، وكانت هذه هي أول مرة نكون فيها وحدنا منذ أن غادرنا المنزل الصيفي.

- ماذا نفعل الآن؟

لم نكن نتحدث كثيرًا ونحن في الطريق. ونامت "جوليا" أغلب المسافة. بينما كانت "ليزا" تستمع إلى الأغاني من آيبود "جوليا". لذلك كان لديَّ وقت كافٍ للتفكير.

- لا شيء في الوقت الحالي. يبدو لي هذا أفضل تصرف.

- ولكن، أليس علينا أن نأخذها إلى المستشفى، طالما أننا عدنا؟ أو إلى اختصاصي على الأقل؟

نطقت "كارولين" بكلمة (اختصاصي) من دون تشديد وبطريقة طبيعية. فهي تعرف وقع تلك الكلمة عليَّ. وكذلك تعرف حساسيتي تجاه أي كلام يلمح إلى محدودية معرفتي الطبية، وخصوصًا لو كان ذلك الكلام على لسان زوجتي.

- تريدين رأيي؟ لا أعتقد أن أي فحص شامل سيساعدها في هذه المرحلة. لقد ألقيت نظرة، وعليكِ أن تثقي بي: هناك ضرر، ولكنه ليس بالضرر المستديم. أما عن الضرر النفسي، فمن الصعب تحديده في مرحلة مبكرة كهذه. فهي لا تتذكر أي شيء. ولو أنها ذهبت إلى مستشفى، فلسوف يطرحون عليها الكثير من الأسئلة. وسيريد الاختصاصي أن يعرف كل شيء. أما هنا فهي معنا. معكِ ومعي. ومع أختها الصغيرة. وأرى أن الراحة التامة هي أنسب شيء لها الآن. اتركي الأمور للزمن.

- أتجد أن من الطبيعي ألا تتذكر أي شيء؟ أقصد أنه سيكون من المؤلم أن تعاودها الذاكرة، ولكنه سيكون أفضل لها، أليس كذلك؟ ما مدى الضرر عندما يبقى الأمر دفينًا في عقلها الباطن إلى الأبد؟

- لا نعرف. ولا أحد يعرف. كانت هناك حالات لأناس مرت عليهم مواقف مرعبة، ولكنهم تمكنوا من كبتها تمامًا حتى يعيشوا حياةً طبيعية. على أن هناك حالات لأناس تعرضوا للتنويم المغناطيسي فأخرجوا ما في باطنهم من تعاسة إلى درجة عجزوا عن التعامل معها بعد ذلك.

- ولكننا نريد أن نعرف ما جرى، أليس كذلك؟ ربما ليس الآن، ولكننا بالتأكيد نريد أن نعرف؟

مددت لها يدي بالكأس، فصبَّت لي النبيذ مجددًا:

- نعرف ماذا؟

- من فعلها. أوه، أنا لا أريد أن أفكر في ذلك، ولكنني أكاد أجن غضبًا عندما أفعل! ذلك الوغد الذي لم يتورع عن فعل ما فعله! يجب أن يلقوا القبض عليه. وأن يسجنوه مدى الحياة. لا بد أن.. لا بد أن..

- نحن نريد أن نعرف بالطبع. أنا مثلكِ تمامًا. ولكنني أقول إن علينا أن نتوخى الحذر حتى لا يقع المزيد من الضرر. فلو حاولنا أن نكشف عن كل شيء بالقوة، فلربما تعانى ابنتنا من ضرر أكبر. في هذه المرحلة.

وقت أن كنا عند الجدول الجبلي، تمشيت إلى جوار "جوليا" لبعض الوقت. أتيت على ذكر تلك الظهيرة عند البسين بطريقة طبيعية تمامًا. ذلك الاستعراض فوق لوح القفز، ورش المياه عليها من قبل "أليكس" و"توماس".

- كنت أقف عند شباك المطبخ. ورأيتكم. وضحكت كثيرًا.

وجدت "جوليا" مستغرقة في التفكير. شاردة، وكأنها تسمع هذا الكلام لأول مرة.

- متى كان ذلك؟

- "مارك"..

وضعت "كارولين" كأسها فوق الكومودينو بجوار السرير، وأمسكت بيدي.

- ماذا؟

- هل تعتقد..؟ هل تعتقد..؟ أقصد، أننا تحدثنا في ذلك عندما ذهبنا إلى الشاطئ. هل تعتقد أن "رالف" يمكن أن يفعل شيئًا مثل ذلك؟

لم أجبها على الفور. تظاهرت بأنني أفكر. وتنهدت بعمق، ووضعت أناملها عند عيني اليسرى. وجدت أنها لم تعد تؤلمني كثيرًا، مجرد ألم بسيط.

- لقد فكرت في ذلك الاحتمال. ولكنه غير منطقي. فقد كنت معه أغلب الوقت. وحينما ابتعد عني، ذهب إلى منزله مباشرة. وقد استرجعت كل ما جرى وقتها. ووجدت أن من المستحيل على "رالف" أن يذهب إلى الشاطئ الآخر ويعود في فترة قصيرة. كما أنه كان يعرج.

- أجل، لقد لاحظت ذلك. ماذا جرى له؟

- كنا نعبث بتلك الصواريخ. وانطلق أحدها في الأمواج. وارتبك، وسقط بطريقة سيئة على الصخور.

أغلقت عينيّ. وسمعت صوت ملامسة حافة كأس "كارولين" لأسنانها.

- لكنني سألتك عن إمكانية أن يرتكب جريمة كهذه. عما إذا كان بمقدوره ذلك.

سكت ولم أعلق.

- "مارك"؟

- نعم!

- سألتك.

- آسف. ماذا كان السؤال؟

- عن إمكانية أن يرتكب جريمة كهذه. عما إذا كان بمقدوره ذلك.

أجبتها على الفور هذه المرة:

- بالتأكيد.

اتصلت "جوديث" عقب أيام. على تليفوني المحمول. اطمأنت علينا. وعلى "جوليا" بالأخص. كنت أجلس على الكنبة في غرفة المعيشة. بينما ترقد "جوليا" على الأرض، تطالع مجلة. و"ليزا" في منزل صديقتها. أما "كارولين" فكانت تتسوق. نهضت واتجهت إلى المطبخ. أخبرتها أن الأمور جيدة في ظل ظرف كهذا.

- أفكر دومًا في حالكم. آه يا "مارك"، هذه تجربة عصيبة عليكم جميعًا. وعلى "جوليا". كما أن "رالف" حزين للغاية. إنه يسلم عليكم. وكذلك "ستانلي" و"إيمانويل". إنهما عائدان إلى أمريكا في الغد.

سمعت خلال الصمت الذي أعقب كلامها صوتًا مألوفًا. فسألتها:

- أين أنتِ؟

- عند البسين، وقدماي في الماء.

أغلقت عينيَّ للحظة. ثم مشيت إلى باب المطبخ وألقيت نظرة. لا تزال "جوليا" راقدة على الأرض، ومستغرقة في صفحات المجلة. أغلقت الباب، وعدت إلى داخل المطبخ.

- "توماس" يسأل على "ليزا" باستمرار. لقد اشتاق إليها.
- بالفعل.
- وأنا أيضًا أعاني من المشاعر نفسها.

لم أرد. فتحت الحنفية، وأخرجت كوبًا، وملأته بالماء.

- اشتقت إليك.. "مارك".

39

افتتحت العيادة قبل انتهاء إجازة المدرسة بأسبوع.

ولكن الإلهام غير موجود. ربما لم يكن الإلهام ولا حتى الحماس موجودًا من قبل على أي حال، ولكنه الآن بالذات غير موجود. ورغم امتعاضي من الجسد البشري، فإنني كنت أجيد القيام بعملي. لم أعانِ من أي شكوى تقريبًا. وكنت غالبًا ما أقوم بتحويل الحالات الحرجة. أما بقية الحالات فأعطيها الروشتة المناسبة. وهذا على النقيض من الغالبية العظمى من الحالات، حالات من لا يعانون من أي شيء على الإطلاق. كنت قبل إجازة الصيف أستمع إليهم في صبر. وأرسم على وجهي طيلة العشرين دقيقة تعبير المتعاطف المتفهم. أما الآن، فلم أعد أطيق هذه الدقائق العشرين نفسها. فما هي إلا خمس دقائق حتى تبدأ تلك التعبيرات في الخفوت على وجهي، فيتوقف المريض فجأة عن الكلام، وفي بعض الأحيان يسكت قبل أن يكمل الجملة، "ما الأمر يا دكتور؟".. "لا شيء، وماذا يمكن أن يكون هناك؟".. "لا أعرف، ولكن يبدو عليك أنك لا تصدقني".

في السابق، كنت أترك المريض يتكلم طوال عشرين دقيقة. حتى يعود إلى منزله وهو يشعر بالرضا. فقد أعطاه الطبيب الروشتة وطلب منه أن يأخذ الأمور ببساطة.

- اعرف موعد الاستشارة من مساعدتي في الخارج. سوف أراك خلال ثلاثة أسابيع.

لكنني أعجز الآن عن الاحتمال. وفقدت صبري. فأقول لمريض أتاني للمرة الثالثة وهو يشتكي من الدُّوار:

- ليس بك أي شيء. لا شيء على الإطلاق. كن سعيدًا بسلامة صحتك.

- ولكن يا دكتور، عندما أنهض عن الكرسي فجأة فـــ.

- هل سمعتني؟ من الواضح أنك لم تسمعني. وإلا كنت قد عرفت ألا شيء بك. لا شيء! من فضلك عد إلى منزلك.

هناك من المرضى من يغير طبيبه. تصلنا عبر الإيميل رسالة منه تخبرنا أنه قد عثر على طبيب آخر "أقرب إلى المنزل". وأنا أعرف عناوين مرضاي. فأدرك أن المريض يكذب. ولكنني أنسى الأمر. صارت المواعيد أقل. وصار من المعتاد أن يكون الفاصل الزمني بين كل مريض ومن يليه طويلًا. حتى إنني كنت أفكر في الخروج من العيادة بين الموعد والآخر. أتمشى حول الحي. أتناول إسبريسو أو ساندويتش جبن في مقهى على الناصية. ولكنني أفضل في النهاية البقاء في مكتبي، والباب مغلق. فأرجع بظهري في الكرسي وأغمض عينيَّ. أحاول حساب عدد الأشهر المتبقية قبل أن يتركني كل مرضاي. وبرغم خطورة الفكرة، إلا إنني لم أجزع. بل كنت أفكر في طبيعة الأمور. والمسار الطبيعي للأشياء. يولد الناس. ويموت الناس. ينتقلون من الريف إلى المدينة. فتصير القرية خالية. وفي البداية، يستسلم الجزار، ثم يغلق الخباز مخبزه. وتهيمن الكلاب الضالة على الشوارع الخالية المعتمة. ثم يموت آخر السكان. وتعصف الرياح. لتتلاعب بالأبواب الخربة في المنازل المهجورة. وتشرق الشمس وتغرب، ولكن أشعتها لا تجد ما تنيره أو تبعث فيه الدفء.

أفكر بين الحين والآخر، خلال لحظة تجلي، في العواقب المالية. ولا أفكر طويلًا؛ لأن الحل واضح. فالعيادة الناجحة في منطقة جذابة تساوي الكثير من المال. هناك الكثير من الأطباء الجدد المستعدين لدفع أي مقابل أطلبه. يقولون

أن هناك عقودًا خاصة بقيمة فلكية. ورغم أن هذا غير مسموح به رسميًا، فإن الكل يعرف ذلك. أنشر إعلانًا. سيكون الأمر استعراضًا، فلا شك أن الأطباء حديثي التخرج سيندهشون من المبلغ الفلكي الذي سأطلبه. ستعني لي نظرة ذلك الطبيب المنبهر الكثير. سيكون ردي:

- عليك أن تحسم قرارك بسرعة. فلن تصدق كم العروض التي تنهال عليَّ.

ليس عليَّ أنا نفسي أن أنتظر طويلًا، أو هكذا أدركت خلال لحظات التجلي. فالعيادة التي لَهُا زبائنها منجم ذهب. وهذا على عكس العيادة الخاوية منهم. سيكون بمقدورنا نحن الأربعة أن نعيش لثلاثة أو أربعة أعوام على العائد منها. بعد ذلك نرى ما سيحصل. ربما أتحصل على عمل براتب محترم. مسؤول طبي في شركة، مثلًا. أو عمل مختلف تمامًا. أو تغيير جذري. طبيب فندق في جزر الكناري. أعالج السائحين من دوار البحر. أو من حرق الشمس لجلودهم. أو من مشكلات في الجهاز الهضمي بسبب الإفراط في تناول زيت الزيتون. وربما كان هذا التغيير الجذري في مصلحة "جوليا" أيضًا. ينتشلها من كل ما يحيط بها. بداية جديدة. كان هذا ما فكرت فيه خلال لحظات التجلي. ولكن أحيانًا ما يدخل مريض ليقطع عليَّ الاستغراق في واحدة منها.

سألت الممثل التليفزيوني الكوميدي الشاذ، الذي ظن أنه قد أصيب بالإيدز:

- لماذا تفكر في ذلك؟

وكأنني ضغطت على زر. فقد بدأ يحكي، ويصف تفاصيل حفلات لا أحب سماعها. وحاولت أن أذهب بعقلي إلى شاطئ من الشواطئ. شاطئ رماله صفراء ذهبية وسماؤه زرقاء صافية. أتمشى بعد انتهاء عملي في الفندق عبر الشاطئ وحتى البحر. وجدتني أسأل الكوميديان:

- هل كان لفمك علاقة بالموضوع؟ هل تعتني بأسنانك؟

ففي حال التهاب اللثة، يمكن للجنس الفموي أن يكون سببًا في انتقال العدوى بالإيدز. في تلك اللحظة التي كنت أسأله فيها، كنت قد دخلت في مياه البحر حتى وسطي. لحظات ويغمرني الماء. نصف جسدي بارد والنصف العلوي دافئ. نظرت إلى فم الكوميديان وأنا أحاول تخيل فمه وهو في تلك العلاقة الشاذة. لا أدري لماذا تخيلته يمارسها مع جسد أبيض شاحب، بهذا الفم. إلى أن يصل صاحب الجسد إلى ذروة النشوة. وتصاب اللثة الملتهبة بالعدوى المميتة. تشعر بالبرودة عندما تغمر المياه رأسك. ولكنك سرعان ما تخرج برأسك فوق الماء. وشعرك ملتصق برأسك في خصلات متفرقة. وملح البحر يضايق عينيك. وتشعر في فمك بمذاق الطحالب والمحار. وتنظر وراءك نحو الشاطئ. التنظيف.. تلك هي أول كلمة تبزغ في عقلك. هذا الكوميديان بخير الآن، ولكن ما هو إلا شهر وبعدها لن يتعرف عليه أحد. سيكون نحيلًا هزيلًا. فالإيدز يدمر الجسد من الداخل للخارج. شنيور ينخر في جدرانه. فيبدأ في الانهيار شيئًا فشيئًا. وكأنه زلزال. وأحيانًا ما تتهاوى مبانٍ ضخمة خلال الزلزال قبل الأكواخ المبنية من الطين. ليس أمام هذا الكوميديان أي فرصة. كان عليه أن يعتني بأسنانه ولثته. كان عليه أن يزور طبيب الأسنان بانتظام. لقد تلقى جرعة الموت المؤكد.

بقيت أتظاهر أنني أسمعه، وأتظاهر بتدوين ملاحظات، ولكنني في الحقيقة كنت أرمق الساعة على الحائط خلف رأس الكوميديان. كم ستستغرق هذه الجلسة؟ لم تمر سوى أربع دقائق. ولم أعد أحتمل سماع المزيد. أرغب في أن يرحل هذا الكوميديان عني. وأن يهرب بسرعة. والأفضل ألا يأتيني هنا ثانية قبل أن يموت. فالحيوانات التي تحتضر تبحث عن بقعة هادئة لتموت فيها. فتختفي القطة خلف عبوات التنظيف أسفل حوض المطبخ. سوف أقرأ نعيه الصحفي في غضون ثمانية أشهر. الغالب أنها ستكون صفحة كاملة. وكذلك

جنازة يحضرها أكثر من ألف مدعو، عند المدفن قرب النهر. وكلمات. وموسيقى. وبرنامج خاص عنه في التليفزيون. وقنوات تعاود عرض أفضل مسلسلاته. وبرامج التوك شو. وفي النهاية، يخيم الصمت.. والنسيان.

ابتسمت. ابتسامة مطمئنة. وقلت له:

- أوه، ليس الأمر بذلك السوء. فرص العدوى ضئيلة نسبيًا. وحتى لو حدث، فإن مثبطات الإيدز صارت متطورة وأكثر فعالية. قل لي، هل مارست أنواع الجنس المثلي.. الأخرى؟

سألته بطريقة عادية قدر الإمكان. مجرد طبيب عام ليس له غرض. طبيب عام مثالي. وأنا مثالي. لا شك في ذلك. ولكنني لا يمكن أن أنفي عن نفسي الشعور بأحكام مسبقة. وأنا أعلم أن أمثاله يمارسون الجنس الشاذ من الناحيتين. أي أن احتمالات النزيف الشرجي قائمة. طوال عمري لم أكن مقتنعًا بتلك العلاقات الشاذة. بين رجل ورجل أو امرأة وأخرى. فهي علاقة لا يمكن أن ينتج عنها جنين وحمل. وهذه ليست وجهة نظر. بل حقيقة. تعلمنا في البيولوجي أن لكل شيء غاية ووظيفة. فلو كانت علاقة من هذا النوع منطقية، لما اعتبرت شاذة. كما أن كل تفاصيل تلك العلاقة صعبة. وكأنها تحذرنا من أنها علاقة غير معقولة. مثل سخونة اللهب التي تخبرك أن تبتعد بيدك عن النار. تأمّلت الكوميديان المنكوب. كان بوسعي أن أفحصه. وربما أقول له إنه يعاني من تورم في الغدد. ولكن لا معنى لذلك. فأنا لو فعلت ذلك فسأشعر أنني تخلّصت منه بحجة تبدو مطمئنة، ولكنها سوف تصيبه بالقلق أيضًا، ومن ناحية أخرى، كنت لا أريد أن أرى المزيد من تفاصيل ذلك الجسد أمامي. وكما يقولون، فإن ما يزيد على حده ينقلب إلى ضده. أخرجت نموذج تحليل دم، وأخذت أضع علامة عند التحليلات المطلوبة. بشكل عشوائي ومن دون تركيز.

كوليسترول. جلوكوز. وظائف كبد. رمقت ساعة يدي. كان بوسعي أن أعرف الوقت من ساعة الجدار خلف رأسه، ولكن تلك النظرة إلى الساعة لها دلالة:

- إذا مررت على معمل التحاليل، فسوف نعرف المزيد من المعلومات في غضون أيام.

نهضت ومددت له يدي بنموذج التحاليل. وما هي إلا ثلاث دقائق حتى كان المريض في الشارع. عُدت أجلس، وأغمضت عينيَّ. حاولت استرجاع صورة الشاطئ. والسماء الزرقاء الصافية. ولكنني سمعت طرقًا على الباب. وظهرت رأس المساعدة:

- ما الذي قلته له؟

- ما قصدكِ؟

- المريض الذي كان لديك الآن. كان يبكي. قال إنه لن يعود. قال إنه كان بمقدورك أن.. آسفة.. ولكنني هنا أردد ما قاله بالضبط.

نظرت إلى عيني مساعدتي مباشرة:

- وما الذي قاله بالضبط.. يا "إليزابيث"؟

قالت في خجل:

- قال لي إن بوسعك أن تدسَّ.. أن تدسَّ الروشتة في.. في.. لا يمكنني أن أقولها!

تنهدت بعمق:

- "إليزابيث". هذا الرجل في الغالب مريض بالإيدز. وقد كان ذلك نتيجة علاقاته الشاذة. وعندما ينطلق رجل بموتوسيكل بكل سرعة نحو جذع شجرة ضخم وهو لا يرتدي خوذة، فنحن نصف الحادث بكل بساطة بأنه خطأه. ومن يسمح لنفسه بأن يكون طرفًا سالبًا في علاقة شاذة لا يختلف عن ذلك الطائش عديم الخوذة. أنا أقول إن بوسعه هو أن يدسَّ الروشتة في.. أوه، ما هذا الذي أقوله؟ إنه يفعل ذلك دائمًا، وليس في انتظار نصيحتي!

40

لم أعاود الاتصال بـ"جوديث".

اتصلت هي بي:

- خيمتكم لا تزال لدينا.

كدت أطلب منها أن تحرق الخيمة؛ لأننا لن نعود إلى التخييم ثانيةً. ولكنني قلت:

- سوف آتي وآخذها عندما أجد وقتًا.

خيم الصمت على المكالمة للحظات. ثم سألتني عن حال "جوليا". لا أدري هل كانت نبرتها مختلفة أم لا، ولكنني شعرت أن صوتها غير مبالٍ، روتيني، وكأنها تسأل والسلام. أجبتها بهدوء، وبإيجاز. ولم تطرح عليَّ أي أسئلة أخرى. وعاد الصمت. توقعت أن تخبرني أنها اشتاقت إليَّ. وأنها ترغب في رؤيتي. ولكنها لم تفعل.

- يشعر "رالف" بالفتور، في هذه الأسابيع الأخيرة من الإجازة. يقضي الوقت في خمول. وكلما سألته عن حاله يخبرني أنه لا يوجد شيء. وأنا قلقة يا "مارك". فكرت في أن تفحصه. فهو لا يعترف بأنه ليس على ما يُرام. ومن المستحيل إقناعه بأن يذهب إلى طبيب.

شعرت وكأننا غادرنا منزلهم الصيفي منذ دهر بعيد. فلا تزال "جوليا" مستكينة بشكل غريب. وتأخذ حمامًا مرتين أو ثلاثًا يوميًا، وكل مرة لا تقل عن ربع ساعة. لقد تعافت جسديًا بشكل جيد، وهذا ما تأكدت منه بنفسي، بعد أن

طلبت منها ذلك ولم تمانع. وكنت سألتها عما إذا كانت تفضل أن يكشف عليها طبيب آخر "محايد"، بدلًا من أبيها. ولكنها أخبرتني أنها لا ترغب في ذلك.

اتفقت أنا و"كارولين" على أن ننتظر لبضعة أشهر لنرى كيف ستجري أمورها. ولن نطلب مساعدة خارجية إلا إذا لم نجد أي تحسن واضح. وقررنا ألا نُعرِّف مدرسة "جوليا" بما حدث لها.

- اطلبي منه أن يزورني في الوقت الذي يناسبه.

قلت لها ذلك، على الرغم من عدم ميلي إليه. حاولت أن أتخيَّل "رالف" وهو على تلك الحال. وفكرت لجزء من الثانية أن أسألها عن "أليكس"، وعما إذا كان يعاني هو الآخر، ولكنني امتنعت عن ذلك فورًا.

- فكرت أن الأفضل أن تمر علينا وتأخذ الخيمة، وتطمئن عليه بالمرة.

- بالطبع، ما المانع؟

سمعت "جوديث" تتنهد:

- سيكون من اللطيف أن نراك ثانيةً. أود أن أراك ثانيةً.

كان من المنطقي أن أقول لها إنها رغبتي أيضًا. ولكنني كنت أبذل جهدًا كبيرًا حتى تخرج الكلمات من فمي صادقة.

أغلقت عينيَّ. حاولت أن أتخيَّل "جوديث" عند الشاطئ، وعندما فشلت، تخيلتها وهي واقفة أسفل شاور البسين، طريقتها وهي تلملم خصلات شعرها وتغلق عينيها بينما وجهها يطل على الشمس.

- أنا أيضًا.

اتصلت بي أمها فجأة، عقب بضعة أسابيع. لم أكن قد رأيتها أو تحدثت معها منذ أن لمحتها وهي تهبط سلم المنزل في أعقابنا ذلك الصباح. بل لقد نسيت أمرها تمامًا منذ ذلك الحين.

سألتني عن الأحوال، وخصوصًا "جوليا". حكيت لها. ليس كل شيء. فلم أخبرها مثلًا عن حقيقة أن "جوليا" لا تزال لا تتذكر أي شيء عن تلك الليلة. ولكنها لم تسألني عن ذلك. حاولت أن أجعلها مكالمة قصيرة قدر الإمكان، بأن أرد باختصار على أسئلتها. ثم قلت لها في محاولة لختام الاتصال:

- هذا هو كل شيء، تقريبًا. نحاول التعايش مع ما جرى، قدر الإمكان. وعلى "جوليا" أن تحاول.

سمعت نفسي أقول هذا الكلام. فقد كانت الجمل تخرج من فمي، عن غير قصد مني. جمل عفوية. أنطقها فحسب. وظننت أنها ستودعني وتغلق الخط، ولكنها قالت:

- هناك أمر آخر يا "مارك".

كانت قد اتصلت بي ذات مرة، خلال تلك الفترة التي أقضيها وحدي بين مريض وآخر، وكان آخر مريض قد غادر العيادة، ولم يصل المريض التالي بعد. ولم أعلم ما إذا كان السر في نبرة صوتها أم لأنها نادتني ولأول مرة باسمي الأول، ولكنني نهضت عن مكتبي ومشيت نحو باب المكتب، الذي كان مواربًا. ألقيت نظرة فوجدت مساعدتي جالسة إلى مكتبها. مشغولة بكتابة بيانات في بطاقة مريض. أغلقت الباب، بهدوء.

- أجل؟

- إنه.. أنا لا أدري كيف، أو إذا ما كان ينبغي لي أصلًا أن أقول ذلك. ولكنه أمر يشغل بالي منذ فترة. منذ تلك الليلة في الحقيقة.

أصدرت صوتًا قصيرًا، بما يعني أنني أريد لها أن تكمل كلامها.

- ترددت حتى الآن، لأنني لم أكن أرغب في أن يستبق أي شخص الأمور. وأملي ألا تفعل أنت ذلك الآن. كما أنني رأيت أن السكوت عن ذلك هروب من المسؤولية.

أومأت برأسي، ولأنني أدركت في ذات اللحظة أنها لا تراني، فقد أصدرت ذات الصوت مجددًا.

- في ليلة الألعاب النارية، عندما ذهبتم جميعًا إلى الشاطئ، دخلت سريري مبكرًا. في البداية انشغلت بالقراءة، ثم أطفأت النور. لم أستيقظ إلا بعد فترة. ولا أتذكر الوقت تحديدًا، ولكن كان عليَّ أن أغادر السرير. وهو أمر اعتدت عليه، ودائمًا ما يكون في منتصف الليل تقريبًا. وجدت المنزل مظلمًا، لذلك افترضت أن زوجتك قد ذهبت إلى خيمتها، وذهبت "إيمانويل" إلى الأسفل. ذهبت إلى الحمام بالأعلى. وعندما كنت بالداخل، سمعت صوت سيارة. اقتربت من المنزل وتوقفت. سمعت بابها يغلق، ووقع أقدام أحدهم وهو يصعد إلى المنزل. لا أدري ما السبب، ولكنني فتحت السيفون بسرعة، وأطفأت النور، وعدت سريعًا إلى غرفتي. هناك شخص في المنزل. اتجه إلى الحمام مباشرة. وغرفتي مجاورة للباب، لذلك سمعت صوت الغسالة تدور قبل أن تتوقف ثانيةً. ثم دارت من جديد. ثم سمعت صوت الدُّش.

إنه "رالف". فهو أول من غادر. وحده. في سيارته. تاركًا أسرته خلفه. أجد، حتى الآن، أن القصة التي تحكيها أم "جوديث" تتماشى مع الحقائق.

- بعد قليل، سمعت صوتًا في المطبخ. انتظرت لحظات، قبل أن أنهض عن السرير. كان "رالف" في المطبخ. يستند إلى الكاونتر، ويشرب البيرة. شعره لا يزال مبتلًا. كان من الواضح أنه فوجئ عندما رآني. أخبرته أنني اضطررت إلى الذهاب إلى الحمام، وهو بالطبع لم يكن يعلم أنني كنت فيه منذ برهة.

تعرف أن الفتاة عند الشاطئ قد ضربت "رالف" على فمه بكأس المارجريتا. وأن دمه سال. كما لكمته النرويجية بضع لكمات. فربما كانت هناك دماء على ملابسه.

- كانت الغسالة دائرة في الحمام. ألقيت نظرة عبر غطائها لأعرف ما فيها، ولكن الرغاوي كانت كثيفة. فلم أرَ شيئًا بوضوح. وأتذكر أنني شعرت بغرابة

في الموقف حتى في تلك اللحظات. أقصد أن الرجل يعود إلى المنزل بثياب متسخة، فيقوم باستبدالها، ومن ثم يلقي بالملابس الأخرى في سلة الغسيل، أليس كذلك؟ فلا يقوم بغسل ملابسه على الفور، صحيح؟ ومتى، في منتصف الليل؟

41

ذات صباح في منتصف أكتوبر، قصد "رالف ماير" عيادتي من دون موعد سابق. من دون سابق إنذار، كما هي عادته. لم يعتذر عن حضوره بهذه الطريقة. ولم يبالِ لشيء. بل جلس على الفور إلى الكرسي المقابل لمكتبي، وهو يمرر أصابعه في خصلات شعره.

- كنت.. بحاجة للتحدث معك.

حبست أنفاسي. وسمعت صوت دقات قلبي. أهذا يحدث حقًا؟ بعد مرور شهرين، يأتي وفي جعبته اعتراف؟ لم أكن أعرف ما ستكون عليه ردة فعلي. هل سأجذبه إليَّ من قميصه؟ أم أسبه وأصيح في وجهه، قبل أن أبصق عليه؟ عندئذٍ ستأتي مساعدتي مسرعة. أم أنها ستتصل بالشرطة؟ بوسعي أن أحافظ على هدوئي. برودي. ربما أراوغه. أتصرف كما لو أنني تأثرت بهذا الاعتراف. وبعد ذلك، أحقنه بجرعة سامة.

- كيف هي أحوالكم الآن؟

ليس هذا بسؤال تتوقعه من شخص يستعد للاعتراف لك بأنه اغتصب ابنتك ذات الثلاثة عشر عامًا.

هل بادر هو بمراوغتي؟

- نحاول أن نعيش حياتنا.

- جيد.

لا يتوقف عن تمرير أصابعه في شعره. بدا شاردًا، حتى إنني ظننت أنه لم يسمعني. ولكنه قال:

- أنا معجب بالطريقة التي تعاملتم بها مع ما حدث. لقد أخبرتني "جوديث" بكل شيء. وحكت لي عن مدى قوتكم وثبات أعصابكم.

حدقت في وجهه. وفي الوقت نفسه، حاولت ألا تتسع عيناي كثيرًا. فأنا لا أريد له أن يلحظ دهشتي.

- إنني أواجه مشكلة مقلقة تحتاج إلى التعامل معها بمنتهى الثقة. ولهذا أتيت إليك.

حاولت أن أتظاهر بالاهتمام بما يقول، قدر ما وسعني ذلك.

- كل ما سوف نتحدث عنه هنا يبقى أسير هذه الجدران.

قلت له، وأنا ألوح بيدي تجاه أرجاء مكتبي. وابتسمت. ولكن قلبي لا يزال ينبض بقوة، فأنا أعرف أن الابتسام يساعد على تباطؤ ضربات القلب.

- أهم شيء هو ألا تعرف "جوديث" أي شيء. أقصد أنها هي التي أصرت على أن أحضر إليك، ولكن إذا وجدت الحالة خطيرة، فأرجوك ألا تعرفها ذلك.

أومأت برأسي متفهمًا.

- أنا أعاني تعب. وأخشى أن تكون حالتي خطيرة. وربما تكون كل هذه أوهام، ولكن "جوديث" تفزع من الأمراض المتعبة. ولا أريد لها ذلك، خصوصًا إذا لم يكن هناك شيء.

يشعر "رالف" بالفتور، في هذه الأسابيع الأخيرة من الإجازة. يقضي الوقت في خمول..

- من الجيد أنك أتيت إليّ. وفي العادة ما تكون تلك الحالات مثل زوبعة في فنجان، ولكن الاحتياط واجب. ما هي الأعراض على وجه التحديد؟ ما الذي تشعر به؟

- أنا منهك على الدوام. منذ بداية الصيف في الحقيقة. وأشعر بالخمول. وهي حالة لم أعانِ منها من قبل. ولكنني أعتقد أنها بسبب إفراطي في العمل. ولكن من أسبوعين وجدت هذا..

نهض، وفك حزام بنطلونه وأنزله فجأة. أشار إلى ما يقصده، وكان واضحًا حتى من دون إشارة:

- هذا.. كان بنصف هذا الحجم منذ ثلاثة أيام. وهو صلب كالحجر، وعندما أضغط عليه يؤلمني.

نظرت. تكفيني تلك النظرة لأتيقن من أن هناك احتمالًا واحدًا.

لا بد من تحويل "رالف" إلى المستشفى هذا الأسبوع. والأفضل في هذا اليوم. ربما نكون في مرحلة متأخرة بالفعل، ولكن سرعة التعامل مع الحالة ضرورية.

نهضت عن الكرسي:

- دعنا نذهب إلى غرفة الفحص..

- ما الأمر يا "مارك"؟ أهو ما أفكر فيه؟

- تعالَ معي. يلزمني أن أفحصه.

لملم بنطلونه لأعلى، حتى صار بالكاد يغطي مؤخرته، وتحرك ببطء إلى غرفة الفحص. طلبت منه أن يرقد فوق الترابيزة. وضعت طرف إصبعي على الانتفاخ، وضغطت برفق. كان صلبًا بالفعل. مثل حجر.

- يؤلمك؟

- ليس إذا كنت تضغط بهذه الطريقة. ولكنه يؤلم بشكل حاد إذا زدت الضغط.

- إذًا ليس علينا أن نفعل ذلك. ولا سبب يدعونا إلى ذلك. ففي تسعة وتسعين في المئة، تكون هذه مجرد عقد. تكون تحت الجلد. هي مؤلمة بالتأكيد، ولكن لا شيء يدعو للقلق.

- إذًا هو.. ليس كما ظننت؟

- اسمعني يا "رالف". لا يمكن أن نكون متأكدين مئة في المئة. ولكن علينا استبعاد احتمال الواحد في المئة هذا.

- ما الذي ستقوم به إذن؟

لم يعد ينظر إليَّ. كان ينظر إلى يديَّ، وأنا أرتدي القفاز الطبي. وينظر إلى المشرط الذي وضعته فوق قطنة طبية، إلى جوار فخذه العارية فوق ترابيزة الفحص.

- سوف آخذ عيِّنة صغيرة منه. وأرسلها إلى المعمل. وسوف نعرف النتيجة في غضون أسبوعين.

عقمت المنطقة المحيطة بالانتفاخ. ثم غرست المشرط. وقطعت. سطحيًا في البداية، ثم تعمقت. شهق "رالف" من الألم.

- ربما تتألم قليلًا. ولكنها ثوانٍ.

لم يكن هناك دم. وهو ما أكد تشخيصي المبدئي. تعمقت بالمشرط حتى وصلت إلى نسيج سليم. ومن خلال قطع نسيج سليم يمكنني أن أقارن. سوف تتسلل الخلايا من هذا التورم إلى الدم قبل أن تتفشى في الجسد كله. تتفشى. وجدتها الكلمة المناسبة. كلمة جامعة مانعة، كما يقولون. في تلك اللحظات كنت أضع بذور شيء ما. ولسوف تنمو تلك البذور في المستقبل القريب. في أجزاء أخرى من الجسد. أجزاء لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة.

قمت بنقل عيِّنة النسيج إلى داخل أنبوب زجاجي. أو هكذا تظاهرت. وكذلك تظاهرت بأنني أدون بيانات على ملصق الأنبوب، قبل أن ألصقه عليه. وضعت قطعة شاش على الجرح الصغير وثبتها بلاصق طبي.

- يمكنك ارتداء البنطلون الآن. سوف أكتب لك روشتة، مزيدًا من الأقراص التي كنت تتعاطاها في السابق. جميعنا يعاني خلال العودة إلى روتين حياته اليومية بعد الإجازة الطويلة.

صاحبته حتى باب مكتبي. وقال لي:

- أوه.. كدت أنسى. خيمتكم. أعطتني "جوديث" الخيمة لأعطيها لك. هي في السيارة. هلا أتيت معي وأخذتها.

وقفنا عند صندوق السيارة المفتوحة، وكنت أحمل الخيمة.

- سوف أذهب إلى التصوير عما قريب. أتتذكر ذلك المسلسل الذي كان "ستانلي" يتحدث عنه؟ "أغسطس"؟ سوف يبدؤون تصويره.

- وكيف حال "ستانلي"؟

بدا وكأنه لم يسمع سؤالي. ولكنني لمحت تلك التقطيبة في جبينه. هز رأسه بعض الشيء، وهو يقول:

- هل ترى خطرًا على صحتي لو سافرت؟ سيستغرق التصوير شهرين. وسوف تكون كارثة على الكل لو أنني انقطعت عن التصوير بعد أن بدأ.

- بالطبع. لا تقلق. لا أظن أن هناك شيئًا خطيرًا. سوف ننتظر نتيجة الفحوصات. لا يزال أمامنا وقت.

انتظرت حتى غابت سيارته عند المنعطف. كان هناك صندوق قمامة كبير في منتصف الشارع، حيث ألقيت الخيمة في قلبه، قبل أن أعود إلى العيادة.

كانت غرفة الانتظار فارغة. وفي مكتبي، قربت الأنبوب من الضوء. حدقت في النسيج، وتأمّلته لبعض ثوانٍ، قبل أن ألقي به في سلة المهملات المجاورة لترابيزة الفحص.

42

ظننت أن الأمور ستمضي سريعًا، ولكن خاب ظني.

غادر "رالف" إلى إيطاليا لتصوير مسلسل "أغسطس"، ولكنه عاد بعد شهرين. واتصل بي ليسألني عن نتائج الفحوصات.

- لم يصلني شيء من المستشفى. لذلك أعتقد أنهم لم يجدوا شيئًا.

- ولكنهم يصدرون تقريرًا طبيًا في كل الأحوال، أليس كذلك؟

- في المعتاد. سوف أتصل بهم في الغد. كيف هو حالك؟

- بخير. ولكنني لا زلت أصاب بالتعب بسهولة، فأتعاطى عندئذٍ واحدًا من أقراصك السحرية. مفعولها قوي.

- سوف أتصل بك في الغد يا "رالف".

أراحني أن أعرف أنه لا يزال متعبًا. كنت قد كتبت له روشتة بأقراص "بنزدرين" التي تبدد أعراض الإنهاك، بما يعطي الفرصة الزمنية للمرض حتى ينتشر في أنحاء جسده. ولكنني وجدت أنه يستغرق وقتًا أطول من المعتاد. حتى صرت أشك في الأمر. وفي مهاراتي كطبيب. ربما كان تشخيصي خاطئًا.

اتصلت به في اليوم التالي، ولكن "جوديث" ردت عليَّ، وبادرتني بالسؤال:

- هل هذا بخصوص نتائج التحليل؟

ارتبكت لحظات:

- ظننت أن..

- بالفعل، أخبرك "رالف" ألا تخبرني في حال كان المرض خطيرًا. ولكنك نجحت في طمأنته إلى حد أنه هو من أخبرني كل شيء بنفسه. وأنك طلبت منه ألا يخاف شيئًا. أهذا صحيح يا "مارك"؟

- ما قلته له هو أن هناك احتمال ألا تكون الحالة خطيرة. ولكنني أرسلت بالعينة إلى المستشفى حتى أتأكد تمامًا.

- ثم؟

- اتصلت بهم اليوم لأسأل عن النتائج. وعرفت أن الحالة ليست خطيرة.

- حقًا؟ أقصد أن لو كانت الحالة خلاف ذلك فأرجوك أن تعرفني يا "مارك"

- لا، لا يوجد شيء. أهناك ما يدفعكِ إلى الشك؟

- إنه لا يزال يعاني من الإرهاق في كل وقت. كما أن وزنه ينقص، برغم أنه يأكل مثلما اعتاد أن يأكل. ويشرب بإفراط.

- أخذت العينة من جلد ساقه. ألا زلتِ ترينها؟ تلك البقعة؟

- لا، التورم لا يزال موجودًا، ولكنه لم يكبر حجمًا. أنا لا أراه كل يوم، بالطبع. ولكنني أتحسسه أحيانًا. خفية، لو فهمت قصدي، وحتى لا يلاحظ هو شيئًا. أتمنى ألا يكون قد لاحظ شيئًا.

هذه معلومة ممتازة. أن وزنه ينقص. وكذلك حقيقة أن التورم لا يكبر. تشخيصي سليم. ولقد بدأ جيش العدو في تعزيز تحصيناته. سوف يشنُّ الهجوم من هناك. بأسلوب الكر والفر. إنها التعبئة العامة. وما هي إلا مسألة وقت قبل أن تنهار أي مقاومة أمام ذلك الجيش الغاشم.

- ربما هو ليس إلا عقدة منتفخة. لا يمكنها أن تشكل ضررًا في ذلك المكان، طالما أنها لا تضايقه. ولكن بوسعي استئصاله، لو أراد هو ذلك.

- أليست تلك عملية جراحية يجرونها في المستشفى؟

- مستشفى يعني قائمة انتظار. كما أن العملية بسيطة وسريعة. ويمكنه أن يأتيني في أي وقت يحب. لا أعتقد أنه بحاجة إلى حجز موعد في عيادتي.

كانت "ليزا" تسأل عن "توماس" أحيانًا. أما "جوليا"، فلم تسأل عن "أليكس" أبدًا.

- يمكنكِ الاتصال به طبعًا. واطلبي منه أن يأتي ليلعب معكِ.

ولكن مع بداية الدراسة، وتوالي أيامها، بدأت تنسى السؤال عنه. فقد انشغلت بصديقات المدرسة عن صديق الصيف. ولكن الحال مختلف مع "جوليا". راودنا إحساس أنها لا تريد أن تتعامل مع أي شيء له علاقة بالأولاد، وخاصة الصبي الذي صار يذكرها بإجازة الصيف وما جرى فيها. وأجد هنا أن كلمة "يذكرها" لم تكن مناسبة تمامًا. فقد تذكرت "جوليا" أحداثًا من الصيف، ولكن ليس كل الأحداث. فلربما تذكرت "أليكس" أيضًا. ولكن إلى أي مدى؟ وعند أي لحظة؟ نحن لم نسألها عن أي شيء. وفضلنا أن نترك الأمور تجري بطبيعتها.

لم يمر "رالف" عليَّ مجددًا. من الواضح أنه مطمئن بما يكفي لأن يغض النظر عن فكرة استئصال "العقدة المنتفخة". ذلك في صالحي بالطبع. ربما يحتاج المرض فقط إلى بعض الوقت.

تلقينا في بداية العام الجديد دعوة لحضور حفل افتتاح مسرحية. وكانت هذه المرة مسرحية "النورس" لـ"تشيكوف". ولم نذهب. كنا نتبنَّى سياسة الردع السلبي. نحاول أن نباعد بين أسرتنا وآل "ماير" قدر الإمكان. أستخدم صيغة الجمع هنا؛ لأن "كارولين" تشاركني الرأي ذاته.

انتقلت إلى الخطوة التالية خلال تناولنا للعشاء في أحد المطاعم. عقب بضعة أيام من وصول دعوة المسرحية. كنت أنا وزوجتي وحدنا في الخارج، لأول مرة منذ فترة طويلة. وعندما جاءتنا زجاجة النبيذ الثانية، سألتها:

- أتدرين لماذا رفضت حضور عرض المسرحية؟

- لأن المسرحيات تجعلك شديد الرغبة في التعبير عن رأيك بصراحة.

ضحكت، وهي تلامس بكأسها كأسي.

- كلا، هذه المرة مختلفة. لم أكن أرغب في أن أخبركِ. ظننت أن الأمر سيتوقف وحده. ولكنني أخطأت. فهو لا يزال قائمًا.

كانت تلك هي الحقيقة. فقد حاولت "جوديث" الاتصال بي مرتين، ولكنني كنت أتجاهل الاتصال عندما أرى اسمها على شاشة التليفون. ولما تركت رسالة في بريدي الصوتي، لم أعاود الاتصال بها. وطلبت من مساعدتي ألا تحول مكالمتها إليَّ في حال اتصلت على تليفون العيادة. وهو ما فعلته بالفعل. أخبرتها مساعدتي أنني مشغول مع مريض. وأنني سأعاود الاتصال بها لاحقًا. وهو ما لم أفعله.

وجربت الاتصال بمنزلنا. كانت "كارولين" هي التي ترد عليها. كنت أدرك من طريقة رد "كارولين" أن المتصلة هي "جوديث".. لا، نحن نتعايش.. الوضع أفضل نسبيًا.. أنا غير موجود! كنت أشير لـ"كارولين" بما يعني ذلك ومن دون أي صوت، إلى أن انتهت المكالمة.

- بخلاف ذلك، لم أكن أرغب في الذهاب إلى العرض الأول حتى لا ألتقي "جوديث" ثانيةً. لا أدري إن كنتِ قد لاحظتِ، ولكن تلك المرأة تراودني. حتى عندما كنا هناك في المنزل الصيفي. حاولت معي.. وكان ذلك واضحًا. ظنت أنني لطيف وظريف.

رمقت زوجتي. لم يبدُ لي أنها صدمت من هذا الاعتراف. ربما هي مندهشة فحسب. وجدت على فمها شبح ابتسامة.

- لماذا تبتسمين؟ هل كنتِ تلاحظين ما تفعله؟ أقسم لكِ أن "جوديث" كانت تطاردني.

- "مارك".. ليس أمامي سوى أن أضحك. منك. ولا تغضب، فأنا لا أقصد أن أسخر منك، ولكنني أرى أنك متسرع في الحكم على الأمور، فتظن أن هناك امرأة تحاول غوايتك بينما هي تتصرف معك على طبيعتها أو تحاول رفع التكليف بينكما. لقد لاحظت ما تقول ونحن في المنزل الصيفي، ولكن "جوديث" من النوع الذي يتباسط مع جميع الرجال. وهذا بسبب عدم ثقتها في نفسها، ورغبتها في تعويض ذلك على طريقتها.

أعترف لك أن رد فعل "كارولين" قد خيب أملي. هي لا ترى سوى مجرد مداعبات بريئة. ولكنني قلت لنفسي أنها تنظر للأمر على هذا النحو لأنها ببساطة لم ترَ شيئًا.

- إنها تتصل بي طوال الوقت يا "كارولين". وتقول لي إنها اشتاقت إليّ. وأنها تريد أن تراني.

هزت "كارولين" رأسها وهي تضحك، وتتناول جرعة نبيذ كبيرة.

- أوه يا "مارك"، إنها مجرد امرأة تبحث عن مزيد من الاهتمام. كان من الممكن أن أصير مثلها لو كنت مضطرة للعيش مع شخص مثل "رالف". هذا هو كل شيء. الاهتمام. اهتمام من دكتور. ربما تلك هي رغبتها. ربما تريد منك أن "تفحصها".

- "كارولين"..

- أكره أن أوهمك بغير ذلك، ولكنك من فتح الموضوع. "جوديث" تتصرف هكذا مع كل الرجال. رأيتها وهي تتصرف هكذا مع "ستانلي". تتضاحك، وتتلاعب بخصلات شعرها، وتجلس فوق لوح البسين، وكأنها شاردة وغارقة في أفكارها، بينما تلاعب قدماها المياه، وجميع الألاعيب الأنثوية المعروفة.

والحقيقة أنني متفاجئة من أن تلك الحيل قد خدعتك بسهولة. وبالمناسبة، فهي نجحت معه، بينما لم تنجح معك.

حدقت فيها، صامتًا.

- ما الذي تنظر إليه؟ أوه يا "مارك"، هل أنت بهذه السذاجة فعلًا؟ تعتقد أن النساء تسعى خلفك، ولكن امرأة مثل "جوديث" تعرف ما تفعله. وكنت سأخبرك بذلك، ولكنني نسيت. حتى فتحت أنت الموضوع الآن. كنا في ظهيرة أحد الأيام، عند البسين. جميعكم ذهبتم إلى القرية. "رالف"، وأنت، والصغار. كانت "إيمانويل" متعبة، وترقد داخل شقتها وقد أسدلت الستائر. وكان من الواضح أن هناك توترًا بينها وبين "ستانلي". وصعدت أنا لأحضر مشروبات. وعندما نظرت من شباك المطبخ، رأيتهما. كانت "جوديث" مستلقية في كرسي البسين و"ستانلي" يميل عليها. كان منهمكًا في تقبيل جسدها كله يا "مارك". وأنا أقصد ذلك حرفيًا. حرصت على أن أصنع أكبر صخب ممكن بالزجاجات وأنا عائدة إلى الأسفل. ولذلك، عندما وصلت إليهما، وجدت كل منهما في كرسيه، جالس بكل أدب. ولكني كنت قد رأيت ما رأيت. كما كان الارتباك واضحًا على "ستانلي" حتى ولو حاول إظهار العكس، حتى إنه بادر بالقفز إلى الماء، هربًا من نظراتي.

مرَّ شهر على ليلة العرض الأول لمسرحية "النورس"، يوم أن وقعت عيناي على صفحة الفن في الجريدة:

إلغاء عرض "النورس" لمرض بطلها

كان خبرًا من عشرة أسطر. فيه بعض تفاصيل الإلغاء وسببه. لم يذكر الخبر نوع المرض. وكدت أهم بالاتصال، ولكنني فضلت ألا أفعل. على أن "جوديث" هي التي اتصلت في اليوم التالي.

- أدخلناه المستشفى في الأسبوع الماضي.

ذكرت لي اسم المستشفى. المستشفى نفسه الذي أرسلت إليه العينة... أو التي – في الحقيقة – لم أرسل إليه العينة.

كنت أسند التليفون برأسي على كتفي، بينما يداي مشغولتان. كنت أجلس إلى مكتبي في العيادة. لن يدخل المريض التالي – أو بالأحرى آخر مريض في ذلك اليوم – إلا بعد ساعة. كنت حريصًا هذه المرة على أن أرد على مكالمتها.

سألتها أسئلة عامة. عن الأعراض. والعلاج المحتمل. وجاءت ردودها لتؤكد تشخيصي السابق. يشهد جسد "رالف" معركة داخلية – طالت لفترة أطول من المعتاد – ولكنها أوشكت أن تنتهي. تخطى المرض عدة مراحل بالفعل. تلك المراحل التي تكون فيها لنجاح العلاج فرصة. الأمر أشبه بتخطي الحواجز والعقبات. ولأن "جوديث" لم تسألني عمًا جرى للعينة، فقد تطوعت بالتحدث عنه.

- غريب أن نتائج العينة لم تظهر أي شيء.

- "مارك"؟

- أجل؟

- كيف هي أحوالك؟

رمقت الساعة أمام مكتبي. سوف يصل مريضي بعد أقل من خمسين دقيقة.

- أتدبر أمري.

سمعت تنهيدتها على الجانب الآخر:

- أنت لم تعاود الاتصال بي. حتى بعد أن تركت لك رسائل.

سكت للحظات. كنت أفكر خلالها في العينة، التي كانت تقبع في أنبوب زجاجي، قبل أن ألقي بها في القمامة.

- لقد كنت مشغولًا جدًا. علاوة على موضوع "جوليا" طبعًا. نحن نحاول أن نعيد أمورنا على طبيعتها، ولكنها مهمة صعبة.

هل أنا حقًا من يتحدث الآن، وينسج ويحيك الكلمات على هذا النحو؟ ما سهل الأمر علي هو أنني كنت وحدي في المكتب، وأن "جوديث" لا ترى وجهي – ولمزيد من التركيز، كنت أغلق عينيّ... بشدة.

- سيكون من اللطيف أن أراكِ مجددًا.

هكذا عدنا نتواصل ثانيةً. أنا أخبرت "كارولين" بالحقيقة. وعرفتها أني سألتقي "جوديث" لتناول القهوة والتحدث. لأنها حزينة للغاية لمرض "رالف". وهكذا بدأنا نلتقي في المقاهي، وبعدها صرنا نلتقي في منزلها. لم يعد لديّ الكثير من المرضى؛ وصار من العادي أن أغيب عن العيادة لساعة وأكثر. وفي أحيان أخرى كنت أنتظر حتى ينصرف آخر مريض. في ذلك الوقت، يكون "أليكس" و"توماس" في المدرسة، وأنا لا أحاول أن أبرِّر لك أي شيء، ولكن الأمور كانت تجري بصورة سريعة جدًا، ومحمومة. وبعد أن يرتوي كل منا من الآخر، كنا نذهب لزيارة "رالف" في المستشفى. لم تأتِ نتائج العملية الأولى على النحو المأمول، وحملت العملية الثانية "أملًا محدودًا في التحسن"، على حد تعبير الاختصاصي. واقترحوا علاجات بديلة. جريئة. وعليه أن يقرر بنفسه ما إذا كان يوافق على الخضوع لها، ومن ثم عليه أن يختار بين البقاء في المستشفى أو العودة إلى المنزل، مع التردد بشكل شبه يومي على المستشفى. قالت له "جوديث":

- ربما كان الأفضل أن تعود إلى المنزل. وسوف أوصلك إلى المستشفى كل يوم بالسيارة.

لم تنظر إلي وهي تتحدث، وكانت تجلس إلى مقعد مجاور للفراش، ويدها فوق البطانية، قرب يد زوجها. قلت له:

- سترتاح أكثر في البيت. ولكنك ربما تتعب أكثر ليلًا. هنا في المستشفى يحيطونك بالرعاية، خصوصًا في تلك الساعات.

هكذا توصلنا إلى خيار وسط؛ حيث يكون بمقدور "رالف" العودة للمنزل خلال عطلة نهاية الأسبوع، ويمكث في المستشفى بقية أيام الأسبوع. أما أنا، فبقيت ألتقي "جوديث" مرة أو مرتين كل أسبوع.

لا أدري إن كان السبب هو حالة التوهان التي عليها "رالف"، أم هي العملية الجراحية، أو الدواء، وبقية أنواع العلاج المؤلمة، ولكنه لم يتحدث أبدًا عن فحصي له في أكتوبر الماضي. وخلال واحدة من الزيارات، وعندما غادرت "جوديث" الغرفة لشراء بعض المجلات لأجله من كشك الصحف في الطابق الأرضي، انتهزت الفرصة:

- غريب أن يتطور أمر هذا المرض على ذلك النحو. فحصنا التورم من خلال العينة ولم يظهر لنا أي شيء. ولكن كل شيء ينهار بعد شهور قليلة.

اقتربت بمقعدي من سرير "رالف"، ولكنني أحسست أنه لم يفهم كلامي.

- كان لديَّ مريض ذات مرة، ظن أنه يعاني من نوبة قلبية. كان فزعًا حينما دخل علي في العيادة. عليه كل الأعراض. ألم في الصدر، وجفاف الفم، وتعرُّق اليدين. وقست نبضه، ووجدته يتجاوز المئتين. فكشفت بالسماعة على قلبه. وسألته: هل تناولت فوندو الجبن بالأمس؟ فنظر إلي المريض بكل دهشة الدنيا: كيف عرفت يا دكتور؟ ولكنني قلت له: وأعتقد أنك شربت وراءه الكثير من النبيذ الأبيض. وهكذا استقرت تلك الكتلة في المعدة في حيرة من أمرها. أين تذهب. حالات مثل هذه هي التي تخرج الطبيب من منزله في منتصف الليل لإنقاذ أصحابها. ولكن صاحب تلك الحالة انتظر حتى يأتيني صباحًا.

كان "رالف" مغمض العينين، ولكنه فتحهما الآن. قلت له:

- إليك ما فعلت. طلبت من المريض أن يعود إلى منزله. وطمأنته تمامًا. وبعد أسبوعين مات بنوبة قلبية. مفاجئة تمامًا. لو أنك حولت هذه القصة لمشهد

سينمائي لما صدقك أحد من المشاهدين. ولكنها الحقيقة. والحقيقة أيضًا أن لا علاقة أبدًا بين الجبن والنوبة القلبية. ابتسم "رالف" بصعوبة، وهو يقول:

- هذا ما يسمونه الحظ السيىء.

نظرت إلى هيئة جسده تحت البطانية. الجسد نفسه، ولكن الانهيار واضح عليه

– مثل بالونة كانت متألقة في حفلة قبل أن تذوي تعسة في ركن عقب انتهاء الحفلة. وبعد أن فقدت نصف ما كان فيها من هواء.

- بالضبط... حظ سيىء.

صارت الأمور أفضل قليلًا مع "جوديث" في تلك الأثناء. أو على الأقل هذا هو ما تصورناه. بدأت تدعو صديقاتها إلى منزلها، وتحكي لنا ونحن نتناول الطعام حكايات من أيام المدرسة، قبل أن تنهمك في الضحك. ضحكة قصيرة مترددة في البداية، ولكنها ضحكة. ولكنها كانت تفضل في أيام أخرى أن تبقى داخل غرفتها أغلب ساعات اليوم. قلت لـ"كارولين" بعد أن حكيت لها كل ذلك:

- ربما السبب هو سنها.

- هذه هي أسوأ أعراضه.

- لن نعرف الحقيقة أبدًا. هل السبب هو سنها... أم هو ذلك الأمر.

أحيانًا ما أتأمّل وجه "جوليا"، حينما أظن أنها غير منتبهة. عيناها. نظرتها. صارت مختلفة عما كانت عليه منذ أقل من عام. ليست أكثر حزنًا... بل أشد جدية. انطوائية. كما يقولون. كانت "كارولين" محقة. ولكني لا أدري إن كان لهذا علاقة بمرحلتها العمرية أم أن السبب يبقى ما جرى عند الشاطئ.. حتى وهي لا تتذكر أي شيء عنه حتى الآن.

43

سافرنا في الإجازة الصيفية الجديدة إلى أمريكا.

تغيير أجواء، تلك كانت الفكرة. بعيدًا عن مناظر الشاطئ نفسها (أو حمام السباحة) المعتادة. كانت رحلة أكثر منها إجازة. بها العديد من أسباب إشغال العقل، واكتساب انطباعات جديدة، والقليل من الوقت المتاح للتفكير والتأمُّل، وكل ما من شأنه أن يطرد النوم عن عينيك ليلًا.

ربما لا "تعالج" الرحلة "جوليا"، ولكننا رأينا أنها قد تنفعها. نوع من التطهير. وصولًا بالعائلة إلى صفحة بيضاء، نبدؤها بعد أن نعود من تلك الرحلة.

طرنا إلى شيكاغو. وهناك صعدنا إلى قمة برج "سيرز"، حيث تطلعنا إلى أرجاء المدينة وبحيرة "ميتشيجان". وركبنا أتوبيسًا سياحيًّا ذا طابقين أخذنا في جولة عبر وسط المدينة. وتناولنا الإفطار في "ستاربكس". وفي الليل، كنا نتناول العشاء في المطاعم الإيطالية التي تحبها "جوليا". ولكن سماعات الآيبود لم تفارق أذنيها طوال الوقت. ليس الأمر أنها كانت منغلقة عنا تمامًا، فقد كانت تبتسم في امتنان عندما يوضع طبق "الرافيولي" أمامها، بينما ينثر الجرسون الجبن المبشور فوق الطَبق. تسند رأسها إلى كتف "كارولين" وتربت على ذراع أمها. ولكن كلامها لا يزال نادرًا. أحيانًا ما تدندن مع نفسها نغمات أغنية تسمعها. ورغم أنه كان بمقدورنا أن نطلب منها ألا تسمع الأغاني ونحن

بصحبتها في المطعم، فإننا كنا نفضل ألا نفعل. رأينا أن نتركها تفعل ما يحلو لها. فمن الواضح أن الوقت لا يزال مبكرًا جدًا على تلك الصفحة البيضاء.

اتجهنا غربًا بالسيارة التي استأجرناها، وكانت "شيفروليه ماليبو" بيضاء. كانت الخضرة من حولنا تتناقص والمساحات تصبح أكثر خواءً. صرخت "ليزا" من فرط الإثارة حينما رأينا أول "كاوبوي" وأول ثور أمريكي. ولكن "جوليا" بقت داخل عالم الآيبود. لذلك كنا نضطر أن نصرخ في وجهها حتى تسمعنا. "انظري يا "جوليا"، هناك فوق الصخور. نسر أمريكي". عندئذٍ تخلع السماعة: "ماذا قلتم؟".. "نسر، هناك. أوه.. لقد طار". شاهدنا ونحن في متنزه "بادلاندز" الوطني لافتات تحذرنا من الثعابين. وفي جبل "رشمور"، التقطنا صورًا للرؤوس المنحوتة لأربعة رؤساء أمريكيين في قلب الجبل. كانت "ليزا" هي التي تلتقط الصور. ليس لي صبر على التقاط الصور. كانت "كارولين" هي التي تتولى تلك المهمة عندما كانت البنات صغيرات. بينما تجد "ليزا" متعة كبيرة في ذلك، وبدأت تهواها منذ أن كانت في عمر التاسعة. بدأت بالتقاط صور للفراشات والأزهار، ثم اهتمت لاحقًا بإظهار أفراد أسرتها في تلك الصور.

وساعدتها "جوليا". كانت تتصنع الابتسام في كل صورة. ولكننا نعلم أنها مصطنعة. لأجلنا. وكأنها تشعر تجاهنا بالذنب. وذات يوم ونحن في منتزه "كاستر"، حيث استأجرنا كابينة لبضعة أيام، بادرتنا بقولها:

- آسفة. ربما أكون عبئًا عليكم في هذه الرحلة.

كنا نجلس خارج الكابينة الخشبية، إلى ترابيزة مجاورة للباربيكيو، حيث كنا نشوي قطع اللحم والبرجر. فقالت لها "كارولين":

- كفى سخافة يا "جوليا". تعلمين أنكِ ابنتنا الحلوة اللطيفة. افعلي كل ما يحلو لكِ. لا عليكِ، نحن في إجازة.

كانت "ليزا" منشغلة بتقليب قطع اللحم، ولكنها صاحت:

- وماذا عني؟ ألست الأحلى والألطف أيضًا؟

- طبعًا. أنتِ أيضًا. أنتما الاثنتان. أنتما أحلى شيء في حياتي.

نظرت إلى زوجتي. كانت تعض على شفتها وتمسح عينيها. وبعد دقائق، نهضت وهي تقول:

- سأذهب لإحضار المزيد من النبيذ.

فبادرتها "ليزا":

- يوجد نبيذ هنا يا ماما. فوق الترابيزة!

وفي "ديدوود"، تناولنا الطعام في "جيكس"، مطعم النجم "كيفن كوستنر". كان هناك موسيقي يعزف على بيانو كبير، وبصخب، جعل الحديث بنبرة صوت معقولة أمرًا مستحيلًا. كانت "جوليا" في عالم الآيبود، وتناولت معلقتين من طبقها، قبل أن تنسى أمره. وفي "كودي"، حضرنا عروض "الروديو". أما في منتزه "يلوستون" الوطني، فشاهدنا الكثير من الثيران، وكذلك الجاموس، وأنواعًا مختلفة من الغزلان. صعدنا إلى منطقة وجدنا فيها الكثير من السيارات المتوقفة بطول طريق ضيق. كان الناس يستخدمون نظارات معظمة وهم يشيرون إلى التل عند الجانب البعيد من جدول ماء. صاح رجل:

- دب.. لكنه اختفى وراء الأشجار.

أوقفنا السيارة عند "أولد فيثفول"، نبع الماء الساخن الذي ينفث رغوة بيضاء كثيفة في الهواء كل ربع ساعة. صاحت "ليزا" في انبهار عندما نفث النبع. بينما ابتسمت "جوليا" ورأسها تتمايل مع نغمات أغنية في الآيبود.

اتجهنا جنوبًا، حيث شاهدنا الهنود الحمر. ثم انطلقنا بالسيارة خلال وادي "مونومينت"، وتوقفنا عند ساحة سيارات تكاد تكون مهجورة، فيها علم أمريكي، وتوجد مقطورة تحمل مصنوعات تقليدية من صنع الهنود الحمر. سألت "كارولين" "جوليا"، التي بقيت جالسة في السيارة:

- ألا تريدين الخروج وإلقاء نظرة؟
ولكن "جوليا" هزت رأسها بالرفض، وهي تمسح عينيها.
- أترغبين في أن أبقى معكِ؟
أخبرونا في "كاينتا" أن محمية "نافايو" الهندية خالية تمامًا من الكحوليات. فلا توجد في المطاعم، ولا في السوبر ماركت. علقت "كارولين"، وهي تشرب من علبة "كوكاكولا":
- وكأننا في إيران. في قلب أمريكا.
بكت "جوليا" عندما شاهدت "الجراند كانيون" للمرة الأولى على الطبيعة. كنت معها وحدنا، بينما كانت "كارولين" و"ليزا" عند الحمام. وقفنا عند الحافة، ولم يكن هناك سور أو حاجز، ولكننا كنا بعيدين عن المجموعات الأكبر من السياح.
قلت لها، وأنا أشير نحو صقر، كان يحوم على مقربة منا، في صمت ومن دون أن يرفرف جناحيه:
- انظري..
التفت إليها، فتبين لي أنها قد خلعت سماعة الآيبود. تقف صامتة وهي تبكي بدموع غزيرة.
- أتريدين العودة إلى السيارة؟
- أنا عاجزة عن الإحساس بجمال كل شيء حولي.
سرت رعشة قوية باردة في جسمي. اقتربت منها وأمسكت يدها. حاولت أن أمسك معصمها برفق. فمنذ آخر مرة فحصتها فيها، وكان ذلك منذ ثمانية أشهر الآن، وهي تحرص على ألا ألمسها. وظننت أنه رد فعل سيذهب عنها بعد فترة، ولكنه لازمها. كانت تبتعد عني كلما مددت يدي لها.
- لا بأس. ليس عليكِ أن تجبري عقلك على التفكير في الجمال. في الوقت الحالي.

تناولت يدها. وقفنا معًا للحظات، ثم رمقت يد والدها التي تمسك بيدها، فسحبت يدها. ودارت وذهبت تمشي إلى الحمام، حيث "كارولين" و"ليزا". أسرعت خطاها لما رأت أمها. ثم ركضت نحوها. وارتمت في حضنها.

قضينا ليلتنا في "ويليامز"، وهي بلدة على طريق 66 القديم. تناولنا الطعام في الساحة الخارجية لمطعم مكسيكي. وشربت المارجريتا مع "كارولين". اقترب "كاوبوي" من المكان وهو يحمل جيتارًا، وكنا في بداية العشاء. وضع صندوقًا خشبيًا على الأرض على بعد أمتار من ترابيزتنا، وصعد فوقه. رمقت "جوليا" بينما كان "الكاوبوي" يبدأ أغنيته الأولى. كالعادة، كانت قد تجاهلت الطعام أمامها. ولكنها خلعت السماعة، وتأمَّلت "الكاوبوي". وجدت في عينيها النظرة نفسها التي كانت تنظر بها إلى "الجراند كانيون" في تلك الظهيرة.

كان الفندق قريبًا من خط السكة الحديد. رقدت مستيقظًا، وأنا أستمع إلى صوت قطار البضائع الرتيب. يمر قطار جديد كل نصف ساعة. تسمعه وهو يقترب من بعيد، معلنًا عن ذلك بصافرته. ذكرني صوته بصوت البومة، أو صوت حيوان ضال في الليل. قطارات البضائع طويلة للغاية. ومن وقع الصوت، حاولت أن أحصي عدد عربات القطار، ولكنني كنت أرتبك في العد في كل مرة. تذكرت "الجراند كانيون" ومغني "الكاوبوي". وبكاء "جوليا" ونظرة عينيها، ونحن في المطعم المكسيكي. شعرت بيد "كارولين" على مؤخرة عنقي:

– ما الأمر يا "مارك"؟ ألا تزال مستيقظًا؟ عليك أن تنام قليلًا.

انتقلت يدها إلى وجهي، وأصابعها تلامس وجنتيَّ.

– ما الأمر؟

تنحنحت، قبل أن أجيبها:

– أوه.. لا شيء. كنت أنصت إلى صوت القطار. أتسمعينه؟ هناك آخر يـ..

اقترب جسد "كارولين" من جسدي. احتضنتني من الخلف. ضمت ظهري إلى صدرها.

- ليس عليك أن تحزن. أقصد ألا مانع من بعض الحزن. أنا حزينة أيضًا. ولكن، ألم تلاحظ أنها قد بدأت تخلع السماعات أحيانًا؟ وأنها بدأت تنتبه إلى ما حولها. كما حدث هذا المساء، في المطعم. هناك تغيير يحدث يا "مارك".

كدت أقول لها أنني غير مقتنع بكلامها. ولكنني سكتُّ. التزمت الصمت، وأنا أحاول إحصاء عدد العربات. وفي النهاية قلت لها:

- أعتقد أنني سأنام الآن.

في "لاس فيجاس"، أمضينا أغلب الوقت جالسين إلى كراسي منطقة حمامات السباحة في فندق "تروبيكانا". تناولت المزيد من المارجريتا مع "كارولين". كنا نستغل الساعة المجانية لنشرب المزيد والمزيد منها. مقابل بعض العملات المعدنية التي كنا نلقيها داخل لعبة "البانديت" ذات الذراع الواحدة. وفي المساء، تجولنا في الشوارع الكلاسيكية المجاورة للكازينوهات. تأمَّلنا النافورات أمام فندق "بيلاجيو"، وهي تتراقص على إيقاعات الموسيقى. ومع زوال تأثير المارجريتا، شعرت بذلك الصداع في رأسي، ولم أرغب في أن أنظر تجاه ابنتي الكبيرة. بينما كانت "كارولين" معها. و"ليزا" منهمكة في التقاط الصور للنافورات بكل انبهار. ذهبت لأشتري آيس كريم و"كوكاكولا" للجميع، من كشك في الشارع، ولكن "الكوكاكولا" لم تخلصني من مرارة وجفاف حلقي.

- ربما علينا أن نغير من هذا الروتين.

هكذا اقترحت "كارولين" لاحقًا ونحن في السرير. كانت البنات في غرفتهما المجاورة لغرفتنا. بينما كنت أتابع مجريات بطولة "بوكر" تنقلها قناة تليفزيونية.

- حقًا؟

شربت جرعات كبيرة من علبة "بودفايزر" جلبتها من الميني بار.

- شيء أكثر راحة. ربما كانت الرحلة بهذه الطريقة فكرة غير جيدة. ربما أتعبنا عقلها بالتنقل بين العديد من الأماكن في زمن قصير.

شعرت بوخز في عينيّ، فصحت متألمًا.

- "مارك"! هل هذه هي طريقتك الوحيدة للتعامل مع الأمر؟ أن تجلس وتشرب وتثمل طوال اليوم؟ هذه الرحلة لأجل ابنتنا. ابنتنا الحزينة. وليست لأجلنا.

- ماذا؟

خرج صوتي أعلى مما قصدت. ووجدتني أمسح دموعًا عن وجهي، ربما كانت بسبب ألم عيني.

- ألم تفرطي أنتِ أيضًا في الشرب؟ لقد تناولتِ الكثير من المارجريتا. لم تمتنعي عنها إطلاقًا. كان عليكِ أن تري نفسكِ، وأن تسمعيها! كل هذا التصنع الذي تمارسينه. حتى "ليزا" انتبهت إلى ذلك، وغمزت لي وأنتما تجلسان معًا، تضحكان وتتناولان الفيشار بكل نَهَم. ما أقصده هو أن "جوليا" لم تعلق على كل هذا الذي تراه، ولكن هل تعتقدين أنها تحب أن ترى أمها على هذه الحالة طوال اليوم؟

- أنا؟ سكرانة؟ "مارك"، أنت لا تنتبه إلى ما تقوله. و"جوليا" كبيرة بما يكفي لأن تدرك أن أمها تكون على طبيعتها أحيانًا حينما تشرب بعض الخمر. لماذا هي في رأيك تصاحبني أنا دومًا؟ ولا تفعل ذلك معك. أما أنت، فشخصيتك تختلف تمامًا عندما تسكر. وتخاف منك.

شعرت بضيق أنفاسي، وكأن صدري تضاءل فجأة.

- لو أنها تخاف مني، فهذا لأنكِ أنتِ السبب!

نهضت عن السرير، وأنا ألقي بعلبة البيرة بكل قوة نحو الجدار.

- لأنكِ لم تحاولي فعل أي شيء لها سوى أن تلعبي دور الأم الحنون. التي تعامل ابنتها التي اغتصبت بلطف وإشفاق. وأنتِ تعلمين كما أعلم أنا أنها لم

تكن تطيق الجلوس معكِ قبل ما جرى في الصيف الماضي، بسبب تسلطكِ عليها. وأنها تعتبرني ألطف منكِ. تبًا، أنا لا أطيق مثل هذه التصرفات. أرى أنكِ سعيدة للغاية بأنكِ تمكنتِ أخيرًا من لعب دور الأم الحنون التي تشفق على ابنتها المسكينة المغتصبة. ولكنها لم تعد طفلة يا "كارولين"، وهي تدرك ما تفعلينه. والنتيجة هي أنكِ تسحبينها أعمق إلى قلب الهاوية التي سقطت فيها.

سمعنا طرقًا قويًا على الباب. نظرنا إلى بعضنا في جزع. ولكننا سرعان ما سمعنا صوت "ليزا":

- اصمتا! لا نستطيع أن ننام!

في الأسبوع الأخير، استأجرنا شقة في "جوليتا"، وهي ضاحية ساحلية في منطقة "سانتا باربارا". تناولنا الإستاكوزا في أحد المطاعم، بينما التقطت "ليزا" صورًا لطيور النورس الكبيرة التي كانت تحوم فوق الترابيزات الخشبية، لتقتات على بقايا الطعام. تمشينا في الشوارع التجارية. واشترت "جوليا" بلوزة. ثم اشترت حذاء "نايكي". كنت أنتظرهم في الخارج بينما تدخلن "البوتيكات".

وجدتها تضحك بين حين وآخر. ضحكات صادقة حقيقية. وكانت تمضي وقتًا طويلًا أمام المرآة في غرفتها بالشقة، قبل أن تأتي لترينا ما اشترته.

- هل يناسبني؟ أليس ضيقًا قليلًا عند الكتفين؟

التقطت "ليزا" صورًا لـ"جوليا" وهي واقفة في البلكون بملابسها الجديدة. رفعت ساقها وأسندت كعبها إلى الدرابزين المنخفض في استعراض. وارتدت نظارتها الشمسية، ثم رفعتها إلى شعرها. وانهمكت "ليزا" في التقاط الصور لأختها، وهي توجهها.. "الآن، انظري للشمس".. "الآن، انظري إليَّ.. هكذا.. لا ترفعي عينيكِ".

في أحد أيام الإجازة الأخيرة، ذهبنا إلى مطعم مكسيكي، تنتشر في ساحته أشجار النخيل والصبار، ولم يكن بعيدًا عن الشاطئ. سألت "كارولين":

- مارجريتا؟

قالت لي، وهي تغمز بعينيها:

- كأس واحدة لن تضر.

شاهدنا استعراضًا راقصًا في الشارع الرئيسي للبلدة. وخاضت البنتان وسط الزحام إلى أن وصلتا إلى نقطة رؤية أفضل، بينما وقفنا نحن في المؤخرة، فوق الرصيف، من دون أن نرفع عيوننا عنهما. قلت لزوجتي:

- معكِ حق.. لم تكن فكرة جيدة.

أسندت زوجتي رأسها إلى كتفي. شعرت بدفء شعرها على خدي.

- هذا أكيد.

44

ذات أحد، طالعت الصور التي التقطتها "ليزا".

كان ذلك بعد أن عدنا من أمريكا بأسبوعين. نقلت كامل محتوى "كارت الميموري" للكاميرا إلى اللابتوب. وتصفحت الصور. بدأت بالأحدث، ثم الأقدم فالأقدم.

أصارحك من البداية أن طريقة التصفح تلك لم تكن صدفة. فقد كان هناك أمر أخشاه، حتى أنني لم أجرؤ على أن أقر به في قرارة نفسي، وكان ذاك الذي أخشاه في صور بداية الرحلة. أو بالأحرى، الصور التي كانت في الفترة التي بكت خلالها "جوليا" عند "الجراند كانيون".

مررت على صور الكازينوهات في لاس فيغاس. وهناك صورة للمغني "الكاوبوي" عند المطعم المكسيكي في "ويليامز". وصور لـ"كارولين" وأنا نشرب المارجريتا ونلوّح في سعادة للعدسة. وجدت "جوليا" في الصورة التالية تلوح للعدسة مباشرة. وأمامها الطعام، لم يُمس. أجبرت نفسي على أن أنظر في عينيّ ابنتي الكبيرة مباشرة. وهناك، رأيت ما كنت أخشاه. وكذلك رأيت شيئًا آخر. قبل تلك الحادثة التي وقعت في إجازة المنزل الصيفي، كانت لعيني "جوليا" نظرة مغايرة. نظرة جريئة. غير مكسورة. هكذا أرى عينيها الآن أمامي، وأنا أحاول ألا أفكر في شيء. فأنا أعرف أن عقلي سيغيب عني لو أنني فكرت في أي شيء الآن.

أغلقت عينيّ، وضغطت بأناملي بقوة على أجفاني. لنصف دقيقة، وربما أطول. ثم فتحت عينيّ مجددًا. ونظرت مرة أخرى. الآن أرى شيئًا مختلفًا. من المستحيل ألا أراه. دومًا "جوليا" جميلة. بنت جريئة، منطلقة، آسرة للأنظار. ولكن كل ذلك غائب عنها يوم أن كانت تجلس في المطعم المكسيكي. لم تكن حتى بالنظرة الحزينة. إنها نظرة مميتة. "جوليا" في الرابعة عشرة. ولكنها لم تكن تنظر للعدسة نظرة فتاة تعيش سنها، ولكن نظرة فتاة شابة. نظرة فتلة علمت كل شيء. عرفت كل شيء. وجدت أن تلك النظرة زادتها جمالًا. وصارت الآن ذات جمال عميق أخّاذ، وليس مجرد جمال بريء لطيف.

عدت في الزمن عبر الصور. شاهدت صورًا لمناظر طبيعية جافة خاوية، ليس فيها سوى الصبار. محطات البنزين، ومطاعم "برجر كنج". قطارات البضائع. صورة لـ"كارولين"، وأنا، و"جوليا"، نجلس إلى ترابيزة خشبية في حديقة تطل على "الجراند كانيون". لا بد أنها التقطت قبل أن تدخل "جوليا" في نوبة البكاء. قبل أن تخبرني أنها فقدت الإحساس بجمال أي شيء. لكنني رأيت في عينيها العلامات الأولى للتغير الذي أضحى مؤكدًا في صورة المطعم المكسيكي. صورة أخرى أقدم، وفيها تقف أمام خلفية الرؤساء الأربعة في الجبل، هناك في جبل "رشمور"، وتنظر إلى العدسة وكأنها تبحث عن شيء. ربما كانت تبحث عن نفسها، أو هكذا خطر لي.

انتهت الصور بمجموعة لناطحات السحاب في شيكاغو، وأخرى لبحيرة "متشيجان" ملتقطة من عند برج "سيرز". ظننت أن الصور انتهت. لكنني اكتشفت مجموعة أخرى. فبعد صورة في المطار قبل أن نغادر هولندا، تظهر لوحة الرحلات (الرحلة 10611 – المتجهة إلى شيكاغو – الساعة 11:35 – بوابة C14)، وجدت أمامي صورة لزهرة. لا أعرف اسمها. صورة زووم. قرأت رقم الصورة في شريط الشاشة السفلي. تسعة وستون. أي أن هناك ثماني

مكتبة

وستين صورة أخرى. تصفحت أكثر. صورة فراشة فوق جدار أبيض، ثم صورة بورتريه لبقرة. بقرة بنية، في منخارها قرط نحاسي سميك.

كنت أشعر بما هو قادم من قبل أن يأتيني. حدست ذلك من تقطع أنفاسي. "ميموري" الكاميرا تتسع لأكثر من ألف صورة. والتقطت "ليزا" ما لا يقل عن ثلاثمئة صورة في أمريكا. علاوة على تسع وستين صورة قبل السفر. هناك في المنزل الصيفي. ولكنها لم تلتقط أي صورة طوال عام كامل بين الإجازتين.

عدت للصور الأقدم. واحدة لي وأنا جالس إلى مائدة الإفطار. في ذلك الفندق الجبلي الصغير. تلك العين التي كانت مصابة بخُرَّاج يومذاك. ترددت قبل أن أواصل تصفح الصور القديمة. تلك صور لا أريد أن أراها. بل صور أنكر وجودها من الأصل. لم أرغب أبدًا في تصفحها، صور إجازة لن يمكن لي أن أصفها بالعادية؛ لأنني أعرف ما جرى فيها. مثلها مثل صور الإجازات التي يظهر فيها كل شيء على نحو مثالي. فلن تعرف ما كان يشغل بال الموجودين في الصور. ها هي صورة لابنتي التي لا تزال في عامها الثالث عشرة، مستلقية فوق العوامة التمساح في البسين. تضحك في سعادة.. وقتذاك.

الآن، اختلف كل شيء، وذلك بسبب ما رأيته في صور أمريكا. الآن أريد أن أتأكد بعينيَّ من صحة ما يدور في عقلي، منذ عام كانت "جوليا" بنتًا بريئة، أما الآن فلا. هكذا قررت مواصلة التصفح. صورة لـ"جوليا" تجلس مع "أليكس" على الكرسي نفسه عند البسين، ويتشاركان سماعة الآيبود. صورة لـ"رالف" وهو يقطِّع السمكة. وصورة له مع "أليكس" و"توماس" عند ترابيزة "البنج بونج". وأخرى لـ"جوليا" و"أليكس" وسط مياه البحر عند أحد الشواطئ البعيدة، وهي تلوح للعدسة، بينما يحيط "أليكس" جسدها بذراعه. صورة لـ"كارولين" وهي مستلقية على بطنها، نائمة فوق مفرش عند الشاطئ، بينما تقف "جوليا" وهي تحمل صينية تمتلئ بالكؤوس ووعاء فيه ليمونادة وردي

اللون. صورة لي وأنا منهمك في حفر خندق في الرمال، لم أكن أنظر للعدسة. ثم صور لعبة رش المياه عند البسين، تلك الظهيرة التي لعبوا فيها لعبتهم المجنونة. استغرقت في النظر إلى صورة لـ"جوليا" وهي واقفة فوق لوح القفز. كانت تقف مثل عارضة أزياء محترفة، تنظر إلى العدسة بعينين ساهمتين، بينما ترتطم مياه الخرطوم ببطنها. محترفة فعلًا. ولكنه احتراف مصطنع، هي تقلد العارضات اللاتي ترى صورهن في المجلات فحسب. والآن وبعد مرور عام، لم يعد هناك تصنع أو تقليد. وعند الصورة التالية، تسارعت نبضات قلبي فجأة. ها أنا ذا، أقف عند شباك المطبخ، إلى جوار "جوديث". لم نكن ننظر للعدسة، بل إلى بعضنا البعض. بالكاد ترى أمها في الخلفية. حام إصبعي فوق زِرِّ الحذف لثوانٍ. ثم وجدت أنها ليست بالفكرة الجيدة. من يدري من قد يكون رأى هذه الصورة بالفعل. ربما تكون "ليزا" قد أخذت نسخة من هذه الصور لتضعها في الكمبيوتر الخاص بهما. ومن شأن حذف الصورة أن يثير من الشكوك قدرًا لم يكن ليوجد من الأصل لو أبقيت عليها. تبين لي أن الصورة ملتقطة من مكان بعيد جدًا، إلى درجة يصعب معها تحديد طبيعة نظراتنا أنا و"جوديث" لبعضنا البعض.

هناك صورة للطائر الصغير الذي كان قد سقط عن الشجرة، وهو في الصندوق الكرتوني. منكمش في ركن، قرب طبق الماء والفوطة الصغيرة. ورغم أنها صورة، فإنني أكاد أرى جسده الضئيل وهو يرتجف. ثم مجموعة صور يبدو أنها التقطت ليلًا، داخل الخيمة، وقت أن كنت أنا و"كارولين" نائمين. على ضوء كشاف في الغالب، كانت "جوليا" تصنع ظلالًا على قماش الخيمة بأصابعها. أرنب. ثعبان. وجدت عينيَّ تدمعان. غالبتني الدموع. فسارعت بتغيير الصورة.

مزيد من الصور عند حمام السباحة. "جوليا"، وقد ضمت ركبتيها إلى صدرها. "جوليا"، وقد جلست إلى حافة البسين. في صورة ترتدي البكيني، وفي أخرى تضع فوطة كبيرة على كتفها مثل شال. هناك عدد من الصور على ذلك النحو. استغرقت ثواني، قبل أن أدرك ما كنت أنظر إليه.

كانت "جوليا" تستعرض أمام العدسة. بأزياء مختلفة، أو هي على الأقل تتظاهر بأنها تستخدم أزياء مختلفة. ولكنها لم تكن تنظر إلى العدسة في كل تلك الصور. ولا إلى المصورة. لم تكن تنظر إلى "ليزا". بل إلى شيء أو شخص آخر، خارج الكادر.

سارعت بتصفح المزيد من الصور. وفي النهاية، في آخر ثلاث صور، تمكنت من أن أعرف من الذي كانت تستعرض أمامه. كان يجثو على ركبتيه أمامها، بينما تقف هي تحت الدُّش عند البسين. ترفع ساقها بطريقة استعراضية واضحة، والنظارة الشمسية على شعرها المبتل، وهي تنظر في جرأة إلى المصور الذي يجثو أمامها. يلتقط لها صورة، تمامًا كما رأيته يفعل في الصورتين التاليتين. كان "ستانلي فوربس" يبتسم ابتسامة عريضة وهو يصور ابنتي تحت الماء. بدت في الصورتين التاليتين كما لو أنها تفكر بعمق. في صورة أخرى، تقف "جوليا" من دون القطعة العلوية من البكيني، بينما غطت نهديها بيديها، في حياء مصطنع. وفي أخرى، تدخن سيجارة، وتنفث دخانها في وجه من صورها هذه الصورة الزووم.

- "ليزا".. تعالي إلى هنا.

كانت ابنتي الصغيرة في سريرها بغرفتها، تشاهد حلقة من "ساوث بارك". أشارت لي أن أهدأ، ولكنها تغيرت عندما رأت وجهي. أوقفت عرض الحلقة بالريموت، قبل أن تغادر سريرها.

- ما الذي كنتما تفعلانه هنا؟

سألتها، وأنا أعرض أمامها الصور. كنت أبذل جهدي حتى لا أبدو عصبيًا، ولكنني أكاد أسمع صوت نبضات قلبي.

- هذا "ستانلي".

- أجل، أرى هذا. ولكن ما الذي كنتما تفعلانه. وما الذي كان يفعله؟

- التقط صورًا لـ"جوليا". أخبرها أن من الممكن أن تكون عارضة أزياء. وأنه سيلتقط لها مجموعة صور، ويرسلها إلى جميع أنحاء أمريكا. وإلى مجلة "فوج"، كما قال. والتقط صورًا لي أيضًا.

تنهدت بعمق، قبل أن أقول:

- ما الذي تقولينه يا "ليزا"؟

- بابا، ما الأمر؟ لماذا أنت عصبي هكذا؟ التقط صورًا لي أيضًا. أخبرنا أن مجلات الموضة تبحث دائمًا عن الفتيات الصغيرات. وقال إن "إيمانويل" بدأت هكذا. قام بتصويرها في البداية، قبل أن يجعلها مشهورة.

- "ليزا"، أريدكِ أن تنظري إليَّ. ولا تكذبي. ما نوعية الصور التي التقطها؟

- لا تكن غريبًا يا بابا. أنا و"جوليا" صديقتان لـ"ستانلي" على "الفيسبوك". وأرسلنا له هذه الصور الجديدة، كما طلب منا.

- انتظري.. صور جديدة؟ أي صور؟

- صور أمريكا يا بابا. كان يسألنا كل مرة عن أي صور جديدة التقطناها، لذلك أرسلنا له صور الإجازة. صورنا نحن فقط طبعًا. أكثرها لـ"جوليا" وحدها؛ لأنني كنت المصورة. و"ستانلي" مشهور جدًا. طلب منا أن نصبر، ولكننا سنكون عارضات أزياءِ قريبًا. في أمريكا يا بابا. في أمريكا!

45

انتظرت. ولكنني لم أنتظر طويلًا.

كان فارق التوقيت مع كاليفورنيا تسع ساعات. كان "ستانلي" قد أعطاني رقمه عندما كنا في المنزل الصيفي. وأخبرني بأن أتصل به في أي وقت أكون فيه في "سانتا باربارا". وقد كنت منذ بضعة أشهر في "سانتا باربارا". ولكن ما حدث كان قد حدث وقتها. وبدا لي أن من الأفضل لـ"جوليا"، ولنا جميعًا، ألا نتواصل مع المخرج السينمائي.

اتصلت به، عند الخامسة مساءً، بتوقيت هولندا. كانت الثامنة صباحًا في "سانتا باربارا". تكمن المفاجأة هنا في أن مكالمتي هي التي ستوقظه. هكذا أجاب الاتصال على الفور تقريبًا، ولكنني أسفت لما أدركت من صوته أنه لم يكن نائمًا أبدًا.

- معك "مارك".. "مارك شلوسر".

- "مارك"! أين أنت؟ مضى زمن. هل أنت هنا؟ هل ستمر علي؟

- لقد عرفت أمر الصور يا "ستانلي". تلك التي التقطتها لابنتيّ.

خيم صمت لثوانٍ. أطول قليلًا من ذلك المعتاد في المكالمات الدولية.

- أوه.. هذا سيئ. لقد كانا يريدان أن تكون مفاجأة لكما. وهي رغبة "جوليا" بالأخص.

كان دوري لأصمت لثوانٍ. متفاجئًا.

- "مارك"؟ هل أنت معي؟ اسمع، طالما أنك قد عرفت، فعليك أن تلقي نظرة على موقعي الإلكتروني. وضعت الصور عليه. اخترتها من مجموعة الصور التي التقطتها.

- الحقيقة أنني أتصل بك لأمر آخر يا "ستانلي". أتصل لأنني أريد أن أعرف أين كنت في تلك الليلة. بعد أن حاول "رالف" ضرب الفتاة. لم أرك بعدها. حتى عدت في وقت متأخر إلى المنزل الصيفي ليلتها. هل كنت تتجول في الشاطئ؟ هل كنت تبحث عن فتاة تصلح أن تكون نجمة جديدة؟

كنت أتحدث بسرعة، وهو ما أدركته بعد فوات الأوان. ما كان لي أن أبادر باتهامه. كان لا بد أن أرخي له الحبل أكثر. "ستانلي فوربس" رجل محنك قذر ووغد. يلتقط صور الصغيرات وهو يعدهن بأحلام وردية لا يمكن أن تتحقق. هذه وحدها تهمة جنائية عقوبتها هذه الأيام السجن لسنوات طويلة خلف القضبان.

- "مارك"! أنا لا أصدق أنك تفكر في بهذه الطريقة!

سكت ولم أعلق. كنت أنتظره أن يكمل. ربما كان عليَّ أن أسجل تلك المكالمة.

- اسمعني يا "مارك"، أنا مقدر حيرتك تجاه ما جرى لـ"جوليا". ولكن الأمور تتجه للأفضل الآن. أرسلت لي "ليزا" و"جوليا" تلك الصور منذ أيام. تلك التي كانت في أمريكا. وقد سجلت بياناتهما بالفعل لدى وكالة للعارضات. وهما مهتمتان جدًا، بل زاد شغفهما بعد تلك الصور الجديدة، وخصوصًا صور "جوليا". أعتقد أنك قد رأيتها. تلك الصورة لـ"جوليا" عند ذلك المطعم. تلك النظرة في عينيها.. صورها عند البسين كان ينقصها شيء ما. ولكن نظرتها في تلك الصورة.. والصورة الأخرى، عند "الجراند كانيون". تبدو.. لا أدري كيف أصفها.. تبدو متميزة يا "مارك". أرسلت لها إيميلًا منذ يومين. عليها أن تسافر إلى هنا لجلسة تصوير جديدة. بوسعي أن أنفذها في هولندا، ولكن الإضاءة هنا مختلفة. ولن أتمكن من اصطناعها داخل إستوديو. أرى أنها

تخشى أن تفتح الموضوع معكما. تخاف أن ترفضا سفرها. ولكنني أؤكد لك أنني سأرعاها يا "مارك". ويمكنكما أن ترافقاها لو أحببتما. أنت و"كارولين". تعالوا جميعًا. منزلي كبير بما يكفي. وهو لا يطل على المحيط، ولكن صوت أمواجه مسموع هنا. كما أن لديَّ بسين. وبالمناسبة، لماذا لم تمروا عليَّ عندما كنتم هنا في الصيف؟ لقد كنتم في البلدة بالفعل، وقد عرفت ذلك من الصور. بل كنت أنا و"إيمانويل" في استعراض الشارع الذي كنتم تتفرجون عليه.

رغبت في أن أسأل "ستانلي" أين كان في الفترة من منتصف الليل وحتى الثانية صباحًا على وجه التحديد في تلك الليلة. ولكنني شعرت فجأة بعبثية كل ذلك. ها هو "ستانلي" يتحدث عن صورتي "الجراند كانيون" والمطعم المكسيكي في "ويليامز". وقد لفت انتباهه ما سبق ولفت انتباهي أنا أيضًا. وجدتني أسأله:

- وماذا عن "ليزا"؟

- أوه.. بالتأكيد. "ليزا". عليكما أن تحضراها معكما أيضًا. ولكن بيني وبينك، سيكون من الأفضل أن تنتظر لعام أو عامين. الأمر معها مختلف. هي لا تزال صغيرة. وهي مختلفة.. لو فهمت قصدي.

46

أخذت أشاهد الصور على موقع "ستانلي"، واحدة ثم الأخرى.

صور ابنتي الكبيرة. كانت عشر صور. وجميعها حلوة. وخاصة تلك التي تقف فيها "جوليا" تحت الدُّش عند البسين، وهي تضع نظارة الشمس فوق شعرها، ترى قوس قزح على الرذاذ المتناثر حول شعرها المبتل.

كانت هناك صورًا أخرى. ليس لـ"جوليا" فقط، بل لفتيات أخريات. "موديلات مراهقات"، ذلك كان العنوان الذي اختاره "ستانلي" للمجموعة. صورة لفتاة في "الجاكوزي"، في حديقة بها نخيل وصبار في خلفية الصورة. وعلى حافة "الجاكوزي" زجاجة شامبانيا وكأسان. فوق الماء الكثير من الرغوة، تحوم حول جسد الفتاة. كانت تنظر إلى العدسة مباشرة. ولا يمكن أن تلتقط الصورة من هذه الزاوية إلا إذا كان المصور نفسه داخل مياه "الجاكوزي".

عندما أمعنت النظر أدركت أنها "إيمانويل". وهي أصغر سنًا. أصغر مما هي عليه الآن. لا يمكن أن تكون أكبر من خمسة عشر عامًا في تلك الصورة.

في الموقع مجموعات صور أخرى. لها عناوين مختلفة؛ الصحراء، الغروب، الماء، السفر. تصفحت سريعًا صور الجمال والأهرامات، ومجموعة صور الغروب. وكانت مجموعة السفر مصنفة حسب المكان والسنة. كما كانت هناك سلسلة صور تحمل اسم الساحل الذي أمضينا عنده الإجازة في المنزل الصيفي منذ عام. تصفحت سريعًا الصور التي سبق لي أن رأيتها، صور كنائس وقلاع،

وكان "ستانلي" قد عرضها عليّ في شاشة الكاميرا وقتذاك. صور لـ"إيمانويل" وهي تقف أمام جدار أو إلى جوار تمثال. بعض الصور جديدة بالنسبة لي، صور في سوق السمك، قواقع وقناديل فوق رمال الشاطئ، صورة لمفرش أبيض فوقه فتات خبز. وفجأة، وجدتني أمام صورة لي. لم أكن وحدي، بل كنا جميعًا في تلك الصورة، نجلس إلى ترابيزة سطحها ممتلئ بكل الأطعمة والمشروبات في حديقة المنزل الصيفي، "رالف"، و"جوديث"، و"كارولين"، و"إيمانويل"، و"أليكس"، و"توماس"، وأم "جوديث"، و"جوليا"، و"ليزا"، وأنا ننظر إلى المصور، ونحن نرفع كؤوس الأنخاب.

مزيد من الصور في المنزل الصيفي. "رالف" وهو يقطع سمكة أبو سيف؛ "ليزا" وهي منشغلة بالصندوق الذي يحوي الطائر الصغير؛ "جوديث" وهي جالسة فوق كرسي عند البسين؛ وصورة في الحديقة، لرجل لم أعرفه، يرتدي "شورت" و"تيشيرت" بلا أكمام، ذراعاه أمام صدره، وينظر للكاميرا وهو يبتسم. في الصورة التالية، كان نفس الرجل يحمل خرطوم الحديقة، والمياه تنطلق منه إلى أعلى بقوة؛ وصورة أخرى لنفس الرجل وهو واقف بين ابنتيَّ، يحيطهما بذراعيه، ويبتسم للكاميرا. تلك الصورة تظهر مدى قصر قامته، وكان أقصر من "جوليا" بوضوح.

عدت للصورة الأولى، وللمرة الثانية في ذاك اليوم، ناديت على "ليزا".

- هذا السبّاك.

نظرنا إلى الصورة معًا. ترى فيها ذلك الوشم الذي يضعه على أعلى ذراعه، صقر يقبض بمخالبه على قلب ينزف.

- كان لطيفًا للغاية. وأخذ يمزح معنا. وكان يلقي النكات التي يسخر فيها من قصر قامته. كان يحاول دائمًا أن يقف إلى جوار "جوليا" ليؤكد فارق

الطول ويضحك كثيرًا. لم نكن نفهم أغلب كلامه، ولكنه قال شيئًا عن الفتيات الهولنديات، وأنهن أطول من الرجال هناك.

عدت بذاكرتي إلى تلك الأيام. في صباح الجمعة، ذهبت مع "كارولين" إلى وكالة التأجير. وأخبرتني فتاة الكاونتر بأن السباك سيمر علينا بعد الظهر. تلك الفتاة غير الجميلة، التي كانت صديقته. ثم ذهبنا نتسوق. تأخرنا؛ لأننا لم نكن نرغب في الرجوع إلى ذلك المنزل. تجولنا في السوق على راحتنا، وقبل ذلك ذهبنا لتناول الغداء. لا أتذكر ما إذا كان عطل خزان المياه قد أُصلِح أم لا عندما عدنا، ولكنني أتذكر أن في اليوم التالي، السبت، كان الأولاد يلعبون بخرطوم المياه عند البسين، فلا بد أنه كان قد أصلحه.

ثم تذكرت أحداث مساء السبت. والليلة عند الشاطئ. والتقائي بالسباك عند دورة مياه المطعم. ورؤيتي الوشم على ذراعه المتعرقة. والخدوش التي كانت على ذراعه الأخرى. ثلاثة خطوط حمراء.. وبكاء صديقته عند مدخل المطعم. ربما كانا قد تشاجرا للتو. ربما كان يتعلل لها بأسباب لغيابه الطويل عنها. ومن يدري، ربما أدركت هي أنه قد فعل شيئًا ما. ربما رأت تلك الخدوش على ذراعه. وبما أنها فتاة لم تعد عذراء، فلربما عرفت على الفور طبيعة تلك الخدوش. وأنها خدوش صنعتها أظافر أنثى.

أظافر فتاة صغيرة.

47

وجدت الممثل الكوميدي مجددًا في غرفة الانتظار في عيادتي.

كان ذلك في يوم الإثنين التالي ليوم تصفحت الموقع الإلكتروني. ذلك الكوميديان الذي صاح في وجهي وسبّني منذ عام، وأقسم ألا يعود إلى عيادتي. لم أكن قد انتبهت جيدًا إلى قائمة المرضى التي وضعتها مساعدتي على مكتبي صباح ذلك اليوم، أو بالأحرى أنني قد توقفت عن مطالعة تلك القائمة منذ أشهر، صرت أنتظر حظي في كل يوم، كما يقولون. قال لي ما إن جلس أمامي:

- ذهبت إلى دكتور آخر لفترة. ولكنني وجدته حميميًا زيادة عن اللزوم. أكثر حميمية منك على كل حال.

تأملت وجهه المستدير غير الوسيم، وبدا لي في صحة جيدة، حتى إنني خمّنت أن عدوى الإيدز تشخيص غير صحيح.

- حسنًا.. أنا سعيد أنك أ..

- وهناك أمر آخر. تصرفاته كانت غريبة. لا أدري إن كنت صادفت شيئًا مثل ذلك، وأنا متأكد أنك قد فعلت، ولكن هناك من الناس من يبالغ جدًا في محاولاته أن يبدو متسامحًا مع الشواذ. لدرجة أنهم يعتقدون أن الأمر طبيعي تمامًا. على الرغم من أنه ليس كذلك على الإطلاق. أقصد، أنه لو كانت المثلية الجنسية طبيعية، فلماذا تطلب الأمر معي خمس سنوات قبل أن أجرؤ على مصارحة أبويّ به؟ كان هذا هو ما ضايقني في الدكتور الجديد. كان يتحدث،

من دون مقدمات أو سبب وجيه، عن افتخار المثلي بنفسه وعدم الخجل منها، وعن محاسن الحرية الجنسية في هذا البلد. أنا، وعلى الرغم من كوني شاذًا، أكره جدًا تلك الحفلات التي يجتمع فيها الشواذ وهم لا يرتدون أي شيء تقريبًا. ولكن الناس الطبيعيين، المتسامحين، ربما لا يتخيلون أن ذلك يمكن أن يكون شعور شخص شاذ.

كنت صامتًا، وأنظر إليه وأنا أرسم على وجهي ابتسامة متفهمة. أخبرتني الساعة على الجدار أن هناك خمس دقائق قد مرت بالفعل، ولكنني لم أهتم، صار وقتي ملكي.

- اسمعني. بالتأكيد حصولنا على الحقوق نفسها هذه الأيام أمر رائع. وهذا على الورق. ولكن الحقيقة هي أن الناس يخشون من أن يوصموا بتهمة التمييز. ولذلك السبب يبالغون في الضحك المصطنع لو كان الكوميديان أمامهم قعيد على كرسي متحرك، حتى ولو كانت نكاته غير مضحكة. أو غير مفهومة أصلًا. أنت أب، أليس كذلك؟

- لابنتين.

- هل ترى أنه سيكون من الرائع لو عرفت أن واحدة منهما، أو كلتيهما، من الشواذ؟

- طالما أن ذلك هو اختيارهما.

- حقًا؟ لا تحاول تلك "الإكليشيهات" معي. لهذا السبب عدت إليك. لأنك لم تحاول أن تخفي كراهيتك لي. اشمئزازك. ربما كان في هذه الكلمة الأخيرة مبالغة. ولكنني أعرف ما أقول. ألست محقًا؟

ابتسمت مجددًا.. كانت ابتسامة صادقة هذه المرة.

- أرأيت؟! كنت أعرف ذلك. ولكنني لا أدري سبب شعوري بالراحة معك مقارنة بمن يحاولون جهدهم إظهار روعة أن يكون المرء شاذًا؟

- ربما لأنك أنت نفسك لا تجد الأمر رائعًا.

ضحك الكوميديان بصوتٍ عالٍ، قبل أن يقول بنبرة جادة:

- أعتقد أن الروعة هي الكلمة الرئيسية هنا. لم يكن أبواي يجدان سهولة في استيعاب اختيار ابنهما. وقبول أن يكون لي رفيق وليس رفيقة. وألا يشغلا بالهما إلا بسعادتي وحسب. ولكنهما بالتأكيد لا يجدان الأمر رائعًا. ولا أعتقد أن هناك أبًا أو أمًا يرتاح إلى تلك الحقيقة. هل سبق لك أن سمعت أمًا أو أبًا يصفان ابنهما الشاذ أو ابنتهما الشاذة بذلك الوصف؟ وأنهما يشكران الرب على أنه قد جعل الابن أو الابنة على ذلك النحو؟ أقصد أنني كوميديان، وحاولت في عروضي أن أتناول هذا الموضوع. ولو أنني لم أفعل لعجزت عن تقدير نفسي حق قدرها. أنت.. تفهم قصدي.

- صحيح. أنا أعرف قصدك. ما الذي تريد مني أن أساعدك فيه؟

تنهد بعمق، قبل أن يقول:

- البروستاتا. صار الأمر واضحًا عندما أتبول. أعتقد أنك.. تعرف ما فكرت فيه.

نظرت في مؤخرة الكوميديان وهو راقد فوق ترابيزة الفحص. ولكنني عجزت عن عدم استحضار تلك الكلمات التي قالها أستاذي في البيولوجيا الطبية. قال لنا "آرون هرتزل":

- سأقولها لكم مرة واحدة. لو كان الرب قد اختار للإنسان أن يكون قادرًا على أن يمارس الجنس في مؤخرة الطرف الآخر، لكان قد جعل تلك الفتحة أكبر. ولقد تعمدت استخدام كلمة الرب هنا، وليس كلمة الطبيعة أو البيولوجيا. فكل شيء مقصود ومقدر. الأمر ليس صدفة. أنتم تجدون أن الأشياء التي لا ينبغي لنا أكلها ذات رائحة أو مذاق نتن. كما أن هناك الجانب المؤلم. حيث يخبرنا الألم الناتج عن إدخال قلم في عيننا أن هذا فعل غير منطقي أو عاقل. والتعب

والإنهاك إشارة من الجسد تخبرك أن عليك أن ترتاح. وحتى يتسنى للقلب أن يضخ الأكسجين الكافي لكل أنحاء الجسد.

خلع البروفيسور "هرتزل" نظارته، وأخذ يتطلع في أنحاء قاعة المحاضرات، قبل أن يردف:

- أنا لا أصدر أحكامًا أخلاقية هنا. فبوسع كل إنسان أن يمارس ما يحلو له وبكل حرية، ولكن ممارسة الجنس من الخلف مؤلمة، وهذه حقيقة. يخبركم الألم أن هذه الممارسة غير سليمة. وأن عليكم التوقف عنها، قبل فوات الأوان. والجسد ينصت للألم. هكذا هي البيولوجيا. تمامًا كما أننا لا نلقي بأنفسنا من الطابق السابع، إلا إذا كنا نرغب في الانتحار.

حدث ذلك فجأة. أعتقد أنني كنت أكبته، أو ربما أنني نسيته ببساطة، ولكنني الآن أتذكر ما قاله "هرتزل" بعد ذلك. شعرت في البداية وكأن هناك شيئًا ما يحجب الرؤية عن عينيَّ، ثم شعرت بشفتي السفلى ترتجف رغمًا عني.

- تجدون أن كل شيء يتعلق بالطفل الصغير هو صغير أيضًا. كل شيء. هذه هي البيولوجيا. لا يمكن للبنت الصغيرة أن تصير حاملًا. وهي في تلك الحال مثلها مثل المرأة التي تجاوزت الأربعين. لذلك لا يوجد منطق بيولوجي في ممارسة الجنس مع طفلة غير ناضجة جنسيًا. كل شيء فيها لا يزال صغيرًا للغاية. ثم هناك غشاء البكارة. وهو هبة رائعة من البيولوجيا. بل تكفي وحدها لتدفعك إلى الإيمان بوجود خالق.

تعالت ضحكات مكتومة في القاعة، من أغلب الطلاب. وأكمل البروفيسور:

- أود أن أستحضر معكم صورة العضو الذكري المنتصب. فلو حاول الذكر الناضج هذا أن يمارس الجنس مع أنثى صغيرة غير ناضجة جنسيًا تكون النتيجة هي الألم. لا تفعل ذلك. بل ربما تصيح فيه الصغيرة بهذه الكلمات. يؤكد مجتمعنا على أن الرجل الناضج الذي يحاول أن يمارس ذلك مع طفلة أو

طفل صغير عقابه السجن. فالقاعدة الأخلاقية هنا واضحة، حتى إن زملاءه من المساجين يؤمنون بها، وهي أن من يعتدي جنسيًا على الصغار لا يستحق الحياة. وتجدون اللصوص والقتلة ينظرون إليه نظرة استحقار. وفي هذا منطق. فهم يتصرفون وفق أسس الطبيعة. وكما ينبغي لأي إنسان سليم العقل أن يتصرف. تمامًا كما كان الإنسان قديمًا يتصرف منذ أمد بعيد، وقت أن كان للبيولوجيا سطوتها، وقت أن كانت أقوى من القانون. كان عقابه هو الإعدام فورًا!

الآن خيم الصمت ثقيلًا على أرجاء القاعة. فلا صوت، ولا نفس.

- لا أنوي طرح حلول لهذه المعضلة الأخلاقية. كل ما أريده هو أن تفكروا أولًا قبل أن تنساقوا إلى قبول قواعد أخلاقية في عصرنا هذا صارت أقرب ما تكون إلى اكتساب صفة المعقولية. لذلك أختم بعرض حالة افتراضية بسيطة أود منكم التفكير فيها خلال الأسبوع المقبل.

طالت وقفتي عند ترابيزة الفحص. مر وقت أطول مما قد يعتبره الكوميديان طبيعيًا. وهكذا غسلت يديَّ. وارتديت القفاز المطاطي. لا بد من القيام بالفحص. الفحص الداخلي للبروستاتا من خلال فتحة الشرج. لكنني عاجز عن قطع سيل الأفكار. يبدو أنها سوف تتدفق حتى النهاية. أخذت نفسًا عميقًا. وحتى أكسب المزيد من الوقت، وضعت يد على مؤخرته، بينما كنت أتنفس بعمق. يكمل البروفيسور "هرتزل" كلامه:

- نحن نعتبر الذكر الناضج الذي يحاول أن يفرض نفسه جنسيًا على صغير أو صغيرة شخصًا غير طبيعي، منحرفًا، مريضًا بحاجة إلى علاج. ومن هنا تنشأ المعضلة، التي هي قضيتنا طوال الأسبوع المقبل. فما نوع العلاج المطلوب هنا؟ وقبل أن أدخل في التفاصيل، أرغب أولًا في أن تسألوا أنفسكم: من بين الحاضرين هنا اليوم، ينجذب حوالي واحد وتسعين بالمئة إلى الجنس الآخر، بينما ينجذب تسعة في المئة إلى الجنس نفسه. وهناك أقل من واحد في المئة

يشعر بانجذاب جنسي إلى الصغار، لذلك أعتقد أن لا أحد من تلك النسبة موجود معنا اليوم.

تعالت ضحكة في القاعة، ضحكة ممتزجة بالضيق.

- دعونا نعكس الأمور. وحتى نفهم ذلك المثال، دعونا نتخيل إمكانية حظر ميولنا الجنسية. وأن من الممكن أن نُعتقَل في حال ضُبِطنا متلبسين ونحن نمارس الجنس مع شخص بالغ من الجنس الآخر. ومن ثم نُسجَن لسنوات في زنزانة أو مصحة. وأن هناك علماء نفس أو أطباء نفسيين سيتحاورون معنا خلال فترة السجن. وأن علينا أن نقنع ذلك العالم أو الطبيب أننا مستعدون لتلقي علاج. وفي النهاية، يكون علينا أن نقنعهم أننا قد تعافينا وتعالجنا بالفعل. حتى يتسنى للاختصاصي أن يضع تقريره الذي يقرر فيه أن هذا الشخص لم يعد يشكل خطرًا على المجتمع. وهكذا تخلينا، نحن الرجال، عن الانجذاب إلى النساء، وتخلت النساء عن الانجذاب إلى الرجال. ولكن الواقع يقول إن هذا محال، وإنه لا علاج لنا من ذلك. فكل ما يريده الرجل هو أن يكون طرفًا في علاقة مع أنثى في أسرع وقت، وكذلك هو حال الأنثى.

حركت يدي سنتيمترات فوق مؤخرة الكوميديان. وكأنني سأفعل شيئًا. ولكن ما خطر لي بعد ذلك هو جزء من المحاضرة لم أعد أتذكره بوضوح، ولكن للأمر بلا شك علاقة بفكرة علاج المعتدين جنسيًا على الأطفال. فكل ما أتذكره هو مشهد تلك المقلاة الممتلئة بـ"أم الخلول" في النهاية.

- لنأخذ مقلاة ممتلئة بـ"أم الخلول" مثلًا. أمامكم على مائدة الطعام. رائحتها شهية. ومذاقها طيب. ولكن لنفرض أن هناك مَن طلب منا ألا نتناول "أم الخلول" التي لا تزال محارتها مغلقة. لأنها قد تجلب لنا المرض. أريد منكم التفكير في ذلك الطبق كما تفكرون في واجب الأسبوع المقبل. بعضها مريض. وبعضها ميت. فهل نستخدم القوة لنفتحها ونأكلها؟ أم ندعها تتحاور مع

طبيب أمراض نفسية لعامين، قبل أن نضعها في أفواهنا لمجرد أن الاختصاصي أكد لنا أنها قد صارت الآن قابلة للأكل؟ أم نتخلص منها وحسب؟ أراكم في الأسبوع المقبل.

تحرك الكوميديان وهو فوق ترابيزة الفحص. رفع رأسه ونظر نحوي. كان مندهشًا:

- "مارك"؟.. ما الأمر؟

حاولت أن أبتسم، ولكنني أحسست بألم في صدغي. ألم جاف.

- وما الذي يمكن أن يحدث؟

عجزت عن أخدع نفسي أكثر من ذلك. أعرف أن المنظر أمامي يبعث على الاشمئزاز. خاصة مع كل هذا الشعر. وأدركت أن اشمئزازي صحي. أنت أمام طبق طعام نتن ولا يمكنك أن تأكله. هذا هو التصرف الطبيعي! ذهب تفكيري إلى النساء. ليست "كارولين" و"جوديث" فقط، بل النساء عمومًا. تلك هي البيولوجيا، كما علمنا البروفيسور "هرتزل". الرجل الذي لا ينجذب لأي امرأة أشبه بسيارة تعطلت فيها دواسة البنزين ودواسة الفرامل في الوقت نفسه. ورائحة سيارة مثل هذه تكون رائحة مطاط محترق، وما هي إلا لحظات قبل أن تندلع فيها النيران. البيولوجيا تملي على الرجل رغبةً في أن يعاشر أكبر عدد من النساء. لتحملن منه. وجدتني في القفزة الذهنية نفسها التي قفزتها منذ ثلاثين عامًا خلال محاضرة البروفيسور "هرتزل". أيمكن أن أعالج نفسي؟ هل أقدر، في حال اعتبر المجتمع أن رغباتي السليمة هذه مرضًا، على إقناع الخبير النفسي أنني قد تعالجت الآن؟ ظننت أنني قادر على ذلك. ولكن ما إن خرجت إلى الشارع، حتى وجدتني أعود إلى ما اعتدت عليه في ظرف أربع وعشرين ساعة.

أنا لا أود أن أضع نفسي في مكانة أخلاقية أعلى من أولئك الذين ينجذبون إلى الفتيات الصغيرات. فكل الرجال ينجذبون إلى الفتيات الصغيرات. تلك هي

بيولوجيا أيضًا. ننظر إلى البنات كمن ينظر إلى المستقبل، هل سيكون بمقدورهن، في المستقبل المنظور، العمل على ضمان بقاء الجنس البشري؟

ولكن المبالغة تكمن في التأثير على ذلك الانجذاب. لدى البيولوجيا منظومة الإنذار الخاصة بها، حيث تصدر جميع أنواع التحذيرات من الفتيات الصغيرات. ابتعد! إياك! سوف تخسر الكثير! قلت للكوميديان:

- أعتقد أن من الأفضل أن تجلس.

عدَّل من وضعه، وجلس وساقاه تتدليان من عند حافة الترابيزة، وعندما رأى وجهي، أخرج منديلًا من جيبه وناوله لي.

- خذ.. لا تقلق، فهو مغسول.

- آسف.

حاولت أن أنظف أنفي به، ولكن أنفي فارغ بالفعل.

- لو أمكنك العودة في موعد آخر.. أو يمكنني تحويلك إلى الطوارئ.

- ليس عليك أن تخبرني أي شيء. ولكن لو وجدت في نفسك رغبة في الكلام، فأهلًا بك في أي وقت.

فتح لي ذراعيه عن آخرهما. ونظرت إلى وجهه المستدير الصريح. وحكيت له. حكيت له كل شيء. لم أحجب عنه إلا أشياء بسيطة. وأنا أنظر للمستقبل. وأخطط له.

- لم تتوصلوا أبدًا إلى أي طرف خيط يقودكم إلى من فعلها؟

- كلا.

- اللعنة. مع شخص ارتكب جريمة مثل هذه، يكون بوسعـــ.

لم يكمل جملته، ولم تكن هناك ضرورة لذلك. ظهرت في مخيلتي صورة طبق "أم الخلول"، تلك التي لم تنفتح محاراتها بعد.

48

كأس الكوكتيل القاتل فوق الترابيزة المجاورة لسرير "رالف".

إلى جوار طبق زبادي فواكه نصف مأكول ولا تزال الملعقة في قلبه، وصحيفة الصباح، وسيرة ذاتية عن شكسبير كان يقرؤها خلال الأسابيع الأخيرة. بداخله "بوك مارك" يشير إلى أنه قرأ أكثر من نصف عدد صفحاته. طلب من "جوديث" وولديه مغادرة الغرفة لدقيقة.

عندما خرجوا، أشار إليَّ بأن أقترب.

- "مارك"..

تناول يدي فوق البطانية، ووضع يده الأخرى فوقها.

- أريد أن أعتذر منك. ما كنت.. ما كنت أبدًا.. أنا آسف.. هذا ما أود أن أقوله لك.

تأملت وجهه، الضامر والمتورم في ذات الوقت، عيناه اللتان تنظران إليَّ الآن، ولكنهما خلال ساعة من الآن ستعميان إلى الأبد. سألته:

- كيف تجري الأمور هذه الأيام.. معها؟

هززت كتفيَّ في حيرة.

- "مارك"..

شعرت بضغط يده على يدي. حاول أن يزيد من ضغط قبضته، ولكن قواه خانته.

- هل يمكنك أن تخبرها.. بالنيابة عني.. هل يمكن أن تخبرها ما قلته لك للتو؟

أشحت بعينيَّ عن وجهه، وسحبت يدي بسهولة من يديه. وقلت له بحسم:

- لا.

تنهد بعمق، وأغلق عينيه للحظات، قبل أن يفتحهما مجددًا.

- "مارك"، لقد ترددت طويلًا في أن أخبرك بهذا. وقلت لنفسي ربما أكون أنا آخر إنسان تود أن تسمع منه هذا الكلام.

- ما الذي تتحدث عنه؟

- عن ابنتك يا "مارك". عن "جوليا".

رمقت الباب لا إراديًا، ثم انتقلت عيناي إلى كأس السم بجوار سريره. ولمح "رالف" نظراتي.

- رأيت في النهاية أن عليك أن تعرف. ربما تأخر الوقت، ولكنني لم أعرف إلا منذ فترة قصيرة. منذ أسبوعين.

ظننت لجزء من الثانية أنه سيتحدث عن "جوديث"، وأنه عرف بأمر علاقتنا، أو أنها اعترفت له بكل شيء، وأنه يريد أن يتمنى لنا السعادة معًا. ولكنني انتبهت إلى أنه بدأ كلامه بذكر ابنتي.. "جوليا".

- طلب مني "أليكس" أن أقسم على كتمان السر. وهو يعرف أن وفاتي قريبة، ولذلك أخبرني. كان يريد أن يزيح همًا عن صدره، وأخبرني أنه يكاد يُجنُّ من الاحتفاظ بذلك السر. وأمه لا تعرف شيئًا. هو وحده يعرف. هو و"جوليا".

فكرت في تلك الليلة عند الشاطئ. وفي رد فعل "أليكس" حينما صادفنا أنا و"جوديث" قرب النادي. كان يخفي سرًا. هذا ما كنت أشك فيه في ذلك الحين. لم يكن يحكي لنا كل شيء.

- هل تذكر السباك الذي أتى إلى المنزل لكي يصلح خزان المياه فوق السطح؟ عندما كانت المياه مقطوعة؟

ربما كنت شاردًا؛ لأن "رالف" حاول أن يُذكِّرني:

- السباك. من وكالة التأجير. ذلك الصغير. ربما في العشرين أو الثلاثين..

- أجل، أتذكر.. السباك.. ليصلح المياه. ماذا عنه؟

تنفس "رالف" بصعوبة، وبصوت شبيه بتفريغ هواء من وسادة هوائية:

- رتبت "جوليا" للقائه في ذلك المساء. السباك. لا أعرف متى اتفقا على اللقاء، ولكنني أعتقد أن ذلك كان خلال واحدة من المرات التي حضر فيها إلى المنزل. أو ربما في القرية أو عند الشاطئ. أيًا كان، فقد اتفقا على اللقاء عند نادي الشاطئ ليلة الحفلة. وحاول "أليكس" أن يثنيها عن ذلك، وراوده شعور غير مريح تجاه ذلك. ما أقصده هو أن "أليكس" كان يعاني في الأصل في علاقته معها. كانت تنظر إليه على أنه لا يزال صغيرًا، وهي تريد علاقة مع رجل ناضج. على كل حال، في ذلك المساء.. في تلك الليلة.. قرر "أليكس" أن يرافقها. لأنه كان يشعر بالخوف عليها، مثلما حكى لي. ثم حدث ما حدث. وهدد الشاب "أليكس". هدده بأنه سوف يؤذيه لو أنه تحدث عما جرى لأبويه. آه.. ليتني كنت أعرف حينذاك.. لما كنت تركت ذلك الوغد حيًا.

- ولكن.. كيف.. "جوليا"؟

- مهلًا، أنا لم أنتهِ بعد. فلقد اتفقت "جوليا" و"أليكس" على كتمان حقيقة ما جرى. بل طلبت منه أن يقسم على ذلك.

- ولكنني عثرت عليها.. عثرت عليها هـــ.

- كانت خجلة من نفسها، وتشعر بأن الخطأ خطؤها. وظنت أنك و"كارولين" ستتهمانها بأنها السبب في كل ما جرى لها، وأنكما لن تثقا فيها من جديد. وأنك لن تسمح لها بالذهاب إلى أي مكان وحدها بعد ذلك. لهذا تظاهرت بأنها غائبة عن الوعي، حتى تخبركما لاحقًا أنها لا تتذكر أي شيء.

بعد نصف ساعة، كنت أقف مع "جوديث" في الردهة. وقد ذهب "توماس" مع "أليكس" إلى الكافيتيريا. وعبرت "جوديث" عن ارتياحها لتواجدي معهم. وأكدت لها أن "رالف" يرحل عن الدنيا بكل كرامة.

عندما أتى دكتور "ماسلاند"، وهو يثرثر عن عيِّنة النسيج التي لم تصل إلى المستشفى أبدًا. وطلب من "جوديث" الموافقة على إجراء التشريح. قالت لي "جوديث" بعد أن ابتعد الطبيب:

- أليس هذا غريبًا؟ ألا تتذكر ما حدث وقتذاك؟ أتذكر أنك أخبرتني أن المستشفى أبلغتك بأن الحالة ليست خطيرة.

- معكِ حق، هذا غريب. وذلك الوغد يتصرف كما لو أنني من أضاع العينة، على الرغم من أن الغلطة غلطتهم.

- ولكنك تقول الآن إنك لا تتذكر. فلماذا قلت ذلك يا "مارك"؟ أنا لا أفهم أي شيء. ظننت أن هناك أمرًا لا أعرفه، شيئًا ما بينك وبين "رالف". ما الذي كان "رالف" يود أن يخبرك به، قبل أن يتوفى؟ هل لذلك علاقة بما نتحدث عنه؟

- اسمعيني يا "جوديث". أعتقد أن من الأفضل لكلينا ألا نلتقي لفترة. ربما ليس لفترة فحسب. ما أقصده هو لمدة طويلة. لقد وقفت بجانبك حتى الآن، ولكن عليَّ الآن أن أعتني بحياتي. ولقد جرى لنا الكثير. أشياء لا تعرفينها. كل ما أقوله لكِ الآن أن من الأفضل ألا نكون معًا.

49

عقب يومين، تلقيت مكالمة من دكتور "ماسلاند".

كنت في خضم مواعيد العيادة. وكنت مع كاتبة أدى إفراطها في تناول النبيذ الأحمر إلى أن تبدو أكبر بعشرين عامًا من عمرها الحقيقي، أو ثمانية عشر عامًا على الأقل، من واقع صورتها في ظهر غلاف روايتها الجديدة.

- هل يمكنني أن أعاود الاتصال بك؟ أنا مع مريضة الآن.

- أخشى أن الأمر عاجل يا دكتور "شلوسر". خطير.

تقدم العمر بوجه الكاتبة بشكل متسارع خلال السنوات الأخيرة، حيث يجفف النبيذ الأحمر البشرة من طبقتها الداخلية. فالأمر مثل أن تسحب المياه من مجراها. فلا تعد البشرة رطبة، بل أقرب إلى الأرض البور. لا حياة. ومعروف أن الحيوانات تخاف الأرض البور. فليس فيها نبات. وتتلاعب بها الشمس، وتعصف بها الرياح. وتبدأ التشققات في الظهور. بتأثير عوامل التعرية.

- ألم تعرفوا مصير عينة النسيج بعد؟ تلك التي أرسلتها إليكم. غريب أن تفقدوا شيئًا مثل هذا.

سمعت تنهيدة عالية في الطرف الآخر. تلك التنهيدة التي يطلقها الاختصاصي حينما يجد نفسه مضطرًا لشرح حالة معقدة لطبيب عام. يتجاوز القدرات العقلية لأمثالي.

- لم نتوصل إليها حتى الآن، ولكن ليست هذه هي المشكلة. لقد أجرينا تشريحًا لجثمان السيد "ماير" بالأمس. وقد أظهرت النتائج، ومن دون أدنى شك، أن هناك من أخذ عيِّنة نسيج من جسده، ونحن نفترض أن من فعلها هو أنت يا دكتور "شلوسر".

- وهذا بالضبط ما كنت أحاول أن أخبركم به طوال الوقت.

- دعني أكمل كلامي أرجوك يا دكتور "شلوسر". الأمر هو أن العيِّنة المأخوذة كانت أكبر كثيرًا من المطلوب. ومن مساحة كبيرة للغاية. مع العلم أن أي طبيب يدرك أنه في حال وجود أدنى شك في أن المريض يعاني من مرض خطير فإن من الضروري عدم أخذ أي عينة من الأصل. وأن عليك أولًا أن تطلب تحليل عدد كرات الدم البيضاء، ومن ثم تأخذ عينة إن استدعى الأمر ذلك. هذا ما تعلمناه في سنة أولى طب يا دكتور "شلوسر".

- كنت أظن أنني أتعامل مع تورم في الغدة. وكان هذا هو التشخيص الأقرب، بالنظر إلى عادات السيد "ماير" الغذائية.

- بسبب طريقة أخذ العيِّنة، فربما تكون الخلايا دخلت في مجرى الدم. وهكذا تضاءلت فرص شفاء السيد "ماير" تمامًا. وقد أبلغت تقريري للجهات المعنية. والتحقيق يستغرق أسابيع أو أشهر، ولكن بسبب الطبيعة الملحة لتلك الحالة، وخاصة أنها تتعلق بسمعة المستشفى، فيبدو أنهم سيتعاملون مع المسألة على الفور.

- بمعنى؟

- سوف يعقد المجلس الطبي جلسة تحقيق معك. يوم الثلاثاء المقبل عند الساعة التاسعة صباحًا.

تبسمت للسيدة الجالسة أمامي، بينما أسمع هذا الكلام، بعد أن أحسست أنها اختنقت من طول الانتظار، وتتململ في كرسيها.

- الثلاثاء المقبل.. ولكن الجنازة يوم الجمعة. وظننت أن..

- دكتور "شلوسر"، أتمنى أن نفهم بعضنا البعض بوضوح. أعتقد أن العائلة لا ترغب في حضورك الجنازة. وخاصة بعد أن نعرفهم بالنتائج التي توصلنا إليها.

- ومتى سيكون ذلك؟ ولِمَ الاستعجال؟ أهناك قرار نهائي صدر؟ لن يكون ذلك قبل يوم الثلاثاء، أليس كذلك؟ وربما يرغب المجلس الطبي في أخذ وقته الكافي لتناول القضية.

أدركت أنني أطرح الكثير من الأسئلة. وهي عادة الشخص العصبي المضطرب. ولكنني لم أكن عصبيًا، أو هكذا أردت أن أقنع نفسي. ولكنني انتبهت إلى أنها أول مرة أنطق فيها بعبارة "المجلس الطبي" أمام مريض أو مريضة.

سمعت نفس التنهيدة مرة أخرى.

- نحن نرسل النتائج عبر البريد دومًا، وهذه هي الوسيلة الوحيدة التي بوسعي أن أساعدك بها. نحن ملزمون بتعريف العائلة، ولكننا سنفعل ذلك عبر البريد التزامًا بالتنظيمات، بينما نقوم بتعريف الطبيب المعني في الحال. أرى أن هذه مساعدة يقدمها زميل لزميله يا "مارك".

50

- مرحبًا.. أنا "هرتزل".

صوت الإنسان لا يتغير مع التقدم في السن. وحتى لو لم يكن قد نطق باسمه، كنت سأميز صوت أستاذي السابق في كلية الطب من بين مليون شخص.

- بروفيسور "هرتزل". كيف حالك؟

- ربما كان عليّ أن أسألك أنا هذا السؤال يا "مارك". هل أنت بمفردك؟ هل يمكن أن نتحدث بحرية؟

كنت وحدي فعلًا، جالسًا في مكتبي بالعيادة. وكانت غرفة الانتظار مزدحمة على غير العادة، هناك ما لا يقل عن أربعة مرضى في انتظار دورهم، ولكنني لم أكن جاهزًا بعد لاستقبال أي منهم.

- أنا بمفردي.

- أوكيه. أرجو أن تعذرني لو تحدثت من دون مقدمات يا "مارك". وأطلب منك أن تسمعني أولًا، ثم تحدث كما تشاء بعد ذلك. تمامًا مثل الأيام الخوالي، خلال المحاضرات. موافق؟

- أكيد.

- جميل. اسمعني. لقد عملت في العديد من الوظائف منذ أن تم طردي من الجامعة، ولكنني لن أدخلك في تلك التفاصيل. إن هولندا دولة قائمة على الاستبداد. ومن يسقط فيها لا تقوم له قائمة بعد ذلك. لقد عملت لسنوات في

أماكن لا تناسبني على الإطلاق. وعلى كل حال، فإن الأفكار التي عبرت عنها في ذلك الوقت صارت اليوم مقبولة على نطاق واسع، ورغم ذلك لم يعتذر لي أحد. ولكنني في السنوات الخمس أو العشر الأخيرة تحصّلت على عمل يناسبني بصورة أفضل. فمثلًا، عملت آخر عامين استشاري غير متفرغ للمجلس الطبي.

هنا صمت "آرون هرتزل" لثوانٍ، ولكنني التزمت الصمت بدوري. وكنت مصغيًا تمامًا.

- جميل. كل ما أقوم به هو المشورة، ولكن ليس لي سلطة إصدار قرار. وأحيانًا أرى ما لا يراه غيري. ومنذ أيام، وجدت ملف قضيتك على مكتبي يا "مارك". تعرفت على اسمك فورًا. ممارس عام. ولطالما كنت آسفًا لأنك لم تكمل دراستك العليا، مع قدرتك الكبيرة. وفي صباح الغد، عند التاسعة، تحين ساعة الحقيقة. وقد درست ملفك بعناية، وخاصة أنك كنت طالبًا لديَّ. والحقيقة أنني حددت رأيي سريعًا. اسمعني جيدًا يا "مارك". سوف أطرح عليك بعض الأسئلة. وأفضل شيء بالنسبة لي أن تجيب إما بنعم أو بلا. وهذا تحقيق غير رسمي. لن أسجله. ولكن مساعدتي لك تعتمد على صراحتك معي. وفي الوقت ذاته، سيكون من مصلحتي ألا أعرف كل شيء. وأتمنى أن تتفهم ذلك.

- حسنًا.

في تلك اللحظة، ظهر رأس مساعدتي عند الباب. نظرت إليَّ في تساؤل، وهي تشير بكتفها إلى المرضى. ولكنني طلبت منها أن تنصرف من دون أن أنطق بكلمة. فهمت حركة شفتيَّ على الفور. وانصرفت.

ظننت أن "هرتزل" سيبدأ كلامه مجددًا – جميل – ولكنه لم يفعل. ربما نسي.

- إن أخذ عيِّنة من نسيج مريض أمر لا يندرج ضمن مهام الطبيب العام يا "مارك". هذه من البديهيات، وخاصة عند الشك في إصابة المريض بمرض خطير. ومن الناحية الفنية، فإن هذا يتجاوز الخطأ الطبي ويكاد يعتبر ضربًا

من الجنون. يمكن للطبيب العام أن يخلص المريض من بثرة أو دمل. أو من ورم شحمي. ولكن ما إن يجد الحالة التي أمامه تحمل شبهة خطورة، ونحن هنا أمام ممرض مميت، فإنه يتحاشى كل ذلك، وإلا أدى الأمر إلى تسارع تدهور الحالة. ألست معي في ذلك؟

- معك.

- ثم، تلك العينة لم تصل أبدًا إلى المستشفى. من الممكن طبعًا أن تكون قد فُقدت. ولكن من الممكن أيضًا أن تكون قد نسيت أن ترسلها. انتبه يا "مارك". إما بنعم أو بلا. هل نسيت أن ترسلها؟

- أجل.

سمعت البروفيسور يتنهد في ارتياح. تنهيدة عميقة. ثم سمعت صوت صفحات ورقية.

- سعيد لصراحتك معي يا "مارك". والآن لنتحدث عن مريضك. المتوفى.. "رالف ماير". وهو ممثل. لم يسبق لي أن سمعت به، ولكن ليس لذلك أي صلة هنا. هو خطئي أنا. فأنا لا أهوى إلا القراءة والموسيقى. هل هناك سبب دفعك إلى أن تنوي التخلُّص من هذا المريض بالذات؟ ولست أقصد هنا أنك كنت تود أن يذهب إلى طبيب آخر. كلا، قصدي هو التخلُّص منه بالمعنى الحرفي للكلمة. أن يختفي من على وجه الأرض. وهو ما تحقق بالفعل، فهو الآن من سكان القبور. أفكرت في ذلك بالفعل يا "مارك"؟

- أجل.

- حدث بينك وبينه موقف ما جعلك تؤمن بأن "رالف ماير" لا يستحق أن يعيش. هذا ممكن. جميعنا تراوده مثل هذه الأفكار تجاه أشخاص بعينهم أحيانًا. فجميعنا بشر. وأفترض أن لديك أسبابك. ولكن ما سوف أسألك عنه الآن لا يتصل في الحقيقة بهذه القضية أو بطريقة تتناولها المجلس في الغد. هذا

سؤال شخصي بحت. ولك كل الحق في ألا تجيب عنه. أنا لم أبحث في تفاصيل حياتك الشخصية. ولم أعرف إلا أنك متزوج ولديك بنتين. وسؤالي بسيط للغاية: هل لوفاة "رالف ماير" علاقة بعائلتك يا "مارك"؟

- أجل.

قلتها بعد ثوانٍ من التردد، ولكن "آرون هرتزل" حدس تردُّدي.

- أنبهك مرة أخرى.. ليس عليك أن تجبني. وأنا لن أسجل هذا رسميًا. الأمر له صلة بالعائلة. له صلة بزوجتك؟

ترددت من جديد. رغبت في أن أنهي المكالمة في تلك اللحظة، ولكنني أرغب في الوقت ذاته في أن أستمر في لعبة نعم / لا. وكأنني أتمنى أن أُعرِّف أستاذي السابق الحكاية كلها.

- لا. أقصد في البداية، ولكن.. لا.

- لا أريد أن أبدو مدقِقًا بشكل مبالغ فيه يا "مارك"، ولكنني استبعدت هذا الاحتمال من قبل. خمّنت أن لفعلتك صلة بابنتيك. كم عمرهما؟ آه، أتذكر أن واحدة عمرها أربعة عشر عامًا، والأخرى في الثانية عشرة من عمرها. صحيح؟

- نعم.

قاومت رغبة في أن أبوح له بكل شيء، ولكن لا ضرورة لذلك. يبدو أنه يعرف.

- "مارك". أدرك أنك ترغب الآن في أن تحكي لي تفاصيل أكثر مما هو في مصلحتك. وفي مصلحتنا. ولكن الأفضل أن نقتصر هنا على الحقائق. لذلك سوف أسألك ثانيةً، وأجب بنعم أو لا. لقد وصل إليّ ذات مرة ملف وجدت أن لا صلة كبيرة له بأعمال المجلس الطبي. قضية رجل بالغ أقام علاقة مع بنت في الثانية عشرة. وزعم أنها كانت معجبة بتلك العلاقة. وهو أمر يزعمه أمثاله دائمًا. ولكننا أهل الطب نعرف أكثر. هذا مرض. ومثل ذلك المريض يستحق أن

نستأصله من جذوره. هذا أقل ما ينبغي لنا القيام به. أكانت دوافعك قائمة على هذا الأساس يا "مارك"؟ نعم أو لا.

- أجل.

- أنت إذًا قمت بما ينبغي القيام به. قمت بواجبك كأب.

- أجل.

أجبته بكلمة واحدة، رغم أنه لم يسألني.

- المشكلة هي أنه ليس بمقدورك التحدث بذلك أمام المجلس. إنهم لا يهتمون لأمر أب ذي فطرة سليمة. وبوسعي أن أوجه المسألة لتكون مسألة إهمال. ولكن العقاب لن يقتصر على الإيقاف لبضعة أشهر يا "مارك". الأقرب أنهم سيسحبون منك رخصتك. وربما ما هو أسوأ. أقصد أن يقوموا بإحالة أمرك إلى القضاء. وليس ذلك في صالح عائلتك. وبالأخص ابنتك.

- ماذا تقترح عليَّ إذًا؟

تنهد البروفيسور "آرون هرتزل" بعمق، قبل أن يقول:

- أول شيء هو ألا تذهب إلى المجلس في الغد. هذا كفيل بتدهور موقفك السيئ. أنصحك بأن تختفي تمامًا. حرفيًا. غادر البلاد. ولو كنت مكانك، لغادرت اليوم قبل الغد. ناقش الأمر مع عائلتك. ثم سافر. بداية جديدة في بلد آخر. ولو أردت شهادات خبرة في أي وقت، اتصل بي. بوسعي أن أساعدك. ولكن هذا هو الحل الوحيد في نظري.

أغلقت الخط، وجلست شاردًا، أحاول أن أصفي عقلي. بوسعي أن أطلب من مساعدتي صرف المرضى. أحتاج إلى وقت للتفكير. ولكن بوسعي أيضًا أن أفكر بسهولة أكبر وأنا أفحص المرضى. بل يكون التفكير في تلك الحالة أسهل كثيرًا. أحيانًا.

ضغطت زِرَّ "الإنتركم":

- "إليزابيث".. أدخلي أول مريض. أنا جاهز.

عليَّ أن أتصرف بشكل طبيعي. لا بد أن يبدو كل شيء طبيعيًا. رمقت الساعة على الحائط. العاشرة وعشر دقائق. أمامي وقت طويل.

ولكن، بينما كان المريض الأول يهم بالجلوس أمامي، سمعت صخبًا عند مدخل العيادة. ومساعدتي تصيح:

- دكتور! دكتور!

صوت كرسي يرتطم بالأرض بكل قوة، ثم سمعت صوتها. كانت "جوديث ماير".. تصرخ:

- أين أنت أيها الحثالة؟ خائف من مواجهتي؟

51

قلّبت في صفحات الملف.

تظاهرت بأنني أبحث عن معلومة بعينها. لم يكن ملف "رالف ماير". كان ملف مريض آخر، تناولته من فوق الرف عشوائيًا، حجمه متوسط. ثم إنني لم أخصص في الأصل ملفًا لـ"رالف ماير".

- ها نحن ذا. زارني "رالف" في أكتوبر العام الماضي. لم يكن يرغب في أن تعرفي أي شيء في تلك المرحلة. كان يخشى أن تشعري بالحزن من دون داعٍ.

رمقتها. أشاحت عينيها عن وجهي في ذات اللحظة. كانت متوترة، وأصابعها تتحرك بعصبية فوق مسند الكرسي.

- في البداية لم أشك في وجود شيء. ففي أغلب الحالات لا يكون هناك مرض خطير. أخبرني أنه متعب. ولكن الشعور بالتعب عرض لكثير من الأمراض. خاصة وأنه يجهد نفسه في العمل. كما كان طبعه دومًا.

- "مارك"، وفر عليك كل ما تقوله. لقد تجاوزنا تلك المرحلة بالفعل. وقد عرفني الدكتور "ماسلاند" بكل التفاصيل. وما كان لك أن تأخذ تلك العيِّنة. تحت أي ظرف. وما لا يعرفه المجلس الطبي هو أنك كتبت له روشتة أدت إلى زيادة الأعراض وبالتالي تفشّى المرض. لم أكن أعرف في البداية أنه يتناول تلك

الأقراص. فلقد عثرت عليها بالصدفة، داخل جيب في حقيبته. وعندئذٍ صارحني بكل شيء. وعرفني أنك من كتبتها له.

- "جوديث"، لقد كان متعبًا. منهكًا. بعد شهرين من التصوير المستمر. وأخبرته أن ليس عليه أن يطلب من جسده القيام بما يعجز عنه.

وجدتني رابط الجأش. هادئ. بل إن حقيقة أنني استخدمت ذلك التعبير البليغ - ليس عليه أن يطلب من جسده القيام بما يعجز عنه – الذي لا يمكن أن أفكر فيه في ظروف عادية تثبت أنني كنت في قمة الصفاء العقلي. رمقت الساعة على الحائط. مرت ربع ساعة بالفعل. سمعت أصواتًا تأتي من غرفة الانتظار، ثم سمعت صوت باب العيادة ينغلق بقوة. وهدأ كل شيء. فلقد غادر جميع المرضى. غاضبين.

- لماذا الآن يا "جوديث"؟ لماذا أتيتِ إلى هنا ووصفتني بالقاتل أمام مرضاي وأمام مساعدتي؟ قلت لنفسي، خلال الجنازة يوم الجمعة الماضي، أنكِ ربما كنتِ مرتبكة بسبب الهراء الذي ملأ به "ماسلاند" عقلكِ. ولكن يبدو لي أنكِ مقتنعة بكلامه. علاوة على أنني لم أجد عليكِ علامات الحزن والأسى لرحيل "رالف" خلال الأشهر الأخيرة. أنا لم أسمعكِ تشتكين لي على الأقل، في كل مرة كنت أزوركِ فيها.

عندئذ، بدأت "جوديث" تبكي. فتنهدت بصبر فارغ. لا وقت لديَّ لكل ذلك. أرغب في الصعود إلى منزلي؛ حتى أخبر "كارولين" بما يتوجب علينا القيام به. إجازة الخريف ستبدأ في غضون أيام، وعندئذٍ نسافر جميعنا إلى لوس أنجلوس. أريد أن أتحدث مع "كارولين"، ونبحث في إمكانية أن نسافر مبكرًا بضعة أيام – من دون أن أحكي لها عن مكالمتي مع "آرون هرتزل"، طبعًا.

- أنت من طلب ألا نلتقي يا "مارك". أخبرتني أن من الضروري ألا نلتقي بعد الآن. تلك كانت كلماتك تحديدًا. وقلت إن أحداثًا كثيرة وقعت، بما لا يمكن

معه أن نظهر معًا أمام الناس. وأنا لم أصدق أذنيَّ! كيف تكون بكل هذا البرود؟ كل ذلك ولم يكن قد مر على وفاة "رالف" سوى نصف ساعة!

حدقت في وجهها بكل هدوء. هل أسمع شيئًا؟ لطالما كنت أتفاخر بقدرتي على تشخيص حالة المريض أمامي في غضون دقيقة، ولكنني كنت وبكل صراحة لا أعتقد في إمكانية ذلك أبدًا. نظرت إلى وجهها. بخلاف الدموع الغزيرة، وجدتني أمام وجه لا يعرف سوى السخط وعدم الرضا عن أي شيء. هي مولودة هكذا. وهذا هو طبعها. لن يتغير. لن تغيره ماكينة إسبرسو غالية الثمن، ولا الاهتمام الشخصي، ولا تخصيص جناح فاخر لها.. ربما تختفي تلك العلامات لبرهة من الوقت، ولكنها سرعان ما تتسلل إلى السطح من جديد، حتى لو غطيتها بأكثر من قناع، فهي قادرة على التغلغل عبر ثغراته.

ليس بوسعك علاج هذا. ربما نجحت في تثبيطه بالأدوية، ولكن النتيجة هي أنها تعود أقوى مما كانت. وحده الحقن. هو القادر على تبديد سمات عدم الرضا عن وجه "جوديث". حقنة واحدة مميتة.

تذكرت رد فعلها ونحن عند الشاطئ، عندما فجَّر "رالف" ذاك الطبق النحاسي بصاروخه في الهواء. وشكواها من الصخب العالي عمومًا. ومناقرتها له بسبب مبلغ التأمين الذي قد لا ترده وكالة التأجير لهما. ثم تذكرت ما أخبرتني "كارولين" به. لما رأت "ستانلي" مع "جوديث" عند البسين. كان يلعق جسدها.. كله. كله.

أدركت ما يتوجَّب عليَّ فعله. نهضت عن الكرسي، وابتعدت عن المكتب. وضعت يديَّ على كتفيَّ "جوديث". ثم اقترب وجهي من وجهها، حتى لامسه. توقعت أن أجده ساخنًا. وجهًا مبللًا، ولكنه ساخن، لكن دموعها باردة.

- حبيبتي.. "جوديث".

52

أجلس مع "جوليا" عند البسين.

أخذت "كارولين" "ليزا" وذهبتا إلى "سانتا باربارا" للتسوق. بينما كان لدى "ستانلي" اجتماع مشروع جديد في هوليوود. وكانت "إيمانويل" نائمة في غرفتها بالطابق العلوي.

كانت "جوليا" مستلقية على بطنها فوق مرتبة هوائية، في ظل نخلة. بينما جلست إلى كرسي خفيف، أتصفح المجلات التي أحضرتها من داخل المنزل. أحدث أعداد مجلات "فوج" و"فانيتي فير" و"أوشن درايف". تسمع على البعد صوت المحيط، تمامًا كما وصف "ستانلي". وكذلك صافرة قطار يمر بين الحين والآخر. وذلك صوت مختلف عن ذاك الذي كنا نسمعه منذ عام، ونحن في الفندق في "ويليامز"، ربما الاختلاف في أذني فحسب.

رمقت "جوليا". ربما هي نائمة. وربما لا. الآيبود بجوار الوسادة، والسماعة ليست في أذنها. إنه الخريف الآن في هولندا. أما هنا فيجب أن تجلس في الظل بسبب حرارة الشمس. كنت أتوقع مكالمة من المجلس الطبي، تتساءل عن سبب غيابي عن جلسة يوم الثلاثاء. ولكن لم يتصل بي أحد. ولم أعرف أي جديد خلال الأيام القليلة التالية. فبادرت يوم الجمعة بالاتصال وتحدثت مع سكرتيرة، أخبرتني أنهم قرروا تعليق جميع القضايا المنظورة حتى انتهاء إجازة الخريف. وطلبت مني أن أكرر لها اسمي.

- دكتور "شلوسر".

- آه، بالفعل. اسمك مميز بسهم أحمر على شاشة الكمبيوتر. وهو ما يعني أن لقضيتك الأولوية. ولكن القرار لن يصدر إلا في الأسبوع الذي يعقب انتهاء الإجازة. وسوف يتم تبليغك به بحلول نهاية الأسبوع، على الأقل.

بدأت إجازة الخريف في اليوم التالي، وطرنا جميعًا إلى لوس أنجلوس. عرض عليَّ "ستانلي" أن ينتظرنا في المطار، ولكنني أخبرته أنه لا داعٍ إلى ذلك. ولم نستغرق إلا أقل من ساعتين، قبل أن نصل بالسيارة التي استأجرناها عبر الطريق السريع رقم واحد إلى منطقة "سانتا باربارا".

لم نفعل أي شيء يذكر خلال الأيام الأولى. نجلس فقط حول البسين، قبل أن نذهب لنتسوق. ونتجول في الشوارع، قبل أن نذهب لتناول الإستاكوزا عند البحر. قال لي "ستانلي" في اليوم الثالث لنا:

- لديَّ نظرية. فكرت فيها لفترة طويلة. ولكنها مجرد نظرية.

كنا في مطعم سمك عند الشاطئ. غربت الشمس للتو. وذهبت "كارولين" و"إيمانويل" و"جوليا" و"ليزا" للتجول بطول الممشى. تناول "ستانلي" زجاجة النبيذ الأبيض من وسط الثلج، وأعاد ملء كأسينا.

- في تلك الحفلة. في العام الماضي. كنا عند الشاطئ مع تلك الفتيات. عندما حاول "رالف" ضرب النرويجية. بعدها غبنا عن بعضنا البعض عدة ساعات. وفي ذلك الوقت، تعرضت ابنتك.. أوه.. ما حدث قد حدث. فكر في ذلك، واحسبها. لقد أصيب "رالف" بالمرض بعد انتهاء إجازة الصيف مباشرة. مرضه الذي مات به بعد عام. وأنا لست بطبيب. وربما كان التفسير لديك.

لم أعلق على كلامه. ابتسمت وتناولت رشفة من كأسي.

- سأخبرك بأمر آخر يا "مارك". في العام الماضي، وربما تتذكر، كنا نقوم بتصوير مسلسل "أغسطس". ومنحت "إيمانويل" دورًا صغيرًا. واحدة من

بنات الإمبراطور غير الشرعيات. وذات يوم، جاءت "إيمانويل" وطلبت عدم الاستمرار في المسلسل. قالت إنها لم تعد تطيق أجواء التصوير، وتصرفات "رالف" معها. نظراته لها. داخل "اللوكيشن" وخارجه. هكذا ذهبت إلى "رالف" لأتحدث معه. وحذرته من الاستمرار فيما يقوم به. تصرف وكأننا نمزح، وكأن "إيمانويل" تبالغ، ولكنه لم يعد يقترب منها. ووعدت "إيمانويل" أنها لن تراه مجددًا ما إن ينتهي تصوير المسلسل.

قاومت رغبة كبيرة في أن أحكي لـ"ستانلي"، ليس كل شيء، ولكن جوانب من الحكاية على الأقل. كنت قد شربت زجاجة النبيذ الأبيض تقريبًا. يمكنني أن أحكي له حكاية لطيفة. أو أختلق أخرى. استمر "ستانلي" في كلامه:

- كان "رالف" يعاني من خلل في عقله. بالذات عند تعامله مع النساء. وكلانا شاهد على ذلك. حتى إنني لم أحزن كثيرًا لرحيله. ولكن الفضول ينتابني تجاه هذه النقطة. من وجهة نظر فنية بحتة. فأنا أجد غرابة شديدة في أن يكون قد ذهب إلى حيث "جوليا".. فلم يكن قادرًا على المشي على نحو سليم بعد أن ركلته في ركبته، أتذكر؟ لكن ليس هذا هو المهم. المهم هنا هو أنك اعتقدت أنه الفاعل. وهكذا قررت أن تتصرف. ربما في تلك الليلة نفسها..

"اقتربت، ولكنك لا تزال بعيدًا". هكذا قلت لنفسي. ولكنني قلت له:

- ها أنت تصنع قصتك.

ظل "ستانلي" يحدق في وجهي. قبل أن تضطرب عيناه. وأخذ يضحك، قبل أن يقول:

- ممتاز يا "مارك"! بالفعل، ممتاز. لا تقل لي أي شيء. أنت أجبت عن سؤالي بما فيه الكفاية. وأكثر.

في تلك الظهيرة، كنا نطالع الصور التي التقطها "ستانلي" في العام الماضي، خلال الإجازة في المنزل الصيفي. كنت قد سألته بنبرة طبيعية ولا مبالاة واضحة عما إذا كانت لديه صور أخرى خلاف تلك التي نشرها على موقعه.

جلسنا حول مكتب "ستانلي"، وأسدل الستائر حتى يعتم الغرفة، بينما كان يعرض الصور على الشاشة.

كانت "كارولين" تجلس مع "إيمانويل" في الخارج، عند البسين. بينما "ليزا" و"جوليا" تقفان عن يمين "ستانلي"، قرب المكتب. وأنا أجلس إلى كرسي عالٍ إلى يساره.

الحقيقة أنه لم تكن هناك الكثير من الصور الجديدة. رمقت "جوليا" بطرف عيني عندما ظهرت صور السباك. كانت هناك صورة واحدة جديدة: "جوليا" والسباك، يقفان قبالة بعضهما، بينما تمد "جوليا" ذراعها، وراحتها لأسفل، بينما يظهر الفارق في الطول بينهما. كانا يضحكان.

كنت أتحين لحظة أن تنظر "جوليا" بعيدًا عن الصورة. إليَّ. كنت قد قررت منذ أسابيع مضت أن أنتظر اللحظة المناسبة. ولكن شكوكي تجاه تلك اللحظة تنامت مع مرور الأيام.

لو كانت قد نظرت إليَّ لحظتها، لكان كل منا أدرك ما يفكر فيه الآخر. وكان هذا ليكفيني.

ولكنها لم تنظر. اكتفت بضحكة خفيفة، وهي تطلب من "ستانلي" الانتقال إلى الصورة التالية. ولكن "ليزا" صاحت فجأة:

- انظروا.. الحمار!

نظرنا جميعًا نحوها.

- الحمار الذي كان في المخيم... الحمار الصغير المسكين! بابا!

اقتربت من الشاشة. بالفعل، هناك حمار يطل برأسه عبر السور الخشبي.
ضحك "ستانلي"، وهو يقول:

- أتعرفين هذا الحمار يا "ليزا"؟ ربما رأيتِه في حديقة الحيوان. هناك التقطت صورًا. لديهم حديقة حيوان صغيرة هناك، ليس فيها سوى حيوانات عادية. لما ذهبت إلى هناك، كنتم قد رحلتم عن المنزل الصيفي منذ أيام.. مهلًا، ما الذي أقوله؟ أنتم تعرفونه بالطبع! فلقد ذهبتم إلى تلك الحديقة بالطائر الصغير. أنتِ وأباكِ.

قالت "ليزا":

- لكن الحمار لم يكن هناك وقتها.

وسارعت أقول:

- كيف تكونين متأكدة من أنه الحمار نفسه؟

- أستطيع ذلك. كما أنه كانت هناك لاما. هل صورت اللاما أيضًا يا "ستانلي"؟

عاد "ستانلي" بظهره في الكرسي، وهو يحيط ابنتي الصغيرة بذراعه.

- أنا لم أصور لاما هناك. ولكنني أصدقكِ تمامًا. أعتقد أنه كان في الحديقة حيوان لاما.

- هاي بابا، هل ستأتي؟

كنت مغمض العينين، ولكنني فتحتهما الآن. "جوليا" واقفة على قدم واحدة فوق لوح القفز عند البسين. الشمس قوية في قلب السماء، لذلك لم أرَ وجهها بوضوح.

- أوكيه.

انتهى "ستانلي" من التقاط مجموعة صور لها. في الحديقة. وعند الشاطئ. وفي الغد هناك جلسة تصوير رسمية، حيث توجد مساعدة ملابس واختصاصية مكياج. أخبرني "ستانلي" ألا شيء أكيدًا بعد، ولكن هناك فرصة كبيرة لها. ذكر

اسم مجموعة من مجلات السينما والموضة. كما أنه التقط مجموعة صور لـ"ليزا" أيضًا. وسألها:

- كم عمركِ الآن؟ اثنا عشر؟ عظيم. ربما عليكِ الانتظار قليلًا، ولكن من يدري، ربما هناك مجلات تريدك. تبحث عنكِ أنتِ تحديدًا.

لم أعد أفكر في السباك بعد الآن، وخاصة منذ وصولي إلى أمريكا. ربما خطر في بالي كأي كائن حي. يتنفس مثل الأميبا. ليس سوى قلب ينبض. ونظرت إلى "جوليا"، التي صارت عند منتصف لوح القفز الآن. حاولت أن أفكر فيه مجددًا. ونجحت هذه المرة. وكنت أبتسم لابنتي.

- بابا.. تعالَ.

هممت بالنهوض، ولكنني ألقيت نفسي ثانية فوق الكرسي. كنت أنتظر إلى أن تصل إلى طرف اللوح.

التفتت نحوي. لقد مرت اللحظة المناسبة. فاتتني إلى الأبد. هكذا أيقنت. أضحت من الماضي. أما ابنتي الواقفة فوق البسين فهي المستقبل.

تبادلنا النظرات. في البداية رأيتها فتاة صغيرة. ثم أغمضت عينيَّ، وفتحتها، فتحولت أمامي إلى امرأة. امرأة تقفز برشاقة.. نحو الماء.

مكتبة

telegram @ktabpdf

تابعونا على فيسبوك جديد الكتب والروايات

#كتب_مختلفة #هولندا

مكتبة ٣٣٤

"هذا الكتاب سيغير نظرتك للطبيب في زيارتك القادمة"

دكتور "مارك شلوسر" و"رالف ماير" الممثل المشهور يقرران قضاء الإجازة بصحبة أسرتهما في المنزل الصيفي لـ"رالف ماير". ولكن "مارك شلوسر" يتسبب بعدها في خطأ طبي لـ"رالف ماير"، فيضطر إلى إخفاء الخطأ عنه وعن أسرته، مما يؤدي إلى وفاته. ذلك لأن في كل الأحوال، تعد سمعته هي كل شيء في مجال عمله. ولكنه يظل يعاني من تحمل مثل هذا السر بشكل كبير في ذهنه، ولا يمكنه الاختباء من الحقيقة.. أو لجنة الممتحنين الطبية. فماذا سيفعل، وهل هذا الخطأ الطبي متعمد؟

هيرمان كوخ

وُلِد "هيرمان كوخ" في الخامس من سبتمبر عام ١٩٥٣، وهو كاتبٌ هولندي وممثل كوميدي. يكتب القصص القصيرة، والروايات، والأعمدة الصحفية. ويمثِّل أيضًا في الراديو، والتليفزيون، والسينما. له مجموعة قصصية بعنوان "المارّة"، نُشِرت عام ١٩٨٥. ونُشِرتْ أول رواية له عام ١٩٨٩، وكانت بعنوان "أنقذينا يا ماريا مونتانيللي". وأمَّا عن روايته "العشاء"، التي نُشِرت عام ٢٠٠٩، فقد كانت أول رواية هولندية تصل إلى قائمة الأكثر مبيعًا لجريدة النيويورك تايمز الأمريكية، لتظل بها عدة أسابيع متتالية، كما فازت في العام نفسه بجائزة NS Audience award. تُرجِمتِ الرواية إلى أكثر من أربع وثلاثين لغة. وتم تحويلها إلى مسرحية تم تمثيلها على المسارح الهولندية عام ٢٠١٢، وتحولت الرواية إلى فيلم هولندي عام ٢٠١٣، وآخر إيطالي عام ٢٠١٤، والتقطتها هوليوود وتحولت إلى فيلم أمريكي من بطولة الممثل الشهير "ريتشارد جير"، و"لورا ليني"، و"ستيف كوجان". ومن رواياته الأخرى: "الحفرة" و"عزيزي مستر إم". ورشحت رواية "المنزل الصيفي" لجائزة "الجولدن بوك أول".

ISBN 978-977-319-335-5

9 789773 193355

العربي للنشر والتوزيع

60 شارع القصر العيني 11451 - القاهرة
ت: 27954529 - 27921943 فاكس: 27947566
www.alarabipublishing.com.eg

WWW.alarabipublishing.com.eg

تصميم الغلاف : خالد شريف